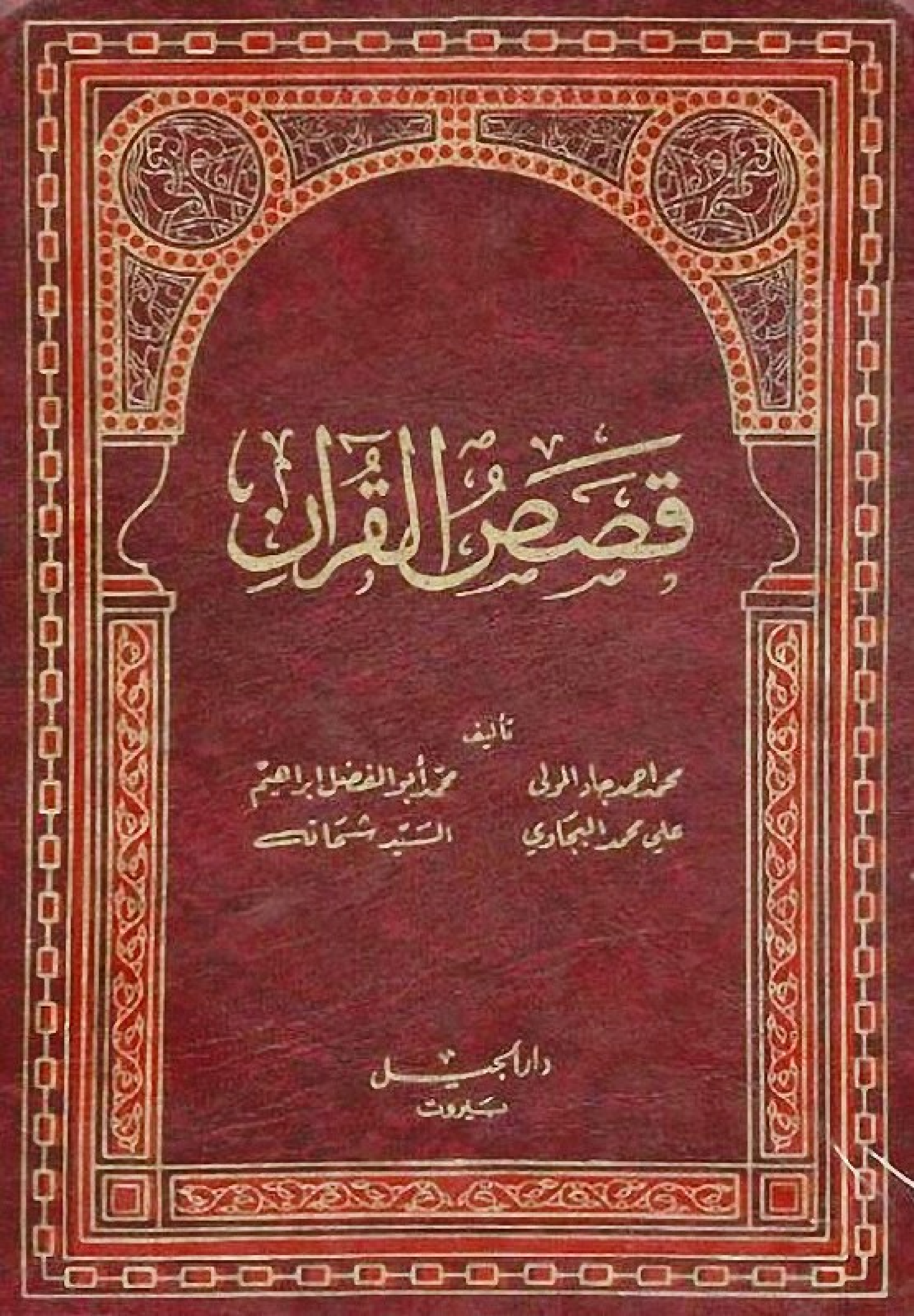

قصص القرآن
تأليف
محمد أحمد جاد المولى
محمد أبو الفضل إبراهيم
علي محمد البجاوي
السيد شحاتة
دار الجيل
بيروت



تأليف

محمد أحمد جاد المولى — محمد أبو الفضل إبراهيم

علي محمد البجاوي — السيد شحاتة

دار الجيل

بيروت

مقدمة

امتازَ قصَصُ القرآن الكريم بسمو غاياته، وشرّيف مقاصده، وعلو مراميه: اشتمل على فصول في الأخلاق مما يهذب النفوس، ويجمّل الطباع، وينشر الحكمة والآداب، وطرق في التربية والتهذيب شتى، تساق أحياناً مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار، كما حوى كثيراً من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب وحكامهم، وشرح أخبار قوم هُدوا فمكّن الله لهم في الأرض، وأقوام ضلوا، فساءت حالهم، وخربت ديارهم، ووقع عليهم العذاب والنكال، يضرب بسيرهم المثل، ويدعو الناس إلى العظمة والتدبر.

كل هذا قصّه الله في قول بيّن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب، ليدلّ الناس على الخلق الكريم ويدعوَهم الى الإيمان الصحيح، ويرشدهم الى العلم النافع، بأحسن بيان، وأقوم سبيل، وليكون مثلَهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم، ونبراسهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد.

ولكنه — على كريم مقاصده، وتنوّع مذاهبه، وافتنان طرقه — قد وجد من أبناء هذا العصر من يهجره الى غيره ويتركه الى سواه، مما وضعه الناس من قصص فيها الحق والباطل، وفيها الصحيح والزائف... هذا على الرغم من أن القرآن الكريم يعمّر المدارس والمساجد، والمنازل والمجالس، ولا يجد منهم من كان له قلب أو ألقى السمعَ وهو شهيد.

ولعل هذا لم يصدر منهم عن سوء نية ، أو قصد العزوف عن الإفادة من كتاب الله القويم ، ولكن قد يقع كثيراً أن يخفى عليهم في القصة معنى ، أو يغمَّ عليهم لفظ ، أو يعوزهم التأويل ، فلا يجدوا ضالتهم فيما بين أيديهم من كتب التفسير ، سهلة المنال ، ميسورة الجنى ، لأن بعض المفسرين جعلوا همَّهم بيان المذاهب النحوية ، والنكات البلاغية في محكَم الآيات ، وبعضَهم عُني بالأحكام واستنباطها ، وآخرين وقفوا جهدهم على الشؤون الكونية ، والمناحي الفلسفية والتدليل عليها ، الى غير ذلك من وجوه البحث والشرح للقرآن

نعم ، إن هناك بعضاً من المفسرين نهجوا في تأويل القصة تأويلاً صالحاً ، وسلكوا مسلكاً مقبولاً ؛ ولكن هذا لا يخرج عن نتف متفرقة ، وآراء مبعثرة لا تسد حاجة قارىء لا صبر له على تشعّب الآراء ، ولا جَلَد عنده على مراجعة كتب القدماء .

ولـمّا رأيناه من إقبال الناس على قراءة القصص ولما شاهدناه من انصرافهم عن قصص القرآن ــ على ما فيه من شريف المقاصد والأغراض ــ وضعنا هذا الكتاب قصصاً شتى في ضوء القرآن وهديه ، وعلى طريقته الحكيمة ، من الاقتصار على بسط موضع العبرة ، إلا أن يكون موضعاً يحتاج الى بيان ، أو إشارة يعوز فيها القارىء التوضيح ، وجلوناه في ثوب أدبي ، وأسلوب سائغ ، ولم نخرج فيما كتبناه عن آراء انتخلناها من كتب التفسير المشهورة ، وأخبار رويناها عن ثقات المؤرخين .

وغرضنا من هذا أن نحبب الى الناشئين والناشئات أسلوب الموعظة القصصية في القرآن ، وأن نحملهم على الاستفادة من هديه وقويم نهجه .

والله نسأل أن يرزقه من قبول الناس وانتفاعهم به ما قصدنا به ؛ وما أملنا منه إلا ابتغاء وجه الله .

المؤلف

آدم[1]

خلق الله الأرضَ في يومين، وجعل فيها رواسِيَ من فوقها، وبارك فيها، وقدّرَ فيها أقْواتها[2] في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى الى السماء وهي دُخان، فقال لها وللأرض: ائتِيا طَوعاً أو كرهاً، قالتا: أتيْنا طائعين.

ثم استوى على العرش، وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمًّى، ثم خلق ملائكته الذين يسبّحون بحمده، ويقدّسون اسمه، ويخلصون في عبادته.

ثم شاءت إرادته، واقتضت حكمته، أن يَخلق آدم وذرّيته، ليسكنوا الأرض ويعمروها؛ فأنبأ ملائكته أنه سينشىء خلقاً آخر، يسعوْن في الأرض، ويمشون في مناكبها، وينتشر نسلهم في أرجائها، فيأكلون من نَبتها، ويستخرجون الخيراتِ من باطنها، ويخلُف بعضهم بعضاً فيها.

والملائكةُ خَلقٌ اصطفاهم لعبادته، وأسبغ عليهم نعمته، وحبَاهم بفضله، ووفّقهم الى رضاه، وهداهم الى طاعته، فآدَهم[3] أن يخلقَ الله خَلقاً غيرهم، وخافوا أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم، أو لمخالفة كانت من أحدهم، فأسرعوا الى تبرئة أنفسهم، وقالوا: كيف تخلق غيرَنا، ونحن دائبون على التسبيح بحمدك، وتقديس اسمِك! على أن هؤلاء الذين تستخلِفهم[4] في الأرض لا بدّ أن يختلفوا على ما فيها من منافع،

---

(١) البقرة ٢٩-٣٨، الأعراف ١٠-٢٣، طه ١١٤-١٢٥، الإسراء ٦٠-٦٤، الحجر ٢٧-٤٣، ص ٧١-٨٥. فصلت ٩-١٢، الرعد ٢.

(٢) أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم.

(٣) آدهم: ساءهم.

(٤) استخلفه: جعله خليفة.

ويتجاذبوا ما بها من خيرات، فيُفسدوا فيها، ويسفكوا الدماء غزيرة، ويُزهقوا الأرواح طاهرة بريئة، (أتجعلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فِيها وَيَسفِكُ الدماءَ، ونَحنُ نسبّح بحمدِكَ وَنُقدِّسُ لكَ) ؟ قالوا ذلك رغبة فيما يزيل شبهتهم، ويَنزع الوساوس من صدورهم. وامتدّ رجاؤهم الى الله أن يستخلفهم في الأرض، لأنهم أسبق الى رعاية نعمته، وأولى بمعرفة حقه: ولم يكن سؤالهم ذلك إنكاراً لِفعله، ولا شكاً في حكمته، ولا تَنقُّصاً لخليفته أو ذرّيته، لأنهم أولياؤه المقرَّبون، وعبادُه المكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

أجابهم الله بما اطمأنت له قلوبهم، وثلِجت به صدورهم، فقال: (إني أعلمُ مَا لا تعْلَمُون)، وأعرِف من حكمة استخلافه ما لا تدركون، فسأخلق ما أشاء، وأستخلف مِنْ أريد، وسترون بعدُ ما خفي عليكم واستتر عَنكم، (فاذا سَوّيْته وَنَفختُ فيه من رُوحي، فقعُوا له سَاجِدِين).

سوّى الله آدم من صَلصال من حَمأٍ مسنون[1]، ثم نفخ فيه مِن روحه، فسرَت فيه نَسمَة الحياة، وصار بشراً سَويّاً.

ثم أمر الله الملائكةَ أن يسجدوا لآدَمَ، فاستجابوا لربهم خاضعين، وأقبلوا على آدم معظّمين، وعفَّروا جباهَهم له ساجدين، إلا إبليس: فقد خالف أمْرَ ربه، وانحاز الى معصيته، وأبى واستكبر، وكان من الكافرين.

سأل الله إبليسَ عن سبب امتناعه، واستنبأه حِكمة تَخلُّفه، فقال: (ما مَنعكَ أنْ تسجُدَ لِمَا خَلقتُ بيدَيّ أستكبرتَ أمْ كنتَ مِنَ العالِينَ) ؟

فزعم أنه خَيرٌ من آدم عنصراً، وأزكى منه جوهراً، وظن أنَّ لا أحدَ يُباريه في علوّ قدره، ولا يَستشرِف الى سموّ مكانته، وقال: أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخَلقته من طين[2].

---

(١) الحمأ: الطين الأسود: المسنون: المصور.

(٢) علو مقام المخلوق يأتي من طاعته للخالق وليس لأمر ذاتي فيه. فان عصى المخلوق حر ومن كل رتبة اياها ونسي الشيطان آية الخيرية لا تكون إلا بالامتثال.

جهر بالعصيان، وصَرّح عن المخالفة والبهتان، واستكبر عن أمر ربه، واستنكف ان يسجدَ لمن خلقه بيده، فصار من الكافرين.

فجازاه الله على عصيانه، وعاقبه على مخالفته، وناداه قائلاً له: (فاخْرج منها فانكَ رجيم[1] وإن عَليك اللعنة الى يوم الدين).

سأل إبليسُ ربّه أن يُنظِرَه[2] الى يوم الدين، وأن يمدّ له في الحياة حتى يوم يُبعثونَ، فأجاب الله سؤله، وقال له: (فانكَ مِنَ المنظرينَ الى يومِ الوقتِ المعلوم).

ولما استجيب سؤله، وتحققت رغبته، لم يشكر لله فضله، بل قابل نعمته بالكفران، وفضله بالجُحود والنكران، وقال: (فَبِما أغويتني لأقعدَنّ لهم صِراطَكَ المستقيم)، مترصداً لغوايتهم. جاهداً في إضلالهم، (ثمّ لآتينَّهم من بَينِ أيدِيهم وَمِن خلفهم وعَنْ أيمانِهم وعَن شمائِلِهم ولا تجدُ أكثرهم شاكِرينَ)

طرد الله إبليس من رحمته، ومدّ له في أمله، وقال له: امض لسبيلك الذي اخترتَه، وسِر في طريق الشر الذي أردته، (واستفزز مَن اسْتطعتَ مِنهم بصوتِكَ، وَأجْلِبْ عَليهم بخيْلِك ورَجْلك[3] وشاركهم في الأموال والأولاد) وعِدْهم المواعيد الكاذبة، ومَنِّهم الأماني البعيدة، فلن أخلي بينك وبين مَن صحّت عقيدته، وقويت عزيمته من عبادي المخلَصين، ولن أجعل لك عليهم سلطاناً، فقلوبُهم عنك منصرفة، وآذانهم لقولك غير مصغية.

أمّا ما اعتزمتَه من إغواء[4] الناس وفتنتهم، فحسابُك عليه عسير، وجزاؤك على اقترافه عظيم، لأملأنّ جهنم منك وممن تَبعك منهم أجمعين.

---

(١) الرجيم: الملعون، المبعد، المطرود.

(٢) أنظره: أمهله.

(٣) استفزه: استخفه. أجلب ع من الجلبة، وهي الصياح. الخيل: الخيالة. والرجل اسم جمع للراجل. وهو كلام ورد مورد التمثيل، فقد مثلت حالة في تسلطه على من يغويه بمغوار أغار على قوم فصرت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلي عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم.

(٤) اغواء: أي اضلال.

سجدوا لآدم[1] ، فاعترفوا بفضله ، وأقرّوا بأنه خيرٌ منهم مقاماً ، وأقرب منهم الى الله مكاناً ، ولعلّهم قد ظنوا انهم ربما كانوا أغزرَ منه علماً ، وأكثرَ منه درايةً وفهماً . لذلك آتاه الله من علمه ، وأفاض عليه من نوره ، وعلّمه أسماء الكائنات كلها ، ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة ، فقال : (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتمْ صَادِقِين) ، ليظهر عجزُهم ، ويستبين قصور علمهم ، ويعرفوا أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون آدم أولى بذلك وأجدر ، وأن خلافته أحق ألا تنكر .

بُهتوا[2] لما ووجهوا به : وسُقِط[3] في أيديهم حينما حاولوا البحث في طوايا نفوسهم ، وأرادوا الرجوع الى سابق علمهم ، فلم يجدوا الى الجواب سبيلاً ، فأقرّوا بعجزهم ، واعترفوا بقصور علمهم ، (قالوا سُبحَانَك[4] لا عِلمَ لنا إلا مَا عَلَّمتنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكِيمُ) .

ولما كان آدم قد اغترف من فيض ربه ، واقتبس من نور علمه ، أمره الله أن ينبئهم بما عجزوا عن معرفته ، ويخبرهم بما قصُرت مداركهم عن علمه ، بياناً لفضله ، وإظهاراً لحكمة استخلافه . فأخبرهم خليفة الله بما عجزوا عنه ، فناداهم ربهم ، (ألم أقل لكم إني أعلمُ غيب السمواتِ والأرض وأعلم ما تبدون ومَا كُنْتُم تَكتُمون)[5] .

حينئذ تبيّنوا فضله ، وأدركوا سر خلقه ، وظهرت لهم حكمةُ استخلافه .

أذاق الله إبليس بأسه ، وسلبه نعمته ، وأقبل على آدم فأسكنه وزوْجه جنّته ، وأوحى إليه أن اذكر نعمتي عليك ، فإني خلقتك ببديع فطرتي ، وسوّيتك بشراً على مشيئتي ، ونفخت فيك من رُوحي ، وأسجدت لك ملائكتي ، وأفضتُ عليك قبَساً من علمي ،

---

(١) سجدوا لآدم : سجود الملائكة كان تنفيذاً لأمر الله وليس سجود عبادة .

(٢) بهتوا : دهشوا .

(٣) سقط في أيديهم : حاروا .　　(٤) نقر لك بالعبودية .

(٥) جمع لربنا كل مكان فهو يرى ما ظهر وما بطن ، وجمع له كل زمان فهو يرى كل شيء جرى في الماضي أو يجري في المستقبل وكل ذلك يراه الآن حاضراً فالكلمات التي تعبر عن الأمكنة والأزمنة هي خاصته بالمخلوقات فقط .

وهذا إبليس قد أيأستُه من رحمتي ، ولعنتُه حين خرج عن طاعتي ، وها هي ذي دار الخلد جعلتُها لك منزلاً ومقاماً . فإن أطعت كافأتُك بالإحسان ، وخلّدتك في الجنان . وإن تركت عهدي أخرجتُك من داري وعذّبتك بناري . ثم لا تنس أن إبليس هذا عدوٌّ لك ولزوجك ، فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى .

أباح لهما أن يأكلا من الجنة رغداً حيث شاءا ، وأطلق لهما العِنان في اجتناء ما يريدان من ثمارها ، ونهاهما أن يَقْرَبا شجرةً من بين أشجارها الكثيرة .

وليُزيلَ كل إبهام في شأنها ، وشكٍّ في معرفتها ، أشار اليها ، تعييناً لها ، وإزالة لكل ريب قد يتسرب الى نفسيْهما ، وتوعّدهما بالدخول في زُمرة الظالمين إن قَرُبا منها ، أو تناولا شيئاً من ثمارها ، ووعدهما أن يَمُدّ لهما في أسباب النعيم إن اجتنبا الشجرة التي نهاهما عنها ، فلا يمسّها في الجنة جوعٌ ولا عُرْيٌ ، ولا ينالها ظمأ ولا نَصَب ، فقال : (اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الجنَّةَ ، فَكُلا مِنها رَغَداً حَيثُ شِئتُما ، وَلا تَقرَبا هذِهِ الشَّجَرةَ فَتكونا مِنَ الظالِمينَ) . (إنَّ لكَ ألاّ تجُوعَ فيها ولا تَعرَى وأنَّكَ لا تَظْمأ فيها ولا تَضْحى)[1] .

سكن آدمُ الجنة ، وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهي الأنفس ، وتَلَذُّ الأعين ، ولعله كان يتنقّل بين أشجارها ، ويتفيأ في ظلالها ، ويقتطف من أزهارها ، ويتفكّه بثمارها ، ويرتوي من عذب مياهها . وشاركته هذه المُتْعة زوجُه ، وعاشا كذلك مدّة يرشُفان من مناهل السعادة .

حزَّ ذلك في نفس إبليس ، وعزّ عليه أن يَنعم آدم وزوجُه ، وهو مطرود من رحمة الله ، مبعدٌ عن جنته . فصحّت نيتُه على أن يقوّض عرش سعادته ، ويسلبه نعمته ، أليس هو الذي أنزله من عَليائه ، وأبعده عن نعمة الله ورضائه ، واستبان بسببه جحودُه ونكرانه ! فليُقدِم على الثأر لنفسه ، وليحاولْ أن يتنقّص ذلك الذي أُمِرَ بالسجود له والاعتراف بفضله . فدَلف الى الجنة وحدّثه في سر وخفاء ، وأوهمه بأنه صادق الودّ ، مخلص في النصح ، ثم جَدّ في استمالته[2] إليه ، فلم يترك سبيلاً لذلك إلا ولجه ، أو باباً

---

(١) لا تضحى : لا يؤذيك حر الشمس .

(٢) استماله : جذبه وقربه .

إلا طرَقه . وأظهر له ولزوجه عطفَه عليها ، وإشفاقه من زوال نعمتها ، فقال : (مَا نها كما رَبُّكما عن هذِهِ الشَّجَرَةِ إلا أن تَكونا مَلَكينِ أو تكونا مِن الخالِدِينَ) .

ولما شام منها مجافاةً لرأيه ، وبُعْداً عن مشُورته ، ورأى أن آذانها صمّت عن سماع صوته والإصاخة الى نصيحته ، أقسم لها أنه من الناصحين ، لا يقصد الى ضررهما ، ولا يريد النكاية بها ، ليؤكدَ صحة قصده ، وصوابَ رأيه . ولا شك أنه أكثر وألح ، وتمادى في إغوائه وألحَف ، وحاول إغراءهما بطيب ريح تلك الشجرة ، وبديع طعمها ، وحسن لونها . فاغترّا بقوله ، وافتُتِنا بزُخرفِ لفظه ، ومعسولِ وعده ، وتابعا رأيه ، وزلاً باغوائه .

فلما خرجا عن أمر ربهما سلبها نعمته ، وحرَمها جنته ، وناداهما ربهما : (ألم أنهكَمَا عن تلكمَا الشجَرَةِ وأقل لكمَا إن الشيطان لكما عدُوٌّ مبين) .

أنابا الى الله ، وندما على فعلتها ، و(قالا رَبَّنا ظلَمْنا أنفُسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ مِن الخاسرين . قال اهبِطُوا بعضُكم لبعضٍ عدُوٌّ، ولكم في الأرض مُستقرٌ ومتاعٌ الى حين).

تاب الله عليها ، وغفر لها زلّتها ، فأثلج ذلك صدرَهما ، وقرَّتْ به عينها ، وانبثق الأمل في نفسيها بالبقاء في الجنة ، والتمتع بنعيمها . وقد علم الله ما جال بخاطرهما ، ووقف على ما تطلعت اليه نفسهُما ، فأمرهما بالهبوط منها ، وأنبأهما أن العداوة بينها وبين إبليس ستظلّ قائمة ، ليحذرا فتنته ، ولا يُصغيا الى إغوائه ، فقال : (اهبطا مِنها جميعاً بَعْضُكم لِبعْض عدُوٌ، فإمّا يَأتينَّكم مِنّي هدىً فمن اتبع هُداي فلا يضلُّ ولا يَشْقى) .

فجعل له مأرباً في الحياة ، وأملاً يسعى اليه ، وأخبره أنه قد انتهى طَوْر النعيم الخالص والراحة التامة ، وأنه بعد خروجه من الجنة وحرمانه نعيمها قد دخل في طور له فيه طريقان : هدى وضلال ، إيمان وكفر ، فلاح وخُسْران ... فمن اتبع هدى الله الذي شرعه ، وسلك الصراط المستقيم الذي حدّده ، فلا خوف عليه من وسوسة الشيطان وإغوائه . ومن أعرض عن ذكر الله ، وحاد سبيله ، فسيكون عَيشُه ضَنكاً ، وسيكون من الذين ضلّ سعيُهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً[١] .

---

(١) شاءت حكمة الله أن ينزل آدم الى الأرض ليبلوا الناس ويمتحنهم أيهم أحسن عملاً .

نبأ ابني آدم (*)

بدأ نظامُ الحياة يستكمل حينما تهيّأت[1] حواء لتستقبل أولادها ، أوّلَ زهر تفتّح في رياض الإنسانية ، وأول نفحة من نفحات البشرية ، وبهم تأنس وتسعد مع زوجها آدم . وقد كانا شديدي الحب والشغف ، أن يريا فلذات أكبادِهما على ظهر البسيطة ، فتمتلىء جوانب الأرض بنسلهما ، يمشون في مناكبها ، ويأكلون من رزق الله . ولقد كان آدم حَفِيّاً بأبنائه ، وحواء مستبشرة بقدومهم ، رغم ما قاست من أهوال وآلام ، هي لِزام على الأم دائماً في مثل هذه الحال ، إلا أنها لا تلبث حتى تنتشي برُخاء العطف والحنان ، فاذا هي قريرة العين ، باردة الفؤاد .

وضعت حواء ُتوأمين : قابيل وأخته وهابيل وأخته ، وشبّ الإخوة في رعاية الأبوين ، حتى ملأتهم نضارةُ الحياة ، وقوّةُ الشباب . فنزعت[2] البنتان الى منازع النساء ، وانبعث الولدان يضربان في الأرض كسباً للرزق ، وابتغاءً للخير ، فكان قابيل من زرّاع الأرض ، وكان أخوه من رعاة الأغنام .

لانَ[3] للأخوين مهادُ الحياة وسهل عيشُها ، وانتشر رواق السلام والأمان على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة . وعلى امتداد الزمن ، وتتابع فسحة الأجل ، قويت في كلا الفتيَين غريزة الرجولة ومال كل منهما الى أن تكون له زوجةٌ ليسكن اليها ويطمئن

(*) سورة المائدة ٣١-٣٥ .

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام من الجنة وأهبط معه حواء لم يكن جماع في الجنة فكان كل واحد ينام وحده حتى أتى جبريل الى آدم فأمره أن يأتي أهله وعلمه كيف يأتيها فلما أتاها جاءه جبريل فقال : كيف وجدت امرأتك ؟ قال : صالحة إن شاء الله ...

(٢) نزع : مال .

(٣) لانَ : أي سهل .

بصحبتها ، وتعلقت نفسه بذلك الأمل الحُلو المعسول ، وراحت تتفقّده وتتلمّس كل سبيل حتى تصل اليه . وإرادة الله جلّت حكمته قضت منذ الأزل أن يُمتحن بنو آدم على ظهر البسيطة ، فيكثر المال والبنون ، وتأخذ الأرض بهجتَها وتزيّن . كما جرى القدر ألا يكون الناسُ أمّةً واحدة ، بل لا بدّ من التكاثُر ، والتباين في الرأي والمنزَع ، والنوع والخِلقة ، والسعادة والشقاء ، فأوحى الله تعالى الى أبي البشرية أن يزوّج كلَّ فتى من فتييْه بتوءم[1] أخيه .

بهذا أفضى آدم الى أبنائه ، راجياً أن يكون قوله الفصلَ . ولولا جموح النفس البشرية ، وانسياقُها الى مهاوي البوار والخسران لكان للأب ما تمنى .

والغريزة الإنسانية قوامها الحرصُ والطمع ، فمن كبح جِماح شهوته ، وكسر حدّة سطوته ، وجعل لعقله سلطاناً على هواه ، فأولئك هم الذين أكرمهم الله في الدنيا والآخرة . وأمّا من ترخّص لشهواته ، وانفلت من عقله زمام هواهِ ، فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سَعْيُهم في الحياة الدنيا ، وهم يَحسَبون أنهم يُحسِنون صُنعاً .

ذلك محكُ الطبيعة الإنسانية ، وممتحَن النفس البشرية في الأرض .

بعد أن أسر[2] آدم بمكنون صدره الى ابنيه ثار قابيل ، ولم ينزل على إرادة أبيه ، لأن نصيبه أقلُّ جمالاً من نصيب أخيه ، فنفِس[3] عليه ، ولم يرض بالقسمة ، وودّ لو تكون توءمته من نصيبه دون أخيه .

وكان الجمال الخِلْقيُّ — وما زال — ريحاً هوجاء تتقاذف النفسَ البشرية ، وقد توردها مواردَ الحَتف والهلاك .

كان الجمال سبباً للشقاق والموجِدة والحفيظة بين الأخوين : فجمح أحدهما عن طاعة أبيه ، ونقض ما كان قد أبرَمَ ، وفصم ما كان قد أحكم .

---

(١) التوءم : المولود مع غيره في بطن ، ذكراً كان أو أنثى . ويقال أيضاً : هذا توءم هذه ، وهذه توءمته .

(٢) أسر : أي نقل الحديث .

(٣) نفس عليه : حسده .

هبّت على الأب رياح عاصفة ، ما دارت يوماً في خلده ولا حُسبانه ، وتوزعت نفسه بين رغبة ابنيه ، والإبقاء على السلام بينهما والأمان ، الى أن هداه الله الى مخرج يسدُّ به مهبّ الريح . فطلب اليهما أن يقرّب كلاهما قرباناً الى الله ، فأيهما تُقبّلَ قُربانه كان أحقّ بما اشتهى وأراد . فقدّم هابيل جملاً من أنعامه ، وقدّم قابيل قمحاً من زراعته . وكلٌّ منهما يترقرق في صدره فيض الأمل ، راجياً أن يظفر بقصب السبق وأن يحوز أعواد الرهان .

وكان هابيل موفور الحظ موفق الخطوات ، فتُقبّل قربانه ولم يُتقبّل قرْبان أخيه ، لأنه لم ينزل على حكم أبيه ، ولم يُخلِص النية في قربانه .

بعد ذلك سُقِط في يد قابيل ، إذ انطفأ أمله ، وراح ضحية الأثرَة والحقد ، وانبعثت شروره ، وامتدت نَوازيه ، فتوعد أخاه ، وقال : لأقتلنّك حتى لا أصاحبك شقياً وأنت سعيد ، ولا أؤاخيك مبسوط الأمل ، وأنا مضطهد العاطفة ، كاسف البال . فقال هابيل لأخيه — والحسرة تقطع فؤاده : كان أولى لك يا أخي ثم أولى ، أن تتعرف موضع الداء فتحسمَه ، وأن تتحرى مسالك السلامة فتنبعثَ إليها ، لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين .

وكان هابيل رجلاً رزقه الله بسطةً في العقل والجسم ، من الذين حُمّلوا الأمانة فصانوها ، ووُهبوا الحكمة فأجلّوها ، يؤثر رضا الله ، ويتعشق طاعة الأبوين ، ويرضى بقسمة ربه ، ويرى أن الحياة متاع زائل ، وعَرَض حائل . وكان شديد الإشفاق على أخيه ، دائب النصح له ، والرّعوى[1] عليه . وكان كذلك يرى في نفسه قوة من قوة الله فما يضيره تهديد قابيل ، وهو غِرٌّ مفتون ذو أثرة وذو عصيان ! ترك المقادير تجري في أعنتها ، وما تعلقت مشيئته بسوء لأخيه ، ولا اختلجت نفسه بأذى ، لأن الله الذي خلق الطهارة طَبَعَه عليها يوم طُبِع ، فهو يخاف الله رب العالمين .

اتجه بعد ذلك هابيل بالنصح الى أخيه ، علّ[2] كلماته يكون فيها الشفاء فتنزع داء

---

(١) الرعوى : رعاية الحفظ للعهد .

(٢) بمعنى لعل . عسى .

الحقد من قلب أخيه. فقال: يا أخي، إنك لجائر، مائل عن طريق الصواب، آثم في عزمك، بعيد عن جادّة الحق في رأيك، فأولى لك ثم أولى أن تستغفر الله، وأن ترجع عن غيك. أما إذا عقدت عزمك، وكنت في تدبيرك ماضياً لا محالة، فإني أترك الأمر الى الله، مخافة أن يلحقني إثم، أو يتعلق بنفسي أثر لعصيان، فتحملْ وحدك الإثم فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

لم تكن آصِرَةُ الأخوّة شفيعةً أمام ذلك الحقد المتّقد في صدر قابيل، ولم يكن مبعث الحنو والرحمة والعطف ليهدّىء من ثورة ذلك البركان الثائر، ولم تكن مخافة الله، ولا رعاية حقوق الأبوين رادعة لتلك النفس التي كانت أوّل من أجرم على ظهر البسيطة من الناس.

في ساعة من ساعات الفلك الدائر، ولنزْوَة حقيرة من نزوات النفس الجامحة وقعت الواقعة؛ فراح هابيل قتيلاً بيد أخيه، فريسة الحمق والجهالة والغرام.

ذوَى[1] عُود الأخ النضير، وانطفأ مصباحُه، وغاب عن الأفق الذي كان يطالع أباه فيه؛ فاستوحش آدم، وراح يتفقّد ابنه هابيل، علّه يقف له على أثر أو يَبُلُّ أُوَام[2] شوقه بخبر. فسأل قابيلَ عن أخيه؛ فردّ ردّاً ملؤه الخفة والطيش، وقال: ما كنت عليه وكيلاً، أو راعياً وحفيظاً. ولكن آدم عرف بعْدُ أن ابنه قد قُتل، فسكت على همٍّ وتبريح، وكبت في نفسه تلك الشعلة التي هاجت حزناً على فقيده وإشفاقاً على أخيه.

أقول للنفس تأساءً وتعزية   إحدى يديّ أصابتني ولم ترد

ولقد كان هابيلُ أوّل من قُتِل على ظهر الأرض، وما عرف قابيل[3] كيف يواري جُثة أخيه، فحمله في جراب على ظهره، وظل مضطرباً حائراً قلِقَ النفس مُلتاع

---

(١) ذوى: ذبل.

(٢) الأوام: شدة الظمأ.

(٣) لقابيل نصيب من اثم كل قاتل الى يوم القيامة لأنه أول من سن سنة القتل على وجه الأرض قال ص: ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة.

الفؤاد .. كيف لا ، وقد غدت نفسه مَيداناً تختصم فيه الحفيظة والعاطفة ، فبات معذباً نابيَ المضجع ، موسّد الهم والحزن والعار !

أروَح[1] الميت ، وناء قابيل بحمله ، ولم يدرِ كيف السبيل !

هنا لا بدّ أن تهبط رحمة الله رعايةً لحق تلك الجثة الطاهرة ، وسنّاً لدستور الخليقة ، وإبقاءً على كرامة آدم وولديه . وهنا كذلك لا بد أن يكون درس قاسٍ يتلقاه ذلك الغِرُّ المأفون ، وما هو بأهل لوحي اللهِ ، ولا لإلهام الله ، بل لا بدّ أن يكونَ تلميذاً للغراب ! يتضاءل فهمُهُ أمام حُنكةِ ذلك الحيوان الأسود الضعيف ، وتفنى شخصيته بعد ذلك الدرس الذي يتلقاه ذليلاً ، صغير النفس ، معذّب الفؤاد .

بعث الله غُرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ، ووارى جثته تحت التراب . هنا استشعر قابيلُ الندم والحسرة ، فقال : (يَا ويْلتَا أعَجَزْتُ أن أكونَ مِثلَ هَذا الغرابِ فأوَاري سوْأةَ أخِي) .

نوح (*)

ظل قومُ نوح يعبدونَ الأصنام دهراً طويلاً ، واتخذوها آلهة يرجُون منها الخير ، ويستدفعون بها الشر ، ويردّون كل شيء في الحياة إليها . ودعَوها بمختلف الأسماء ، تارة وَدّاً وسوَاع ويَغُوث ، وتارة يَعُوق ونَسرا[2] ، على حسب ما يُملي عليهم الجهل ، ويزَيّن لهم

---

(1) أروح : فاحت رائحته .

(*) آل عمران ٣٣ ، النساء ١٦٣ ، الأنعام ٨٤ ، الأعراف ٥٩-٦٢ ، يونس ٧١-٨٣ ، هود ٢٥-٤٩ ، الأنبياء ٧٦ ، ٧٧ ، الفرقان ٣٧ ، الشعراء ١٠٥-١٢٢ ، العنكبوت ١٤ ، ١٥ ، الصفات ٧٥-٨٢ ، نوح ١-٢٨ ، القمر ٩-١٦ ، المؤمنون ٢٣-٣١ ، المؤمن ٥ ، ٦ .

(2) ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر : أسماء أصنام ، وقد انتقلت عن قوم نوح الى العرب .

الهوى . فأرسل الله اليهم نوحاً عليه السلام ، وكان رجلاً فتيق[1] اللسان ، واضح البيان ، رزين الحصاة[2] ، بعيد الأناة[3] ، رزقه الله صبراً على الجدل ، وقدرة على تصريف الحجج ، وبَصَراً بمسالك الإقناع ، دعاهم الى الله فأعرضوا ، فأنذرهم العقاب فعَمُوا وَصمّوا ، ورغّبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا . . ولكنه ناضلهم وجادلهم ، ثم صابرهم وطاولهم ، فمدّ لهم حبْل أناته ، وأفرغ عليهم معسول كلماته ، ولم يَضعُف في إيمانهم رجاؤه ، ولم يدَع اليأس يسلك سبيلاً الى قلبه ، بل أخذ يَفتنّ[4] في الدعوة ، ويجاهد في إبلاغ الرسالة ، فدعاهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وإعلاناً ، ووجّه نظرهم الى سر الوجود ، وإبداع الكائنات : ليلٌ داج ، وسماء ذاتُ أبراج ، وقمر يسبح ، وشمس تسطع ، وأرض فجّر خلالها الأنهار ، وأنبت فيها الزروع والثمار . كل هذا يتحدّث بلسان فصيح ، وينطق ببرهان صحيح ، عن إله واحد ، وقدرة فذّة عجيبة .

وهكذا ظل يناضل ويساجل ، و يقيم الحجج ، ويبسطُ البراهين ، حتى آمنت به شِرْذمة[5] قليلون ، استجابوا لدعوته ، وصدّقوا برسالته . أما الذين طبَع الله على قلوبهم فلم يؤمنوا ، وسبقت لهم الشّقوة فلم يهتدوا ــ وكانوا من عرانين[6] القوم وذوي الشرف الصاعد فيهم ــ فقد تمالئوا عليه وتظاهروا على الاستهزاء به وتسفِيه رأيه .

قالوا : ما أنت إلا بشر مثلنا ، وواحد منا ، ولو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعثه مَلَكا ، ولكُنا أصَخْنا لقوله ، وأجبناه لدعوته . ثم ما هؤلاء الأ راذل من طَغام[7] الناسِ

---

(١) فتيق اللسان : فصيح اللسان .
(٢) الحصاة : العقل والرأي .
(٣) الأناة : الحلم .
(٤) يفتن : يتفنّن .
(٥) الشرذمة : الجماعة .
(٦) عرانين : جمع عرنين ، وهو السيد الشريف .
(٧) الطغام : أوغاد الناس .

وحُثالتهم، وأهل الصناعات الخسيسة والحِرف الدنيئة، الذين انقادوا إليك بادِي الرأي[1] من غير أن يُمَحِّصوا آراءهم، أو يُنضجوا أفكارهم! لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء! ولو كان حقاً ما تقول لكُنَّا ـ ونحن أولو الفطنة والزكانة[2]، وأصحاب الأذهان الصافية، والأحلام الراجحة ـ أسبقَ الى الإيمان بك، والاقتداء بهداك.

ثم لجّوا في الجدل، وأمعنوا في المراوغة، وقالوا: وما نرى لك يا نوح ولِصَحْبك علينا من فضل، لا في العقل والحِجا، ولا في بُعد النظر، ولا في رعاية المصالح، ولا في معرفة المَعاد وخاتمة المطاف، بل نظنُّكم كاذبين!

فأجابهم نوح ـ وسفاهةُ قولهم لم تصدّع صَفاة[3] حلمه، ولم تُثِرْ قَطاة رأيه وعقله[4]: أرأيتم لو أنني كنت على بيّنة من ربي، وحجّةٍ شاهدة بصدق دعواي آتاني رحمة منه وفضلاً، فعمِي عليكم القصْدُ، واشتبه الأمر، وحاولتم ستر الشمس بأكفّكم، أو طمْس النجوم بأيديكم، فهل أستطيع لكم إلزاماً، أو أملك لحملكم على الإيمان سلطاناً.

قالوا: يا نوح، إن أردت لنا هداية وتوفيقاً، وأردت منا نصراً وإعزازاً، فاعمِد الى هؤلاء الأوزاع[5] الذين آمنوا بك، فأقصِهم عن حظيرتك، وانبذهم عن حماك، فإننا لا نستطيع آن نجري في عِنانهم، أو نسير على أسلوبهم، أو نُقْرَنَ في الاعتقاد بهم. وكيف نستجيب لدينٍ يستوي فيه الشريف والمشروف، والملك والسوقة!

قال لهم: إنها دعوة عامة شاملة لكم جميعاً، يستوي فيها نبيهكم وخاملكم، مشهوركم ومغموركم، الأغنياء منكم والفقراء، والمرؤسون والرؤساء. وهبوني أجبتكم

---

(١) بادي الرأي: من غير تعمق في الفكر

(٢) الزكانة: الفطنة والعقل.

(٣) لم تصدع صفاة حلمه: لم تخرجه عن حلمه. وأصل الصفاة: الصخرة الملساء

(٤) لم تثر قطاة رأيه وعقله: لم تغير مألوف رأيه وعقله.

(٥) الأوزاع: الأخلاط من الناس.

الى مطلوبكم وحققت بطردهم مرغوبكم ، فمن الذي أعْتَمِدُ عليه في نشر الدعوة وتأييد الرسالة ؟ وكيف أطْرُدُ قوماً نصروني وقد لقِيتُ منكم الخِذلان ، ووَصلتْ كلماتي الى قرارة نفوسهم ، وما صادفتْ منكم إلا الجحود والنكران ! وهم ما برحوا قُواماً على الدين ، داعين الى الله . ثم كيف يكون حالي معهم بين يدي الله إذا خاصموني وحاجُّوني ، وشكوا الى الله أني قابلت خيرهم بالنكود[1] وإحسانهم بالجحود ! ألا إنكم قوم تجهلون !

ولما اشتدّ بينهم وبينه الجدل ، وانفرجت مسافة الخُلْف[2] ، سئموا منه ، وضاقت صدورهم به ، وقالوا : (يَا نوحُ قدْ جادلتنا فأكثرت جِدَالنا فأتِنا بما تعِدُنا إن كنت من الصادِقِينَ) .

فهزىء بهم نوح ، وقل : إنكم تسرفون في الجهل ، وتُمعِنون في الحمق ، ومَن أنا حتى آتيكم بالعذاب ، أو أصدّه عنكم ! وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحَى إليّ إنما إلهكم إله واحد ، فأبلِّغُكم ما أمِرت به ، وأبَشركم بالثواب مرة ، وأنذركم بالعذاب أخرى ! ألا إن مردّ كل شيء الى الله ، إن شاء هداكم ، وإن شاء استعجل فآذاكم ، وإن شاء أمْلى لكم ليزيدَ في عقابكم ، ويُمعِنَ في النكاية بكم .

*

والأنبياء ــ لكي يؤدُّوا رسالتهم على وجهها الكامل ــ رزقهم الله صبراً على الإيذاء ، وجلَداً على الخصام ؛ كما وسع في رُقعةِ أحلامهم ، وماد[3] لهم في حبال رجائهم ، لكيلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل ، ولا لمن كفر عذرٌ بعد الأنبياء . ونوح كان من أولي العزم من الرسل ، مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، صابراً

(١) الكنود : كفران النعمة .

(٢) الخلف : الخلاف .

(٣) ماد : مد .

على أذاهم، صامداً لاستهزائهم، يرصُد فيهم برق الأمل، ويشيمُ منهم بارق الإيمان[1]، ولكنهم ما ازدادوا على الأيام إلا عُتُوّاً، وما بلغت دعوته منهم إلا نفوراً، فعاد حبل الرجاء بالياً، ووجه الأمل أسوَدَ حالكاً، ففزع الى الله شاكياً ملتجئاً، مستعيناً مستهدياً، في هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم، ويكاد الأمل ينقطع في إيمانهم. فأوحى الله اليه: (إنهُ لن يُؤمِنَ مِن قومِكَ إلا مَنْ قد آمن فلا تَبْتئسْ[2] بما كانوا يفعلون).

ولما رأى نوح أن الله قد حقت كلمته، وقضى وحيُه أنه لن يؤمن أحدٌ بعد، وأنه قد طبع على قلوبهم، ووضعت عليها الأقفال، فلم يعودوا يخضعون لبرهان، أو يُذعنون الى إيمان، نفِد صبره، وقال: (ربِّ لا تذَر على الأرضِ مِنَ الكافرين ديّاراً[3] إنك إن تذرهم يُضِلوا عِبادَكَ ولا يلدُوا إلا فاجِراً كفّاراً).

فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه: (أنِ اصْنَع الفُلكَ[4] بأعيُننا ووحيِنا وَلا تُخاطِبني في الذينَ ظَلموا إنهم مُغرَقُون). فاتخذ مكاناً قاصياً عن المدينة، وأعدّ الألواح والمسامير، وأخذ يعمل، ولكنه لم يَنجُ من سُخرِية القوم واستهزائهم.

وقال بعضُهم: إنك يا نوح كنت تزعُم قبل اليوم أنك نبي ورسول، فكيف أصبحتَ اليوم نجاراً، أزهِدتَ في النبوّة، أم رغبت في التّجارة!

وقال غيرهم: ما بال سفينتك[5] تصنعها بعيدة عن البحار والأنهار! أأعددتَ الثيران لجرّها، أم كلفت الهواء حملها! ولكنه أعرض عن استهزائهم، ومرّ كريماً على لغوهم، وقال: (إن تَسخَرُوا مِنّا فإنا نَسخَرُ مِنكُمْ كما تسخَرون. فَسوفَ تَعلمُونَ مَنْ يَأتِيهِ عَذابٌ يُخزيهِ ويحِلُّ عليهِ عذابٌ مُقِيم).

---

(١) يتطلع الى إيمانهم: والبارق في الأصل: سحاب ذو برق.

(٢) لا تحزن ولا تستكن.

(٣) ديّاراً: أحداً.

(٤) الفلك: السفينة.

(٥) قال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ٣٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ وكانت من

وانصرف الى السفينة يُقيم ألواحها، ويَصل أجزاءها، حتى استوت سفينةً مَكينة ذات ألواحٍ ودُسُر[1]. وانتظر نوح ما يكون من أمر الله، فأوحي إليه: إذا جاء أمرنا، وظهرت آياتنا، فاعمِد الى سفينتك، وخُذ مَن آمن من قومك وأهلك، واحمل معك من كلٍّ زوجين اثنين حتى يبلغ أمر الله.

وتفتّحت أبوابُ السماء بالماء، وتفجّرت عُيونُ الأرض، وبلغ السيل الزُّبى[2]، ثم جاوز القيعان والرُّبا، فهرع نوحٌ الى السفينة، وحمل ما أمر الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات، وسارت باسم الله مجراها ومرساها: مرة هي في ريح رُخاء، وآونة في زعْزَعٍ نَكباء، والأمواج تَفتح بين طيّاتها للكافرين قبوراً، والزَّبدُ يَخيط لهم أكفاناً، يغالبون الموت والموت يغلبهم، ويصارعون الموجَ ولكن الموج يَصرَعهم، حتى طوتهم الأمواه طيّ السر في الفؤاد.

وأشرف نوح فوق ظهر السفينة، فرأى ابنه كنعان ــ وكانت شقوَة الله قد غلبتْ عليه فاعتزل أباه، ورغب عن دينه ــ يخوض اللجج، ويُدافع الموج، ويحاول أن يعتصم بحبَل يُنجِيه، أو ربوة تنقِذه، ولكن الحِمام[3] كان منه يدنو، والغرق يقترب، فرقّت له كبده، ولانت أعطاف رحمته، وهاج موضع الإشفاق والحب فيه، فناداه، لعل نداءَهَ يصل الى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن، أو يلمس ناحية الشعور فيه فيذعن: الى أين يا بُنيّ؟ إنك تفر من قضاء الله وقدَره الى قضاء الله وقدره، هلمّ مؤمناً، فيلتم شملُك بأهلك، وتنجُو ببدنك، (يا بُني اركبْ مَعَنا ولا تَكنْ مع الكافِرينَ)

ولكنّ هذه الكلماتِ لم تصل الى قرارةِ وِجدانه، ولم تجاوز شِغاف قلبه، وحسِب أنه قادر على أن يَحذرَ المكروه، ويُفلِتَ من يد القدر، فقال: إليك عني، فإني (سآوي الى جَبل يَعصِمُني منَ الماء)

قال نوح وقد أشجاه الهم، وغلبه الوَجد[4]: يا بنيّ، إنه (لا عاصم اليوْم مِن أمر

---

(١) دسر: مسامير.

(٢) الزبى: جمع زبية، وهي الرابية لا يعلوها الماء.

(٣) الحمام: الموت.

(٤) الوجد: الحزن.

الله إلا مَن رَحـمَ) . ثم فـصلَ بينهما الموجُ ، وحجز السيل ، ولم يعد يرى ابنه ، فلذة كبده وحشـاشـةَ قـلـبه . فـاعـتـلـج صدره همّا ، واتجه الى الله ملجإ الملهوف وغَوثِ المكروب ، وقـال : (ربِّ إن ابني من أهلي) ، وقـد وعـدتَ ــ ووعـدُك الحق ــ أنك تنجيني ومن آمن من أهلي ، وأنت أحكم الحاكمين

فـأوحى الله إليه : يا نوح إنه ليس من أهلك ، ولا من خاصة عشيرتك ، فقد سبقت له الشَقـاوَة ، وحـقّـت عـليه كلمة الكفر ، فلا تَعدّ من أهلك إلا مَنْ آمن بك ، وصدق بـرسالـتك ، واستـجـاب لـدعـوتـك ، هـذا الذي تعدّه حقاً من أهلك وهو الذي وعدتُك بـنـجـاتـه ، وإنقاذ حياته (وكان حقاً عَلينَ نصْرُ المؤمنِينَ) أمّا من جَحَد برسالتك ، وكـذّب بـكـلـمات ربك ، فإنه خارجٌ عن أهلك ، منبوذ من شفاعتك ، وإن كان بينك وبـيـنـه رَحِـمٌ ماسّة ، أو نسب جامع ، وهو لا بدّ واردٌ حوض المنيّـة ، مشرف على الغاية المحـتـومة ، وإن اعـتـصـم بجَـبَـل أو أوى الى ركنٍ[1] شديد . فإياك بعدها أن تسألني عن شيء لا تعلمه ، أو تجادلني في أمر لا تدركه : (إنِّي أعِظـكَ أن تَـكون من الجاهِلِين)

وحـينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق ، والإشفاق سَتر عنه الصواب ، وكان أوْلى بـه أنَ يـبسُط كَفَـيْـهِ شكراً لله على ما خصه وقومه المؤمنين من النجاة وعلى ما أوقعه على الكافرين من الغرق والهلاك . فالتجأ الى الله مستغفراً من ذنبه مستعيذاً من سخطه . وقـال : (ربِّ إني أعُـوذُ بِـكَ أن أسألَـكَ مَا ليْسَ لي بهِ عِلْمُ ، وَإلا تَـغْـفِـرْ لي وترحَمني أكنْ من الخاسِـرينَ) ، وحـال المَـوْجُ بينه وبين ابنه فكان من المغرَقين .

ولما بـلـغ الـشـوطُ غـايـته ، وطُويت صحيفة القوم الظالمين ، كفَّت السماء ؛ وابتلعت الأ رضُ الماء ، ورست السفينة على جبل الجُودِيّ[2] ، وقيل : بُـعْـداً للقوم الظالمين !

وقـيـل لـنـوح : اهـبـط بسلام الى الأ رض ، أنت ومن آمن معك من قومك ، تحفُّكم البركة . وتكلؤُكمُ العناية ، عناية الله .

---

(١) ركن الرجل : قومه وعدده ومادته .

(٢) قيل إنه جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح .

هود (*)

أقامت عاد[1] بالأحقاف ما بين اليمن وعُمَان، رَدَحاً من الزمن في بُلَهْنِيَة[2] من العيش، ورَغدٍ من الحياة، حباهم الله نِعَماً وافرة، وخيرات جليلة، ففجّروا العيون، وزرعوا الأرض، وأنشأوا البساتين، وشادوا القصور، ومَنَحهم فوق ذلك بَسطةً في أجسامهم، وقوّة في أبدانهم، وآتاهم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين، ولكنهم لم يُفكروا في مبدأ هذا الخلق، ولم يحاولوا التعرّف الى مصدر هذه النعم؛ وغايةُ ما وصلت إليه عقولهم، وارتاحت إليه طباعهم، أن اتخذوا أصناماً لهم آلهة يَعْنون[3] لها بجباههم، ويُعَفِّرون في ثَراهَا خُدودهم، ويتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضَيْر[4].

ثم إنهم بعد ذلك عَتَوا[5] في الأرض، فأذلّ القويُّ منهم الضعيف، وبطش الكبيرُ بالصغير، فأراد الله — هدايةً للأقوياء، وتمكيناً للضعفاء، وتهذيباً للنفوس مما ران عليها من الجهل، ورفعاً للحجُب التي تراكمت على بصائرهم — أن يرسل اليهم رسولاً من أنفسهم، يحدّثهم بلغتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم، ويرشدهم الى خالقهم، ويبيّن لهم سفاهة عبادتهم، رحمة منه وكرماً.

(*) الأعراف ٦٥-٧٢، هود ٥٠-٦٠، والشعراء ١٢٣-١٤٠.

(١) عاد: أبو قبيلة اشتهرت باسمه، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس.

(٢) بلهنية: أي رغد.

(٣) يعنون، من عنا يعنو: إذا خضع وذل.

(٤) ضير: ضرر.

(٥) عتوا في الأرض: أفسدوا فيها.

وكان هودُ رجلاً من أوْسطِهم[1] نسباً[2]، وأكرمهم خُلقاً، وأرجحهم حلماً، وأرحبهم صَدراً، فاختاره الله ليكون أمينَ رسالته، وصاحب دعوته؛ لعله يهدي هذه العقول الضالة، ويقوّم من هذه النفوس المعوجّة. فصدَع بالأمر، واضطلع بالرسالة، وادّرَع[3] بما يَدّرع به صاحبُ كلّ دعوة، عزْم يُقلقل الجبال، وحلم يهزم الجهال، وخرج عليهم منكراً أصنامهم، ومسفّهاً عبادتهم.

قال: يا قوم، ما هذه الأحجارُ التي تنحِتونها ثم تعبدونها وتلجئون إليها! ما خَطرها وما غَناؤها[4]، وما ضررها وما نفعها! إنها لا تجلب لكم نفعاً، ولا تَدفع عنكم شراً، إن هذا إلا ازدراء لعقولكم، وامتهان لكرامتكم، ولكن هناك إلهاً واحداً حقيقاً بأن تعبدوه، ورباً جديراً بأن تتوجهوا إليه، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو الذي أحياكم، وهو الذي يميتكم، مكّن لكم في الأرض، وأنبت لكم الزرع، وبسط لكم في الأجسام، وبارك لكم في الأنعام، فآمنوا به، واحذروا أن تَعموا عن الحق، أو تكابروا في الله، فيصيبكم ما أصاب قومَ نوح، وما عهدُهم منكم ببعيد.

قال ذلك هود، وهو يرجو أن تصلَ كلماتُه الى أعماق نفوسهم فيؤمنوا، أو تنفذ الى عقولهم فيفكروا ويهتدوا. ولكنه رأى وجوهاً ساهمة[5] وعيوناً حائرة بعد أنْ سمعوا كلاماً لم يكونوا قبلُ قد سمعوه، وألقي إليهم قول لم يألفوه. قالوا: ما هذا الذي تَهذِي به وتخوض فيه! وكيف تريدنا أن نعبد الله وحده من غير شركاء! إننا نعبد هذه الأصنام لتقرّبنا اليه، وتشفع لنا عنده.

قال: يا قوم: إنما الله واحد لا شريك له، وعبادتُه وحدَه هي جوهر العبادة

---

(١) يقال: فلان وسيط في قومه، إذا كان أرفعهم مجداً.

(٢) وهكذا كل المرسلين وكل ما نقرأه من أحد من الرسل مخالفاً لذلك هو كذب وافتراء.

(٣) ادرع بالدروع: لبسها.

(٤) الغناء: النفع.

(٥) ساهمة: شاردة.

ومُـصاصها ، ومُـخُّها ولُبابُها ، وهو قريب غير بعيد ، أقرب اليكم من حَـبْل الوريد[1] ، أما هـذه الأصنـام التي تـعبدونها زُلْفى اليه ، وشفاعةً عنده فهي تُـبْعدكم عنه من حيث ظننتم أنكم تَـقْربون ، وتَـدُلُّ على جهلكم في الوقت الذي تظنون أنكم تعلمون وتفهمون .

فـأعـرضـوا وقالوا : ما أنت إلا سفيه طائش الحلم ، تسفِّه عبادتنا ، وتَـعيب علينا ما وجدنـا عـليـه آبـاءنا . ما أنت بيننا ! وما ميزتك عن واحد منا ! أنت تأكل كما نأكل وتـشـرب كما نـشـرب ، وتجري في حياتك على أسلوب كالذي نجري عليه ، فلِمَ اختصّك الله بالرسالة ، وآثرك بالدعوة ! ما نظن إلا أنك من الكاذبين.

قـال هـود : يـا قـوم ، لـيـس بي سفاهةُ عقل ، وحماقة رَأي ، ولقد عشتُ فيكم دهراً طـويـلاً فـما أنـكـرتم عـلـيّ شـيئاً ، وما جرَّبتم عليّ حُـمْـقاً ولا طيشاً ، وما الغريب في أن يختـص الله واحـداً مـن قومه برسالته ويحمِّـله دعوته ! إنما الغريب أن يترك الناس سُدًى مـن غير رسـول ، وفـوضى لا وازِع لهـم ولا رادع ، على أني لست بيائس من إيمانكم ، ولا ضـائـق الصدر بسفهائكم ، ففكِّروا بعقولكم وانفذوا الى الحقائق ببصائـركم تروْا أن الله واحـد في كل شيء : في هذا النظام العجيب ، والخلق الغريب ، والفلك الدائر ، والنجم الثاقب :

وفي كـــلِّ شيء لـــه آيــــــةٌ تـــدلُّ على أنـــه الـــواحـــدُ

فآمِـــنوابه واستغفروه يرسل السماء عليكم مِـدرارا[2] ، ويُـمْـدِدكم بأموال فوق أموالكم ، ويزدكم قوة الى قوتكم ، ولا تتولَّـوْا[3] مُجرمين .

واعلموا أنكم بعد موتكم سوف تبعثون : مَن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، فتدبَّروا لأنفسكم ، وخذوا الأهْـبَـة لآخرتكم ، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، وإني لكم به نذير مبين .

---

(١) الوريد :عرق تحت اللسان .

(٢) درت السماء بالمطر : إذا كثر مطرها .

(٣) تتولوا : ترتدوا .

قالوا : لا شك أن واحداً من آلهتنا قد مسَّك بسوء فخُولطتَ[1] في عقلك ، ودخل عليك في تفكيرك ؛ فأصبحت تهذي بكلمات لا حقيقةَ لها إلا في خلَدك ، ولا ظل لها إلا في تفكيرك ، وإلا فما الاستغفار الذي يرسل الله بعده السماء ويمدّ بالمال ، ويزيد في القوة ! وما يومُ البعث الذي تزعم أننا نعود فيه بعد أن نصبح عظاماً نَخِرَة[2] ، وجُثثاً بالية ! هيهات هيهات لما تعِد وتزعُم ! وما هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر .

ثم ما العذاب الذي تَعِدنا وتتوقع أن نلقاه ! إننا لن نذعِن لما تقول ، ولن نرجع عن عبادة آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنتَ من الصادقين .

فلما تبيّن له العناد في أحاديثهم ، والإصرارُ في ثنايا أقوالهم . قال لهم : إني أشهد الله أنني قد بلّغت وما قصّرت ؛ وجاهدت وما أحجمْت ، وسوف أظل على هذا البلاغ وذاك الجهاد ، ولا أبالي جَمْعكم ، ولا أخاف بطشكم ، فكيدوني كيداً ، أو أجمعوا بي بَطْشا ، إني توكلت على الله ربي وربّكم ؛ ما من دابّة إلا هو آخِذٌ بناصِيَتها[3] ، إن ربي على صراط مستقيم .

وظلّ هو يدعو والقومُ مُعْرِضُون . وفيما هم على هذه الحال شامُوا[4] سحاباً أسود يعترض السماء ، فاستشرف القومُ اليه ، وخفّوا الى رؤيته سِراعاً ، وقالوا : هذا سحاب عارِض[5] سيُمطرُنا ، ثم تهيّأوا لاستقباله ، وأعدّوا حقولهم لنزوله . ولكن هوداً قال لهم : ليس هذا سحابُ رحمة ، وإنما هو ريح نقْمة ، هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم .

وما راعهم إلا أن رأوا رحالهم ودوابّهم التي في الصحراء ، تَحملها الرياح على أجنحتها القوية ، وتقذف بها الى مكان بعيد ! فداخلهم الفزَعُ وأدركهم الهلَع ، وهُرعوا

---

(١) خولط فلان في عقله ، إذا اختل عقله .

(٢) النخرة من العظام : البالية .

(٣) الناصية : خصلة الشعر في مقدم الرأس ، والمراد في قبضته .

(٤) شاموا السحاب : نظروا إليه أين يمطر ؟

(٥) العارض : السحاب المطر يعترض في الأفق .

سِـــراعاً الى بيـوتهـم يُغلقونها عليهم ظناً أنهم بذلك يَنْـجُون ، ولكن البلاء كان عامّاً ، والخطب شاملاً : إذ حملت الريح رمالَ الصحراء ، وظلّت سبع ليالٍ وثمانية أيام متتاليات ، أصبح القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نَخلٍ خاوية ، وعَفا ظِلُّهم ، ودَرَس رسْمهم ، وامَّحى من التاريخ أمرهم (وَمَا كانَ رَبُّكَ لِيُهْلكَ القُرى بِظلمٍ وَأهْلُها مُصْلِحُون) .

أما هود فقد آوى اليه صَحْبُه ، ومن آمن به ، وظلوا بمكانهم ، تهزم[1] حولهم الرياح ، وتَسْفي الرمال ، وهم آمنون مطمئنون ، حتى هدأت الريح ، وصفا الحال ثم انتقل الى حضرموت ، وقضى بعدها البقية الباقية من عمره[2] .

صالح (*)

هلكت عاد بذنوبها ؛ فأورث الله ثمودَ أرضهم وديارهم[3] ، فخلَفوهم فيها ، وعَمَروها أكثر مما عمروها ، وفجّروا العيونَ ، وغرسوا الحدائق والبساتين ، وشادوا القصور ، ونحتوا من الجبال بيوتاً ، ليأمنوا غوائل الدهر ،ونوائب الحِدْثان[4] . وكانوا في سَعَة من العيش ورغَد ، ونعمة وترف ، ولكنهم لم يشكروا لله ، ولم يَحمَدوا له فضله ، بل زادوا عتُواً في الأرض وفساداً ، وبُعداً عن الحق واستكباراً ، وعبدوا الأوثان من دون

(١) هزيم الرياح : صوتها .

(٢) في قصة هلاك عاد ، أقوال مختلفة للمفسرين انظرها في مكانها .

(*) هود ٦١-٦٨ ، الأعراف ٧٣-٧٩ ، الشعراء ١٤١-١٥٩ ، النمل ٤٥-٥٣ ، القمر ٢٣-٣١ ، الشمس ١١-١٥ .

(٣) هناك خلاف بين المفسرين فيما إذا كانت ثمود نزلت في أرض عاد نفسها أم أن القرآن كان يقصد أنه أتوا بعدهم زماناً .

(٤) الحدثان : الزمان .

الله ، وأشركوا به ، وأعرضوا عن آياته ، وظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون ، وفي تلك السّعَة متروكون .

بعث الله إليهم صالحاً من أشرفهم نسباً ، وأوسَعِهم حلما ، وأصفاهم عقلاً ، فدعاهم الى عبادة الله ، وحضّهم على توحيده ، فهو الذي خلقهم من تراب ، وعمَر بهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة ، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام من دونه ، فهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا تُغني عنهم من الله شيئاً .

ذكّرهم بأواصر القُربى التي تربطه بهم ، ووشائج النسب التي تصل بينه وبينهم ، فهم قومُه وأبناءُ عشيرته ، وهو يحبُ نفعَهم ، ويسعى في خيرهم ، لا يضمر لهم سوءاً ؛ ولا يريد بهم شراً ، وأمرَهم أن يستغفروا الله ، ويتوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب ، واجترحوا من إثم ، فهو لمن دعاه قريب ، ولِمن سأله مجيب ، ولمن أناب إليه سميع .

صمَّت منهم الآذان ، وغُلّفت القلوب ، وعميت الأبصار ، فأنكروا عليه نبوّته ، وهزئوا بدعوته ، وزعموا له أنها نابيةٌ عن الحق ، بعيدة عن الصدق ، ثم لامُوه فيها ، وأنّبوه على صدورها منه ، وهو الراجحُ عقلاً ، الصائب رأياً ، وقالوا : يا صالح ، عهدناك ثاقبَ الفكر ، مصيب الرأي ، وقد كانت تلوح عليك مخايلُ[1] الخير ، وأمارات الرشد ، وكنا ندّخرك للمّات الدهر ، تضيء ظُلماتها بنور عقلك ، وتحُل معضلاتها بصائب رأيك ، وكنا نرجو أن تكون عُدتنا حين يحزب[2] الأمر ، ويشتد الخطب ، فنطقتَ هُجْراً ، وأتيت نُكراً . ما هذا الذي تدعونا إليه ! أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ، وقد درجنا عليه ، ونشأنا مُستمسكين به ! إننا لفي شك مما تدعونا إليه مُريب ، لا نطمئنّ الى قولك ، ولا نثق بصدق دعوتك ، ولن نترُك ما وجدنا عليه آباءنا ونميل مع هواك وزيْغك .

حذّرهم مخالفته ، وأعلن فيهم رسالته ، وذكّرهم بما أسبغ الله عليهم من نِعمه ، وخوّفهم بأسه وبطشه ، وأبان لهم أنه لا يقصد من وراء دعوته الى نفع ، ولا يطمح في

---

(١) مخايل : أمارات .

(٢) حزب الأمر : اشتد .

مغنم ، أو يتطلع الى رياسة ، وهو لم يسألهم أجراً على الهداية ، ولا يطلب جزاءً على النصيحة ، وإنما أجره على الله رب العالمين ، درءاً لكل شبهة قد تساور نفوسهم ، ودفعاً لكل شكٍ قد يجول في خواطرهم .

آمن به بعضُ المُستضعفين من قومه ، أما الملأ الذين استكبروا فأصرُّوا على عنادهم ، وتمادَوا في طغيانهم ، واستمسكوا بعبادة أوثانهم ، وقالوا له : إنك قد خُولطت في عقلك ، وضاع صوابك ، وما نظنّ إلا أن أحداً سلّط عليك شيطانه ، أو أعمل فيك سِحْرَه ، فأصبحت تهرف[1] بما لا تعرف ، وتنطق بما لا تفقه : فلسْتَ إلا بشراً مثلنا ، وما أنت بأشرفنا نسباً ، أو أفضلنا حسباً ، أو أوسعنا غنى وجاهاً ، وفينا مَن هو أحقُّ منك بالنبوّة ، وأجدر بالرسالة ؛ فما حملك على انتهاج هذه الطريق ، وسلوك تلك السبيل ، إلا رغبتُك في تعظيم نفسك ، وتطلُّعك الى الرياسة على قومك !

حاولوا صدّه عن دينه ، وصَرْفه عن دعوته ، وزعموا له أنهم إن اتبعوه حادُوا عن الصراط المستقيم ، وخالفوا الطريق القويم ، فأعرض عن بهتانهم ، ولم يَسْتمعْ الى غوايتهم ، وقال : يا قوم ، إن كنتُ على بيّنةٍ من ربي ، وآتاني منه رحمة ، ثم اتبعتُ طريقكم ، وسرتُ في سبيلكم ، وعصيت ربي ، فمن يمنعني من عذابه ، أو يعصِمني من عقابه ! إن أنتم إلا مفترون[2] .

فلما وجدوا منه استمساكاً برأيه ، واعتصاماً بحقه ، خاف المستكبرون من قومه أن يكثُرَ تابعوه ، ويعظم ناصروه ، وعزّ عليهم أن يكون المرشد للقوم ، والموئلَ عند اشتداد الخطب ، والكوكب المنير إذا ادلهمّ[3] الأمر ، فينصرف الناسُ عنهم ، ويَفْزعون إليه في كل شأن ، ويطرقون بابه كلما حزَبهم أمر[4] . ولا شك أنه سيهديهم الى ما يقرّبهم الى

---

(١) تهرف : تهذي .

(٢) الافتراء : أشد التكذيب

(٣) ادلهمّ الأمر : أي اشتد .

(٤) حزبه الأمر : أهمه .

الله ، ويصدّهم عما يُنبئهم عنه ، فخافوا زوال دولتهم ، وذهاب سلطانهم ، وأرادوا أن يظهروا للناس عجزه ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآيةٍ يتبيّنون بها صدقَ دعوته ، ومعجزة ظاهرة تصدّق رسالته . فقال لهم : هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ[1] ولكم شِربُ يوم معلوم ، فذَرُوها[2] تأكل في أرض الله .

لم ير الناس قبلاً ناقة تستأثر يوماً بمائهم ، ولم يعهدوا غيرها يَكُفُّ يوماً عن شربهم ، ولا شك أن صالحاً قد عهد فيهم إصراراً على الكفر ، واستمساكاً بالباطل ، وعلم أن المنكِر يُفزعه ظهور حجّة خصمه ، ويخيفه وضوح برهانه ، بل يحرك كامن غيظه ومستورَ حقده قيامُ شاهده ، وقوة آيته ، لذلك خاف إقدامَهم على قتلها ، وحذّرهم الفَتك بها ، فقال لهم : لا تمسُّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريبٌ .

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل في أرض الله ، تردُ الماءَ يوماً ، وتصدّ عنه يوما ، ولا شك أن قيامها قد استمال إليه كثيراً من قومه ، إذ استبانوا بها صِدْقَ رسالته ، وأيقنوا بصحة نبوّته . فأفزع ذلك المستكبرين من قومه ، وخافوا على دولتهم أن تَبيد ، وعلى سلطانهم أن يزول ، فقالوا للمستضعفين من قومهم — وهم الذين أشرق نور الإيمان في قلوبهم ، فعمرت به صدورهم ، وانصاعت اليه أفئدتهم : أتعلمون أن صالحاً مُرْسَلٌ من ربه ! فقالوا : إنّا بما أرسل به مؤمنون . فلم تلِن قناة القوم ، أو يخفِّفوا من غُلَوائهم ، بل أعلنوا كفرهم ، وصارَحوهم بتكذيبهم وقالوا : إنا بالذي آمنتم به كافرون .

لعلّ هذه الناقة كانت ضخمة الجسم ، متميزة الشكل ، فأرهبت أنعامهم ، وأخافت إبلهم ، فكرهوا لذلك مُقامها بينهم ، وقد تكونُ حالت بينهم وبين الماء حين اشتداد الحاجة اليه ، إذ كان لها شِربٌ ولهم شرب يوم معلوم .

وقد تكون نَوازي[3] الشرّ قد دفعتهم الى إخفاء آيته ، وطمْس معالم حجته ، لأنهم

---

(١) الشرب : الماء ، والنصيب منه .

(٢) ذروها : اتركوها

(٣) النازية : حدة الرجل وسورته الى الشر .

رأوها تجذب القلوب نحوه ، وتستميل النفوس اليه ، فخافوا أن يكثرَ المؤمنون به ، وينتشر أنصاره وتابعوه .

قد يكون هذا أو ذاك ، أو كل أولئك قد حملهم على عقْرها ، ودَفعهم الى قتلها ، رغماً من تحذيرهم بالعذاب وتوعُّدهم بالهلاك إن مسُّوها بسوء .

ما أظنّ إلا أن القومَ حَسبوا هذه الناقة خطراً جسيماً ، وشراً مستطيراً ، ففكروا طويلاً ، وأمعنوا كثيراً ، ولا إخالهم إلا هابوا قتلها ، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها . وكلما همُّوا بها قفلوا راجعين وأدبروا خائبين .

وبقي القوم يَدفعهم الشر ، وتمنعهم الرهبة ، لا يجرُؤ أحدهم على إيذائها ، ولا يتقدم واحدٌ الى مسِّها ، فاستعانوا[1] بالنساء يبذلن ما يملكن من دلال وإغراء ، ويغرين بما فيهن من جمال ، والمرأة إذا أمرت كان الرجالُ طوعَ أمرها ، وإذا تمنَّت تسابقوا الى تحقيق أمنيتها ، فها هي ذي صَدُوق بنت المُحيّا ، ذات الحسب والمال ، تعرِض نفسها على مصدع بن مهرج ، إن هو عقر الناقة ، آية صالح البيِّنة ، وحجّته البالغة ، وتلك هما عُنيزة العجوز الكافرة تجاذب قُدار بن سالف إليها ، وتعرض عليه إحدى بناتها ، ولا تطلب اليه بذلاً ، ولا تسأله عطية أو مالاً ، إلا عقر الناقة التي تستميل القلوب ، وتشعل جَذوة الإيمان وهي مع ذلك تقضّ مضجعهم ، وتستأثر بشرْبهم ، وتنفِر منها أنعامُهم .

فصادف هذا الإغواء هوى في نفسهما ، ورغبة في فؤادهما ، وزادهما بأساً وقوة ، وأفاض عليهما إقداماً وجرأة ، فسعيا بين القوم يلتمسان مَن يؤازرهما ، ويبحثان عمن يُعاضدهُما ، فاستجاب لهما سبعة آخرون ، وانطلقوا الى الناقة يرصُدونها ، وخرجوا يرقبونها ، فلما صدرت من ورِدها ، ورجعت عن مائها ، كَمَن لها مصدع ، فرماها بسهْم انتظَمَ عظمَ ساقها ، وابتدرها قُدَار بن سالف بالسيف ، فكشف عن عُرْقوبها[2] ، فخرّت على الأرض ، ثم طعنها في لبتها[3] فنحرها ! وأزاحا عن كاهلهما همّاً ثقيلاً ، وحِمْلاً

---

(١) راجع الألوسي في روح المعاني ، وقصص الأنبياء للشيخ النجار ص ٢٨٣ .

(٢) العرقوب : عصب غليظ فوق كعب القدم .

(٣) لبتها : موضع القلادة من الصدر

عظيماً ، ورجعا الى القوم يزفّان اليهم البشرى ، واستقبلهما الناس كما يُستقبل القائد الظافر ، أو الملك الفاتح ، وهلّلوا لمقدمهما ، ونسجوا لهما أكاليل المدح ، وأضفَوْا عليهما جميل الثناء

عقروا الناقة ، وعَتَوْا[1] عن أمر رَبهم ، وكشفوا عن ذات أنفسهم ، واستخفّوا بوعيده ، وقالوا : يا صالح ، ائتنا بما تعِدُنا إنْ كنت من المرسَلين .

فقال لهم صالح : قد حذَّرتُكم إن أصبتموها بأذى ، أو مسستموها بسوء ، ولكنكم قد اجترحتم الذنب ، واقترفتم الإثم ، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام يأتيكم بعدها العذاب ، ويحلُّ عليكم في نهايتها العقاب . ذلك وعدٌ غير مكذوب .

ولعله قد ضرب لهم ذلك الميعاد ، ترغيباً لهم في الإنابة الى الله ، وحثاً لهم على الإصاخة[2] الى دعوته ، ولكن الشكوك ما زالت متأصلة في نفوسهم ، والأوهام متسلطة على أفئدتهم ، فلم تُغنهم النذرُ ، ولم يثوبوا الى رشدهم ، بل ظنوا وعيده كذباً ومَيْناً[3] ، وتحذيره زوراً وبهتاناً ، فتمادَوْا في استخفافهم ، وسألوه أن يعَجل بعذابهم ، ويأتيهم بما وعدهم ، فقال : يا قوم ، لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !

ولكنهم تمادَوا في الضلال ، واستسلموا لنوازي الشر ، فقالوا : اطَّيرنا[4] بك وبمن معك ! واجتمع نفر من قومه وتقاسموا على أن يتسللوا إليه في جُنْح الظلام ، ويباغتوه وأهله والناسُ نيام ، فيُوقعوا بهم من غير أن يراهم أحد ، فأجمَعوا أمرهم بينهم على أن يكون ذلك سراً مكتوماً ، لا يذيعونه ولا يتناقلونه

بيّتُوا له الشر ، وأضمروا له ولأهله القتل ، ظناً منهم أن ذلك يَعصمُهم من العذاب ، ويُنجيهم مما سيحلُّ بهم من عقاب ؛ ولكن الله لم يُمهلهم ، بل أحبط مكرهم ، وردّ إليهم

---

(١) عتا : استكبر ، وجاوز الحد
(٢) الإصاخة : الاستماع .
(٣) المَيْن : الكذب .
(٤) تطير من الشيء وبالشيء : تشاءم به .

كيدهم ، ونجّاه مما أرادوا به ، وأنقذه والذين آمنوا معه من العذاب ، وأنزل بالكافرين عقابه ، تصديقاً لوعده ، ومظاهرة لنبيه ، فأخذتْهم الصاعقة بظلمهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

ولم يَمْنعهم ما شادوا من قصور شامخة ، وما جمعوا من أموال وافرة ، وغرسوا من جنات واسعة ، ونحتُوا من بيوت آمنة .

ورأى صالح ما حلّ بهم ، إذ أصبحت جثَثُهم هامدة ، وديارهم خاوية ، فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه ، والحسرة تقطع نِياط قلبه ، (وقالَ : يَا قومِ ، لقد أبْلغتُكم رِسَالةَ رَبّي ونَصَحْتُ لكم ولٰكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصحينَ)[1] .

ابراهيم

إبراهيم وآيــة البعث (*)

كان أهلُ بابلَ ينعمون برَغد العيش ويتفيّئون ظلال النّعمة ، ولكنهم كانوا يخْبطون في دياجير الظلام ، ويتردّدونَ في مهاوي الضلالة ؛ فقد نحتُوا الأصنام بأيديهم ، وصنعوها على أعيُنهم ، ثم جعلوها أرباباً ، ونصبوها آلهة ، وعكفوا على عبادتها من دون الله الذي خلقهم ، وأسبغ عليهم نعَمَه ظاهرة وباطنة .

وكان نُمْرود بن كنعان بن كوش قابضاً على زمام الملك في بابل ، وحاكماً بأمره مستبدّاً برأيه . ولما رأى ما يتقلّب فيه من نعيم ، وما يتمتع به من سطوة الملك وما يحيط به من قوَّة السلطان ، ثم ما أطبق على القوم من جهل ، وما ران على قلوبهم من عَمَهٍ ،

---

(١) قصة الناقة : بعد أن أكثر صالح من دعوة قومه طلبوا منه أن يأتيهم بينة وأن تكون ناقة تخرج من الصخر وللبخاري : أن رسول الله لما نزل الحجر في غزوة تبوك : وهم ألا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها فقالوا : قد عجنا واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا العجين ويهرقوا الماء .

(*) البقرة ٢٦ .

أقام نفسه إلهاً ، ودعا الناس الى عبادته . ولماذا لا يُلزمهم الخضوع له ، ويطلب منهم عبادته وتعظيمه ، وقد وجد الجهل فاشياً ، والعقائد فاسدة ، والقوم في ضلال مبين ! ألم يعبدوا الحجارة الصمّاء ، والتماثيل الجوفاء ، وهي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضرا ! أمّا هو فينطق ويفكّر ويدرك ويشعر ، ويُفيضُ عليهم الخير ، ويدفع عنهم ، ويستطيع أن يصيّر فقيرهم غنياً ، ويجعل عزيزهم ذليلاً وهو ذو قوّة فيهم ، وصاحبُ سلطان عليهم

في وسط هذه البيئة الفاسدة ، وفي بلدة فدام آرام من هذه المملكة ولِدَ إبراهيم لأ بيه آزرَ ، ثم آتاه الله الـرُّشْدَ ، وهداه الى الحق ، فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره ، ووحْي ربّه أن الله واحد ، وأنه المهيمن على الكون ، المسيطرُ على العالم ، وأدرك أن هذه الأصنامَ التي يعبدونها ، وتلك التماثيل التي ينحِتونها ، لا تُغني عنهم من الله شيئاً ، لذلك أزْمَعَ الدعوة الى توحيد الله ، وعزم على تخليص قومه من وهدَة الشرْك ، وأعدّ العُدّة ليثنيَهم عن ضلالهم ، واتخذ الأهبة لردّهم عن غيّهم .

وقد كان ابراهيم مُفعمَ النفس بالإيمان بربه ، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه ، مؤمناً بما أوحي اليه ، من بَعثِ الناس بعد موتهم ، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم ، ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً ، وثقة ويقيناً . وتطلّع الى أن يَلمَس الآية البينة على البعث ، ويرى الحجّةَ الواضحة على النشور ، فسأل ربه أن يُريَه كيف يُحيي الموتى بعد موتهم ، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم ؟ فقال الله له : « أو لَمْ تُؤمِنْ ! قالَ : بَلى ! » قد أوحيتَ اليّ ، وآمنتُ وصدّقتُ ، ولكني تاقت[1] نفسي للعيَان[2] ، وامتدّت عيني الى المشاهدة ، ليطمئن قلبي ، ويزدادَ يقيني[3] .

---

(١) تاقت : تطلعت .

(٢) عاين الشيء عيانا : رآه بعينه

(٣) صاحب الدعوة يجب أن يكون ايمانه بصدق دعوته كاملاً والا لم يلتف حوله الناس ، لذا فان الله أرى إبراهيم بعض مظاهر ربوبيته بنفخ الروح في الطيور..

ولما كان إبراهيمُ يقصِدُ الى أن تطمئن نفسه، ويستقرّ فؤاده، أجاب الله سُؤله، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير، ويضمّها اليه، ليتعرّف أجزاءها، ويتأمل خَلْقها، ثم يجعلها أجزاء، ويفرّقها أشلاء، ويجعل على كل جبل منهن جُزءاً ثم يدعوهن اليه، فيأتينَه سَعياً بإذن الله.

فلما فعل صار كلُّ جزء يَنضم الى مثله، وعادت الأشلاء كل في مكانه، وسَرعان ما سرت فيها الحياة، ورجعت اليها الروح، وسعت اليه بقدرة الله وسارت اليه بإرادته، وهو يرى آياته البينة، وقدرته الباهرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض

هذه الطيور قد أزهق روحَها، ومزّق أجسادها بيده، ثم تناثرت أشلاؤها وتفرّقت أعضاؤها على عينه، ولما دعاها أقبلت عليه، واجتمعت اليه، ثم تماسكت أجزاؤها واتصل ما تفرّق منها، وعادت اليها الحياة! وما منْ أحد يرى ذلك ثم يُساوِره شك، أو يَتخالجُه ريْب في قُدْرَة الله على بَعْث الموتى من مراقدهم، ونشرهم من قبورهم، سبحانه! إذا أراد شيئاً فلا مردّ له، وهو العزيز الحكيم.

ابراهيم يتلطف في دعوة أبيه (*)

كان آزَرُ يعبد الأصنام، بل كان ممن ينحتها ويبيعُها؛ وهو أقربُ الناس اليه وألصقُهم به، وأولاهم بالهداية، وأجدرُهم بإخلاص النصيحة؛ فمن البرّ به أن يهديَه سواء السبيل، ثم هو أيضاً من المسوّين خلقها والناحتين لها، والداعين الى عبادتها، إنه لذلك داعيةُ إثم، ومبعث فتنة، فهدايته قُرْبى الى الله، واستئصالٌ لبذور الشر، واجتثاثٌ لجذور الضلال.

(*) الزخرف ٢٦-٢٨، الأنعام ٧٤، التوبة ١١٤، مريم ٤١-٤٨، الانبياء ٢٥.

لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته[1] ، أو تحقير آلهته ، لئلا ينفر منه ، أو يُصِمّ آذانه عنه أو يرميَه بالعقوق والجحود ، بل رتّبَ الكلام معه على أحسن اتساق ، وخاطبه بالقول اللين ، والأدب الجميل ، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوّته ، ليستثير عطفه ويمسّ شِغاف قلبه ، ثم سأله عما يدعوه الى ركونه الى الأصنام ، وعكوفه على عبادتها ، مع أنها لا تسمع دعاءه وثناءه ، ولا تبصر خُضوعَه وخشوعه ، ولا تُسْتَدفعُ في بلاء فتدفعه ، أو تُسْتَمنحُ شيئاً فتمنحه .

وخاف أن ينصرف عنه استصغاراً لشأنه ، وامتهاناً لرأيه ، فقال : يا أبتِ ، إنه قد جاءني من العلم ما ليس لك ، وأوتيتُ حظاً من المعرفة لم تُؤتَهُ ، فلا تستنكف أن تتابعني ، ولا تتخلف عن مسايرتي ، وإن كنتُ لا أبلغ شأوك[2] ، أو أشارف سنّك . ثم توسّل إليه أن يتبع خطواته ، ويسيرَ على هَدْيه ، فذلك هو الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

ثم أراد أن يُزَهِّدَ في أوثانه ، ويَنْأى به عن عبادة أصنامه ، فأبان له أنه بالعكوف عليها ، والانقياد لها يعبدُ الشيطان ، ويلتجىء الى ساحته ، وهوالذي عصى الرحمن ، وتوعَّد الناس بالإغواء ، فهو عدوٌّ لا يُرشِد الى خير ، ولا يبغي إلا الهلاكَ والشر . ثم خوّفه سوء العاقبة وشرَّ المصير ، ولكنه لم يصرح بأن العذاب لاحقه ، والعقاب مُحِيق به ، برّاً به ، وتأدباً معه ، واستعطافاً له .

فلما عرض هذا الرشد عليه ، وأهدى هذه النصيحة إليه أبَى آزرُ متابعة رأيه ، وأصر على بُنُوّته ، وأنْكرَ حَدَبه عليه وشفقته به ، وتجهّم[3] له ، وقال محتقراً لشأنه ، مُتَعَجّباً من جرأته ، منكراً عليه نصيحتَه : أراغِبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم ! لئن لم تَنْتَهِ عن

---

(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يمهد لدعوته بالاكرام المادي والأمثلة كثيرة منها مثلاً : أنه أولم لعشيرته قبل أن يدعوهم .

(٢) شأوك : شأنك .

(٣) تجهم : استقبله بوجه عبوس .

زيْـغِـك[1] ، وترجع عن غيّـك ، وتَـثُـبْ الى رشدك لأ رجمنَّـكَ بالحجارة ، ولأ رمينّـك بهُجر القول ، فاحذر سَورة غضبي ، وتجنَّب إثارة سخطي ، واهجرني مليّاً ، فليس لك في داري مكان ، ولن تجد في قلبي أثارَة من عطف ، أو بقية من إحسان .

قابل إبراهيم تهديد آزر بصدرٍ رحب ، وتلقّى وعيدَه بنفس مطمئنة ، ثم أجابه بما يُنبىء عن بِرِّه به ، وإخلاصِه النصحَ له ، وقال : (سَلامٌ عَليكَ سَأَسْتَغفِرُ لكَ رَبِّي إنه كانَ بي حَفِيّا[2] . وأعْتَزِلُكمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله ِوأدْعُو رَبِّي عَسَى ألاّ أكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيا) .

وودّعه وانصرف ، وهو كاسِف البال ، محزون الفؤاد ، لأن دعوته لم تجد آذاناً مُصغِيَةً عند أبيه ، واعتزله لئلا يكون مُظاهِراً له على الكفر ، ومشايعاً في الشّرك .

إبراهيم يحطم الأصنام (*)

خاب رجاءُ إبراهيم حين أنكر عليه أبوه دعوتَه ، وحزّ في نفسه أن يدعوَه الى الخير فلا يستجيب دعاءه ، وأن يهديَه الى الحق فيبرأ منه وينأى عنه ، ولكن هذه الغلظةَ التي بدت من أبيه ، وذلك الجفاء الذي ظهر منه لم يقعِداه عن متابعة دعوته الى الحق ، ولم يثنياه عن التكير على قومه إشراكهم بالله ، وعبادتهم الأصنام من دونه ، بل أزْمَعَ أن يمحوَ هذه العقائد الفاسدة ، ولو ناله في ذلك أذى كثير ، ولحقه شرّ مستطير .

كان إبراهيمُ ذكِيّ الفؤاد ، صائبَ الرأي ، ثاقبَ الفكر ، فرأى أن الحجة القولية ، والبرهان اللفظيّ ، وإن وُضحا وضوح الصبح ، لا ينبتان نبتاً حسناً في هذه الأ رض

---

(١) الزيغ : الضلالة .

(٢) حفيا : بليغاً في الكرم .

(*) الأنبياء ٥٢-٦٨ ، الشعراء ٦٩-١٠٢ ، والعنكبوت ١٦ و١٧ و٢٤ .

الجُرُز[1] ، فأراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم ، وحواسّهم مع أفئدتهم في تفهُّم عقيدته ، والوقوف على حقيقة دعوته ، علّهم يثوبون الى رشدهم ، ويرجعون عن غيِّهم .

أنظر إليه يستدرجُهم الى مُجادلته ، ويَستنْزِلهم الى مجال محاورته ، فيسألهم : ماذا تعبدون ؟

أفاضوا الحديث في شأن أصنامهم ، وأطنبوا في جوابهم ، مُعتَزِّين بعبادتها ، معتدّين بالخضوع لها ، وقالوا : نَعْبُدُ أصناماً فنَظَلُّ لها عاكفين

ولقد كان إبراهيم مُلهَماً في سؤاله ، موفّقاً في استفساره ، فهو كالطبيب حاول أن يتحسس الداءَ ليصف الدواء ، أو كالقاضي أراد أن يحملهم على الإقرار بارتكاب الجُرْم ، والاعتراف باقتراف الذنب ، وهو في ذلك يُضَيِّق دائرة الجدل ويجمع أشتات الخلاف في مسألة واحدة ، فإذا أوْهن أساسَها ، وقوّض أركانها ، وأوضح بطلانها فقد ألزمهم الحجة ، وحينئذ لا يجدون مَحِيصاً من اتِّباعه ، ولا مَناصاً من طاعته .

كرّ عليهم يَنقدُ زائف آرائهم ، ويبين فاسدَ اعتقادهم ، فقال : هل يسمعونكم إذ تتوجهون اليهم بالعبادة ، ويُبْصرونكم حين تقدّمون لهم الطاعة ؟ وهل ينفعونكم أو يضرّون !

ما أقبح التقليد ، وما أعظم كَيْد الشيطان الذي استدْرَجهم الى أن حاكوا آباءهم في الكفر ، وجارَوهم في الشرك ، وزيّن لهم عبادة التماثيل ، فعفّروا[2] لها جباههم ! وما أشدّ جهلهم حين اعتقدوا أنهم على حق ! بل جدّوا في نصرة مذهبهم ، وجادلوا أهلَ الحقِّ عن باطلهم ، وما أوْهى ما نطقوا به ! وما أجابوا به ! فقد قالوا : (وَجَدْنا آباءنَا لها عَابِدِينَ) .

أقرُّوا أنها لا تسمعُ داعياً ، ولا تملِك لهم ضُراً ولا نفعاً ، واعترفوا بأنهم ما عبدوها إلا اقتداء بأسلافهم ، واتباعاً لآبائهم ، فجعلوا ما دَرَج عليه قومُهم ، وما اهتدى اليه

---

(١) الجرز : الأرض التي لا تنبت .

(٢) عفر وجهه : مرغه ودسه في التراب .

قدماؤهم دليلاً على استمساكهم بالحق، ورأوْا قِدَمَها برهاناً على استحقاقها للإجلال والتعظيم، فكانوا بذلك عن النظر الصحيح نائين، وعن التفكير السليم بعيدين.

قال إبراهيم: (لقدْ كُنْتُمْ أنتُم وآباؤُكُمْ في ضَلالٍ مُبِينٍ)، قالوا: أتنتقصُ آلهتنا، وتَسُبُّ أصنامنا بالحق أم أنت من اللاعبين!

قال إبراهيم: إني أقولُ لكم ذلك جاداً لا هازلاً، فقد جئتُكم بالدين القويم، وأرسلت اليكم بالهدى والحق المُبين، فإن ربّكم الخليقَ بالعبادة هو فاطرُ السمواتِ والأرض، ومدبِّر شؤونها، والقائم على أمورهما. أمّا هذه الأصنام فلا تملكُ لنفسها نفعاً ولا ضراً، وهي حجارة صمّاء، وخُشُبٌ مُسَنَّدَة[1]. فعليكم أن تجتنبوا عبادتها، وتنأوْا بأنفسكم عن الخضوع لها، واحذروا فتنة الشيطان وإغواءهَ، وفكّروا بعقولكم، وانظروا بأبصاركم، لعلّكم تهتدون.

على أني قد سبقتكم الى البُعد عن عبادتها، و.بادَرْتُ قبلكم الى النَّأي[2] عنها، فلو كانت تضرُّ لضرّتني، أو تملك شيئاً لنالت مِنّي.

ثم أظهر لهم بديعَ صُنْعِ الله، وباهرَ قدرته، ليتبيَّنوا أثر حكمته، ويَلمسوا الفرق الواضح والبَوْن الشاسع بين ما يدعوهم اليه، وما يعبدون من أصنام لا تغني عنهم شيئاً، فقال:

ألا تنظرون الى ما تعبدون من دون الله أنتم وآباؤكم الأقدمون! (فإنهُمْ عَدُوٌّ لي إلا رَبَّ العَالمِينَ. الذي خَلَقَني فهُوَ يَهْدِينِ. والذي هُوَ يُطْعِمُني ويَسقِينِ. وَإذا مرِضْتُ فهُوَ يَشْفِينِ. والذِي يُمِيتُني ثمّ يُحْيينِ. والذي أطْمَعُ أنْ يَغفِرَ لي خَطِيئتي يَوْمَ الدِّينِ)

ولما لم تنفعهم الحجة، ولم تغْنِهم النُّذُر، وصدّوا عن سبيله، وأعرضوا عن دعوته،

---

(١) كل شيء أسندت إليه شيئاً فهو مسند.

(٢) النأي: الابتعاد.

ورأى إبراهيم أن آذانهم صماء، وقلوبهم غُلْف[1]، وأنهم لا زالوا متعلّقين بأوهامهم، متمسكين بعبادة أصنامهم بيّتَ الشر لها، وأقسم ليكيدَنّها حتى يَرَوْا أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تدفع الأذى عن نفسها، فتدرَأه عنهم، ولا تلحق بهم ضرّا إذا تركوا عبادتها، أو تُكسِبهُم خيراً إذا عكفوا عليها، وأخلصوا لها.

وقد كان من عادة أولئك القوم أن يُقيموا عيداً لهم في كل عام، يقضون أيامه خارج المدينة، يُهْرعون إليه، بعد أن يَضعوا طعاماً كثيراً في بيت العبادة، حتى إذا ما رجعوا من عيدهم أكلوه فَرِحين، وأقبلوا عليه مغتبطين، فقد باركته الآلهة، وأضْفتْ عليه الخير.

لما هَمُّوا بالذهاب الى عيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم، وسألوه أن يشاركهم في الخروج الى ظاهر مدينتهم، فأبى أن يَصحَبَهم، وامتنع عن الانتظام في سِلْكِهم، وقد عقد العزمَ على أن يَهدِمَ صَرحَ آلهتهم، ويقوِّضَ عرش معبوداتهم، وادّعى العِلّة، وتظاهر بالسقم، ولم تكن به علةٌ ولا مرض، ولكنه كان سقيمَ النفس، كاسفَ البال، يتقطع فؤادُه حزناً على إشراك قومه، ويتميزُ غيظاً لأنهم لم يُلَبُّوا نداءه، ولم يُصيخوا الى دعوته

ولما كانوا يخشون الداء، ويهابون الوباء تَولَّوْا عنه ولم يستمسكوا بدعوته، بل أظهروا الرضا عن تخلفه، والاقتناعَ بحجّته، وخرجوا الى عيدهم مسرورين.

ها هي ذي المدينة قد خَلَتْ من أهلها وسكانها وها هو ذا بيت العبادة قد أقفر حتى من كهَنته وسَدَنته، فقد خرجوا جميعاً الى ظاهر المدينة، ولم يتخلّف عن اللّحاق بهم إلا إبراهيم.

ولما خلا الجوّ من العيون التي ترصده، واختفت الأ بصارُ التي كانت ترقّبه دَلف[2] الى أصنامهم، ودخل الى بيت عبادتهم، فوجد باحَة قد اكتظّت بالتماثيل، وانتشرت في أرجائها الأصنام، ورأى الطعام متراكماً تحت أقدامها، فخاطبها متهكماً بها، محتقراً

(١) الغُلف: جمع أغلف والمراد أن قلوبهم كأنما غشيت بغلاف فهي لا تعي.
(٢) دَلَف: مشى وقارب الخطو.

لشأنها : ألا تأكلون ! ولم يجد منهم إصغاء ولم يسمع منهم جواباً ، فقال : مالَكم لا تنطقون ! وأنّى للحجارة أن تنطق ، وللخُشُب المسنّدة أن تَعْقل !

لا إخَاله[1] الآن إلا مُزدرياً لقومه ، محتقراً تلك الأصنام التي نصبوها آلهة ، فصار يَلْطِمها بيده ، ويَركلُها برجْله[2] ، وأخيراً تملَّكته سَوْرَة الغضب لدينه ، واستولت عليه شِرّة الغيظ لربه ، فتناول فأساً ، وهوَى عليها ، يكسّرها ويحطم حجارتها . وما زال بها حتى جعلها جُذَاذاً[3] ، وصيّرها حُطاماً ، إلا كبيرهم فإنه أبقى عليه ، ليَرْجِعوا إليه ، ويسألوه عمّن انتهك حرمة بيتهم ، وكسر أصنامهم ، حتى إذا استبانوا أنها لا تنطق ولا تعقل ، ولا تدفع عن نفسها من أرادها بسوء ، ثابوا الى رشدهم ، ورجعوا عن مكابرتهم .

تركها حجارة مبعثرة ، وخُشُباً متناثرة ، وانصرف عنها ، وهو مطمئن البال ، قرير العين ، لاستئصاله جذورَ الشر ، وطمْسه معالم الشرك . وأقام يرقب ما يبدو منهم ، وينتظر أثر فَعلَته في نفوسهم ، وأخذ العُدة لما قد يرمونه ، أو يجادلونه فيه .

ورجعوا من عيدهم ، ورأوا ما حلّ بمعبوداتهم ، فبُهتوا لِهَوْلِ ما رأوْا ، وسُقِط[4] في أيديهم عندما وجدوا الآلهة مُتهَشّمة ، والنُّصُبَ مكسرة ! وتساءلوا : مَنْ فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين !

قال قائلهم : سمعنا فتى يُقالُ له إبراهيم : يذكر آلهتنا ويعيب علينا عبادتها ويزدَريها ويحتقرها ، فهو المجترىء عليها ، والمحطم لها .

عرفوا إذن مَنْ تطاول على آلهتهم ، واعتدى على معبوداتهم ، فاعتزموا أن يوقعوا به من العقاب بمقدار ما ارتكب من وِزْر ، وما اجترم من ذنب ، وثارت ثائرةُ القوم ، ونادَوا بأن تأتوا به على أعْيُن الناس ، ليشهدُوا عليه بمقالته ، ويَرَوْا ما يَحُلّ به من القصاص .

---

(١) لا إخاله : لا أحسبه .

(٢) الركل : الضرب برجل واحدة .

(٣) جذّ الشيء فهو جذاذ ــ بضم الجيم وكسرها ــ : ما كسر منه .

(٤) سُقط في أيديهم : ندموا .

ولا شك أن اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمنيةَ إبراهيم التي طالما جاشت بها نفسُه ، ليقيم لهم الحجّة جميعاً على بطلان ما يعتقدون ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون .

تقاطرت الوفود ، وتكاثرت الجموع ، كلٌّ يرغب في القصاص من إبراهيم ، ويودُّ أن يرى عقابه ، ويُشاهِد عذابه ، في ذلك إرضاء لنفوسهم المتعطشة الى الثأر منه ، وإشباع لرغبتهم المتوثبة للفتك به ، ثم جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر ، وابتدأوا محاكمته أمام هذه الجماعات التي تحرّق عليه الأرَم[1] حَنَقاً وغيظاً ، وقالوا له : أنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم !

هاهي ذي الفرصة قد سنحت لبلوغ مأربه ، وللوصول الى مقصده ، فسار بهم في الجدال ناحية أخرى ، وجرّهم بأسلوبه الحكيم الى طريق لم يقصدوه ، ليُلزمهم الحجة ، فيرجعوا الى صوابهم ، ويثوبوا الى رشدهم ، فقال : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذا فاسألوهُمْ إنْ كانُوا يَنْطِقُونَ) .

يا لها من حجة دامغة ، قد صفعهم بها صفعة نبّهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غفوتهم ! فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، فتركتموها لا حافظ لها ، ولا رقيب عندها .

ثم أدركتهم الحَيْرة ، وعقد الحَصر[2] ألسنتهم ، فأطرقوا برءوسهم مفكرين ، واستجمعوا شارد عقولهم جامدين ، ثم قالوا : لقد علمتَ يا إبراهيم أنها لا تردُّ سؤالاً ، ولا تُحيرُ جواباً[3] ، فكيف تأمرُنا بسؤالها ، وتطلب إلينا الاستشهاد بها !! أقرُّوا بعجزها عن الإصغاء إليهم ، واعترفوا بقصورها عن العلم بما يجري حولها ، أو الشعور بما يقع عليها ، وجرّدوها من القدرة على أن تصدّ المعتدين ، أو ترد كَيْدَ العادِين .

---

(١) حرق نابه يحرقه : سحقه حتى تسمع له صوتاً . والأرم : الأضراس . ويقال : فلان يحرق عليك الأرم ، إذا كان مغيظاً .

(٢) الحصر : العي .

(٣) يقال : كلمته فما أحار جواباً ، أي ما ردّ جواباً .

فأخذ يُبَكِّتهم على جَهلِهم، ويتأفّفُ من ثَباتِهم على الباطل بعد وضوح الحق، وهو متغيّظ من غفلتهم ومكابرتهم بعد انبلاج الصبح. ثم حضّهم على الرويّة فيما ينطقون، والتفكير فيما يدعون، فقال: (أفَتَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيئاً ولا يَضرُّكُمْ أُفٍّ لكُمْ وَلِما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ أفَلا تَعْقِلُونَ).

كانت على أعينهم غشاوة[1] فلا يبصرون، وفي آذانهم وَقْرٌ[2] فلا يسمعون، وقلوبهم غُلفٌ فلا يعقلون، فلما غُلِبوا على أمرهم، وخافوا افتضاح حالهم، ولم تبقَ لهم حجة أو شبهة، عدلوا عن الجدل والمناظرة، وعمَدوا الى القوة يسترون بها هزيمتهم، ويخفون باطلهم، وقالوا: (حَرِّقُوه وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)!.

إبراهيم يلقى في النار(*)

أرادوا أن يعاقبوه بالإحراق، ولا ذنب له إلا أن قال: رَبِّي الله، ولا جُرم ارتكبه إلا نقمتُه على أصنامهم، وإنكارُه عبادة أوثانهم، ولكن إعلان التوحيد والجهر بدعوة الناس اليه، يُقِضُّ مضاجع الطغاة ويكدّر صفو عيشهم، لأنه يخلّص الناس من رِبْقةِ استعبادهم، وتنكشف به خبايا أراجيفهم، فيحذَر الناس الوقوع في شِراكهم، وينفضُّون من حولهم، ويهبُّون لدفع الحَيْفِ عنهم، وفي ذلك ذهابُ سلطانهم، والحدّ من طغيانهم.

جاش خاطر إحراقه في نفوسهم، ولكن كيف يحرقونه؟ لا بد أن يُصْلوه ناراً حامية، تعادلُ لَظى الحقد المتأجج في صدورهم. إن شرارة تكفي لإحراق مدينة بأسرها، ولكنهم أبَوا إلا أن تكون ناراً هائلة، وشرعوا يجمعون حَطباً من هنا وهناك، وجعلوا ذلك قرباناً

---

(١) غشاوة: غطاء.

(٢) الوقر: الثقل في الأذن، والصمم.

(*) الأنبياء ٦٨-٧٣، الصافات ٩٧-٩٩، العنكبوت ٦، ١٧، ٢٤.

لآلهتهم ، وبرّاً بمعبوداتهم ، حتى إن المرأة منهم كانت اذا مرضت نذرت : إن عوفيتْ لتجمعنَّ حطباً لحريق إبراهيم !

مكثوا مدّة يجمعون الحطب ، حتى تراكمت أعواده ، وضاق المكان بأكوامه ، ثم ابتنَوا حظيرة واسعة ، وأشعلوا النار فيها ، فاضطرمت وتأجّجت واندلع لسانها ، وعلا لهيبُها ، وسطع ضَوْءها ، واحمرّ جمرها ، ثم قيّدوه ورَمَوْا به فيها ، وهم له كارهون ، ولعذابه مغتبطون !

ألقي في النار المستعرة ، وقلبُه بالإيمان مُفْعَم ، وثقتُه بالله شديدة[1] ، وصِلته به وثيقة ، وأمله في النجاة وطيد ، لذلك لم تزعْزِعه[2] النكبات ، ولم تزلزله الحوادث ، ولم تَرُعْه النار ، بل أقبل عليها بصدر رحب ، ونفس مطمئنة :

إنه الآن في جوف النار ، يخفيه دخانُها ، ويحتويه لهيبها ، ويغلب على صوته زفيرها وشهيقها ، فماذا فعلت النار بإبراهيم ؟

إنها أحرقت منه الوَثاق[3] ، فصار حراً طليقاً ، وأذهب الله عنها حِدَّتها ، وصعَّد منها حرارتها ، وحفظه من لظاها ، وأنقذه من سعيرها ، وجعلها عليه برْداً وسلاماً ؟

ولما خبا ضَوءها ، وانقشَع دخانها ، وسكن أوَارُها[4] وجدوه معافىً سليماً ، ورأوْه حرّاً طليقاً . . فعجبوا لحاله ، وشُدِهوا لنجاته ، وانصرفوا عنه ناقمين ، وتوارَوْا عن أعين الناس خجلين .

وهكذا تمثّلت الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى ، غالبوه بالجدل فغلِبوا على أمرهم ، وفَزِعوا الى القوّة ، فرُدّ كيدهم في نحورهم ، ولجئوا الى النار ، فنزعَ الله منها طبعها ، ودفع عنه أذى حرّها ، وأرادوا به كيْداً فجعلهم الله من الأخسرين

---

(١) عن أبي كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ، ثم رموا به في المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة فقال : أما اليك فلا قال فاسأل ربك ، قال علمه بحالي يغنيه عن سؤالي !

(٢) تزعزعه : تغيره وتهزه .

(٣) الوثاق : الحبل أو الشيء الذي يوثق به ، وتكسر واوه .

(٤) أوارها : حرُّها .

بُـهِـر النـاس بـتـلك الآية الكبرى ، حتى أوشكوا أن يُسلموا زمامَهم له ، ويُـلْـقُوا قيـادهـم اليه ، وكادوا يُجمِعون أمرهم على اتباعه ، ولكن بعضهم آثر ما يتقلب فيه من نعيم الحيـاة وسؤدَدِهـا ، وخـاف غيـرهم أن ينالهم أذى الكافرين والملحِدين ، لذلك لم يؤمن بإبراهيم إلا نفر قليل ، كتموا إيمانهم عن القوم ، خوفاً من الطغاة ، وحذراً من الموت .

إبراهيم ونمرود (*)

أمّـا الملك نمـرود فـقد انتهى اليه شُعاعٌ من ذلك النور الذي بُهر به قومه ، واقتحمت عليـه قصره موجةٌ من هذا التيار الجارف ، وترامى اليه خبرُ إبراهيم [1] ومعجزته الخالدة ، فطغى طغيانه ، وزاد بُهتانه . أليس هو من آلهتهم وإبراهيم يكيل القدح [2] فيها ، ويعيب على القوم عبادتها !

فـدعـا إبراهيمَ إليه ، فلما مَثل بين يديه صوّب إليه نظره ، وقال : ما هذه الفتنة التي أيقظتها ، وتلك النـار التي أشعلتها ! وما هذا الإله الذي تدعو اليه ؟ هل تعرف ربّاً غيري ، وإلهاً يستحق العبادة دوني ! من ذا الذي يعلو مَقامه عليّ ، ويرتفع قدرُه فوق قدري ! ألا تراني أصرف الأمور وأدبّـرهـا ، وأنقضها وأبرمها ؟ فأمري نافذ ، وحكمي قاطع . عيونُ الناس متطلعة إليّ وآمالهم متعلقة بي ، فهل تجد لي مخالفاً ، أو ترى عليّ خـارجـاً ! فـلماذا خرجتَ على إجماعهم ، وانتقضت على معبوداتهم ! ما ربك الذي تدعو اليه ، ومَن إلهك الذي تَحُثّ على عبادته !

فـأجـابه إبراهيم في ثبات جَنان ، وطلاقة لسان ، وقال : ربي الذي يحيي ويميت ،

(*) البقرة ٢٥٨ .

(١) لا بد أن النمرود كان على علم بدعوة ابراهيم ومن المخططين لحرقه .

(٢) العيب أو الذم .

فهو وحده الذي يمنح الحياة ويسلبها ، وينشىء الخلق ويفنيه ، ويبدع العوالم الحية ويميتها . فألقمه الحجر ، وأفحمه بالحجة . ولكن نمْرودَ أخذته العزة بالإثم ؛ فكابر وجادل بالباطل ، وقال : أنا أحيي من أشاء بالعفو عنه ؛ فينعم بالحياة بعد أن تمثّل له شبح الموت ، ويتنسَّم ريح الحياة بعد أن تقطعت نفسُه حسرات على الحرمان من متاعها ، وأوصِدت في وجْهه أبواب الأمل فيها ، وأنا كذلك أميتُ مَنْ أشاء بأمري ، وأقضي عليه بحكمي ، وسرعان ما تُزْهَق روحه ، ويُحرم حياته ؛ فلم يأت ربك بدْعاً ولم يفعل عجباً .

وارب[1] نمْرود في حِواره ، ومارى في جداله ، إذ نأى عما ذكره إبراهيم من إنشاء الحياة وخلْقها ، ومنحها وسلبها ، ولجأ الى المراوغة ، ولكن أين يجول هذا الغِرّ الجاهل ! وكيف يستطيع الثبات أمامَ عزم النبوّة الباهر !

أجابه إبراهيم بقوله : إن الله سخّر الشمسَ ، وجعل لها نظاماً لا تَحِيد عنه ، فهو يأتي بها من المشرق ، فإن كنتَ كما تدّعي قديراً ، وكما زعمتَ إلهاً ، فغيِّر هذا النظام الذي جَرَت به سُنة الله ، واقتضته إرادته ؛ وأتِ بها من المغرب .

فبُهت الذي كفر ؛ إذ بان ضلالُه ، وظهر كذبه ووضح بهتانه ، وبدت جهالته ؛ فقد قرعتْه الحجة البالغة ، وصدمته الآية البينة ، وخاف أن يُثلّ عرشه ، وتُدَكَّ قوائم ملكه ، فصار إبراهيم أبغض الناس اليه ، وأشدّهم عداوة له ، ولكن ما يصنع به ، وقد أتى بعقيدة جديدة دَعَمها بمعجزة باهرة !

ما أظنّه إلا أوجس خِيْفَة منه ، وخاف أن يكتسح إبراهيم ملكه ، ويقوِّض عرشه ، إن أعلن له العداء ، أو كشف له عن البغضاء ؛ لذلك أبقى عليه ، وهو يتربص به الدوائر ، وينتظر أن تحين له الفرصة للانتقام منه . ثم بثَّ عُيونه ليحذِّروا الناس اتبّاعه ، ويبعدوهم عن حظيرته ، فكان إبراهيم يرى من التضييق عليه والإضرار به ما يراه المصلحون في كل أمة ؛ فضاقت نفسه بالمُقام بينهم ، وارتأى الهجرة عنهم ، وفرَّ بدينه من تلك الأرض الجرداء التي لم يزدَهرْ بها نبتُه ، ولم يُثمر فيها غَرْسُه وهاجر الى أرض قد

---

(١) وارَبَ : خَاتَلَ .

تـنـمـو فيها دعـوتـه ، ويخْـصِـبُ فيها بذره ، وترك وطنه وقومه بعد أن حقت عليهم كلمة العـذاب ، إذ لم يـؤمـنوا بعد إذ جاءهم الهدى ، وكفروا بعد أن قامت البينة ، وسار حتى حَط رحاله بفلسطين .

إبراهيم يهدي قومه عن طريق الحوار(*)

ألقى إبـراهيم عـصاه في حَـرّان ، فاراً بدينه ، تاركاً وطنه وقومه ، عَـلّه يجد في غيرهما آذاناً مُـصغِـيـة ، وعقولاً ناضجة ، ونفوساً طاهرة ، ونزل بين ظَـهْـرَانيْ أهل هذه البلاد ، وسَـرْعـان مـا تـبـيَّن ضلالَـهُم ، وعرفَ زَيْـغَهم ، إذ وجدهم يعبُدون الكواكب من دون الله ، فـأراد أن يـنـبِّههم على خطأهم ويرشدَهم الى فساد اعتقادهم . فاختار لذلك سبيلَ العـقـل ، وطـريـق الحـجـة ، حتى إذا مـا اسـتـبـانوا الحق ، وتبيَّـنوا الرشد سلكوا سبيله ، وأصْغوا الى ندائه ، واتَّبعوا دعوته .

جَـنَّ عـلـيـه الليـل ، وستره الظلام ، فرأى كوكباً مما يعبدون ، وهو بين جماعة منهم يتحدّثون ويسمُرون ، فجاراهم في زعمهم ، وحكى قولهم ، فقال : هذا ربي !.

طـريـق في الحـوار حـكيم ، ومنهج في الكلام قويم . انظر إليه يحاكيهم في اعتقادهم ، ولا يُعلـن مخـالـفتهم ، أو يسفّـه أحلامَهم ، ويحقّر معبوداتهم ، فذلك أدعى الى إنْصاتِـهم لقـولـه ، وتـفـهّـمِـهم لحجته ، ثم لم يلبث أن كـرَّ على قولهم يَـنقُضُـه ، ورَجع الى مذهبهم يـزيّـفـه ، ولكن من طريق خفيّ ، ينبيء عن سدادِ رأيه ، ونفاذ بصيرته ! فلما أفَل هذا الـكـوكب وغاب هذا النجم تحت الأفق ، تفقّده فلم يجده ، وبحث عنه فلم يره ، فقال : لا أحبُّ الآلهـة الـمـتغيّرين من حال الى حال ، المتنقلين من مكان الى مكان . ثم عرّض بآلهتهم ، وتنقّص معبوداتهم ، وأعلن بغضه لها ، وتبرّأه من حُـبّها .

ولما رأى القمر بَازغاً ، وهو أسطعُ نوراً من ذلك الكوكب ، وأكبر منه حجماً ، وأكثر نفعاً ، قال : هذا ربي ، استدراجاً لهم واستهواء لقلوبهم .

(*) الأنعام ٧٦-٨٣ .

فلما أفَــل هـذا أيضاً واحتجب ؛ واختفى نورُه واستتر ؛ قال : (لئِـنْ لمْ يَـهْدِني رَبِّي لأكـونَـنَّ مِـنَ القَـومِ الضَّـالِّين) ؛ بياناً لهم أن الله هو مصدرُ الهداية ومانحُ التوفيق عند الشكّ والحَـيْرة .

جـاوز الـتـعـريـضَ الى مـا هـو أفـصـح منه ، لمّا أنس منهم سكوتاً على بغضه لآلهتهم وإغضاء عن ذمّه معبوداتهم ، وأبَـان أنه غير مطمئن النفس ، مُـبَـلْـبلُ الفكر ، لم يهتد بعد الى طـريـق الحـق ، ولما يـقـف على سـبـيـل الـرّشدِ . وطلب من الله أن ينقِذه من ذلك الـضـلال الـبـعـيـد ، ويـنـير له هذا الليل البهيم ؛ فهذا الذي يعبدونه مخلوق مسيّر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .

ثم رأى الـشـمـس بـازغـة يـتـألـق نورها ؛ وينبعث منها شُعَاعها ؛ وقد كست الدنيا جمالاً ، وملأت الأرض حياة وبهاءً ، وأرجاءَ الكون نوراً وضياء ، فقال : هذا ربي ، هذا أكـبـرُ من كـل الـكـواكـب ، وأكثر نفعاً ، وأجلّ شأناً ، فلما أفلت كغيرها ، عن عبّادها رمـاهم بالشرك ، ووسَمهم بالكفر ، وقال : إني بريء مما تشركون ، فهذه الكواكب التي تـنـتـقـل مـن مـكـان الى مكان ؛ وتتحوّل من حال الى حال ، لا بدّ لها من خالق يدبّرها ويحرِّكهـا ، وإلــه يُـطـلـعـهـا ويسيرها ، فهي لا تستَـأهِل عبادة ولا تستحق إكباراً ولا تعظيماً .

وبـعـد أن أعلن انصرافه عن آلهتهم ، وبراءته من معبوداتهم ، أفاض في الحديث عمن يخصه بـخـضـوعـه ، ويـتـوجّـه اليه بعبادته ، فقال : (إني وَجَّـهْتُ وَجْهِي لِلذِي فَـطَـر السَّموَاتِ والأرضَ حَـنِـيفاً[1] وما أنا من المُشْرِكينَ) .

حـاجَّـهُ قومُه في ذلك الذي فجأهم به ، ودعاهم اليه ، عساه أن يرجع الى عقيدتهم ، أو يَـرتـدّ عـن ادعـائـه إشـراكـهـم ، فـقـال : أتحـاجُّـوني[2] في الله وقد هداني الى الصراط المستقيم ، وأرشدني الى الطريق القويم !

---

(١) فطر : خلق . حنيفاً : مخلصاً .

(٢) أتحاجوني : أتجادلوني .

خوّفوه بطش آلهتهم، وحذّروه أن تصيبَه بسوء، أو تُلحق به أذى إذا نَكل عن عبادتها، وتجانَف عن الخضوع لها، ولكنه لم يستمع الى نصحهم، ولم يستجب الى دعائهم. بل تعجب أن يخوّفوه شيئاً مأمون الجانب، لا يملك ضرّاً ولا نفعاً، وهم لا يخافون إشراكهم بالله ما لم ينزّل به عليهم سُلطاناً، وقد كان عليهم أن يحذروا الله ويخافوا عقابه، فقد ارتكبوا إثماً كبيراً، واقترفوا ذنباً عظيماً، فجزاؤهم ــ إن استمروا على كفرهم ــ جهنمُ، وبئس المصير.

إبراهيم في مصر

عمَّ القحط، وشمِل الجَدبُ والغلاء، وضاقت سبُل العيش في الشام، فرحل إبراهيم الى مصر، تصحبه زوجه سارّة، وَهبَط أرضها حين كان القابض على زمامها والمسيطر على أمورها، أحدَ ملوك العرب العماليق، الذين استبدّوا بالملك آونَةً من الدهر.

وكانت سارّة ذاتَ جمالٍ باهر. فوَشى بها أحدُ بطانة السوء الى الملك وأغراه بجمالها، وزيّن له حسنها، وحبّب إليه الاستحواذ عليها، فصادفت هذه المقالة رغبةً في نفسه، وهوًى في فؤاده. فدعا إبراهيم اليه وسأله عما يربطها من سبب، وما يصل بينهما من قرابة، ففَطِن إبراهيم الى مَأربِه، وعرف مَقصدَه، وخاف إن أخبره أنها زوجته أن يبيّت الشر له، ويعمل على الإيقاع به، لتخلُص له من دونه ويستأثر بها مِن بعده.

فقال له: هي أختي ــ والأختُ كما تكون في النسب تكون في الدين واللغة والإنسانية.

فَهِمَ الملك أنها ليْست بذات بَعْل[1]، فأمر أن يذهبوا بها الى قصره، ويسوقوها الى مَخْدَعه. ورجع إبراهيم الى زوجته، فأخبرها بقصته، وطلب اليها أن تكون مُصَدِّقة لقوله مؤكدة لخبره، ثم أسلمها لعين الله تحرسها، وعناية الله ترعاها وتحفظها.

---

(١) البعل: الزوج.

أدخلت الى قصره، وزُيِّنت بفاخر الثياب وثمين الحلى ولكنها لم تعبأ بهذا الزخرف البَـرّاق، ولا بذاك البَذخ الخلاب، ولم تُغْن بما أحيطت به من نعمة، وما رأت من سَعَةِ السلطان وبَسْطَةِ العيش، ولم يُنْسِها كلُّ ذلك الوفاء لزوجها والاستمساكَ بدينها، وجلست مكتئبة حزينة، بل انتبذت مكاناً قصيّا.

ولما أقبل الملكُ عليها، ورأى ما بها من لوعة وأسى، حاول أن يخفف من حزنها، ويؤنسَ وحشتها، ويزيل اكتئابها، فَجفَلت. وانْتكس[1] يحسُّ اضطراباً في نفسه، ووجيباً[2] في قلبه. وأراد أن يعيد الكَرَّة، فعاد اليه اضطرابه، وعاوده انتكاسه، فأوجس خيفة منها وأوى الى فراشه، وغطّ في نومه. ورأى رؤيا استبان بها وَجْهَ الحق، وتبيَّن منها سبيل الرشد، وعرف أنّ لها بعلاً، وأن عليه أن يخلي سبيلها، ويتركَها وشأنها، وألا يمسّها بسوء، أو يقربها بإثم.

فلما أفاق من نومه رأى أن لا مناصَ من إطلاق سراحها، فوهبها هاجر، خادماً لها، وأسْلمها الى زوجها.

فهل ترى مِحْنةً أشدّ، وفتنة أعظم من ذلك! رجل غريب يَفِد الى بلد يسعى فيه لطلب الرزق، فتُسلَب منه زوجُه، ويفرّق بينه وبين أهله!! ولكن الذي نجّى ابراهيمَ من حرّ النار وسعيرها، حفظه من وصمة العار، ونجّاه من الظلم والعُدْوان.

أقام إبراهيم بمصر ما شاء الله أن يقيم، وكان وادعَ النفس، دَمِث الخُلق، ليِّن العريكة، طويلَ الأناة، دَءوُباً على العمل، لذلك كثُرَ ماله ونمت أنعامه، وارتفع ذكره. ولكن القوم حسدوه على مكانته، ونَقَموا عليه سَعة نعمته، وسوَّلت لهم نفوسهم أن تمتد أيديهم اليه بالأذى. وأحسَّ منهم ابراهيم جَفوَة، فأزمع[3] الرحيل عنهم، وجعل وجهته فلسطين، تلك الأرض المقدّسة، التي اتخذها قبلُ موطناً، وأقام فيها زمناً. فانطلق حتى ألقى بها عصا التسيار.

---

(١) انتكس: انقلب على رأسه، والمراد رجع خائباً.

(٢) الوجيب: الاضطراب

(٣) ازمع الأمر: ثبت عليه عزمه.

اسماعيل (*)

هاجر ابراهيم الى فِلَسطين، ومعه زوجه سارة، وخادمتها هاجر، واستاقوا معهم أنعامهم، واحتملوا ما يملكون من مال جزيل، وخير جليل، وأقام وسط أهله وعشيرته، وبين الطائفة القليلة التي آمنت به.

كانت سارة عقيماً لا تلد، وكان يحزِنها أن ترى بعلها الوفيّ يتطلع الى النسل وقد أصبحت هي على حال لا يرْجَى فيها الولد، فقد بلغت من الكِبر عتِيّاً، فأشارت على زوجها أن يدخل بأمَتِها هاجر؛ وهي الوفيةُ الكريمة، المطيعةُ الأمينة، علّها تنجِب ولداً تشرق به حياتها، ويُسَرِّي عنهما بعض ما يَجدان من لوعة الوَحدة ومَرارة الوحشة، فانصاع لرأيها وخضع لإشارتها.

فلما وهبته إياها أنجبت غلاماً زكياً، هو اسماعيل، فانتعشت نفس ابراهيم وقرّت عينه؛ ولعل سارة قد شركت ابراهيم في سروره؛ وشايعته في بهجته، ولكن الغَيْرة لم تلبث أن دبت الى قلبها، بل عصفت بها أعاصيرُ شديدة من الحزن والشجَن، أثارهما قلقُها واضطرابها، فَحُرمت الهدوء والهجوع[1]، وتشعب لبُّها، وعقدت عليها الكآبة سحابة مُطْبِقة، وأصبحت لا تُطيق النظر الى الغلام، ولا تحتمل رؤية هاجر.

وهي الآن مُلْتاعةٌ متحسرة؛ كئيبة متذمرة، لم تجد دواء لعلّتها؛ وكشفاً لدائها إلا إقصاءه وأمه عن دارها؛ وابعادهما عن عينها. فتمنّت على زوجها أن يذهب بهاجرَ وطفلها الى أقصى الأماكن، حتى لا يصلَ صوتها الى سمعها، ولا تقذَى برؤيتها عينُها.

(*) ابراهيم ٣٧ و٣٨.

(١) الهجوع: الراحة.

أذعن لإرادتها ؛ وكأن الله أوحى اليه أن يُطيع أمرها[1] ، ويستجيب الى رجائها ؛ فركب دابته ، واصطحب الغلام وأمّه ، وسار ترشده إرادة الله ، وتحْدُوه عنايته . وطال به السير ، وامتدّ الطريق ، حتى وقف عند مكان البيت . فأنزل هاجر وطفلها في هذا المكان البَلقَع[2] ، وتركهما في تلك البقعة الجرداء ، وهما ضعيفان لا يملكان شيئاً ، سوى مِزْوَد[3] به قليل من الطعام ، وسِقاء فيه شيءٌ من الماء ، وإيمانٌ بالله يَعمُر قلبها ، ويغمر نفسها .

ترك الديار ، واستودعهما في هذا المكان ، وقفل راجعاً . فتبعته أم إسماعيل وتعلقت به ، وأمسكت بثوبه ، وقبضت على خِطام[4] دابته ، وقالت : يا إبراهيم الى أين تذهب ؟ ولمن تتركنا بهذا الوادي الموحِش المقفر !

حاولت أن تستعطفه ، ولعلها قد أشارت الى ابنها تسترحمه بحقه ، وتتوسل اليه بفلذة كبده ، وترجوه ألا يخلّيَ بينهما وبين الجوع القاتل ، والعطش المميت . وقد تكون سألته : مَن يحميها مِن سَطو الذئاب ؟ ومن يمنعها من فتك الوحوش ؟ وكيف يحتملان لَفح الشمس ، وحرارة الجوّ ؟ وأسالت تحت قدميه العبرات الغزيرة ، وذرفت الدموعَ السخينة ، ترجو أن يُصيخَ الى استعطافها ، ويستجيب الى ندائها ، ولكنه لم يستمع الى قولها ، ولم تَلِنْ قناتُه لرجائها ؛ بل أبان لها أن ذلك أمرُ الله وتلك إشارته ، فلا بُدّ لها من الخضوع لحُكمه ، والتسليم لأمره ! فلما علمت بذلك كفّت عن حِوَاره ، واستسلمت لأمر الله ، وركَنَتْ الى رحمته ، وقالت : لن يضيّعنا .

أما إبراهيم فإنه انحدر من تلك الرّبوة يُثقِله الإشفاق والخوف ، ويدفعه الإيمان والثقة بالله ؛ ولا شك أنه الآن يتحسّر جوى ولوعة ، لبِعاده فلذة كبده ، وفِراقُ حُشاشة نفسه ، ووداعِ بكْرِه الذي اكتحلت عيناه به بعد أن اكتمل عمره أو كاد . وكان يُصَعّد

---

(١) لعل المقصد من أمر الله لابراهيم بحمل ولده اسماعيل ليبقى ابراهيم خليلاً لربه وتبقى المكانة الأولى لله ، وهذا هو الإيمان .

(٢) البلقع : الأرض القفر

(٣) المزود : ما يجعل فيه الزاد .

(٤) الخطام : الزمام .

الزفرات ، ويختنق بالعبرات . ولكن إبراهيم في مكانه من الله ، وفي مقامه من النبوّة لا بد أن يصبر على البلاء ، ويستسلم للقضاء . لذلك سار الى وطنه ، وخلّف وراءه وحيده في تلك البقعة النائية ، وهو يدعو الله أن يكلأه بعنايته ، ويقول : (رَبَّنَا إني أسكَنْتُ مِن ذرّيّتي بِوَادٍ غيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيقيمُوا الصلاةَ فاجْعَل أفئِدَة مِنَ الناسِ تَهوِي إليهِمْ وارْزُقهُم مِن الثمَراتِ لعَلّهم يشكُرُونَ) .

نبع زمزم

قد امتثلت هاجَر للقضاء المحتوم ، وتحلّت بالصبر الجميل ، ومكثت تأكل من الزاد ، وتشرب من الماء ، حتى نفذا ؛ فَخوَي بطنها وعَصِبَ[1] ريقها . واحتملت ذلك صابرة . ولم يلبث أن جفّ ضرعُها ، وأصبحت لا تجد لبناً تُرْضعه الطفل ؛ أو ماء يَبُلّ صداه . وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش ؛ فبكى وانتحب ، وصرخ وأعول ؛ وأمه تتقطّع نفسُها حسرات ؛ ودموعها تنهمل غزيرات ؛ وودّت أن تَروي ظمأهُ بدموعها ؛ وأن تردّ عنه غائلة العطش بماء عينيها ؛ ولكن هيهات !

حاولت أن تجد لها من مَأزقها مخرجاً ؛ وكان قذى في عينيها أن ترى ابنها يتلوّى . وتتبّع نفَسه أمامها ، فتركته مكانه ، وسارت هائمة على وجهها ، تعدو وتُهَرول ، وقد هاجها الْتِياعُ طفلها ، وأحزنها بكاؤه ونحيبه . وأخذت تبحث عن الماء ، وتفتّش له عن غذاء ، حتى قرعت صَفاة الصفا[2] ، ثم عادت فَزِعة مذعورة لهول مُصابها في وحيدها . وسعت نحو سَرَاب حسبته ماء عند المَرْوَة ، حتى إذا جاءته لم تجدْ شيئاً ، ثم كرّت راجعةً الى هدفها الأول ، ورجعت ثانية الى غَرَضِها الثاني ، وهكذا سعت سَعي المجهود سبعة أشواط[3] والطفلُ يصيح ويَصخَب ، يقطّع بصوته نِيَاط قلبها ، ويَحِزّ بعويله في أعماق فؤادها .

---

(١) عصب الريق ــ بفتح الصاد وكسرها : جف ويبس .

(٢) الصفا والمروة : جبلان بمكة .

(٣) هذا هو أصل السعي الذي يقوم به الحجيج .

رُحْمَاكَ يا رب ! هذا طفل جف حَلْقه حتى عيَّ عن البكاء ، وانقطع عن الغذاء حتى خارت قواه ، وخفتت أنفاسه ! وهذه أم ترى وحيدها يُسْلم رُوحه ويجود بنفسه ، وهي لا تجد لها مُعِيناً في وَحدتها ولا سَلوة في مصابها ! إنه الآن يفحص الأرض برجليه ويضرب الصَّلد بقدميه ، عله يرقُّ لحاله إذ قست القلوب ، ويلين لاستعطافه إذ عزَّ النصير ، وهذا هو ذا يضرب ويضرب ؛ فإذا الماء قد انبجس من تحت قدميه ، وفار من قَرْع رجليه ! وإن من الحجارة لما يتفجَّرُ منه الأنهار !

رأت رحمةَ الله تحوطها ؛ وعنايةَ ربها تُظِلُّها ؛ فجلست خائرةَ القُوى ، يقطر العرقُ من جبينها ، وأكبّت على الطفل متلهفة ، تروي ظمأه ، وتُبلّل بالماء شفتيه فسرّها أن ترى الحياة تَدِب في جسمه ، وأن يُقبلَ عليها في لهفة وشوق ؛ فتضمه الى صدرها ، وتُرَبِّت[1] عليه بيدها ، تكفكف دموعه ، وتسرِّي عنه شجونَه وأحزانه . حتى إذ اطمأنت على وليدها ، وعادت اليها الثقة بنجاته ، وعاودها السرورُ بحياته ، ارتوت هي أيضاً ، فسرتْ فيها الحياة ، وانقشعت تلك السحابةُ السوداء التي أظلّتها زمناً ، وذلك بفضل الله وعنايته .

هذه العينُ هي زمزمُ ولا زالت قائمة يزدحم حولها الحجيج[2] ، ويستبِقُ الناس الى حوضها ، علّهم يفوزون بقطرة ، أو يرجعون بِشَرْبَة

ولما نبع الماء اجتذب الطيرَ اليه ، فحوّمت حوله ، وحلقت فوقه ، وكان قوم من جُرْهم يسيرون قُرْبَ هذا المكان ، فرأوا الطيرَ تحط في ساحته ، وتُحَوِّم[3] فوقه ، وإنهم ليعرفون أن الأطيار لا تقع إلا على ماء ، فأرسلوا واردَهُم[4] يرتاد المكان ، ويخبرهم بخبره . ولما ذهب اليه وجد الماء فرجع يَزِف الى قومه البُشرَى ، فوفدوا اليه زَرَافات ووُحدانا[5] ، واتخذه بعضهم موطناً ومُقَاما ، فأنِست هاجَرُ بهم ، واطمأنت الى جوارهم ، وشكرت لله أن جعل أفئدة من الناس تهْوِي اليهم .

---

(١) التربيت : ضرب اليد على جنب الصبي لينام .

(٢) الحجيج : الحجاج .

(٣) تحوم : تحلق .

(٤) كل من أتى مكاناً أو غيره فقد ورده .

(٥) جماعات وأفراداً .

اسماعيل الذبيح (*)

لم ينسَ إبراهيم ابنه ، بل كانَ يفِد اليه لِماماً[1]، ويزوره غبّـاً ، ليطمئن على حاله ، ويقرّ عيناً بمرآه . فلما شَبَّ وأطاق السعي والعمل ، رأى إبراهيم في نومه أنه يؤمَر بذبح ولده ــ ورؤيا الأنبياء حق ، وأحلامهم صدق[2] .

فتنةٌ اثر فتنةٍ ، ومحنة تَتلوُها محنة : شيخ هرم ، جالد الأيامَ ، وعَرَكَ الدهر ، وأحْنته السنون ، قد كان طولَ حياته يأمُلُ الولد ؛ حتى إذا بلغ من الكِبرِ عِتِيًّا[3] ؛ رزقه الله بغلام وحيد ، قرّت به عينُه ، وأشرقت له نفسُه ، ثم أمِر بأن يُسكِنَه بوادٍ غير ذي ذرع ، ويتركه وأمه في مكان قفر ، ليس به حسيس ولا أنيس[4] . وامتثل لأمر الله ، وتركهما هناك ثقة بالله ، وإيماناً به ، وإطاعة لأمره . فجعل الله لهما من ضيقهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان ؛ ثم يؤمَر بذبح الولد العزيز ، الذي هو بكره ووحيده ! إن هذه لمحنة تنوء بها الجبال الراسيات ؛ ولكنّ العظائمَ كفؤها العظماء ، فعلى قدر إبراهيم ، وعُلوّ منزلته ، وعلى مقدار ثبات يقينه ، وكمال إيمانه ــ يكون ابتلاؤه واختياره[5] .

استجاب لربه ، وامتثل لأمره ، وسارع الى طاعته ، وارتحل حتى لقِيَ ابنه ، ولم يلبث أن ألقَى اليه بتلك الرغبة التي تدكُّ الجبال ، وتنتزع القلوب من الصدور فقال : يا بُنيّ : إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟

(*) الصافات ١٠٢-٢١٢ .

(١) لماماً : بين فترة وأخرى .

(٢) يقول ص : رؤيا الأنبياء وحي

(٣) عتا الشيخ يعتو عتيا ــ بضم العين وكسرها كبر وولى .

(٤) ليس به أحد .

(٥) الأولاد أفلاذ الأكباد يتأذى الآباء بمصائبهم ولكنهم لا يخرجون عن كونهم عبيد لله .

عرض عليه الأمر : ليكونَ ذلك أطيبَ لقلبه ، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ، ويذبحه قَهْراً .

فبادر الغلام بالطاعة ، وأسرع الى الإجابة ، فقال : يا أبت افعلْ ما تؤمر ، ستجِدني إن شاء الله مِن الصابرين .

بِرٌّ عظيم ، وتوفيق من الله أعظم ، وإيمان وثيق ، ونفس راضية بما أراد الله وقدّر[1] .

ثم أراد أن يخفّف عن أبيه لوعة الثُّكل ، ويرشده الى أقرب السبُل الى قصده ، فقال : يا أبتِ ، اشددْ وَثاقي ، وأحْكم رباطي حتى لا أضطرِب ، واكشف عني ثيابي ، حتى لا يَنتَضِح[2] عليها شيء من دمي ؛ فينقص أجري ، وتراه أمي : فيشتدّ حزنها ، وتفيض شئونها[3] ، واشحذْ شَفرتك ، وأسرع إمرارَها على حلقي ليكون أهونَ عليّ ، فإن الموت شديد ، ووقعه أليم ، واقرأ على أمي السلام وإن أردت أن تردّ قميصي عليها فافعل - فإن ذلك فيه تسريةٌ لهمّها وسَلْوة لها في مصابها ؛ وهو ذكرى لوليدها ؛ تشتمّ منه عَبيره وتتنسَّم فيه أريجه ، وتعود اليه حين تبحث حولها فلا تجدني ، وتفتش عني فلا تراني .

قال إبراهيم : نعم العونُ أنت يا بنيّ على أمر الله ! ثم ضمه الى صدره ، وأخذه يقبله ، وتباكيا وانتحبا .

ثم أسلم إبراهيمُ ابنه ، فصرعه على شِقه ، وأوثقه بكتافه ، وأمسك السكين وأخذ يصوّب النظر اليه مرّة ، ويحدق في ابنه مرّة أخرى ؛ ثم تدفّقت عبراته ، وتتابعت زفراته رحمةً به ، وإشفاقاً عليه . وأخيراً وضع السكّين على حَلْقه ، وأمرّها فوق عنقه ، ولكنها لم تقطع ، لأن قدرة الله قد ثلمت[4] حدّها ، وفلّت من غَرْبها[5] .

---

(١) الرضا بالقضاء من الايمان وهذا لا يمنع أن يكون للانسان طموحاً ، يطمح في زيادته غداً أما اليوم فقد رضي بما قسم الله له .

(٢) ينتضح : يصيبه ويبله .

(٣) الشئون : الدموع .

(٤) ثلم كل شيء : كسر حده .

(٥) غرب كل شيء : حده . وفلت : كسرت .

فقال إسماعيل : يا أبت ، كبّني على وجهي ، فإنك إذا نظرتَ إليّ أدركتْك رحمةٌ بي تحول بينك وبين الله . ففعل . ثم وضع السكين على قفاه ، فلم تمض الشفرة ، ولم تفْرِ الأوداج . وأدركت إبراهيم الحيرةُ ، وشقّ ذلك على نفسه ، فتوجه الى الله أن يجعل له مخرجاً . فرحم الله ضعفه ، واستجاب لدعائه ، وكشف غُمته ، ونودي : (أنْ يا إبراهيمُ قَدْ صدّقت الرُّؤيَا إنّا كذلك نَجزي المُحسنين) .

فاستبشَرا بالفوز ، واغتبطا بالنجاة ، وحَمِدا الله على ما أنعم به عليهما من دَفْع البلاء وكشْف الغمة ، وقد نالا جزيل الثواب ، وخير الجزاء ، وصارا بعد هذا الاختبار أصفى نفساً ، وأثبتَ إيماناً ، وأرسخ يقيناً ، إن هذا لهو البلاء المبين[1] .

فدَى الله إسماعيل بِذِبْح[2] عظيم ، رآه بجواره ، فأقبل عليه ، وهوى بتلك السكين التي كانت كليلة ، وأمرّها على حلقه ، فصُرع لوقته وخضّب الأرض بدمه ؛ فكان فداء لابنه ؛ وحقْناً لدمه . ثم صار ذَبْح الضحايا أمراً متبعاً يساهم فيه المسلمون كل عام ، ذكرى لذبح إسماعيل ، وشكراً لله على نعمته

إسماعيل وجرهم

حلّق الطير في سماء تلك البُقعة التي نبع فيها الماء ، وحوّمت حول هذه البئر أسرابُه ، وسَرَت في حلق المكان حياة جديدة ، وإن لم يتصل خبرُها بأحد ، حتى رأى قوم من جُرْهُم كانوا قد نزلوا في أسفل مكة طائراً عائفاً[3] فقالوا : إنّ هذا الطائر ليَدُور على ماء ، وعَهْدُنا بهذا الوادي صحراء بلْقع ! ثم أرسلوا رائدَهم ، فسار حتى وجد الماء فرجع

---

(١) البلاء : الاختبار .

(٢) الذبح . بالكسر : ما يذبح .

قال ص : احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ...

(٣) عائفاً : محوما .

يزف إليهم البشرى ، فأقبلوا فرحين ، ووفدوا مسرعين وحلّوا بالمكان ، فرأوا أمّ إسماعيل عند الماء فاستأذنوها في النزول بجوارها ، والسُّقْيا من مائها . فأذنت لهم على أن يكونوا ضيوفاً مُكْرَمين ، لا مقيمين مغتصبين .

فنزلوا على إرادتها ورَضُوا حكمها ، ثم أرسلوا الى أهليهم فأقبلوا إليهم يَزِفُّون[1] واجتمع بهذا الحي منهم أهلُ أبيات كثيرة .

ثم شبّ إسماعيل ، واستقام عودُه ، وذاع صيته ، وطار ذكرُه ، واختلط بالقوم وحاكاهم في لغتهم ، وتعلّم لسانهم ، وأخذ العربية عنهم ، ثم تزوّج بواحدة منهم ، فتمّ اندماجه فيهم ، وتوثّقت صلتُه بهم وما أظنه إلا قرّ عيناً باكتمال نموّه ، وامتلأ سروراً باجتماع أسباب السعادة له . ولكن الدهر قُلّب ، فها هي ذي المنيّة تختطف أمه ، فعزّ عليه فقدُها ، وتفطّر قلبه حزناً عليها ، فقد تعهدته في مَهْدِه ورعته في طفولته ، وأظلّته بحنانها في شبابه ، وكانت له دائماً ، عَضُداً في الملمّات ، ومُعيناً في النازلات

ولم يكن لإبراهيم أن ينسى وديعته ، وأن يَسلوَ فلْذَة كبده ، لذلك كان يتردّد على هذا المكان الذي ترك فيه أهله وولده ، يتفقد حال ابنه . فوفد الى مكة مرة ، وأتى بيت إسماعيل ، فلم يجد به إلا امرأته ، فسألها عنه ، فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم شيئاً ، ثم شكت إليه سوء الحال ، وضِيق اليد ، وشَظَف العيش . فرأى فيها امرأة متمردة على القدر ، ناقمةً على القضاء غيرَ راضية بما قسمه الله لها ، ورأى أنها لا تصلح لابنه زوجاً ، لتبرُّمها[2] بالحياة معه ، وشكواها من معاشرتها إياه . فأشاح ابراهيم عنها بوجهه ، ولوى عِنان[3] دابته ، بعد أن حمّلها السلام لابنه ، وأوصاها أن تبلّغه أن يغيّر عَتبةَ داره ، يكنّي بذلك أن يفارق زوجته ، وأن يستبدل بها خيراً منها .

وبعد لأيٍ[4] أقبل إسماعيل الى أهله ، وكأنه أنِس شيئاً . فقال لامرأته : هل جاءنا

---

(١) يزفون : يسرعون .

(٢) تبرم : ضجر وكره .

(٣) عنان : زمام .

(٤) اللأي : اللبث والإبطاء .

اليوم أحد ؟ فقالت : نعم، طرقَ بابنا شيخ صفتُه كَيْتَ وكَيْتَ، سألنا عنك فأخبرناه بخبرك، وأظهر حَدباً عليك، ورغبةً في تَعَرُّف أمرك، وتبين حالك، فأعلمْتُه بما نحن فيه من الضيق والشدة.

قال إسماعيل : هل أوصاك بشيءٍ؟ قالت : نعم، هو يقرأك السلام، ويوصيك أن تغيّر عَتبة دارك. فقال : ذاك أبي، وقد أمرني بفراقك. وتركها غير آسفٍ عليها.

ولم يلبث إبراهيمُ أن يتفقَّد ولده، ويطفىء لهيب شوقه، وأتى دار إسماعيل، ولكنه لم يجد فيها إلا امرأته، فسألها عن مقرّه ومَحطّ رحاله، فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم رزقاً.

ولما همّ بالرجوع التفت إليها يسألُها عن حالها، ويستخبرها خبرهما، فَلهِج[1] لسانُها بالثناء، وفاض بالحمد، وذكرت له أنها في خير من الله كثير، وفيضٍ من نعمته عميم، حينئذ اطمأن قلبهُ، وانشرح صدره إذ رآها قانعة راضية، شاكرة مؤمنة، وعلم أنها وزوجها في خير وسَعة، فأمرها أن تُقْرىء زوجها السلام، وتوصيه أن يحافظ على عَتبة داره، وقفل راجعاً الى أهله.

ولما طُويَ النهار أقبل إسماعيل الى أهله كعادته، ولم يلبث أن تجاذب وزوجته أطراف الحديث، فأخبرته أن شيخاً حسن الهيئة وسيم الطلعة، يُجَلّله الوقار، وتكسوه الهيبة، قد طرق اليوم بابهم، ووَلج[2] دارهم، وأنه قد استنبأها خبره، وأراد الوقوف على أمره، فأخبرته أنها في خير وسعة وأنه قد أوصاها أن تُقْرئه السلام، ويأمره أن يثبّت عتبة داره.

قال إسماعيل : ذاك أبي، وقد أمرني ألا أفارقك. فلازمها حياته، وكانت أمّ أبنائه.

---

(١) لهج بالشيء : أغري به وثابر عليه.

(٢) ولج : دخل.

بناء الكعبة (*)

لبث إبراهيمُ بعيداً عن ابنه ما شاء له أن يلبث، ثم وفد إليه، لا ليتفقّد أمره، أو يتعرف حاله، أو يُروِي صَدى شوقه، كما كان يفعل ــ بل جاء اليوم هذه البقاع لأمرٍ جليل، وشيء عظيم، فقد أمِر ببناء الكعبة، وإقامة أول بيت للناس. فاستجاب لأمر ربه، واضطلع به غير هيّاب ولا وَجل، وخف الى الحجاز، وجدّ في البحث عن إسماعيل، وأخذ يَجُوبُ مواقع الماء، ومنازل القبائل، ومضارب الخيام، حتى عثر عليه، وقد جلس تحت شجرة باسقة الفروع، وهو يَبري سِهاماً له قريباً من زمزم.

ورآه إسماعيلُ مقبلاً، فنفضَ يده مما كان يُعالجه، وخفّ الى استقباله، وقد تهلّل وجهُه، وانبسطت أساريره، وانشرح صدره، واندفع إليه مُهَللاً. وسَرعان ما تعانق الوالد والولد، وبثّ كلٌ منهما للآخر ما يجب. وبعد أن أطفآ جذوةَ الشوق، وخفّفا لوْعَة الفراق، جلسا يتحادثان. ولو مَددْتَ عينيك لرأيتَ مظاهر الحنان والعطف، وأحسست بوادرَ السرور والغبطة، للقاء هذا الولد البارّ بذلك الوالد الرحيم.

مضى عليهما في هذا المقام وقتٌ طويل[1]، أفاقا بعده في نَشْوَة السرور، وهناك أفضى إبراهيم الى ابنه بسرٍ رهيب، وأخبره بأمر عجيب، فقال: يا بنيّ، إن الله قد أمرني أن أبنِيَ هنا بيتاً ــ وأشار الى أكمَةٍ[2] مرتفعة على ما حولها. فكان إسماعيلُ أطوع له من بَنانه، وما كان جوابه إلا السمع والطاعة.

ثم سارا الى المكان يَحْدُوهما الرجاء، وَتُزجيهما[3] قوة من الله تشدّ من أزْرهما وتقوّي من عزمهما، وصارا بالمعاول يحفران، ويرفعان قواعد بيت الرحمٰن، وهما يسألان الله

(*) البقرة ١٢٥/١٢٩، آل عمران ٩٦. الحج ٢٦. إبراهيم ٣٥.

(١) أراد الله من إبراهيم أن تكون صلته باسماعيل صلة ايمانية أكثر منها دموية.

(٢) الأكمة: الموضع يكون أشد ارتفاعاً من غيره.

(٣) تزجيهما: تدفعهما.

ويقولان: (ربَّنا تَقَبَّل مِنّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العليم. رَبَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وأرِنَا مَناسِكَنا وتُبْ عَلَيْنا إنَّكَ أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

ولم يلبثا طويلاً حتى وُضع الأساسُ، وظهر موضع البناء، ثم جعل اسماعيلُ يأتي بالحجارة، ويهيء الأدواتِ والآلات، وإبراهيم يبني. ولا شك أنه قد كانت هناك قوة تعاونهما، حتى يضطلعا بهذا الأمر الخطير، ويستطيعا وحدهما القيامَ بهذا العبء الثقيل.

ارتفع البناءُ، وطَال الجدارُ، وقَصرت يَد إبراهيم أن تنالَ أعلى البناء، وضُعف الشيخ عن أن يرفع الحجارة الى هذا العلو، فقال: يا بُنيّ، اطلبْ لي حجراً أضعُهُ تحت قدميّ لعلّي أستطيع إتمام ما بدأت، وأشْرِف على ما بَنيْت.

فذهب إسماعيل يجدّ في البحث، حيث عثر على الحجر الأسود، فقدّمه الى أبيه، فقام إبراهيم عليه، وصار يبني، واسماعيل يناوله. وكلما كملت ناحية انتقل الى أخرى، وكلما فَرَغ من جدار سار الى آخر، وهكذا تمَّ بناء البيت الذي جعله الله مثابةً للناس، تشتاق إليه أرواحُهم، وتحنُّ إليه أفئدتهم استجابةً لدعاء إبراهيم إذ قال: (فاجْعَل أفْئِدَة مِنَ النَّاسِ تهوِي إليْهِمْ وَارْزُقهُم مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرونَ)[1].

لوط (*)

رحل إبراهيم عن مصر، واصطحب معه في سَفَره لوطاً، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير، وخير مَوْفُور، ونزلا بتلك الأرض المقدّسة، ثم ضاقت بأنعامهما وأغنامهما بُقعة الأرض التي نزلا بها، فنزَح لوط عن مَحَلة[2] عمه إبراهيم، واستقرّ به المقام بمدينة سَدُوم.

---

(١) إبراهيم ٣٨.

(*) الأعراف ٨٠-٨٤، النمل ٥٤-٥٨، هود ٧٧-٨٣، العنكبوت ٢٦-٣٥، الشعراء ١٦٠-١٧٥، الحجر ٥٧-٧٧، الصافات ١٣٣-١٣٨، الأنعام ٨٦، الأنبياء ٤٧-٥٧، الحج ٣٤-٤٣، ق ١٣-١٤، القمر ٣٣-٣٩.

(٢) المحلة: منزل القوم.

وقد كان أهلُها ذوي أخلاق فاسدة، ونوايا سيئة، لا يتعفّفون عن معصية ولا يتناهَوْن عن مُنْكَر فَعلوه، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة، يقطعون الطريق ويخونون الرفيق، ويتربّصون لكل سار، فيجتمعون عليه من كل حدب وصَوْب، ويسلبُونه ما حمل، ثم يتركونه يَنْدُب حظه، ويبكي ضياع ماله، لا يردّهم عن ذلك دين، ولا يصدهم حَياء، ولا يَرْعوُون لوعظِ واعظ، ولا يستمعون لنصيحةٍ من عاقل.

وكأنّ نفوسهم الظامئة الى الإثم لم تَروِها تلك الذنوب، وأفئدتهم المتعطشة الى الإجرام لم تكفها هذه القبائح، فابتدعوا فاحشة لم يُسبقوا الى اجترامها، وتعاطَوْا محرّماً ما كان يدور بخَلد أحدٍ اقترافُه، فكانوا يأتون الذُّكران من العالمين، ويَذَرون[1] ما خلق الله من النساء فلا يقربونهنّ.

وليتهم ستروا بليَّتَهم، أو حاولوا الخلاص من عارها، والبعد عن شرِّها: ولكنهم كانوا يحملون الناس على مُشايعتهم، ويدعونهم الى المتح[2] من قليبهم[3] وتمادوا في ضلالهم، حتى فشتِ المنكرات، وكثرت الموبِقات، وأشربت قلوبُهم حبّ الفاحشة.

ولما أصاب القوم ما أصابهم، واستحبُّوا الضلالة على الهدى، وآثروا الغَواية على الرُّشد، واستحوذ عليهم الشيطان يستميلهم الى المعاصي، ويزيِّنُ لهم الشهوات — أوْحى الله الى لوط أن يدعوَهم الى عبادة الله، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم، فأذّن فيهم بدْعوَته، وأعلن بينهم رسالتَه، ولكنّ آذانهم وقَرَتْ، وعيونهم عُمِيتْ، وقلوبهم غُلِّفت، فاندفعوا في شرورهم، واستمرّوا على فجورهم، وتمادَوا في طغيانهم، ولم يرتدعوا عن غيِّهم؛ بل حدّثتْهم نفوسهم الأمّارة بالسوء، وسوّلت لهم عقولهم التي أضاعها العبث، وتملّكها الشرّ؛ أن يُخرجوا رسولَهم من بين ظَهْرَانيَهم، فتوعده ومن آمن معه

---

(١) يذرون: يتركون.
(٢) المتح: استخراج الماء من البئر
(٣) القليب: البئر.

بـالإبـعـاد عن قريتهم، مع أنه لم يـرتكب جُرماً إلا بُـعْـدَه عن مساوئهم، ولم يقترف إثماً إلا أنـه تـطـهّـر من دنـسـهـم، ونَـعـى عليهم طريقَهم، ونأى عن قبائحهم، ودعاهم الى الطريق السوِي، وهداهم الى الصراط المستقيم.

ولـمـا رأى منهـم مَـيـلاً عـن طـاعـتـه؛ خـوّفهم بأس الله وعذابه، فلم يأبهوا لتحذيره، واستـخـفـوا بـوعـيده، فألحّ عليهم بالعِظات، وأنذرهم سوء العاقبة، ولكنهم لم يُقلعوا عما كـانـوا فيه، بل ازدادوا تعلقاً به ورغبة فيه؛ وتحدّوه أن يأتيَهم بالعذاب، وَيُنزل عليهم ما يستحقون من عقاب.

سـأل لـوط ربَّـه أن يـنـصـرَه على هـؤلاء القوم المفسدين، ويُوقع بهم العذاب الأليم، وطـلـب إليه أن يجزيَهم على كفرهم وعنادهم، ويعاقبَهم على بَغيهم وفجورهم، فهُم الداء الـوبـيـل الـذي يُخاف انتشاره، والعضو المريض الذي لا بدّ من استئصاله. ألم يعيثوا في الأرض فـسـاداً! ألم يـصدّوا عن سبيل الله، ويُصِـمّوا آذانهم عن طريق الخير، ويتنكبوا سبُل الهداية!

اسـتـجـاب الله دعاءه، وحقّـق سؤاله، وبعث ملائكته الى أهل هذه القرية الظالِـم أهلُـهـا، ليُنزلوا بهم ما يستحقون من عقاب، فعاجوا[1] أولاً بدار إبراهيم؛ فحسبهم عابري سـبـيل، فقدّم اليهم خيرَ ما يقدّم للأضياف؛ ولكن أيديهم لم تمتدّ الى قِـرَاه[2]، فنكِـرَهـم[3] وأوجَس منهم خِـيفة، قـالوا: لا تخفْ؛ ولم يزايلوا[4] المكان حتى بشّروه بغلام عليم.

ومـا أظـنّ إبـراهيم قـد أفـرَخ رَوْعـه[5] أو سـكـن وجيبُ[6] قلبه؛ لذلك استفسرهم عما يـقـصـدون، وقـال: مـا خـطـبـكـم أيها المرسَلُون؟ قالوا: إنا أرسِلنا الى القوم الذين لم

---

(١) عاج بالمكان: نزل به.
(٢) القرى: ما يقدم للضيف.
(٣) نكره: أنكره.
(٤) يزايلوا: يفارقوا.
(٥) افرخ روعه: ذهب فزعه
(٦) وجب القلب وجيباً: اضطرب.

يستجيبوا لدعوة لوط فكانوا من المجرمين ، وسننزل بهم عذاباً أليماً وبأساً شديداً ، جزاء ما اقترفوا من فجور ، واعتادوا من شرور .

عظم حزنُ إبراهيم ، وأخذَ يجادلهم في قوم لوط ، ويرجو تأخير البلاء ، وتأجيل وقوع العذاب ؛ ولعله كان يأمُل منهم الإنابة الى الله ، والإقلاع عما يرتكبون من الذنوب ، والرجوع عَما يقترفون من الفواحش ؛ وقد يكون إبراهيم قد خاف أن يُمَسّ لوط بأذى ، وهو مؤمن منكر لما يرتكبون ، ساخطٌ على ما يجرحون ، وهو لذلك ليس أهلاً للعقاب ، ولا مستحقّاً للعذاب ، فأمرته الملائكةُ أن يهوّن على نفسه ، ويخفّف من حُزْنه ، ويَدَعَ الإنابة الى الله من أجل هؤلاء القوم الذي يُصِرُّون على المعْصية ، ويستمسكون بالخطيئة ، وأنبَأوه أن لوطاً لن يصيبَه أذىً ولن يمسه عذاب ، وسيكون هو وأهله من الناجين إلا امرأته ، فإن هَواها معهم ، ورأيها تبعٌ لرأيهم .

ولما فَصلت[1] الملائكة عن إبراهيم أتَوْا أرض سَدوم[2] في صورة شُبّان حِسان ، وفيما هم يهمون بدخول هذه القرية عرضت لهم جارية تستقي الماء لأهلها فسألوها أن تضيفَهم[3] ، فأشفقت من قومها عليهم ، واستضعفت نفسها عن حمايتهم ، وأرادت أن تستنجد بأبيها في الدفاع عنهم ، فأمهلتْهُم حتى تذهبَ إليه فتستشيره في أمرهم ، وأتت أباها . فقالت : يا أبتاه ، أرادك فتيان على باب المدينة ، ما رأيتُ وجوهَ قوم قطُّ أصبحَ من وجوههم ، وأخاف أن يعلم بأمرهم قومُك فيفضحوهم .

هذا الوالد هو لوط ، وهذه الجارية هي ابنته ، ولا أظنّ لوطاً إلا دَهشَ لهذه المفاجأة ، وأقبل على ابنته يسألها عن أمرهم ، ويستزيدها الحديث في شأنهم ، ويستلهِمُها[4] خير السُّبل التي ينتهجها ، وأفضل الطرق التي يتبعها .

---

(١) فصلت : رجعت .

(٢) سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط وقيل هي بالذال . لسان العرب (سدم) .

(٣) أضاف الرجل : أنزله ضيفاً

(٤) يستلهمها : يشاورها .

ولعله قد تردّد في السعْي لاستقبالهم ، وحار في قبول ضيافتهم ، وحدّثته نفسه أن يبعث إليهم بعُذْره ، أو يظْهِرَهم على أمره ، فيكْفُوه مدافعته لقومه ، ويتركوه وشأنه ، ولكن الأرْيَحية[1] هزّته ، والمروءةَ دفعته ، فاستصغر هذه الصعاب ، واستخف بتلك العقبات ، وخرج إليهم خِفية ، وهو ينأى عن عيون القوم ، ويحاول أن يصلَ الى ضيفِه[2] قبل أن يعترضوا طريقه ويصدّوه عن سبيله ، فقد حالوا بينه وبين العالَمين ، وأمروه ألا يستضيفَ أحداً ، ونهَوْه أن يأويَ في منزله طارقاً ، وكأني بهم قد حسبوه داء وبيلاً ، فخافوا انتشاره ، وظنوه خطراً جسيماً فخشوا طغيانه ، وما هو إلا عدو لقبائحهم ، ومنكِرٌ لمفاسدهم .

تسلّل لوط خِفيةً ، وسار حتى التقى بالملائكة ، فاستقبلهم بِبشْره ، وتلقّاهم بوجهه ، ثم دعاهم الى مصاحبته ، وتقدّمهم نحو بيته . ولكن الوساوسَ جاشَتْ في نفسه ، والمخاوف دبّتْ الى قلبه ؛ فضاق ذرْعاً بضيافتهم وخاف أن يعلم قومهُ بنزولهم ، ويقفوا على دخيلة أمْرِهم ، فيهبُّوا إليه مسرعين ، وهو ليس في مَنعةٍ منهم ، أو في عصبية تمنعهُ من اعتدائهم

ولكنه سار بهم حتى نزلوا بداره ، وما أظنه إلا بالَغ في كتمان أمرهم ، وتَستّرَ خوفاً أن يتسربَ الى القوم خبرُهم ، وكانت امرأتُهُ تساير القومَ في طريقتهم ، فأذاعتْ خبرهم ، وأعلمت قومها بأمرهم ، وسرعان ما جاءوا إليه يُهرعون ، وأقبلوا عليه مستبشرين . وفزِع لوط حين رأى القومَ قد اجتمعوا يريدون الفاحشةَ ، ويرغبون في المنكر . فناشدهم تقوى الله ، ودعاهم الى سَتر مخازيهم ، والكف عن مساويهم ، ولكنهم جميعاً فَجرة سفهاء ، وكَفرة أغبياء ، لذلك لم يستمعوا الى نصيحته ، ولم ينزلوا على إرادته ، فأغلق البابَ دونهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون .

ويخيل اليّ أن القوم قد غاض الحياء من وجوههم ، أو أصابهم مسّ في عقولهم ، فتدافعوا وراء المنكرات ، وتظاهروا على القبائح .

---

(١) الأريحية : الارتياح للندى .

(٢) الضيف ، يطلق على الواحد والجمع .

ولما رأى لوطٌ أنهم لم يطيعوا إشارته، ولم يُصيخوا لدعوته، أرشدهم الى غِشْيان نسائهم اللاتي جعلهنّ الله حلالاً لهم، وأمرهم أن يجتنبوا هذه العادةَ السيئة، ويحذروا عاقبة هذه القبائح المنكرة. ولكنهم مع ذلك لم ينتهوا ولم يَرْعَوُوا؛ بل ازدادوا تمسكاً بما جاءوا له، وتعلقاً بما شُغِفت نفوسُهم الدنيئة به، وتشبثاً بما عزموا عليه من فاحشة، وقالوا: يا لوط؛ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلمُ ما نريد.!

ضاقت بِلوطٍ السُّبل، وسُدّت أمامه أبواب الأمل، فأخذه من الكرب والبُرَحاء[1] ما جعله يتلهّف على نجاة أضيافه، وخلاصهم من قومه، فقال: لو أن لي بكم قوة لاستطعتُ أن أمنع عُدوانكم، وآمن شرّكم، وأقف في وجوهكم! ولو كنتُ في مَنَعَةٍ وعزة لقوّمتُ معوّجكم، وألَنْتُ قناتكم.

ولكن القوم قد أعمتهم الضلالة، فلم يستبينوا سبل الرشد الذي دلّهم عليه، ولم يحيدوا عن طريق الشر الذي حاول أن يصدّهم عنه، فهم في نزوة الشر مندفعون، والى اقتراف الإثم يتسابقون.

فغشيته سحابةٌ من الحزن، وتملّكته ثورة من الغضب، حين يئس من رَدّهم، وناله الإعياء والكلال من صَدّهم، ورآهم قد اقتحموا منزله وقهروه، وهَجموا على ضيفه وفَضَحوه، وهو لم يألُ جُهداً في نصحهم، ولم يترك سبيلاً لردّهم.

ولما رأى الملائكةُ ما هو فيه من الوَجد والحزن، ردُّوا لهفتَه، وسكّنوا رَوعه، وقالوا: يا لوط، أنا رُسُل ربك، جئنا لإنقاذك، ودَفْع العُدوَان عنك، فلن يَصِلَ هؤلاء الكفَرةُ إليك، وإنهم لمهزومون.

وما عَتَمُوا[2] أن تولاهم الفزع والرعب، فتولَّوْا هاربين متوعّدين.

ولكنّ لوطاً قد أصبح، وقد كشف الله عنه الغُمّة، وأحاطه بعنايته، وآزره بنصرته، لا يَأبَه لهذا الوعيد، ولا يَضيره هذا التهديد.

---

(١) البرحاء: الشدة.

(٢) ما عتم: ما أبطأ.

ولما انقشعت غياهبُ الحُزن عن لوط أمره الملائكة أن يَسْري هو وأهله بِقطع[1] من الليل، ويتركوا هذه القرية التي أذِنَ الله أن ينزل بها العذاب، ويَحُلَّ بها العقاب، ثم نهوه أن يصطحب معه امرأته، فسيحُلُّ بها ما يحلّ بالقوم، لِنفاقها ومشايعتها لهم، وأمروه أن يَدّرع بالصبر والثبات عند نزول العذاب بهم.

خرج لوط وأهله، وفارق تلك القرية غيرَ آسف عليها، حتى إذا صار بعيداً عنها، جاءها أمرُ الله، ونزل بها عذابه، وزُلزلت الأرض زِلزالها، عاليها سافلَها. ثم غُشيت بمطر من سِجّيل[2]، فأصبحت ديارهم بَلْقعاً[3]، وبيوتهم خاوية بما ظلموا، (إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين[4]).

يعقوب (*)

١

تقدم يعقوب الى أبيه إسحاق[5] ــ وكان رجلاً شيخاً قد رقّ جلده، واعوجّت قناته[6] ــ وقال: يا أبتِ، إني أشكوا إليك عِيصو أخي، وأستعدِيك[7] على توعُّده وتهديده، فإنه منذ رَمَقْتَني[8] بعين رعايتك، ودَعوت لي بالبرَكة، وتكهّنت لي بنسل

---

(١) قطع من الليل: آخر الليل.

(٢) السجيل: الحجارة الصغيرة.

(٣) بلقعا: قفراء مهجورة.

(٤) الشعراء ١٧٤.

(*) قصة يعقوب لم تذكر مفصلة في القرآن الكريم، لكننا رجعنا فيا أوردناه الى كتب التاريخ والتفسير

(٥) قال ابن قتيبة في كتاب المعارف: «تزوج إسحاق رفقة بنت ناحور، وهي بنت عمه فولدت له عيصو ويعقوب توءمين».

(٦) اعوجت قناته: كناية عن تقوس ظهره كبراً.

(٧) أستعديك: أستنصرك.

(٨) رمقتني: لحظتني.

طيب ، ومُلكٍ موروث ، وعيش خافض[1] حسدني لهذه الدّعوات التي أسبغتَها عليّ ، وحَقِدَ علي لهذه الرجيّة التي تمنيتَها لي ، وأنكرَ العلامة التي توسَّمتها فيّ ، فَراحَ يَنالُني بقارِصِ كلامه ، ويَخزُني بوجيع تأنيبه ، ويُخيفني بتهديده ووعيده ، حتى يَبس[2] ما بيني وبينه من ودّ ، وتقطّع ما كان يجمعنا من رَحم .

ثم هو فوق ذلك يفاخرني بامرأتيه هاتين اللتين تزوج بهما من كنعان ، ويُكاثرني بما يرتقبه من أولاد يُضيّقون عليَّ الرّزق ، ويَزْحمُونني بمناكبهم في الحياة ، وقد شكوتُ إليك ، لتحكم بيني وبينه ، بما وهبك الله من رأي حكيم ، وحلمٍ راجح .

قال إسحاق — وقد أهمَّه ما رأي من القطيعة بين الأخوين ، والنفْرة بين الشقيقين : يا بُني ، إنني — كما ترى من هذه اللمّةِ[3] البيضاء ، والجبين المتغضن ، والظهر المتقوّس — أضبحتُ شيخاً متهدماً ، خذلتني قوّتي ، ووقفت بي الأ يامُ على ثنيّة[4] الوداع ، وإنه يوشك أن يوافيني الأجل ، ويقطع ما بيني وبين الحياة من أسباب ، ولا آمنُ عليك بعدي : أن يُعالِنك[5] ، أخوك بالعداوة ، وَيجسِر لَك اللثام عن بطشٍ وكيد ، وهو في مَنَعَةٍ من شدّة أسرِه[6] ، وقوّة خَلقه ، وفي حِرز من أصهاره وذوي قرباه .

وما أرى إلاّ أن تزمِع رحيلاً الى فدّان آرام من أرض العراق ؛ حيث خالك لابان بن بتويل ، فَابنِ على إحدى بناته ، فإنك تنال العزّ والشرف والمجد والمنعةَ ، ثم عُد بعدها الى هذه الأ رض . وإنني لأ رجو لك عيشاً أخفضَ من عيش أخيك ، ونسلاً طاهراً خيراً من نسله وولده . والله يُكلؤك بعينه ، ويحفظك برعايته .

---

(١) خافض : لين .

(٢) يبس الود : زال .

(٣) اللمة : الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن .

(٤) الثنية في الأصل : الطريق .

(٥) يعالنك : يصارحك .

(٦) الأسر : الخلق القوي .

٢

كانت هذه الكلمات على قلب الفتى يعقوب أندى من نقيع[١] بارد على فؤاد مَحرور[٢]، إذ وجد فيها مُتنفَّساً لصدره، وروحاً لقلبه. ونزَعت نفسه الى مَنْبِت الأهل وبلد الآباء والأجداد، فاستودع أبويه بدموع سخينة، وشيّعاه بدعوات طيبة كريمة، وخرج مخترقاً الصحراء، مسرياً بالليل، وسائراً بالنهار، يرفعه نجْد ويخفضه وَهْد، ولقاءُ خاله نُصب عينيه، وكلماتُ أبيه ملءُ سمعه وبصره، وعناية الله ترمُقُه وترعاه.

وكان كلما أتعبه السير وأضناه بُعدُ الشقّة، يتذكر الأمل الذي يرجوه، والخير الذي يرتقبه، فيسهل الحَزْن وينقاد السير.

وطلع يوم تحرّقت سمائمُه[٣] وهبّت سوافيه[٤]، ورمت الشمس الأرض بسهامها المحْماة، فشقّ على يعقوب السير، وبَعُدَت أمامه الشُّقة. وتلفّت أمامه فإذا بصحراء ممتدّة الى حيث ينتهي البصر، ورمال ليس بها صُوًى ولا مَعْلَم[٥]. فأدركه السّأم، وأحسّ مسَّ اللّغَب[٦] والنصَب و ووقف ساعة بين الإحجام والإقدام، أيُواصل السير ويتغلب على الصعب، فيظفر بما عساه أن يُقَوّي عَضُده و ويشد أزْرَه، أم يُؤثِر العافيةَ والدّعَة على هذا السفر الشاق الطويل، ويَقنَع من الغنيمة بالإياب.

وفيما هو يفكر ويدبّر لمح صخرة تكتنِف ظلاً، فدلف اليها ليجلس ساعة يُريح فيها جسمَه، ويُبرِد قدميه. وما أسند ظهره الى الصخرة حتى أدركته سِنَةٌ فنام، ورأى في نومه رُؤيا صالحةَ، أشرقت لها جوانبُ نفسه، وغرّدت بلابل آماله، ورأى أن الله سيؤتيه

---

(١) النقيع : الشراب السائغ.
(٢) محرور : اشتد حره.
(٣) السمائم : جمع سموم وهي الريح الحارة.
(٤) سفت الريح التراب : ذرته وحملته.
(٥) الصوي : ما غلظ وارتفع من الأرض، والمعلم : ما يستدل به.
(٦) اللغب : التعب والإعياء.

عيشاً رضياً ، ويمنحه مُلكاً وسيعاً ، ويرزقه نسلاً طيباً مباركاً ، يورثهم الأرض ويعلمهم الكتاب .

فقام من نومه مشروح الصدر ، مصقول الذهن ، مُطلق النفس من عِقَال السأم[1] ، وقد انفسحت أمامه رُقعة الأمل ، وشام مخايلَ الرجاء ، إذ رأى تعزيزاً لنبوءة أبيه ، وبشيراً بتحقيق أمانيه .. فانطلق يعدو كالسهم ، مستأنفاً السير بعزمٍ جديد .

٣

وطُويت الأرض ، وقُضيت أيام ، وإذا هو مُشرف على سَواد رآه ، فعقد به حَبْل الأمل ، ووصله بما في نفسه من رجاء ؛ أن يكون هذا طليعةً البلد ، ومَوطِن الشيخ لابان . وخفّ اليه مسرعاً ، فوجد أن ظنه لم يخطىء ، ورجاءه لم يَخِب .

ها هي ذى أقدامُه قد بدأت تبترد ، وقلبه قد ذهب عنه الصدأ والفتور ، وها هي ذي نفسه قد عاودها الجَمام[2] . وتلك هي قطعان الغنم ، وأسراب الطير ، وطلائع الشجر ... بل هم أولئك رعاة يغنُّون ، وأطفال يَهزجون[3] ويَمرحون . إذنْ هو قد فارق الصحراء ، وإذن هو في أرض إبراهيم التي نبتت فيها رسالته ، وطلعت شريعته ، وفي أرض خاله ، وهي غايتُه التي يرجوها ، ورجيَّته التي قطع المفاوزَ في سبيلها ، فليسجد لله شكراناً لنعمته ، واعترافاً بتوفيقه وهدايته .

---

(١) السأم : الملل .
(٢) الجمام كسحاب : الراحة .
(٣) الهزج : التطريب بالصوت .

٤

تـقـدّم يـعـقـوب الغريب سائلاً متلطفاً : أفيكم من يعرف لابان بن بتويل ؟ قالوا : ومَــن لا يـعرف لابان صِهْـرَ إسحاق الرسول ! إنه عميد بيته ، وشِهاب قومه ، وصاحبُ هذه الـقـطـعـان التي تـسيل بها هذه البِطاح[١] . قال : وهل فيكم من يَـدَلّني على داره أو يـرشـدني الى مـكـانـه ؟ قـالـوا : هـا هي ذي بنته راحيل مُقبلة تعدُو وراء الغنم . فتلفّت يـعـقـوب فـإذا فتـاة قسيمةُ[٢] الوجه ، كاملة الخَـلْـق ، ذات رونــقٍ مُـعْجِب ، وحسن بـارع . فاضطرب فؤاده ، وأحسّ كأن حَبْسةً[٣] تَـعْـقِـل لسانَه . ولكنّه جمع نفسه ، واستردّ عـازب حِـلْـمه وعقله ، وتقدم إليها قائلاً : إنّ بيني وبينك قرابةً وشيجة ، وآصرة[٤] وثيقة ، فــإني مـن هذه الدّوحة التي تُـظِـلّـك ، ومن تلك النّبعَة التي تفرّعتِ منها ... أنا يعقوب بـن إسـحـاق الـرسول ، وابن رفقة بنتِ جدّك بتويل ، نزحتُ من أرض كنعان ، وقطعت هـذه الـصـحـراء التي تَصْـهَر الجِلد ، وتُدمي القدمين ، مقتحماً الصعاب في سبيل أن ألقى لابـان لأمرٍ جَلل . فرحّـبَـتْ بلقياه في طَرْف غضيض ، وحديث كريم ، وانطلقت معه الى المنزل .

وفيما هـو في الطريق أحسّ كأن اضطراباً بفؤاده ، أو كأن طائراً طار من قلبه ، أكان ذلـك لـرؤيـة هـذه الـفـتـاة التي قد تكون أملَـه الذي يرجوه ، ونبوءته التي تنبأها له أبوه ، وتـأويـلَ رؤيـاه التي رآهـا في الـصـحـراء ؟ أم كـان قد اعتراه ما يعتري الطارقَ الغريب مُـقـدِماً على أمـر عـظـيم ! قـد يـكـون لهـذا وقد يكون لذاك ، ولكنه على كل حال مَـلَـكَ نفسه ، وأمسك بقوّته ، ومشى بخطوات مطمئنة ، حتى التقى بخاله لابان . وما إن رآه حتى عـانقه طويلاً ، واغرورقت عينه بالدموع فرحاً ، ثم أحَلّـه من نفسه وأهله محلاً رفيعاً ومنزلة كريمة .

---

(١) البطاح : جمع بطحاء ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٢) القسامة : الحسن .

(٣) الحبسة : تعذر الكلام عند إرادته .

(٤) الآصرة : الرحم والقرابة .

٥

أفضى[١] يعقوبُ الى خاله بما أرسله أبوه ، وما يرجوه من الإصهار إليه ، وأنه قد رأى راحيل فحلّت من قلبه منزلة ، ورجا أن تكون له بعدها زَوْجاً[٢] ، والسببَ الكريم الذي يربط بينه وبينه . فقال لابان : نعم ونَعَام عَيْن[٣] ! قد أجَبْتُك الى سؤالك ، وأعنْتُك على مُبتَغى آمالك ، ولكن على أن تقيم عندي سبع حِجَج[٤] تَرْعى الغنم ، لتكون لك صَدَاقاً فيا تريد . وأنت طَوال[٥] هذا العهد يكنفُك مني جَناح ، ويظلّك قلب عاطف رءوم .

فقبِل يعقوب هذا الشرط ، وأخذ يرعى الغنم ، والأيام تَدْهِن له بمعسول المنى ، وتحْيي في نفسِه بوارقَ الآمال

٦

كانت راحيل صغري بنتين للابان ، وكانت لَيّا تكبُرُها في السن ، وإن كانت تَليها في اعتدال الخلْق وحسن التقاسيم . ولم يكن في عزم الشيخ لابان ، ولا في شريعة قومه أن يزوّج الصغرى قبل الكبرى ، ولكنّ نفسهُ لم تستجب له أن يصدّ يعقوب عن راحيل ، بعد أن امتلأت منها نفسهُ ، وتعلق بها أمله . فرأى مخرجاً من هذه الحيْرة أن يجمع بينهما لهذا الفتى ، إذ هو لذلك كِفاء[٦] وأهل ، والشريعةُ القائمة لم تكن تأبى الجمع بين الأختين .

---

(١) أفضى : أسر

(٢) يطلق الزوج على الزوجة .

(٣) نعام العين : أي أفعل ذلك إكراماً لعينك .

(٤) حجج : سنين .

(٥) طوال : طول .

(٦) كفء .

فلما قضى يعقوب الأجل، وحان أن يبني على عِرسه[1]، ويجمع شَملةَ بأهله، طلب من لابان أن يُنْجِز وعده ويوَفّي له بشرطه، فقال له: يا بني، إن قلب الوالد وشريعة هذا البلد يأبيان عليّ أن أنكحك الصغرى قبل الكبرى فهذه لَيّا إن فَضَلَتْها راحيلُ بجمالها، فإنها تُدانيها في كمال عقلها وحَزمها، فخذها بصداقك زوجاً كريمة، وإن شئت راحيلَ فأمض عندي سبع حجج أخرى، ترعى فيها الغنَمَ أيضاً، فيكون لك صَدَاق آخر، أزف إليك به راحيل كريمة عزيزة.

وما كان ليعقوبَ وهو الرسول الكريم أن يردّ لخاله حاجة، أو يصدّه عن رغبة، وهو الذي أكرم وفادته، وغمره بإحسانه، وآثره بمصاهرته. «فقبِل ما اشترط ودخل بليّا، حتى انقضت سبعُ حجج أخرى تزوّج بعدها براحيل.

ووهب لابانُ لكل من بنتيه أمةً تقوم بخدمتها ورعاية أمورها، ولكنهما آثرتا يعقوب بهاتين الأمتين، تحبُّباً فيه وزلفى اليه. ومن هاتين الأمَتين، ومن ليّا وراحيل رُزِق يعقوب اثني عشر ابناً هم الأسْباط[2].

يوسف (*)

يوسف بين إخوته وأبيه

تنفّس الصباح، ورَفّت[3] الشمس بأجنحتها على الوجود، وهبّ يوسف من نومه على حُلْمٍ عذب جميل، وما جمع أشتاته وضَمّ حواشيَه، حتى خفّ الى أبيه مُشرِق الوجه، ضاحك السن، مُنْبسِط الأسارير. وقال: يا أبت، إني رأيت ليلة الأمس رؤيا جميلة،

---

(١) عرس الرجل: امرأته.

(٢) الأسباط: هم رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون ـــ وهؤلاء من ليّا. ويوسف، وبنيامين من راحيل. ودان، ونفتالي من بلهة جارية راحيل. وجاد، وأشير من زلفة جارية ليا، وقد ولدوا جميعاً في فدان آرام، إلا بنيامين فانه ولد في أرض كنعان. (البداية والنهاية ١-١٩٥).

(*) يوسف ٣-١٠٤، المؤمن ٣٤.

(٣) رف الطائر: حرك جناحيه في الهواء.

ضاءت[1] لها جوانب نفسي، وانشرح لها صدري (رأيتُ أحد عَشَر كوْكباً والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين)[2].

فتهلّل وَجهُ يعقوب وأشرق جبينُه، ووضح البشْرُ بين عينيه وقال: يا بني، إنها رؤيا صادقة، تظاهِر ما توسّمته فيك من فَضْل، وما رجوته لك من خير، إنها بشرى بما سيخصُّك به الله من علم، وما سيَحْبُوك به من نعمة يُتمُّها عليك، كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل، ولكن لا تُقصصْ رؤياك على إخوتك، فقد عرفت غَيرتْهم مما أخصك به وأخاك من رعاية، وأوثركما به من إعزاز. هم اليوم حديثهم عنكما هَمْس، وذكرُكما على ألسنتهم تعريض، ولو أنك حدّثتهم برؤياك لا تأمن أن تشعل حِقدهم، وتُثير كامِنَ كراهتهم، فيدبّروا لك كيداً، أو ينصِبوا لك حبائل المكروه، وما أسرع أن يشدّ الشيطان أزرَهم، ويَشحذَ في الشر عزائمهم!

كان يوسف إذ ذاك غلاماً يافعاً، وَضِيءَ الطلعة، مليح الهيئة، فتّان المشاهدة، ماتت أمه راحيل[3]، وتركته وأخاه بنيامين في الثامنة عشرة من عمره، أشدّ ما يكونان حاجة الى قلبها الرءوم، وصدْرها العطوف. ولهذا آثرهما يعقوب بالحُبّ، وخصهما بفضلٍ وحنان، ثم جاءت هذه الرؤيا مُذْكِيةٍ لهذا الحب، مضاعِفة لهذا الحنان. ولم تخْفَ على إخوة يوسف منزلتُه ومنزلة أخيه عند يعقوب، وإن تحوّط في الكتمان وتظاهر بحب الجميع.

دلائل العِشْقِ لا تخفى على أحد كحامل المِسْكِ لا يَخلو من العَبَق[4]

(١) ضاءت وأضاءت: بمعنى.

(٢) يوسف ٤.

(٣) قيل لم تكن أمه قد ماتت بعد، لأن ظاهر القرآن يقضي بذلك لقوله تعالى: (ورفع أبويه على العرش) وقيل: بل ماتت، والمقصود من أبويه أبوه وخالته، لأن الخالة بمنزلة الام.

(٤) عبقت الرائحة: بقيت.

فسرى إليهم داء الحسد، ونبتت في صدور آكِلةُ الأكباد، وهاجت الغَيْرة وثار الحقد، واجتمعوا في ناذ واحد، وتشاوروا فيما يصنعون!

قال قائل منهم: ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب الى أبينا منا، وأقربُ إليه منا جميعاً! لست أدري ما الذي يحول بيننا وبين قلبه! وما الذي يقَصِّر من شأونا[1] عنده! ألسنا أكبرَ من يوسف وأخيه! ألسنا أشدّ منهما قوّة وأكثر حُنكة[2]! ألسنا القائمين على مصالحه، الدائبين على خدمته! فلماذا يخصُّهما دوننا بهذا الحب! ألِشَرَف يَفْضُلانِنا به! لا نرى ذلك الشرف واضحاً، أم لأن راحيل أمهما كانت أقربَ الى قلبه من أمهاتنا. ولكن ما ذنب الأبناء إذا تَفاضَلَتِ الأمهات! إنَّ هذا الحيْفُ[3] ظاهر، وضلال مبين.

وقال الثاني: إن محبة يعقوب ليوسف وأخيه قد نبتت في قلبه كما نبتت في الراحتين الأصابع، ولو أننا ذهبنا في سؤاله عن أسباب هذا الإيثار، ونِقاشه مظاهر هذا التفضيل، فقلّ أن نَظْفر بجدْوَى و أو نحظَى بنصيب. إذ للحب سُلطان على النفوس، لا يُمنع ولا يُمنح، ولا يُسلَم ولا يُسلب. هو عاطفةٌ فوق سُلطان العقل، وميل يسترقُّ القلوب. وما دُمْنا نرى يوسف بيننا فإنه سيظلُّ هو وأخوه بين قلب يعقوب وشِغافه[4]، وما أرى شفاء لهذا الداء الذي يقتل صدورنا، وراحةٍ من هذه البلابل[5] التي تزعجنا، إلا أن نُريد ليوسف شراً، نقتله، ونمحو آثاره، أو نذهب به من مَفازة[6] بعيدة، يأكله حيوان، أو تَدفِنه رمالُ الصحراء وحينئذ تقترب مسافةُ الخلف بيننا وبين أبينا أو تزول،

---

(١) شأونا: شأننا.

(٢) حنكته التجارب: هذبته.

(٣) الحيف: الظلم.

(٤) الشعاف: غشاء القلب.

(٥) شدة الهم والوساوس.

(٦) المفازة: الصحراء

ونـدنـو منن قـلـبه ، ونأخذ ما حُرِمنا من حبه ، ثم بعدها نستغفر الله من ذنبنا ، وما إخالنا بعد ذلك إلا قوماً صالحين .

قـال يهـوذا ـــ وكـان مـن أشَـدِّهم رأياً ، وأرجحهم حلماً : نحن أبناء يعقوب الرسول وأحفاد إبراهيم الخليل ، ولنا عقل ودين ، والقتلُ لا يُـقره العقل ، ويأباه الدين ، ويوسفُ غـلام بـريء ، لم يـجْـن إثـمـاً ، ولم يـرتـكـب جُـرْماً و ولم يقدّم سوءاً ، ولكنكم إذا كنتم مجـمـعين لـه إبـعـاداً ، فـهذا الجُبّ[1] الذي ببيت المقدس ، ملتقى الغادي والرائح ، ألْـقُـوه فـيه ، يلتقطْـه بعضُ السَّـيَّـارة[2] الذين يضربون في الأ رض ، فيذهبوا به الى حيث شاءوا ، وحينئذ نكون قد نِـلْنا ما نرجوه من إبعاد ليوسف ، وخَـلْصنا من إثم القتل وعاره .

فاستجابوا لهذا الرأي ، وبيَّـتوا أمرهم على هذا العزم !

ولـمـا أصـبـح الـصـبـاح ذهـبـوا الى أبيهـم ، والهـوى يُـزَين لهم ما يصنعون ، والشيطانُ يَـحْـفـزهـم وهـم يمـكـرون ، وقـالـوا : يـا أبـانـا ، مالَـكَ لا تأمنّـا على يوسف ، وهو أخونا وَبـضْـعـةٌ[3] مـنـا ، ونحن جميعاً أبناؤك ، يُظلُّنا عطفك ، وينتظمنا حُـبُّـك ! هَلا ترسله معنا غـداً الى ظـاهِــر البلد[4]، حيث السماء الصافية ، والشمس الضاحية[5] ، والريف الوَديع ، والـظـل الـوَريـف ؛ فـبينما نحن نرعى الغنم ، ونتعهد الأ رض ، يلعب هو ويركض ، ويعود آخـر النهار أصحَّ جسماً ، وأصفَى نفساً !! لئن أرسلته معنا لنرْمُـقنه بعيوننا ، ولنرقَّـنَّ عليه بقلوبنا ، ولنفدِينهُ بأرواحنا

قـال يعقوب ـــ وقد حذِر العاقبة ، وأشفق من وقوع المكروه : إنه لمِـما يبعث هَـمّي ، ويُـثير أحـزاني ؛ أن أرى يـوسـف بـعـيـداً عن عيني وقلبي ، قصِياً عن جَـنَـاح عطفي وظلّ

---

(١) الجب : البئر البعيد القعر الكثير الماء . وليست مما حفر الناس .

(٢) السيارة .: القافلة .

(٣) البضعة في الأصل : القطعة من اللحم .

(٤) ظاهر الأ رض : ما ارتفع منها .

(٥) الضاحي من كل شيء : البارز الظاهر الذي لا يستره منك حائط .

رعـايتي ، وإني لأخشى أن تـذهـبـوا بـه فـيـصـادف الذئبُ منكم غَـفلة ، أو ينتهز فرصة ، فيقتله ويأكله ، وحينئذ تخلّفون لي حُـزناً طويلاً ، وقلباً لهيفاً ، وعيناً عَـبْـرَى .

قـالـوا :أيأكله الذئب ونحن عصبة ليس فينا هَشيم[1] ، ولا ضعيف ! لئن وقع ما تحذَر إنا إذاً لخاسرون .

قال يعقوب : أمَّا على أن تحوطوه بقلوبكم ، وتلحظوه بعيونكم ، فدونكم وما تريدون ، والله من ورائـكم محيط .

وأصبح الصباح وصَحبهم يوسف ، وأخذوا طريقهم الى الجُب ، وما وصلوا إليه حتى تـكـشَّـفـت نـيّـــاتهم ، وبرزت سخائم[2] صدورهم ، وغلُظَت أكبادهم ، وقسَت قلوبهم ، فـجـرّدوه مـن قـمـيـصـه ، وألـقَـوْه في الجب[3] حيث تلعب به الأقدار ، ولم يشفع عنده دمْعٌ سخين ، ولا توسُّل وَجيع .

وحَسبوا أنهم بذلك شفَـوا غيظ صدورهم ، أو أطفأوا وقدة أحقادهم ، وأن قلْب أبيهم سَـيـخـلـوا لحبّـــهـم ، ونـفسه تخلُص لهم ، وظنوا أن الأ يام ستُسليه ، وحبّـه لهم من بعده يُـلهيه ، ولكنهم قدروا والأقدار تضحك ، ودبّـروا وأمر الله غـالـب .

*

ورجـعـوا الى أبيهـم عِشاءً يلفِّقون القولَ ، ويُـزوِّرون الحديث[4] واصطنعوا البكاءَ ظناً منهـم أن هـذا سيـنـهَض بحجّـتهم ، وجاءوُا على قميصه بدَمٍ كذبٍ[5] حُسباناً منهم أنه يقوم بُـرهاناً على صِدْق دَعواهم .

---

(١) الهشيم : الضعيف .

(٢) السخيمة : الحقد .

(٣) ربطوه بحبل ودلوه فيه فكان اذا لجأ الى واحد منهم لطمه وشتمه واذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره الماء فصعد على صخرة ووقف فوقها .

(٤) زور الكلام : أعده وهيأه .

(٥) دم كذب : مكذوب .

وقالوا : يا أبانا و لقد وَقعَ ما كنتَ تحذَره ، وحل ما كنت تخشاه ، لقد تركنا يوسف عند متاعِنا ، وذهبنا نجري متسابقين ، وما ظنَّنا أن الذئب يقصد يوسف ويترقب به الأذى ، ولكنه وجده وحيداً ، فهجم عليه وأكله ، وخلّف لنا هذا الحزن الذي يكاد يفتك بصدورنا ، وتلك العبرات التي تفيض به عيوننا ، وذلك قميصُه مُضرّجٌ بدَمه ، وما نظنُّك تؤمن بصدق قولنا ، ولو كنا صادقين !

قال يعقوب ـــ وقد فَطِن الى ما كادوا و ونفذ ببصيرته الى ما دبّروا ، وعلم أن لله شأناً في هذا الغلام هو لا بدّ بالغه : لقد سَوّلت لكم أنفُسكم نكْراً[1] وأملى عليكم الحسد أمراً ، ولكنني سأصبر صبراً جميلاً ، حتى يكشف أمركم ، وتظهر عاقبةُ كيدكم ، والله المستعان على ما تصِفون .

يوسف في الجبّ

يوسف الآن في الجب يحتويه ظلامُه ، ويشتمله سكونه ، مِحنة يُمتحَن بها هذا الفتى الكريم ، والله يمتحن المخلصين من عباده بأنواع المصائب ، ويفتِنهم[2] بضروب الآلام ، ليكونوا أقدرَ احتمالاً على ما يُلقَى عليهم من مهمّات الأمور وعظيماتها .

ولم تكن محنة أنكى في الداء ، وأبلغَ في الألم وأبعث على الجَزَع من هذه المحنة التي ابتُليَ بها يوسف . وربما كانت هذه أخفّ وقعاً ، وأهونَ شأناً ، لو أنها وقعت على رجل خَبَر أساليب الحياة ، وعجَم عيدان[3] الأمور ، إذن لعرف كيف يحتالُ لنفسه ، أو يتدبرُ في أمره ، ولكن يوسف لا يزال فتى غِريراً لا يَريش[4] ولا يَبري .

---

(١) سولت له نفسه : زينته له .

(٢) يفتنهم : يختبرهم .

(٣) عجم عيدان الأمور ، أي اختبرها .

(٤) يقال : أبرى النبال وأريشها : أي أنحتها وأصلحها ، وأعمل لها ريشاً لتصير سهماً يرمى به .

وربما كانت أخفَّ احتمالاً لو أن يوسف كان قد اقترفَ خطيئة ، أو ارتكب إثماً ، إذن كان خليقاً بهذه المحنة ، جديراً بهذا العذاب ، ولكنه كان مبرءاً من العيب ، بعيداً عن التهمة ، قصيًّا عن مواطن الرّيب ، وهو بعدُ في زكاء الطفولة وغرارة الفتُوّة ، وأمرُه في رقّة الحاشية وخَفضِ الجناح كان معروفاً مألوفاً .

ولو أنّ رمية يوسف كانت من غير إخوته ، ومحنتَه[1] جاءته من غير آصرته[2] لاحتملها قلبُه ، واتسعت لها جوانبُ صَدْره ، ولم يتشعب فيها همه وأسفه ولكنه سهمُ إخوته ، ورمْيةُ بني أبيه !

لو بغير الماء حَلْقي شَرِق   كنت كالغصّان بالماء اعتِصاري[3]

هو الآن يجول بعينيه في نواحي الجُب ، ويتلفت أمامه فلا يجد إلا ماءً راكداً يرى فيه خياله الكاسِف[4] ، وظله الحزين ، ويتلفت فوقه فلا يلْمَحُ إلا ظلاماً متكاثفاً لا يميز فيه شيئاً ، ما عسى كانت بلابِلهُ[5] ! وما خطرات نَفسه ! لعلّه تذكر أباه ، فأعادت اليه الذكرى ابتسامته التي كانت تطالعُه في الصباح ، وحديثَه الذي كان يتساقط الى أذنيه في المساء ، وكلفَه بذاته ، وتعلُّقه بشخصه . وما حاله الآن بعده ؟ وأيّ حزن يشتمل عليه !

بل لعله قد رَاعه الظلام ، وأوحشه ضِيقُ المكان ، فحنّ لطلعةِ الشمس وتألُّقِ البدر ، واشتباك النجم ، وزُرقة السماء ، ورَوْنق الضحا ، وبهجة الربيع ، وانسجام الظلال .

ثم هو قد جاع ، أو أنه سيجوع ، فن أين يسدّ حاجته ؟ وأنّى له بالطعام الذي يحفظ

---

(١) محنته : مصيبته .

(٢) من لهم به صلة .

(٣) الاعتصار : إزالة الغصة بالماء قليلاً قليلاً .

(٤) الكاسف : سيء الحال .

(٥) البلابل : الوساوس .

جسمه ، ويطيل في الحياة أنفاسَه ! بلابلُ لا تحتملها ساحة قلبه ، وهموم لا تتسع لها رقعة نفسه .

إن البلاء يُطاق غيرَ مضاعف فإذا تضاعف صار غيرَ مُطاق

*

لكن رحمة الله قد اقتربت منه ، فهو قد امتحنه[1] بهذه البلوى ، وهو الذي سيربط قلبه ، وسيجمع ما تفرّق من نفسه . ها قد أوحى إليه : أن تجمّلْ بالصبر ، واعتصم بالعزاء ، فإني جاعلٌ لك من ضِيقك مخرجاً ، ومن همك فرَجاً ، وإني مُظهرُك على إخوتك ولكن بعد حين . عند ذلك ذهبت همومه ، ورجعت اليه نفسه ، وانتظر يَرقُب أمر الله .

ها هو ذا يسمع من بعيد صدى حركةٍ مُبهمةٍ ، وأصوات مختلِطة ، لقد أرْهَف سَمَعه ، وودّ لو أن كل جارحة من جوارحه استحالت آذاناً

وها هي ذي الأصوات أخذت تقْترب رويداً رويداً ، وتتضح شيئاً فشيئاً ، أصواتٌ أسْفرت عن وَقع أقدام ، وخَفْق نعال ، ونُباح كلاب .. هي قافلة ، وأمل يبتسم ، وزَهر الرجاء بدأ يتفتح ، وساعة الخلاص آن أوانها .

ألْقت السيّارة[2] عَصاها بجانب الجب ، وهتف رئيس القافلة بصوت سمعه يوسف ، ووقع على قلبه وقوعَ الماء من ذي الغُلّة الصادي[3] : ألقِ دَلْوَك يا هذا في الجبّ ، وامْتَح[4] لنا ماء ننقع به غلّتنا[5] ، ونسدّ حاجتنا ، ونسقي دوابّنا بعد أن أجهدنا السير ، وأصابنا بُعدُ الشقة ، وأخذ منا الكلال .

فألقى الرجل دَلْوَه ، ورأى يوسف الدلو فتعلق به . وما راع الرجل إلا غلامٌ متعلق بالحبل ؛ وجهه كأنه فلقة قمر ! فصاح : يا بُشرى ، هذا غلام !

---

(٣) امتحنه : اختبره وابتلاه .

(١) السيارة : القافلة ، وألقت عصاها : استقرت .

(٢) الصادي : العطشان .

(٢) متح الماء : نزعه وأخرجه .

(٥) ننقع به غلّتنا : نقطع به ظمأنا .

فاجتمع القوم، وأخذهم الدّهش؛ ثم أجمعوا رأيهم على أن يتخذوه غلاماً يبيعونه بمصر!

ولو أنهم كانوا يَحملون بين جوانحهم قلوباً رحيمة؛ أو يحتوون نفوساً كريمة لتعرّفوا حاله وردّوه الى أهله، ولكنهم بعض الأنام، يجرون على طباع البشر.

إنما أنفس الأنيس سِباعٌ يتفارسنَ جَهرَة واغتيالا

واستأنفت القافلة السير، حتى ألقت عصاها بمصر.

وهناك عرضوه للبيع في سوق؛ وهو الحرّ الأبيّ، والرسول الكريم، وباعوه بَيعَ السماح[1] بثمن قليل (دَرَاهِمَ مَعْدُودة وكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدين).

خشية أن يفتضح[2] أمرُهم، أو يُهتَكَ سرُّهم، ولو أنهم باعوه بملء الأرض ذهباً لما كان ذلك عَدلاً لهذه النفس العظيمة؛ وكفاءً لهذا الغلام الكريم.

❁

اشتراه عزيز مصر[3] ووزيرها الأكبر، فتوسّم فيه معدناً كريماً، وعِرْقاً طيباً. فقال لامرأته: هذا غلام يُخيّلُ إليّ من معارفه وهدوء طبعه أنه نبيل الفِطرة. سَري[4] الأخلاق، كريم المنبت، فأكرمي مثواه ومأواه، وحاشاك أن تزْجُريه زَجْرَ الخدم، أو تضربيه ضرب العبيد، فإنني لأرجوا إذا اكتمل عودُه، ونضجت سنُّه أن ينفعنا، أو نتخذَه ولداً.

وانصرف يوسف الى العمل ببيت العزيز، في جِدّ وأمانة، ولقيَ فيهم أهلاً بأهل وجيراناً بجيران.

---

(١) السماح: المساهلة في البيع.

(٢) يفتضح: ينكشف.

(٣) هو رئيس شرطة مصر، واسمه قوطيفار.

(٤) رفيع.

يوسف وامرأة العزيز

١

لم يكد يوسف يَخلُص من محنة الجُبّ ، ويخلُدُ الى حياة هادئة في منزل العزيز ، حتى ابتدأت الأيام تخيط له محنة أخرى ، يَقْوَى بها عزمُه ، وتقرب الى الله بها نفسه ، والأقدار قد جاءته في محنته هذه من ناحية حُسنه وجماله ، ودخلت إليه من طريق فُتوّته وغضارة شبابه ، فشقِيَ بهذا الحسن زمناً ، وجرّ عليه بلاءً طويلاً .

وكَمْ رَمَتْ قسَماتُ الحُسنِ صاحِبهَا وأتْعَبت قصَبَاتِ السبقِ حَاوِيها
وزَهرةُ الرَّوْضِ لولا حُسنُ رَوْنقها لما استطالتْ عَليها كفُّ جَانيها

ابتدأ يوسف في عمله ، وهيّأت له الملابسات إظهارَ مكنون حَزْمِه وعقله ، وأمانته ونزاهته ، فازدادت به ثقة العزيز ، وأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وبَوّأه مكان الأشرافِ الأحرار ، ووضعه من قلبه موضعَ الأبناء الأبرار .

وتقدمت به الأيام ، وأظلّه ربيعُ العمر ، وخلع قميصَ الحداثة ، ولبس بُردَ الشباب ، وإذا امرأة العزيز يشغلُها أمر هذا الغلام . فأخذت ترقبُه في غدوّه ورواحه ، وتلحظه في قيامه وقعوده ، وفي يقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وبدت لها محاسنه الخفية ، وحيويته القوية ، وشعرت أنّ حبّه ينبت في قلبها ، وينبض في عروقها ، ويجري مع أنفاسها ، فوسوست به في خَلوتها ، وتَمنّته ــ وللحِسان تَمَنٍّ في لياليها ــ ولكن كيف السبيل اليه ، وهي امرأة العزيز ، ومقامها في القصر مقامُها ، ومكانة زوجها في مصر مكانتها ! لخيرٌ لها أن تغلِبَ ميلَها ، وتسحق هواها ، وتصرف نوازيَ الهوى عن نفسها ، ولكنها كلما رأته مال اليه قلبُها ، وبُعِث الحب قوياً في صدرها .

وأشدُّ ما لُقيَّت من ألم الجوى[1] قربُ الحبيب وما اليه وصولُ
كالعِيسِ في البَيْداء يقتلها الظمَا[2] والماءُ فوقَ ظهورها محمول

ولما ضاق صدرها، ودنِف[3] جسمُها، رأت أن تجيبَ داعي الهوى، وتجاذبه ثوب الغرام، ولكنْ على ألا تُذِلّ نفسها، أو تهبط عن عَرشها، فنصبت له حَبائلَ الفتنة، وأطلعته من نفسها على ما عساه أن يصبي نفسه، ويثيرَ داعيةَ هواه.

لكنه أعرض عن تلويحها وتلميحها، وغضّ بصره عن محاسنها ورَونَق جمالها، وما كان ليوسف — وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم — أن يميلَ قلبه الى محرّم، أو تَجْنَح به نفسه الى معصية. وما كان له أيضاً — وقد مَهّد له العزيزُ من كَنَفه، وبسط له مِهاد صَدْره، وائتمنه على أهله — أن يختانه في منزله، أو يسوءه في امرأته.

ولكنّ الإعراض ضاعفَ هواها، والمنع أثار كامِنَ غرامها، فرأت أن تصِل بالتصريح الى ما لم تنَلْه بالتلويح، وأن تكون أجْرأ على ما تطلب، وأشجع فيما تريد؛ فما بقيَ في قَوْس الصبر مَنزَع، وما عادت بعد اليوم تُطِيق صده وإعْراضه، وأجمعت الرأي وهيّأت نفسها لما تريد، بعد أن ألْقت صَوْلجان الملك، ولبست شِعار المُتصَبِّية العاشقة، ودعَتْه لخدعها فلبّى سريعاً، استجابة لأمرها، وجرياً على عادته في طاعتها؛ ثم أسدلت السُّجْف[4] وغلّقت الأبواب، وقالت: هيْتَ[5] لكَ!

ولكنّ يوسف، وإن كان في رَيْعان الشباب، وغضاضةِ الإهاب، وفراغ البال، وحسن الحال، قد ارتضع لِبانَ الحكمة، وترعرعَ في كَنَف الرسالة، وأعدّه الله لشرف النبوّة، و(اللهُ يَعلَمُ حَيث يَجعَلُ رسالتَهُ) فقلبُه مشغول بربه، ليس فيه موضع تَستميله المرأة، أو تستهويه نزَوات الهوى.

---

(١) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن.
(٢) العيس: الابل البيض يخالط بياضها شقرة.
(٣) دنف: مرض وذبل
(٤) السجف: الستور.
(٥) هيت لك: تهيأت لك.

أجابها : معاذ الله أن أجيبَكِ الى ما تريدين ، أو أذعِنَ الى ما تطلبين ! وحاشايَ أن أخون مولاي العزيز ، وهو الذي أحسن مَثْوايَ ، وأكرم مأواي وما أنا بمنكِر للنعمة ، ولا بجاحدٍ للجميل .

إن كنتِ قد غلّقتِ الأبواب ، وأسدلتِ الحجُب ، فإن الله يعلم خائنة الأعين[1] وما تُخْفي الصدور ! وحاشايَ أن تطاوعني نفسي لمعصيته ، أو أن يستجيب قلبي الى ما فيه غَضبُه ، إنه لا يفلح الظالمون !

امرأة العزيز في سَطوتها وعزتها ، وجمالها ودلالها ، تدعو فتًى من فتيانها ، بل واحداً من خدّامها ، فيأبى ويمتنع ، ويستكبر ويستعصم ، وهي الآمِرة الناهية في قصرها والسيدة المطاعة في خَدَمها وحَشَمها ! إنها لعظيمة لا يحتملها كبرياؤها ، وكبيرة لا تسيغها نفسها .

استطار غَضَبها ، وهاج هائجُها ، فهمّت به بطشاً ، وأرادت به سوءاً ، انتقاماً لعزتها المُضاعَة ، فهمّ أن يَلقى الشرّ بالشر ، ويصدّ الضرب بالضرب ، ولكنه أحسّ بإشراق النبوّة في نفسه ، ورأى برهان الله في قلبه ، وأوحِي إليه : إن الفِرار خير من القتال ، والمسألة خيرٌ من المواثبة ؛ فاستجاب لِوَحْي ربه ، وهمّ الى الباب جرياً ، وهمت وراءه عَدْواً ، حتى أمسكته من قميصه ، وجذبته من ثوبه . وما انتهى الى الباب حتى رآه العزيز واقفاً وقميصه ممزقاً .

كان موقفاً يبعث على الرِّيبة[2] ، ويثير الاتهام ، رجعت فيه المرأة الى كَيْدِها ومكرها ، والتجأ يوسف الى صِدقه وصراحته ... قالت : إن يوسف لم يَرْعَ حُرْمتك ، ولم يحفظ ، فإنه حاول أن يدنّس ثوبي ، فراودني عن نفسي ، و (ما جَزاء مَنْ أرادَ بأهلِك سُوءاً إلا أن يُسجَنَ أو عذابٌ أليمٌ) .

فلم يجد يوسف ملجأ إلا الصراحة في القول ، والاعتراف بالواقع ، إذ كانت جريئةً

---

(١) ما تخون فيه من مسارقة النظر الى ما لا يحل .

(٢) الريبة : الشك .

في الكذب ، جريئة في البهتان ؛ فقال : هي التي راوَدَتْني عن نفسي ، وجذبتني ثوبي العفيف ، وهذا قميصي شاهداً على صدق دعواي .

وفيما هو في أمره معها دخل ابن عمها ، وكان فطناً ، زكيّاً أريباً[1] ، فسمع القضية من أطرافها ، وفطِن لما وراء قصتها ، فقال : إنْ كان قميصُهُ قدّ[2] من قُبُلٍ[3] فَصدَقتْ وهو مِن الكاذِبينَ ، وإن كانَ قميصَه مِن دُبُرٍ[4] فكذَبَتْ وهو من الصادقين .

فلما رأى قميصه قُدّ[5] من دُبرٍ و جَلت الرّغوة عن الصريح[6] ، ووضح الحق لذي عينين ، وظهرت براءة يوسف ، والتفت العزيز الى امرأته ، وقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهنّ ، فاستغفِري لذنبكِ إنكِ كنتِ من الخاطئين . وأنت يا يوسف ، اربطْ لسانك عن الخوْض في الحديث ، خشيةَ أن تشيعَ القالةُ ويَنتشِر الحديث بين الناس .

٢

وشاع في المدينة وعلى ألسنة النسوة ، وبين جَنَبات القصور ، أن امرأة العزيز قد افتتنت بغلامها الفتيّ ، ووقعت في غرامِه ، واستهامت بجماله ، وأنها لما امتُحنت به من حُبه ، واضْطَلت بنار عشقه ، قد نزلت عن عرشها ، ودعته لنفسها ، وسدّدَت اليه سِهام فتنتها وسِحرها ولكنه عَزَف[7] عنها ، وزهد فيها ، ولم يفتنه حُسْنها ولا دَلالها ، ولم يستهوِه روعتُها ولا جمالها ، فهي لهذا مسلوبة الفؤاد مضرّمة الأنفاس ، تُخفي أمرها ، فيفضحها الدمع ، وتستر وَجْدها فينمّ عليه السَّقْم .

وأخذت تلك القالةُ تشيع وتتشعّب ، وتتخذ لها ألواناً وأشكالاً ، حتى انتهت الى امرأة

---

(١) الأريب : صاحب العقل والبصير من الأمر .
(٢) القد : الشق طولاً .
(٣) قبل : أمام .
(٤) دبر : وراء .
(٥) قدَّ : شق .
(٦) الصريح : اللبن الخالص ، وهو من باب التمثيل .
(٧) انصرف عنها .

العزيز ، وسقط في سمعها كل ما تحدّث به لِدَاتُها[1] وأترابها من نسوة المدينة ، وما تَزَيَّدْنَ فيه ، وما نِلنَه منها بحصائد ألسنتهنّ وقارص تأنيبهنّ ، فلم تر بُدّاً أن تدحَض هذا القول ، وتفلّ ذلك السلاح ، وتقابل مكرهنّ بمكر ، وكيدهن بكيد .

فدعتهنّ في يوم من أيامها المشرقة الى طعامها ، وهيّأت لهن مُتّكآت وثيرة وأرائك مُريحة ، وخلعت عليهنّ أرديةَ الحفاوة ، وأحاطتهنْ بهالة من النعيم ، وقدمت لهن الفاكهة ، وآتتْ[2] كلّ واحدة مِنهُنّ سِكّيناً ، وقالت ليوسف : أخرج عليهنّ ، وامْشِ بين صفوفهنّ ، فخرج من مَخْدَعِهِ وقد صَبغ الحياءُ غِلالة وجهه ، وملأه الحسن من أخْمَصه الى مَفْرَقِه[3] فشاهدْنَ فتًى لا كالفتيان ، وشابّاً لا كالشبّان ، أبلجَ الغُرَّة ، وضيء الطلعة ، سمحْ المعارف ، حلو الملامح ، ملء أردانه[4] قوّة وشباب ، وحشو دِرْعه مهابة وجلال . وشاهدن من وراء هذه القَسامة[5] نفساً جميلة كريمة ، فذُهلنَ عما كنّ فيه ، وخُولطن في عقولهمّ ، فإذا السكاكين تقع على أيديهنّ فتقطعها ، فقلن : حاش لله وتبارك خلقه ! (ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ) .

فصفّقت امرأة العزيز بيديها ؛ وكأنه قد سُرّي عنها ، وقالت : هذا يوسف الذي لمتنّني فيه ، وخُضتنّ في حديثي معه ، وهذا شأنكنّ فيه؛ وقد رأيتُنه عفواً ، وشاهدتُنه لمحاً ، فما بالكنّ تَلُمنني فيه ، وقد ترعرع في داري ، وبلغ أشدّه أمامي ، واستوى بين سَمْعي وبصري ، فأنا أشاهِدُه في قعوده وقيامه ، ومنامه وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وأخْلو به في ليلي ونهاري ، وأترائى له في زينتي ، وأعرض على نظره ما ظهر من محاسني ، فيُعرض عني استعصاماً ، ولا يرفع إليّ طرْفاً ، ولا يُميل نحوي عَطْفاً[6] ، بل يتجلّى فيه الروح الملائكي بأظهر مجاليه ، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها .

---

(١) اللدات : جمع لدة ، وهي ما يساوي المرء في سنه .

(٢) آتت : أعطت .

(٣) الأخمص من باطن القد : ما لم يصب الأرض والمفرق ، بكسر الراء وفتحها : الموضع الذي يفرق فيه الشعر .

(٤) الأردان : جمع ردن ، وهو أصل الكم (طرف الكم الواسع) .

(٥) القسامة : الحسن .

(٦) أصل العطف . الجانب ، ويقال : ثنى عطفه عني ، أي أعرض .

أمِثل هذا المِلك القاهر يسمى عبداً طائعاً ، ومثل هذه المرأة المقهورة تسمّى سيدة مالكة ! تأمر ــ بل تشير ــ فتطاع ، ثم ينكَر عليها أن تراوِد فترَدّ ، وتريد إظهار سلطانها فتعجز !

لا أخفي عليكن أنني قد راودته عن نفسه . وجَذبْته من قلبه ، فتأبّى[1] واسْتعْصم ، وانصرف عني وأعرض ، ولا أخْفي عليكنّ أيضاً أنني سوف لا أطيق على إعراضه صبراً ، ولا أستطيع أن أملك لقلبي معه زماماً . فهو قد ملك أعِنّة قلبي ، واسترق فؤادي . وأطال ليلي ، وسَلب هواه الكرَى[2] من أجفاني ، ولكنني ــ وقد أذْللت نفسي ، وافتضح أمام الناس أمري ــ لئن لم يفعل ما آمرُه لأدفعنّ به الى غيَابات[3] السجن ، يعاني ظلامه ، يُبْلي فيه رداء شبابه ، أو لأذيقنّه هوان نفسه ، وإيذاء جسمه ، فهما أمران له أن يختار أهونَهما عليه .

رأى النسوة ما رأين من جمال يوسف وروعته ورونقه وتَألق غُرّته ، ثم رأين ما رأين من حُرْقة امرأة العزيز وصَبْوتها وتمنّيها في عزّها وجاهها وفي سطوتها وسلطانها ، ثم سمِعنَ من تهديدها ووعيدها ، فتألّبن معها عليه ، وتقرّبن اليه . قالت إحداهن : أيها الفتى الكريم ، ما هذا التأبي والتمنُّع ! ولِمَ هذا الانصراف والازورار ! أليس لك قلب يُلين لهذه التي أسلمت نفسها ، ودفعَت إليك بقلبها ! أليس لكَ عين تنظر الى من تُقَيِّدُ الطَرْفَ بحُسنها ، وتستميل العصِيَّ بجمالها ! ألست شاباً مكتَمِل الشباب ، غضيض الإهاب ، لك في المرأة نصيب ، ومن المتعة بها مقدار !

وقالت الأخرى : ودَعْك من جمالها ، ألست تنظر الى مالِها وسلطانها وعزّها وجاهها ! ألم تعلم أن كلَّ ما في هذا القصر مبذول لك لو أطَعتها ، مُيسَّر لك لو أجبتّها !

---

(١) تأبى : امتنع .

(٢) الكرى : النوم .

(٣) غيابة كل شيء : ما سترك منه .

وقالت الثالثة : إن لم يكن لك مأرب في جمالها ، أو مطمعٌ في مالها ، ألست تخشى ما تَوعَّدَتك به من سجن لا تعلم مَداه ، أو عذاب لا تدْرِك غايته أو منتهاه ! لخيرٌ لك أن تُسلِس[1] من قيادِك ، وأن تخفف من عنادك ، فتفوز بالحسنَيَين : الجمالِ والمال ، وتأمن من شرّين : السجن والعذاب .

قلن ذلك ، وحَسِبْن أنهن بالغات بكلامهنّ قرارَه ، أو محرّكات مكامن الهوى من فؤاده ، ولكن يوسف اضطرب بين الوعْدِ والوعيد ، وبين المنع والإغراء ، حتى خاف أن يشتبه عليه الأمر ، ويوسوس إليه الشيطان ، فتوسّل الى الله — والمؤمن لا يزال يفزعُ[2] الى الله في كلّ ما يَحزُ به من همّ ؛ أو يصيبه من مكروه ، أو يشتبه عليه من أمر ، فيلتمس منه العَون والإرشاد .

وكذلك كان يوسف ، فإنه توجه الى الله ، وتضرع إليه أن يصرف عنه السوء ، ويصدّ عنه كيدَ النساء ، وقال : رَبِّ ، إن السجنَ على ظلامِه ووَحشته أرْوَحُ على نفسي ، وأميَلُ الى قلبي من مجاهدة هؤلاء النسوة ومغالبتهنّ ؛ فيه أصبر على بلائك ، وأزيد إيماناً بقضائك ، وأعلم ما خفِيَ عليّ من شؤون خلقك ؛ وقد يَفتح لي باب الدعوة الى معرفتك وتوحيدك ، وتَهَيأ لي الفرصة لعبادتك وتمجيدك ؛ وفيه أعدّ نفسي لإقامة الحق ، ونَصب ميزان العدل ، فيا عسى أن تخوّلني من الأمر ، كما وعدتَ أن تمكّن لي في الأرض ، ووعدُك الحق وقولك الصدق . أما أن أقيم بين هؤلاء النسوة ، يَفتِنني بالقول ويُزخْرِفن لي باطلَ الحياة ، فإنني لأخشى من هوايَ أن يميل ومن الشيطان أن يُوَسوِس فيتغلّب ، فأصبوا إليهنْ ، (رَبِّ السجْنُ أحبُّ إلي مِمَا يَدْعونَنِي إليه وإلاّ تَصرِفْ عَني كيْدَهُنّ أصْبُ[3] إلَيهِن وَأكُنْ مِنَ الجَاهِلينَ) .

وكلُّ تلك المحن[4] التي ابتُلي بها يوسف ، والحبائل[5] التي نُصِبَتْ له ، والأقاويل التي

---

(١) أسلس قياده : صيره سلساً سهلاً .

(٢) يفزع : يلجأ .

(٣) أصب : أحن وأميل .

(٤) المحن : المصائب والبلايا .

(٥) الحبائل : جمع حبالة ، وهي المصيدة .

نُسجَتْ حوله، خرج منها عفيفَ النفس، طاهر الذيل. فقد افتنّت سيِّدته في مُراودَته؛ ولكن لم يكن لذلك أدنى أثر في جَذْب خلسات نظرهِ ولا خَفَقات قلبه؛ بل ظَلّ معرِضاً عنها، متجاهلاً لها، حتى إذا ما صارحته بكلمة اقشعرّ جِلدُه، واستعاذ بربه، وأنِف أن يخونَ سيده، واتهمته بالاعتداء عليها، فشهد شاهدٌ من أهلها أسقط حجّتها، وأوْهى كلامها، واجتمع حوله النسوة يفتننه، فما نَقضنَ له مرّة[1]، ولا حوّلن له قلباً.

ظهرت هذه العلامات دالة على براءته، شاهدة على نزاهته وأمانته، وعلمها العزيز واستيقنتها نفسه، ولكن امرأته — وقد عِيلَ[2] صبرها، وانقطع من يوسف رجاؤها — فزعت إليه، وكان مِطوَاعةً لها، وجملاً ذلولاً في يدها، وقالت له: إن يوسف قد فضحني في أمري، وافترى عليّ الزُّور في شرفي، وما أرى إلا أن تسجِنَه، فتأخذ لشرفي، وتشفى من غيظي.

فانقاد لقولها، وصدَع بأمرها، ودفع بيوسف الى السجن، بريئاً من ذَنبه، كما كان الذئبُ بريئاً من دَمَه، فاستقبل فيه مِحنةً جديدة، تلقّاها بقلب الصابرين، وعزْم المؤمنين.

يوسف السجين

دخل يوسف السجن — لا كما يدخل مجرمٌ قتل نفساً، أو لص سرق متاعاً — بل دخولَ مظلوم لم تنْصِفْه كلمة القضاء، فأسلم نفسه يرجو عدْلَ السماء، دخله مُرْتاح الضمير، رَضِيّ النفس، منقوع الفؤاد. وما السجن وظلامُه، والأسْر وأغلاله، في جانب هذه الفتنة التي أثيرت حَوْله، والمؤامرة التي دُبِّرت للإيقاع به! ألم يكن السجن

(١) المرة: طاقة الحبل وقوة الخلق.

(٢) نفد صبرها.

نجاة له من هذه الفتنة التي قصدَ بها ثَلمُ دينه، والمؤامرة التي دُبِّرَتْ لِوَكس[1] خُلُقه، وإفساد عصمته! وما ضرَّ يوسف أن يُسجن أو يُمنع من العدو والرَّوح! أليس هو واجداً في السجن قوماً جفاة ظالمين، أو عتاة مجرمين! لخيرٌ له أن يقومَ بينهم معلّماً راشداً وناصحاً أميناً، فلعلّه يَخْضِد[2] من شوكة الظلم فيهم، أو ينزع نوازي الشر من صدورهم، فيكون قد طهّر الإنسانية من بعض أدْرَانها، وخفّف عن كاهلها ما تنوء به من عبء مجرميها!

ألا يجد فيه قوماً مظلومين، وأغْفالاً[3] مساكين! إنها فرصة طيّبة، وسانحةٌ[4] جميلة، لِيواسيَهم في آلامهم. ويشارِكهم في محنتهم، فيكون ذلك أروحَ لنفسه الرضية، وأنسبَ لطبعه الكريم، والله قد وعده النبوّة، ومنّاه بالرسالة. وأيُّ شرفٍ يعلو هذه المنزلة! وأيُّ عزٍّ يطاول هذا المقدار! فما يبالي بعد ذلك السجنَ والعذاب، والقَيْد والأغلال!

*

وامتدت أيامُ سجنه، ومكث فيه دهراً، يعودُ المرضى ويواسي الضعفاء، ويَنصح الأشقياء، ويَنشُر عليهم مع كلّ صُبحٍ فَيضاً من عِلمه، وقَبَساً من فضله، حتى أحبَّه المسجونون، وكلِفوا به، واطمأنت نفوسهم إليه.

ودخلَ فيمن دخل معه السجنَ فتيان من حاشية الملك: ساقيه وخازن طعامه، ذاقا معه آلام السجن، واحتملا ذُلّ الأسر والقيد، حتى أصبحا يوماً على رؤيَا أهمَّتهما، وأزعَجَتْ طائرَ الاطمئنان في صدرهما، فأسرعا الى يوسف يستنْبئانه عن رؤيتهما، ويستفتيانه في أمرهما.

---

(١) الوكس: النقصان.
(٢) يخضد: يكسر.
(٣) الأغفال: جمع غفل، وهو من لا يرجى خيره، ولا يخشى شره.
(٤) سانحة: فرصة.

قال الساقي : لقد رأيتُ كأني في بستان كَرْم معروش[1] زاهٍ مخضرّ، وكأن بيدي كأسَ الملِك ، أعْصر من عناقيده فيها .

وقال الخازن : وأما أنا فقد رأيت كأني أحمل سِلالاً فيها أصنافُ الخبز والطعام ، وكأنّ سِرْباً من الطير يتهاوى إليها ويتخطّفها ، ويذهب بها الى مكان سحيق ، فهل لك أن تنبئنا بتأويل ما رأينا ، بما نعهده فيك من فضل المعرفة والتدبير !

*

وكان يوسف ــ قبل أن يلجأ إليه الفتيان قد أكرمه الله برسالته ، وآتاه ما وعده ، وأمره أن يضطلع بما اضطلع به أبوه من قبل ، من الدعوة الى التوحيد ، وإشْعال قَبَس الإيمان . وعسِيٌّ به أن تكون دعوته مؤكدةَ النجاح ، مقرونةً بالفلاح ، فهو في قوم فقراء قد طهّر نفوسَهم الفقر ، ومظلومين يستشرفون الى الإيمان ، وهؤلاء وأولئك أقربُ الناس لفَهْم الدعوى ، وأكثرُهم استعداداً لما يُلْقى عليهم من هدْي وإرشاد .

وبينا هو يتهيّأ للدعوة ، ويُعدّ[2] نفسه لإعلان كلمة التوحيد إذ جاءه الفَتيان ، ورآها يوسف فرصةً يمهّدُ بها للدعوة ، فقال : يا قوم ، إن وراء هذه الأصنام التي تعبدونها ، والآلهةِ التي تتقربون إليها ، إلهاً قد أوحى إليّ أن أدلّكم عليه ، وأرشِدَكم إليه ، وأن ما تعبدونه من رَعْ أو أبيس[3] ، أو تمثال أو صنم ، ليست إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . ولا يحملكم على عبادتها دليلٌ أو برهان ، وإن التمستم دليلاً على صِدْقي ، أو أردتم برهاناً على صحة دعوتي ، فدونكم تأويل رؤيا الفتَيين أما أحدهما فسيخرج من سجنه ويعودُ الى سابق عهده ، ساقياً للملك ، قائماً بينه وبين نُدَمائه . وأما الآخر فسيصلَب وستأكل الطير من رأسه ؛ عرفتُ هذا عن وحي غيب ، لا

---

(١) معروش : له عرش ، والعرش : السقف .

(٢) يعد : يتهيأ .

(٣) رع : علم على الشمس ، وأبيس علم على العجل ، وكانا من الآلهة عند قدماء المصريين .

بِكهانة[1] أو تنجيم ، أو ما يشبهها من صناعة أو تعليم ، ذلك مما عَلّمني ربّي ، إني تركت مِلّة قومٍ لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون .

ويوسف كان عالماً بِصدق تأويله ، وبوقوع نبوءته فقال للساقي ، وقد عَلِمَ نجاتَه ، وتوقّع صدورَ العفو عنه : يا هذا ، إذا ما فارقتَ سِجْنك ، ورجعت في قصر الملك الى مكانك ، فاذكر له أن مظلوماً يحويه السجن ، ومتهماً بغير جريرة ، يعاني الأسْر والأغلال .

وصحّ تأويلُ يوسف ، ونجا رجلٌ وصُلب آخر ، وما ابتدأ الساقي يعود الى مليكه ، حتى اضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، وأنساه الشيطان أن يذكر يوسفَ لربه ، فلبث في السجن بضع سنين .

خروج يوسف من السجن

أصبح الملك على رؤيا أهمّته وأفزعته ، فدعا إليه علماء دولته ، وأشرافَ قومه ، وقصّ عليهم ما رأى .

قال : إني أرى سَبعَ بَقراتٍ سِمان ، يأكُلهُنّ سبعٌ عِجاف[2] مَهازيل ، وسبعُ سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأخَرَ يابسات ، ثم طلب إليهم تعبيرَ هذه الرؤيا ، وتفسير ذلك الحلم . فكلُّهم عَجز عن التأويل وعيّ عن التفسير ، وقالوا : خيالاتٌ وأوهام ، وأضغاث[3] أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالِمين !

ولكن هذه الرؤيا ذكّرت ناسِياً ونبّهت لاهياً ، وأثارت عنده ذكرياتٍ بعيدة ، وأياماً في تاريخه ماضية ، فساقي الملك ما كاد يسمع هذه الرؤيا ، ويحسّ رغبةَ الملك في

(١) كهن : قضى بالغيب .

(٢) العجف : ذهاب السمن ، وهو أعجف ، وهي عجفاء .

(٣) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

التأويل، حتى تذكّر يوسفَ السّجين، ذلك الذي أوّل له الرؤيا فصدَق في التأويل، وهو الآن يمرح في أبْرَاد[1] النعمة، ويتقلّب في أعطاف النّعيم.

قال: أيها الملك إنّ بالسجن فتًى كريماً، صائب الفِكر، مُلهَم الرأي، يكشف ودائع الغيوب بنور عقله، ويصيب شاكلة[2] الصواب بثاقب تدبيره، تُعرَضُ عليه الرؤيا فيخمِّرُها ويُجيلها، ويجيد الفكرة فيها ويطيلها و ثم يخرج بعد ذلك بالرأي الوثيق، والتأويل الصادق، ولو أرسلتني إليه لجئتُك بالخبر اليقين.

وانطلق الساقي الى يوسف في سجنه، ومَهْبط آلامه، فوجده كما تركه صابراً مُحتَسباً، مؤمناً قانتاً، قال له: يوسف أيها الصدّيق، جئتُك فيما أرجوا أن يكون لك فيه فرَج من ضِيقك، وعافيةٌ من محنتك، أفتِنا في سَبْعِ بَقرات سِمان يأكُلُهُنَّ سَبعٌ عِجاف مَهازيل، وسبع سنبُلاتٍ خُضْرٍ، وأخَر يابسات، فلعلّك بعلمكَ تروي نفوساً للتأويل ظامِئة، وتجيب على أسئلةٍ في الصدور مختلِجة، ثم أرجو أن يعرفَ بعدها القومُ فضلك الواسع، وعلمك الفيّاض.

ويوسفُ عليه السلام لم يكن عالماً يؤوّل الرؤيا فحسب، بل كان رسولاً مصلحاً أرسله الله هادياً للناس في دنياهم وآخرتهم، ومعاشهم ومعادهم، فما كان يرى فيه فرصَةً يتنفّس بها برسالته إلا انتهزها، ولا نهزَة[3] صالحة للدعوة إلا عَلِق بها. فمن سنين مضت سأله الفتَيان رُؤياهما، فوجدها فرصةً لإعلان كلمة التوحيد فأعلنها، وللتنديد بعبادة الأصنام فهزىء بها، واليومَ يسأله الملك عن رؤياه فيعرف التأويل، فلا يقصُر حديثه عليه، بل يمزج بالتأويل رأيه، ويُسْدي الى الشعب نصحه.

قال: إنكم تستقبلون سبع سنوات ليّنة رُخاء، تكونون في أخْصب تربة وأمْرع[4]

---

(١) أبراد: جمع برد، وهو ثوب مخطط.

(٢) أصل الشاكلة: الخاصرة.

(٣) النهزة: الفرصة.

(٤) أمرع الوادي: أخصَبَ.

جنـاب ، تـزدهـر حـقولكم ، وتزكو[1] غلاّتكم ، ويَصفو لكم العيش ، وتطيب الحياة . ثم تـأتي في أعقـابها سَـبْعٌ شِـدَاد يُظـلّـكم فيها الأمل ، وتكشفُ لكم الأ يام عن سَحاب خُـلّـب[2] ، ووميـض[3] خـادع ، ينكص النيل فلا يفي بوعده ، ولا يمدُّ كم برِفْده ، ويتجهم وجهُ الأ رض ، فلا تبثُّـكم مكنونَ خيرها ، ثم لا تجدون قائماً يُحصد ، ولا حصيداً يخزَن ، وتُصابون من دهركم بالداهية الجُلّى ، والنائبة العظمى .

ثم بـعـد ذلـك تصالحكم الأ يام ، وَيُـقبل عليك الزمان ، تتهلّل وجوه النُّجح ، وتنحلّ عُـقَد الأمور ، ويُظِـلُّـكم عام خصيب ، تُـغاثُـون فيه من شدّتكم ، وتصلحون ما فسد من أموركـم ، تجودكم الأ رض بالحنطة والشعير فتأ كُلون ، والقُـرْطُم[4] والزيتون والسمسم ، فـتـعـصـرون. وتـأتـدِمُـون . ذلـك تـأويـل الرؤيا ، وذلك ما أشرقَـتْ به نفسي ، وَمّا تلقّـيته بالوَحي عن ربِّي .

وإذا كـان مـا أخـبـرتُ واقـعـاً لا مَـحالة ، فما حصدْتم في سِنيكم الرخاء فاخزنُوه في أهـرائـكـم[5] ودُورِكـم ، مَـصوناً في سنبله ، حتى يظل سليماً نقياً ، إلا ما تحتاجون إليه ما يقيم أوَدَكم ، ويحفظ حياتكم ، لِـتتقوا السبعَ الشِّدادَ ، والسنين العجاف .

ولما وصل الى الملك هذا التفسير ؛ وفَـطِـن لذلك النصح والتدبير ، أدرك أن وراء هذا عقلاً حصيفاً ، وفكراً مُـلهَماً ، فدعاه إليه ليسبُـرَ غَورَه[6] ، ويُدركَ به شـأوه[7] ويفيد من رأيه وعلمه .

حضر إلـيـه الـرسـول وناداه : يا يوسف ، إن الملك يدعوك الى حضرته ، ويطلبُـك الى

---

(١) تزكو : تزيد .

(٢) سحاب خلب .: لا مطر فيه .

(٣) ومض البرق : لمع لمعاناً خفيفاً .

(٤) القرطم : العصفر .

(٥) الأهراء : جمع هرى ، وهو المخزن .

(٦) يسبر غوره : يختبره .

(٧) الشأو : الغاية .

مجلسه ، فقد شام[1] من تعبيرك علماً غزيراً ، ولمح من نُصحِك رأياً حصيفاً ؛ لَيُوشِك أن يرتفع مقدارُك ، ويطلع نهارك .

ولكن يوسف كان رسولاً كريماً ، وعلّمه ربُّه كيف يكون صبوراً حليماً ، فما استجاب للكلمة الأولى ـــ وهو أحوج ما يكون الى الإنطلاق من الأسْر ومفارقة السجن ، فقد طال عهده بوَحشته وظلامه ، وأحزانه وآلامه . وقد مرّت عليه سنوات مجرّمات[2] ، لم ير الشمس الطالعة ، ولا البدور المتألقة ، ولا النجوم المشتبكة ، ولا الزروع الناضرة ، ولا الحقول المُمْرِعة ، بل لعله أمضى أيام سجنه لم يذق إلا طعاماً يابساً ، وخبزاً قَفاراً[3] ، وماء كدِراً رَنْقاً[4] . ولعل رِجليه لم تُحرم يوماً من قيد غليظ ، ويديه لم تسْلم من غُلٍ ثقيل ، ولعله أيضاً آذته ليالٍ افترش فيها المَدر[5] ، وتوسّد الحَجَر ، ونام على الألم . وهو مع تلك الآلام التي شاهَد ، والمصائب التي لاقى ، لم يكن إلا مظلوماً مغلوباً على أمره ، يَلْقى العذاب ثمناً لما ادّرع به من عصمة وإيمان ، ونزاهة وطهارة سِربال[6] .

فما أحبّ أن يخرج من سجنه مَمْنوناً عليه بعفو ، أو مُتفَضَّلاً عليه بشيء ، بل قال للرسول : ارجع الى الملك وسَلْه أن يتعرّف أمر هؤلاء النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ ، وأخِذْتُ ظلماً بجريرتهن[7] ، ليظهرَ أمري قبل أن أغادر السجن ، وتُعْرَف قضيتي قبل أن يُفْصل فيها بالعفو .

فأهمَّ الملك أمرُ يوسف و وشغل باله ذكرُ النسوة ، وتشعَّبت أمامه وجوه القضية و فما كان يظنّ الأمر يَعدُو أن يكون ذلك السجين فتى لا يؤبَه له ، وهو اليوم يدعوه إليه

---

(١) شام : رأى .

(٢) مجرمات : كاملات .

(٣) قفارا : غير مأدوم .

(٤) رنق الماء : كدر .

(٥) المدر : صغار الحجر .

(٦) السربال : القميص أو كل ما يُلبَس .

(٧) الجريرة : الذنب والجناية .

لـمّـا ظهـر مـن فضلـه ، وعـرف مـن علمـه وخبره ؛ ولكن ها هي ذي أمور ظهرت لديه كانت خافية ، واتضحت أشياء كانت غامضة .

فـأحضر الـنـسـوةَ بين يـديه ، وسألهنّ : ما خَطبُكنّ إذ رَاوَدتنّ يوسفَ عن نفسه ! فما وجد الإنكارُ سبيلاً الى قلوبهن ، وما استطاع الكذبُ أن يسبق الى ألسنتهنّ ، بل صرّحن بمحض[1] الحق ، فقلـن : حاشَ الله ! ما علمنا عليه من سوء ، وما خَبَرنا فيه إلا فتًى عفيفاً كريماً ، نزيهاً أميناً ، غير مُتهم في رأي ، ولا ظنِين[2] في عِفّة .

وقـالـت امرأة العزيز ــ وقد نالت منها الأيام والسنون : الآن حَصْحَص[3] الحق ، أنا راودْتُه عن نفسه ، وجَذبته للغرام من ضَبُعه[4] ، فقد كان فتى وسيماً ، جميلاً وضيئاً ، ، وقد كان منّي قريباً دانياً ، وشخصُه أمام عيني أبداً ماثلاً ، فعلقَه قلبي ، ولم أستطع له دَفعاً ، فدعوته فتأبّى ، وطلبته فامتنع ، وكان لربّه[5] حافظاً ، ولزوجي وفياً .

وإني أخـبـركـم الآن أنه أعفُّ مَن رأيت نفساً ، وأزكى[6] من شهدتُ قلباً ، وأنه احتمل ما احتمل من آلام السجن بريئاً مظلوماً .

أنـا قـذفـتُ بـه الى السجن ، وأنا ألقيت به في هذا العذاب . ذلك الذي أعترف به الآن في وَضح النهار ، وضوء الشمس ، بين سمع الملك وبصره ، وبين حاشيته وبطانته ، ليعلم يوسف ــ وهو الآن في سجنه ــ أني لم أصِمه[7] بعيب ، أو ارمِهِ بريب ، من يوم سجنه الى هذه الساعة التي يُفْصل فيها في أمره . ولقد صرّحت لهؤلاء النسوة من قبل ،

---

(١) المحض : الخالص .
(٢) الظنين : المتهم .
(٣) حصحص الحق : بان وظهر .
(٤) ضبعه : عضده كلها .
(٥) من معاني الرب : السيد والمولى .
(٦) من التزكية .
(٧) وصمه : عابه .

بأني راودتُه عن نفسه فاستعصم. والآن أعترف بأني دعوته لنفسي فأبى، (ذلِكَ لِيَعلم أنِّي لَمْ أخُنْهُ بالغيبِ وأنَّ الله لا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنينَ)[1].

يوسف عزيز مصر

جاءت شهادةُ امرأة العزيز مبرّئة ليوسف من الذنوب، مُنزّهةً له عن الأغراض والعيوب، وظاهرَ هذه الشهادة ما رواه الساقي من سيرته في السجن، وما شهد به عليه من صبر يُجَمِّله الحلم، وعلمٍ يزيّنه التواضع، وما خَبرَه عنه الملك من حُسن التأويل، وإحكام التدبير، وما لحظه فيه حينما دعاه للخروج من سِجنه، فأبى إلا أن يخرج بريئاً.

هاتيك الأخلاقُ الكريمة، والشيمُ الحميدة، أثارت عند الملك رغبةً صادقة في أن يُقَرِّبه اليه، ليكونَ في حاشيته. زعيماً في بطانته، والملك سوق يجلب إليه ما نفَق عنده.

ومَثل بين يديه وحادَثه فألفاه حصيفاً[2] أريباً[3]، وعاقلاً رشيداً، طابق الخُبرُ الخَبرَ، والسمع والبصر.

قال: يا يوسف، إن ما تجمّلتَ به من هذا الخلق الكريم، وما خلّفته وراءك من ذكر عَطِر، وماض زاهر، وما نطقتَ به عن حِلم راجح، وعقل حصيف، كلُّ ذلك رفع عندي مقدارَك، وأعلى مقامك، وإنك منذ اليوم أمِينٌ على هذه الدولة تعمل لخيرها، وتقوم على إصلاحها، مكِين[4] فيما تصنع، مفوَّض فيما تريد.

ولكنّ يوسف كان يعلم أنّ الأمة مقبِلة على أيام يسْر وأيام بلاء، وأن النيل سيمدّهم بالماء، وينفحهم بالخير أعواماً، ثم يكفّ عنهم الرِّفد، ويُخْلف عنهم الوعد أعواماً، وأنه لا بُدّ لمن يلي أمورَهم ويدبّر شؤونهم أن يكون بيده زِمام المال، وعنده

---

(١) اقتضت ارادة الله أن يدخل يوسف السجن ليخلو الى ربه وتصفو نفسه من الأكدار.

(٢) حصف عقله: استحكم.

(٣) الأريب: صاحب العقل والبصير في الأمر.

(٤) مكين: متمكن وله منزلة عند السلطان.

مفاتيحُ الخزائن ؛ إذ المالُ عَصبُ الأمة وقوامها ، ولبُّها ومُصاصها[1] فأراد أن يمتلك الزّمام الذي يستطيع أن يقود به الأمة الى خيرها ، وأن يُمْسك بالدّفة التي يستطيع أن يسيّر بها سفينتها ، فقال للملك : إن أردتَ أن أكون مسئولاً عن هذه الأمة ، محاسَباً عن تدبير شئونها ، فأجعلني أميناً على خزائنها ، ووزيراً لأموالها ، وستجد الأمةُ إن شاء الله ما ترجُو من صلاح الأعمال ، واطراد الأحوال ، العسر واليسر ، والرخاء والبلاء .

*

ومكَّن الله ليوسف في الأرض ، فأضحى بين عشية وضحاها وزيراً مُطلق اليد ، مسموع الكلمة ، نافذ السلطان ، وحَضرتُه مَطلع الجود ، ومَهوَى الوفود وقد كان بالأمس سجّيناً أسيراً ، ومن قبل غلاماً يُباع ويشرى ، ويُسلب ويعطى وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وَلَى يوسف الأمرَ في مصر سبع سنوات ، جاد فيها النيلُ وأغلّت الأرض ، فأسْهل عيشهم ، وامتدّ خيرُهم ، وتفيئوا في ظلال الراحة والنعيم دهراً ، وكان يوسف نِعم الحاكمُ اليقظ ، والمولى الفَطِن الأريب ، بَنى الأهْراء[2] . وأعدّ المخازن ، وملأها بالغلات الوافرة ، والخيرات الكثيرة ، حتى إذا ما أقبلت السَّبْع الشداد استقبلها القومُ آمنين ، فلم يتغيّر لهم حالاً ، ولم تَنلْ منهم شيئاً و ولم تذُقّ لهم عظماً ، ولم تأكل منهم لحماً

وامتدّ القَحْطُ الى ما جاور مِصر من البلدان ، ومَسّ ما حولها من الأقطار حتى وصل الى كَنْعان ، حيث يُقيم نبيّ الله يعقوب وأبناؤه الأسباط .

وسَطع ذكرُ يوسف في مصر ، وامتدّ نوره الى الأصقاع ، وشاع بين الناس أن بمصر وزيراً حكيماً ، يحمل بين جنبيه نفساً كريمة ، فقد أعدِ عدّته للجوع والقحط ، والسَّنة[3]

---

(١) المصاص : خالص كل شيء .
(٢) الأهراء : مخازن الطعام .
(٣) السنة : الجدب .

والجدب ، فهو يوزّع الحنطة بين الناس بميزان عادل ، ويَقضي حوائجهم بقسطاس ، لا يفرّق بين شَعب وشعب ، وقُطر وقطر .

قال يعقوب لبنيه : يا بنيّ ، إن الجدب عمنا ، والقحط يكاد يأتي علينا ، فهلم شدُّوا ركائبكم ، وأعملوا في السير نياقكم[1] ، واقصدوا هذا العزيز الذي حملت إلينا الركبان أخباره ، وتناقل الناس أحاديثه ، وطبّق اسمُه السهل والجبل ، والبَدْو والحضر ، ولكن اتركوا عندي أخاكم بنيامين ، أتعزّى ببقائه عن فراقكم ، وأسكن إليه حتى يعود جَمعُكم ، ويلتئم شملُكم ، والله كالئكم[2] وراعيكم ، وهاديكم ومبصّركم .

٭

واستأذن الحاجبُ على يوسف ، فقال : إن بالباب عشرةَ رِجال تتشابه معارفهم ، ويلتمع نور الصلاح في وجوههم ، وكأنهم غُرباء عن هذه الديار ، أو ضيوف على هذه الأقطار ، عرفت هذا من لُغاهم[3] ولهجتهم ، وحَيرتهم وتردّدهم ، وإنهم اليوم ببابك يستأذنون في الدخول عليك ، والمثول بين يديك .

وأذِن لهم يوسف ، ودخلوا عليه ، فإذا هم إخوته وبنو أبيه ، لم تغيِّر ملامحهم السنون ، ولم تُخفِ معالمَهم الأيام ، هم إخوته الذين تآمروا على قتله ، وتظاهروا على إيذائه ، وهم الذين فرّقوا بينه وبين أبيه ، وأذاقوه بعده جَفناً[4] مؤرّقاً ، وكبداً مجروحاً ، وها هم أولاء يلقاهم اليوم في حضْرته من غير سابق تدبير ، بل بإحكام من اللطيف الخبير .

وقد يجمعُ الله الشتيتين بعد ما   يظنان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا

عرَفهم وما عرفوه ، وتبيَّنهم وأنكروه ، وأين يوسف الذي خلّفوه في الجُبّ ولا

(١) نياقكم : جمالكم .
(٢) كالئكم : حافظكم .
(٣) لغاهم : لغتهم .
(٤) جَفناً مؤرّقاً : كناية عن الحزن الشديد .

يدرون : أغتالته شَعوب[1] و أم أكله سَبُعٌ ، أم بيع في سوق الرقيق ، مِن هذا المليك المتوّج النافذ السلطان ، ذي الحشم والأعوان !

ولكن يوسف كان حازماً حكيماً ، وزكناً[2] أريبا[3] ، رَزين الحَصاة[4] ، بعيد الأناة ، فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه ، والإفصاح عن أمره ، بل حاول أن يصل الى ما في نفوسهم ، ويعرف مَكامن أسرارهم ، وما خفيَ عليه من أخبارهم ، واحتجب من أحوالهم ، بأسلوب الحكيم ، ومنطق الحاذق الحصيف .

آواهم وأكرم وفادتهم ، وأحسن ضيافتهم ، ثم دعاهم يوماً الى حضرته ، وقال لهم : لقد أكرمتُكم و ومن حقي أن أسألكم ، وأتعرّف أحوالكم ، فمن أنتم ؟ وما شأنكم ؟ إني لأنكِر عدَدكم و وقد بدأت أشك في أمركم ، وأخشى أن تكونوا عيوناً علينا من مليككم ! فهل لواحد منكم أن يُفضِيَ إليّ بحقيقة حالكم ؛ فلعلّه يمزِّق قِناع الشك . ويبدّد سحائب الريب ؟

قالوا : أيها العزيز ، نحن اثنا عشر أخاً ، سلالة نبيٍّ كريم ، ورسول عظيم ، عشرة منهم هم رسله الآن بين يديك ، وآمالهم منتهية إليك ، وأما الحادي عشر فقد خلّفناه عند أبيه يقوم على أمره ، ويسهر على رعايته ، وأما الثاني عشر فقد فقدناه ، ولا ندري أختاره الله لجواره ، أم هو يضرب في الأرض الواسعة سهلها وحَزنها[5] ، وغَورها ونجدِها ! ذلك هو أمرنا ظاهره وباطنه ، جملته وتفصيله .

قال يوسف : قد يكون حقاً ما تقولون ، ولكن لا وَزْنَ لقول لم يُعزَّز ببينةٍ أو يُدعَم بشاهد ؛ فأقيموا عندي البيِّنة أو ائتوا بالشاهد و حتى أطمئن لحقيقةِ حالكم ، وأسكُنَ لصحة أقوالكم .

---

(١) شعوب : اسم المنية .

(٢) الزكن : الفهم والتفرس .

(٣) أريباً : ذكياً

(٤) الحصاة : العقل والرأي .

(٥) الحزن : ما غلظ من الأرض .

قالوا : أيها العزيز ، أنا في غُربة عن بلادنا ، وعُزْلة عن أصدقائنا وأهلينا ، وإنك تكلّفنا محالاً أن نأتيَ لك من هنا بمن يعرفنا ، أو يشهد بصحة أقوالنا ، ولكن التمس لنا غيرَ هذا المخرج ، وشيئاً غير هذه السبيل .

قال : إني سأجهزكم ، وأوقِرُ[1] بالميرة[2] ركائبكم و على أن تعودوا ومعكم أخوكم الذي خلّفتموه عند أبيكم ، ليكون شهيداً عليكم ، مصدّقاً لأقوالكم ، وسأضاعف إكرامكم ، وأزيدكم حِمل بعير في غلاّتكم ، وهذا هو شَرْطي ، وذلك هو عهدي . فإن لم تأتوني به فلا كيلَ لكم عندي ولا تَقرَبون

قالوا أيها العزيز : ما نظنُّ أن أبانا يأذنُ بسفره ، أو يصبر على فراقه ، ولكننا سنراوده عنه ونتلطّف اليه ، وإنا لفاعلون .

وأمر غِلمانه أن يوفُوا لهم الكيل ، وأن يَدُسُّوا لهم في رحالهم البضاعة التي حَملوها ، والفضة التي جاءوا يبتاعون بها ، وليكون ذلك أدْعَى لرجوعهم ، وأمكن لعودتهم .

وَظعَنوا[3] عن مصر ، وساروا الى بلادهم ، يحملون عن هذا العزيز أطْيب الذكريات وأزكاها ، وأعذبها وأحلاها . وتلقّاهم يعقوب ، وأخذ يستوضِح أخبارهم ، ويستقصي أنباءهم .

قالوا : يا أبانا ، إنا لقينا رجلاً عظيماً ، ووزيراً كريماً ، عَرف فضلنا ، وأكرم وفادتنا ، ووفّى لنا الكيل ، وأنزلنا خيرَ منزل ، ولكنه أخذ علينا عهداً وشرطاً ألا يكيلَ لنا من بعدُ حتى نأتيَه بأخينا ، يخبرهُ بحقيقة حالنا ، إذ أنه شكَّ في أمرنا ، وداخَله الريبُ في رحْلَتنا . وغداً ستفرغ الميرة ونحتاج الى غيرها ، فأرسِلْه معنا ليكون مُعيناً لنا على الكيل ، مساعداً لنا في الرَّفد[4] .

---

(١) وأوقر : أثقل .
(٢) الميرة : الطعام .
(٣) ظعنوا .: رحلوا . .
(٤) الرفد : العطاء .

قال يعقوب : لن آذن لكم بسفره ، ولن أستريح لفراقه . وهل تروْنني آمنكم عليه كما أمِنتُكم على أخيه من قبل ! فاصرِفوا عني كيْدَكم ، واكفوني شرَّكم .

وفتحوا متاعَهم و وفتّشوا في رِحالهم ، فإذا بضاعتُهم قد رُدّت إليهم ، وفضَّتهم قد عادت معهم ، فخفُّوا الى أبيهم مسرعين ، وتحدّثوا اليه مسرورين ، وقالوا : يا أبانا ، ما كذَبناك حين زعمنا أننا لقينا عزيزاً وافر الفضل ، جَمَّ المروءة ، وما خدعناك حينما طلبنا إليك أن تأذنَ لنا بأخينا ، فهذه بضاعتُنا قد رُدّت الينا شاهدة على كرم العزيز ومروءته ، فأرسِل معنا أخانا ، وسنفديه بأرواحنا ونرفّ عليه بأجنحتنا .

ورأى يعقوب أن حاجتهم الى الميرة[1] ماسّة ، ورغبتهم في الرحلة أكيدة ، وأنهم قد أخذوا على أنفسهم عهداً فلن يُخفروه[2] ، وأن العزيز قد شَرَط لعودتهم أن يُحضروا له أخاهم فلن يخلفوه ، فأذن لهم ببنيامين على أن يأخذ عليهم عهداً أكيداً ، وشرطاً وثيقاً : أن يأتوه به سليماً معافى ، إلا أن يحاطَ بهم قدَرٌ لم يكُ في الحُسبان ، أو يفاجأهم مكروه مِن الحدَثان ، وأخذوا على أنفسهم الميثاق ، ووكّدوا الأيمان ، وقالو : واللهُ على ما نقول وكيل .

وساروا يخفضهم وهْد ويرفعهم نَجْد ، حتى ألقوْا عصاهم بساحة يوسف ، ورأى يوسف أخاه ، فحنا عليه ورقّ له ، ولكنه أخفى عواطفه ، وستر ما في نفسه ، ودعاهم الى طعامه ، وأجلسهم مثنى مثنى . وبقي بنيامين وحيداً ، فبكى ، وقال : لو كان أخي يوسف حيًّا لجلس معي ، فأجلسه معه على مائدته ، ثم قال : لينزلْ كلُّ اثنين منكم بيننا ، وهذا لا ثاني له فيكون معي .

فبات عنده ، وقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : مَنْ يجد أخاً مثلك ! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل . فبكى يوسف ، وقام اليه وعانقه ، وقال : إني أنا أخوك الذي تَنشُده وتهتف باسمه ، وتتلهف لرؤيته : قد تقلبت بي صُدوف[3] ،

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره الانسان .

(٢) خفره : نقض عهده وغدر به ، كأخفره .

(٣) الصدوف : الأمور الصارفه .

ورمتني صُروف[1] ، ولقيتُ من كيد إخوتك ألواناً ، وتحملت من غدْرهم أحزاناً ، وأسقاماً ، وابْـتُـليت بعدهم بمحنة ، وأصبت بفتنة ، ولكني صبرتُ وجاهدتُ حتى أبدلني الله — كما ترى — نعيماً ببؤس ، وغِنى بفقر ، وعِزّاً بذُلّ ، وكُثراً بقلّ ، فاكتُم[2] عن إخوتك هذا الخبر ، واحجُبْ عنهم هذا السر .

وقرّتْ نفسُ بنيامين ، وسكنت أحزانُهُ وانسلَى[3] هَمُّه وارتد إليه عازبُ حِلْمه ، وغدا يتقلّب في نعيم أخيه وعزّه ويَنْعَم بكرمه وعطفه .

وانقضت أيام الضيافة ، وأجمع الرّكْب الرحيل ، فأراد يوسف أن يعمل لهم مكراً ، ويُحدِث بهم أمراً ؛ فأمر غلمانه أن يجهزوهم بجهازهم ، وأن يدسّوا السّقاية[4] في رَحْل بنيامين !

وبينما هم خارجون مُودِّعين إذا بمناد جهير الصوت يناديهم : أيها الركب المُزْمِع سفراً ، المجمِع رحيلاً ، أنيخوا ركائبكم ! وأنزلوا متاعَكم ، فما أنتم إلا سارقون !

فدُهشوا وذُهلوا ، وأقبلوا على المنادي يقولون : ما هذا الهجْر الذي ينطق به ، والفِرْية[5] التي ترمينا بها ! وما خَطْبك ! وما الذي فُقدَ منك ! قال : لقد فقدنا صُواع الملك ، وإنا لنشكّ أن تكونوا قد سرقتموه وأخفيتموه ، فارجعوا عما عزمتم عليه ، ولا بأس عليكم ولا حَرَج في أمركم ، ومن جاء به منكم فله حِمل بعير نافلة[6] ، وأنا زعيمٌ لكم بهذا الشرط ، كفيل بهذا الحِمل .

قال إخوة يوسف : تالله لقد علمتم ما جئنا لنُفسدَ في الأرض وما كنا سارقين !

قال المنادي : إننا لا نتجنّى عليكم ، ولا ننصُب الشراك لكم ، ولكن ما حكمُكم

---

(١) صروف الدهر : نوائبه وحدثانه .

(٢) اكتم : اخفِ .

(٣) انسلى همه : ذهب .

(٤) السقاية أو ال‍ترواع : وعاء جعل للكيل .

(٥) الفرية : الكذب .

(٦) نافلة : زيادة .

لو وجدنا الصَّواع عندكم، مستقراً في رحالكم! قالوا: إن لنا شرعاً وديناً، وذمة وعهداً، فمن وجدتموه في رحله فخذوه أسيراً عندكم، عبداً لكم، ذلك هو شَرعنا، وهذا هو عهدنا، وإنا على يقين من براءة ذمّتنا، وطهارة أعْراقنا.

وطابت نفسُ يوسف لهذا العهد، واستروَح لهذا الرأي، إذ ما كان شرع الملك في مصر يُجيز له ان يحجز السارق، أو يتحكّم فيه، ولكن الله مكّن له فيما أراد عن طَواعية[1] من إخوته واختيار.

فبدأ يُفتش أوعيتهم وعاءً وعاءً، حتى انتهى من وعاء بنيامين، فوجد السِّقاية مستقرة بين طياته، فاستخرَجها منه، وأشهرَها في وجوههم، فسهموا ووجَموا وذُهلوا ودُهشوا، وأطرقوا حياءً وخجلاً[2]

قال لهم يوسف: عليكم بالشرط، والشرطُ أمْلك! فدعَوا هذا الذي وجدنا عنده الصُّواع، نتحكّم فيه، ونأخذ حقنا منه.

قالوا: أيها العزيز، إن له أباً شيخاً كبيراً، قد ناهز العُمْرَين[3]، وإنه ليتعلق بشخصه، وقد أخذ علينا عهداً أن نحافظ عليه ونردّه اليه، وها نحن أولاء عشرة بين يديك! «فَخُذ أحدَنا مَكانه إنا نَراك من المُحسنينَ». قال: (معاذ الله أنْ نَأخُذَ إلا من وَجدْنا مَتاعَنا عِندَه إنا إذاً لَظَالِمُون).

ولما استحكم فيهم اليأسُ من قبول العزيز لشفاعتهم، ونفَضُوا الأكفّ من رَواج اقتراحهم، خَلَصوا الى أنفسهم يتناجَوْن ويتشاورون. قال يهوذا: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً، واستحلفكم أيماناً أن تأتوه بأخيكم، وأن تبَرُّوا له بأيمانكم! فما نقول له اليوم! وها نحن أولاء قد فقدنا الأخ، وحنَثنا[4] في اليمين!

---

(١) الطواعية: الطاعة.

(٢) لما استخرج الصواع من أمتعة بنيامين قالوا: ان يسرق فقد سرق أخٍ له من قبل تنصلاً من التشبه به زاعمين أن أخاه يوسف سرق من قبل صنماً لجده وكسره فقال يوسف في سره: أنتم شرٌّ مكاناً.

(٣) يقال: فلان ناهز العمرين و إذ قارب الثمانين.

(٤) حنث في يمينه: لم يَفِ بموجبها.

إنّ جُرح يوسف في كبد أبيكم لم يَندمل[1] ، وإن دموعه من عينيه لم تنقطع ، ونحن قد جنيْنا في الأولى ، وها نحن أولاء نجني في الثانية ، (فَلن أبرَحَ الأرضَ حَتى يَأذنَ لي أبي أو يَحْكُمَ اللهُ لي وهو خير الحاكِمين . آرْجِعوا الى أبيكمْ فقُولوا يا أبانا إن ابْنَك سَرَق وما شهِدنا إلا بمَا عَلِمنا وما كُنا لِلغَيبِ حافِظين . واسألِ القريةِ التي كنا فيها والعيرَ[2] التي أقبلنا فِيها وإنا لَصادِقون) .

وذهب التسعة ، وخلّفوا كبيرهم يهوذا . وتفقّد يعقوب بنيامين فلم يجده فيهم فكأن طائراً طار من قلبه ، أو كأن قطعة تَفضَّت[3] عن كبده ، ثم قال بصوت حزين : ما صنعتم بأخيكم ، وما فعلتم بأيمانكم ؟ فقصّوا قصصهم ، وحدّثوه بدخِيلة أمرهم ، فتولى عنهم ، وقال : (بل سَوَّلتْ لكم أنفُسُكم أمراً فصبر جميلٌ والله المستعانُ على ما تصِفون) .

لقد فقدتُ يوسف من قبل ، واليوم أفقد بنيامين ، وأفقد يهوذا ، (عسى الله أن يأتِيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحَكيم) .

اللقاء

وتساورتْ يعقوبَ الهمومَ وتشعّبته الأحزان ، وأقضّت مَضجعَه الكروب . ولم يعد يجد متنفَّساً لهمّه ، أو سَلوة من ألمه ، إلا ساعتين : ساعة يفزَع فيها الى ربه يصلي ويسجد ، ويتحنّث[4] ويتجهّد ، مُستلهماً منه الصبر ، مستنجداً بالإيمان واليقين ، وساعة يخلُص فيها الى نفسه ، ويقضي حق الذكرى لوَلديه ، ثم يستنجد بالدمع ويستروح[5] بالبكاء ، فتسحُّ

(١) لم يندمل : لم يبرأ .

(٢) العير : القافلة أو الإبل تحمل الميرة .

(٣) تفضت : انفصلت .

(٤) تحنث : تعبد .

(٥) استروح وجد الراحة .

جفونه ، وتفيض شؤونه[1] . فمن الصلاة والذكر كان يستلهم صبراً وإيماناً ، ومن سخين الدمع كان يَلْقى راحة واطمئناناً .

لم يُخلَق الدمعُ لامرىء عبثاً   الله أدرَى بلوعة الحزن

وما زال به واكِف[2] الدمع حتى ابيضّت عيناه ، وضَوَى جسمُه وتضمّر وجهه ، وعاد كالخِلال[3] شُفوفاً وضمُوراً ، حتى كان يوم أطلّ عليه أحد أبنائه وهو في مخدَعه ، فوجده قد انفتل[4] من صلاته ، وانتهى من دعواته ، ثم أخذ يولول ويتوجّع ، ويبكي ولديه ويدمع ، ويقول : يا أسفاً على يوسف ! بصوتٍ وجيع ، وهمّ جميع ! فهاله ما رأى ، ودعا إخوته ليرَوْا معه كيف يتلوّى يعقوب في شقائه ، وكيف يتألم لبلائه .

وقال واحد منهم : أيْ أبانا ، أنت رسول عظيم ، ونبي كريم ...: عليك يَهبط الوحي ، ومنك نتلقى الهدي والإيمان ، فما هذا الذي تَبْخَعْ[5] به نفسك ، وتحشد له بناتِ هَمّك ! ألم تكْفِ هذه الدموع التي ذَرَفتها و حتى هجمَتْ[6] مُقلتاك ، وابيضّت عيناك ! ألم تكف هذه الزفرات التي أصعدتها حتى فَنِيَ جسمُك ، ودَنفت[7] نفسك ! (تَاللهِ تَفتَأ تَذكُرُ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضاً[8] أو تَكُونَ مِنَ الهالِكِينَ) .

قال يعقوب : إن عَذْلَكم[9] يبعث شقائي ، ويُثير كامن دائي ، وما دُون رؤية يوسف أن تسكن لوْعتي ، وتَرقأ دمعتي[10] . ويوسف ــ وإن كان قد أكله الذئب في زَعْمكم ، واخترمتْه شَعُوب[11] في رأيكم ــ حيّ يتنفس الهواء ، وتُظلُّه الخضراء[12] وعَلِمْتُه إحساساً كميناً في نفسي ، وشعوراً ينبعث في قلبي ، وفيْضاً من الله على عِلمي ، ولكنني لا أدري أيّ

---

(١) الشؤون : مجاري الدموع .
(٢) واكف : منهمر .
(٣) الخلال : العود تخلل به الانسان .
(٤) انفتل : انصرف .
(٥) تبخع : تهلك .
(٦) هجمت : غارت .
(٧) دنف الرجل : ثقل من المرض ودنا من الموت .
(٨) حرضاً : مريضاً مشفياً على الهلاك .
(٩) عذلكم : لومكم .
(١٠) رقأ الدمع : جف .
(١١) اخترمته شعوب : أخذته المنية وأهلكته .
(١٢) الخضراء : السماء .

وادٍ سَلك ، وأيّ مَـذهب ذهب ! ذلك الذي يُثير حزني ، ويبعث أشجاني ، وما أحْراكم ـ لو أردتم ـ أن تنضُوا[1] عني شِعارالهمّ ، وتزيحوا عني غَواشِيَ الأسى ـ أن تضربوا في الأرض متحسّسِين عن يوسف وأخيه ، معتصمين بالدأب والصبر ، غير يائسين من رَوح[2] الله ورحمته (إنّهُ لا يَيْئسُ مِن رُوحِ الله إلا القَوْمَ الكافِرُونَ) .

وإخوةُ يوسف يُظاهِرون أقوالَ أبيهم في أعماق نفوسهم ، ويوافقونه فيما بينهم وبين سرائرهم ، فهم ألقَوْه في الجُب ، وهم خلّفوه في الفَلاة ، وما يمنع أن يكون قد خرج من جُبّه ، ونجا من فَلاته ؟ ولكن أين هو ، وأي مكان يشتمله ؟ وأي وادٍ يضمّه ؟ أرض الله وسيعة فأين يبحثون ؟ وبلاده عريضة فأين يتحسّسون ! إنهم من يوسف على شَفا اليأس ، وخيبة الرجاء ، ولكنْ هذا بنيامين يعرفون مكانه ، ويعلمون مَراحه ومَغداه ، فلْيذهبوا الى العزيز ، وليتلطفوا عنده ويتوسلوا إليه ، فلعلّهم يرجعون به الى أبيهم ، فتخف بعض اللوعة ، ويجد في لقائه بعض العزاء .

*

وهبطوا مصر وآمالهم بين الخيبة والرجاء ، ووقفوا بين يدي العزيز ، ترهَقُهم ذِلة ، ويحيطهم انكسار : ذلة العزيز ، وانكسار الكريم .

قالوا : أيها العزيز ، ها قد رجعتْنا الأيام إليك ، وأرادتنا أن نقف موقف الضراعة والاستكانة بين يديك ؟ وللأيام تقلباتٌ ، وللدهر نكبات ! وقد جئناك ببضاعةٍ مُزْجاة[3] ، إذ الحال رقيق ، والعيش نكِد ، والدهر غير مُوَاتٍ ، فإن شئت تصدّقت بما يقيم الأوَد ، ويُصلح مُعْوجَّ العُود ، وإن أحسنتَ إلينا بعد ذلك بتسريح أخينا ، فإنك بذلك تكون قد أرقأت له دمعاً ، وخفّفت عن أبيه لواعج[4] وأشجاناً !

وإذا كان الله قد بلغ بقصة يوسف ويعقوب أسمى ما يطمح إليه المثل الأعلى ، من الإيمان

---

(١) نضا الشيء ينضوه : قبض عليه .

(٩) الروح : الرحمة .

(١) بضاعة مزجاة : قليلة .

(٤) اللواعج : جمع لاعِج ، وهو الهوى المحرق .

بالقضاء ، والصبر على اللأواء[1] ، فقد آذن يوسف أن يعلن لإخوته عن نفسه ، ويكشف لهم عن حاله ، وأن يصفح بكرمه عن زلّتهم ، ويسموَ عن إساءتهم ، ليضمّ الى الرواية فصلاً في الصفح والكرم ، والعفو والغفران .

قال : ألا تذكرون يوماً في مَيْعة الحداثة[2] وغرارة الصبا ، زين لكم الهوى ، ووسوَس الشيطان أن تَكيدوا ليوسف وأخيه ، فتُلقوا بيوسف في الجُب ، وتصنعوا مع أخيه صنوفَ الكيد والإيذاء ؟ ثم ألا تذكرون يوم أخذ واحدُكم بيده القويةِ يوسف ، وجذَبه وهو ضعيف من ثيابه ، وأنه قد توسل واستشفع ، وبكى وتوجّع ، فلم تقبلوا منه شفاعة ، ولم تأخذْكم فيه رحمة ، بل ألقيتموه في الجب وحيداً ضعيفاً تعمل فيه الأقدار !

فتخالجهم الشكُّ في أمره ، وداخلهم الريب في حقيقة حاله ، إنه لَيذكر أشياء وقعتْ ، مَن أعلمه بها ؟ ويحدّث عن تاريخ ، مَن قصّه عليه ؟ أيكون بنيامين ؟ ولكن بنيامين وكلّ الناس في أمر يوسف سواء ، إنه لا يعرف شيئاً عن حقيقة أمره ، ولا حادثِ إلقائه في الجب ! ورجعوا بعد الحَدْس والتخمين الى يوسف يتوسمون علاماته ، ويتعرّفون شِيَاتِه[3] . ويتذكرون ما كانوا يعرفونه عن ملامحه وشاراته . وما غابوا في هذا طويلاً حتى صاح واحد منهم يقول : إنكَ لأنت يوسُف !

وما كان أسرع أن أجاب يوسف وأشار الى بنيامين : نعم (أنا يوسُفُ وهذا أخِي قد منَّ الله علينا ، إنه مَنْ يَتقِ ويَصبرْ فإن الله لا يُضيعُ أجر المُحسِنينَ) .

فامتقعت ألوانهُم ، واضطربت مشاعرهم وتلجلج الحديث بين أشداقهم ، وتمنَّوْا لو انشقّ نَـفـقٌ في الأرض فابتلعهم ، أو هبط عليهم كوكب فصعقهم ... ويوسف كان أكرمَ نفساً من أن يطيلَ خوفهم ، وأوسع صدراً من أن يكافئهم بزَلّتهم ، فهم ما برِحوا إخوته وبني أبيه ، وإن تظاهروا[4] على قتْله ، والفتك به وإن توافروا على الكيد له ولأخيه .

---

(١) اللأواء : الشدة .

(٢) ميعة الحداثة : أولها .

(٣) شياته : علاماته .

(٤) تظاهروا : تعاونوا .

قال لهم : (لا تَثْرِيبَ[1] عليكم اليومَ يغفِرُ الله لكم وهو أرحم الراحِمينَ) .

ونعود الى يعقوب ، وقد امتُحن حقبة من الدهر فتحمَّل ، وابتُلِيَ بما تعجز عن حَمله الجبالُ فتجمَّل[2] ، وأن الله لهذا كتبه في صحيفة الأنبياء أولي العزْم الأخيار ، الطاهرين المحتسبين الأبرار ، وأعدّ له الجنة جزاءً وفاقاً ، ومكرُمة وثواباً ، وأراد أن يكافئه في الدنيا ، إطماعاً لمن يصبر مِن خَلْقه ، وعزاءً لمن يُبتَلى من عباده .

ذهب الى مُصَلاه يوماً ، فصلى وذكر الله ، ثم بكى ما شاء الله أن يبكي ، وفجأة هدأت ضلوعُه ، وجفَّت دموعه ، ودخل رَوْح على قلبه ، ما هذا الشعور الغريب والإحساس الوافد ! إنه الآن لَيَشعر بانشراح في أعماق نفسه ، وابتهاج في قرارة وِجدانه ، ونشوة نبتت في حنايا ضلوعه ، إن هذا الشعور الذي يغمره ، والفيض الذي يشتمله ، ليشبه ما كان في صدر أيامه الماضية ، وعهوده الذاهبة ، حينما كان يخطِر[3] يوسف بين يديه ، ويرى ابتسامةَ الحياة بين شفتيه !

أحسّ هذا يعقوب ، فصاح بِمِلْء قلبه وجوارحه : (إني لأجِد ريح يوسف[4]) انعكس هذا الريح هزّة في أعطافي ، وتغريداً في خواطري ، ورَوْحاً وريحاناً في قلبي .

وما كان يعقوب خاطئاً في وهمه ، ولا بعيداً في استرواحه ، فقد فصلت[5] العِير عن مصر تحمِل القميصَ ، قميص يوسف الذي يَحمِل البشرى ، ويَرُد على يعقوب نعمة البصر والحياة .

وقطعت العِير طريقها ، وجاء البشير ، فألقى القميصَ على يعقوب فإذا بصرُه قد عاد ، ورُشْده قد ثاب ، وقصُّوا عليه قصتهم ، وحدثوه بما كان من أمرِهم ، ثم طلبوا اليه المغفرَة والرِّضوان .

---

(١) لا تثريب : لا لوم .

(٢) تجمل : صبر .

(٣) يخطر : يمشي بدلال .

(٤) الريح : الرائحة .

(٥) فصلت : رحلت .

قال يعقوب : لست أملكُ من أمركم شيئاً ، أو أستطيعُ لكم من عذاب الله دَفْعاً ، ولكني أستغفرُ لكم ربي ، وهو الغفورُ الرحيم . زُمُّوا[1] إبلَكم ، وأجمِعوا إرادتكم ، وهيّا بنا الى ساحة العزيز .

ورأى يوسف أبويه في ساحته ، وحولهما أحدَ عشرَ من إخوته ، والجميع يسجدون له معظِّمين ، ويقفون بين يديه خاشعين ، فرفع يديه الى السماء ــ شاكراً أنعُمَه ، ذاكراً فضله . وهو يقول : (رَبِّ قد آتَيتَني من المُلك وعَلَّمتني مِنْ تَأويلِ الأحادِيث فاطِرَ السموات والأرضِ أنتَ وَليِّي في الدنيا والآخِرَةِ توَفَّني مُسْلِماً وألحِقْني بالصالحينَ)[2] .

شعيب (*)

كانَ أهل مَدْيَن عَرباً يسكنون أرض مَعَان ، من أطراف الشام ، وكانوا يكفرون بالله وَيُشركون به ، إذ عبدوا الأيكة[3] من دونه وصاروا يَبخسون الناس أشياءهم ، وإذا اكْتالوا[4] على الناس يَستوْفون ، وإذا كالُوهُمْ[5] أو وَزَنوهُمْ يَخسِرُونَ .

بعث الله فيهم شُعيباً رسولاً ، وآزره بالمعجزات ، وأيّده بالبيِّنات ، فدعاهم الى عبادة الله وحده ، وأمرهم بالعدْل ، وحذّرهم عاقبة الظلم ، وذكّرهم نعمة الله عليهم إذ كثَّرهم بعد قِلة ، وأغناهم بعد فقر، ثم خوّفهم نِقمة الله وعذابه إن لم يتبعوا ما أرشدهم إليه ودلَّهُم عليه ، فاستهزءوا بقوله ، وسخِروا منه ، وتهكموا به ، وقالوا : يا شعيبُ ، أصَلاتُكَ تَأمُرُكَ

---

(١) زم البعير : خطمه . أي أعدوها للسفر .

(٢) لما ذاق يوسف الدنيا على وجوهها الحلوة والمرة رآها ليست بشيء واشتاق الى ما عند الله من نعيم ودعا الله يتوفاه وكان أن قبض .

(*) الأعراف ٨٥-٩٣ ، هود ٨٤-٩٥ ، الشعراء ١٧٦-١٩١ ، العنكبوت ٣٦-٣٧ .

(٣) الأيكة : غيضة تنبت الشجر .

(٤) اكتالوا : إذا كان لهم حق بالكيل أو الوزن .

(٥) كالوهم : إذا كان للناس حق عندهم في مكيل أو موزون .

أنْ نَعبُـد غيرَ ما كان يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ، وتنهاك أن نعاملَ الناس كما نحب ونشتهي . فندع ما دَرَجنا عليه ، ونشأنا فيه ، وكثُرَت أموالنا من طريقه !

كيف تنهانا عن دينٍ ألفْناه ، وشَرْعٍ ورثناه ، وأنت الراجح عقلاً ، السديد رأياً ، الواسع حلماً !

ولـكـن شعيباً لم تَبدُ منه جفوة أو قسوة ، بل تلطَّف في جدالهم ، وآثر استمالتهم باللين ، واجتذابهم بالرفق ، وذكّرهم بما بينه وبينهم من صلة ، فذلك أدْعَى لقبول النصح ، والانصياع الى الرأي ، وأدلّ على الرغبة في الخير والحب للنفع .

ولما آنِسَ منهم ميلاً إليه . وظنّ أن آذانهم تفتّحت لسماع قوله ، بيّن لهم أن ظهور البينة له وكثرة نعم الله عليه تحولان بينه وبين الانسياق الى طريقهم ، والاندفاع في غيِّهم ، وتمنعانه عن التفريط في وَحْي الله والتهاون في تكاليفه ، ثم أعلن إليهم أنه قد أوحي إليه بالهدى ، وأرسل بالحق ، وأوتي من الله الرحمة وأرشد الى ما لم يهتدوا إليه ، وأنه لن يَنيَ عن العمل بهذه الدعوة التي اختير لها وألقِي إليه وحيها ، على أنه لن يُكرهَهُم على اتباع دعوته ، ولا يأمرهم بشيء إلا رضيَه لنفسه . وهو الذي اشتهر بينهم بالحلم ، وعُرِف فيهم بالرشد : ثم هو لا يطلب منهم أجراً على هَدْيِهم و ولا جزاء على إرشادهم ، بل يريد إصلاح أمرهم ما استطاع الى ذلك سبيلاً .

مَن كان هذا شأنه فهو أحقُّ أن يتَّبعوه ، وأولى أن يقتفوه ، وليس له غرض خاص من دعوته ، ولا مأرَب من وراء طَلِبَتِه .

ولكنه أحسَّ نفورهم من نصيحته ، ورأى منهم ميلاً الى مخالفته و مع أنه لم يُبْقِ لهم شُبهة ، ولم يترك لهم حجة ، فظنّ أنهم إنما يأنفون من متابعته ، ويميلون عن دعوته ، بغياً وحسداً ، وبغضاً وكِبراً . فنهاهم أن يحملهم ذلك على الانصراف عنه ، أو تدفع بهم الرغبة في مجانبته الى النأي عما يدعوهم إليه ، وخوّفهم بأسَ الله وعذابه ، وبيَّن لهم أن اقتراف المعصية ، وارتكاب الإثم لا يمنعهم أن يؤمنوا بالله ، ويتوبوا إليه لينجوا من العذاب ويتخطاهم العقاب .

ولما أظهر لهم فساد اعتقادهم ، وبيّن لهم عاقبة ظلمهم ، وأيّد قوله بالحجة البالغة

والآيات البينة ، لجئوا الى المراوغة في القول ومدافعة الحجة بالشتم ، فقالوا له : إننا لم نَفقَه[1] كثيراً من قولك ، لأنه ليس لكلامك سبيل الى قلوبنا أو منفذ الى عقولنا ، فلتكفّ عن إثارة مَنْ هم في عزة ومَنعة ، وأنت المستضعَف الذليل ، الذي لا يمنعنا عن أذاك إلا مكان عشيرتك ، وحرمة قبيلتك .

ولكن شعيباً لم يطأطِىء رأسه أمام عزّتهم ، ولم يَضعُف أمام قوتهم ، بل هبّ يدفع باطلَهم بحقه ، ويمحق زُورَهم ببيِّنته ، وتملّكته العزة بنصرة الله ، وتاه فخراً بمؤازرته ، وأبان لهم أن رهطه[2] ليْسُوا أرفعَ قدراً ، ولا أشدّ قوة ، ولا أمنع جانباً من الله الذي منحهم هذه القوة ، وأفاض عليهم تلك العزة وقال : هلا تركتموني رعايةً لحق الله ، وحفظتموني إطاعة له ! إن ذلك أولى من حفظي لمكان قومي وعزة رهطي .

لم يضعِف تهديدُهم قوّته ، ولم يفُلّ وعيدُهم من عزمه ، بل دعاهُمْ أن يبذلوا ما يملكون من قوة لإيصال الشر إليه ، وأعلن إليهم أنه لن يألوَ جهداً في سبيل دعوته ، ولن يدّخر وُسْعاً في الوصول الى غايته . فثِقتُه بنصر الله أكيدة ، وعاقبته عنده حميدة ، وهو أعلم بما يعملون ، خبير بما يصنعون .

دَأب شعيبٌ على الدعوة الى الله ، فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، وآمن به نَفَرٌ قليل ، فهلعَتْ نفوس القوم خيفَةَ أن يعظم أمره ، ويشتدّ ساعدُه ، وينتشر دينه ، وتكثر جماعته ، فتوعَّدوه ومَن آمن معه أن يخرجوهم من قريتهم و إن لم يبرءوا من دينهم ، ويعودوا الى مِلَّتهم . ولكن شعيباً أنبأهم أن هؤلاء الذين اتبعوه قد استرقّ الإيمان قلوبَهم ، وَمَلكَ عليهم مشاعرَهم ، وخالط نفوسهم ، فلن يعودوا الى حَمْأة[3] الرذيلة إلا كارهين ، ولن يرجعوا عن عبادة الله طائعين ، فقد أصبحت نفوسُهم تَعاف ارتكاب

(١) الفقه : الفهم .
(٢) رهط الرجل : قومه وقبيلته .
(٣) الحمأة : الطين .

المعاصي ، بعد أن نجّاهم الله منها ، وتأبى أن تتردّى[1] في مهاوي الضلالة بعد أن أخرجهم الله من مَباءتها[2] .

ولما يئس من هدايتهم الى الحق ، وتبيّن إصرارَهم على الكفر ، استنصر ربّه عليهم و ودعاه أن يجزيَهم على كفرهم وجحودهم ، وتضرّع إليه أن يعجّل لهم ما يستحقون من عذاب . ولكن القوم عن الحق لاهُون ، وعلى الدنيا مقبلون ، وعما خبأ لهم القدر منصرفون . فرجعوا الى القوم المؤمنين ، وأعادوا الكرّة على مَن ظنُّوهم مستضعفين ، وخوّفوهم الخسران إن تركوا الظلم ، وعاملوا الناس بالقسط ، وهدّدوهم بالخراب إن لم يطفّفوا[3] الكيل والميزان ، وحذّروهم العُدْمَ إن لم يَبخسوا الناس أشياءهم ويعِيثُوا في الأرض مفسدين .

ثم كرّوا على شعيب بالتكذيب ونسبوا إليه الشعوذةَ والسحر ، وتحدّوه أن يسقِط عليهم كسفاً[4] من السماء ، وأن ينزل عليهم العذاب إن كان من الصادقين .

استجاب الله دعاءه ، وآزره بنصره ! وابتلاهم بالحرّ الشديد ، فكان لا يروي ظمأهم ماءٌ ، ولا تمنعهم ظِلال ، ولا تقيهم الأسراب والمنازل ففرّوا هاربين ، وخرجوا من ديارهم مسرعين . ولكنهم فرّوا من قضاء الله وقدَره الى قضاء الله وقدره و فقد شامُوا سحابة ظنوها لهم من وَهَج الشمس واقية و وحسبوها للحرِّ دافعة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظِلها ، ويستروِحوا فيئها ، حتى إذا تكامل عددهم ، وتألّف جمعهم ، رمتهم بشَرَر وُشهب ، وجاءتهم صيحةٌ من السماء ، وأحسّوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم و ففزعوا لهول ما رأوا . ولم يكادوا يحسّون ما حلّ بهم حتى أزهقتْ أرواحهم و وهلكت نفوسهم .

رأى شعيب ما حلّ بقومه ، فأعرض عنهم ، يُثقله الحزن على ما أصابهم . ولكنه ذكر كفرهم بالله ، وتسفيههم لرأيه ، واستهزاءهم بمن آمنوا معه ، ومخالفتهم نصيحته . فخفّف ذلك من وَجْده ، وتولى عَنهم (وقال يا قوم لقد أبْلغْتُكم رِسالاتِ رَبّي ونَصحْتُ لكم فكيفَ آسى على قومٍ كافِرينَ) .

---

(١) تسقط .

(٢) المكان الموبوء .

(٣) التطفيف : نقص المكيال .

(٤) كسفاً : قطعاً علوية مهلكة .

موسى (*)

ولادة موسى وتربيته

تمادى فرعونُ في غيّه ، وعلا في الأرض ، وأنزل الخسْفَ بطائفةٍ من رعاياه ، هم بنو إسرائيل ، إذ عاشوا في ظلاله عيشةَ البلاء ، واصطبروا على الضراء . وبينا هم يضطربون ويرزحون في نكَدٍ من العيش وسوء الحال ، إذ تقدّم الكاهن من فرعون وقال له : يولد مولود في بني إسرائيلَ يذهَب مُلكك على يده . فثارت ثورته ، وسَدَر[1] في بهتانه ، وأمعن في غيّه ، فذبَح أبناءهم ، واستبقى نساءهم ، ولكن قدرة الله تعالى تسامت أن يقف أمامها تدبير خائب ، فقدّر في قديم أزَلِهِ لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا مُلكَ هذا الطاغية الجبار على يد طفل يربى في بيته ، ولكنه كالورد ينبت من ثنايا الشوك ، وكالفجر يَدْرُج من مهد الظلام .

مكّن الله لبني اسرائيل ، وأرَى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

جلست يوكابد[2] ، في كِنّ[3] من منزلها ، وقد جاءها المخاض ، فدعت قابلة لتهيء لها مثل ما يكون في هذه الحال ، فعالجتها . فلما وقع موسى على الأرض اضطربت نفسُها ، ولكنّ حُبّه تغلغل في قلبها ، فحرَصَت على حياته ، وجهدت في البقيا عليه ، فلم يتسرَّب خبرُه الى فرعون ، عدو الأطفال . واستمرّ ثلاثة من الشهور كذلك ، حتى إذا نشر الملكُ عيونه في المدينة يتفحصّون الأطفال ألهَمَ الله أمّ موسى أن تهيء له صندوقاً تضعه فيه ، ثم تُلْقِي به في النيل ، وترسل على الشاطىء أخته تقصُّ أثره ، وتُلِمّ بخبره ، بعد أن ثبَّت فؤادها ، وهَدّأ رَوْعَها بقول كريم .

(*) القصص ٣-٤ ، طه ٩-١٠١ . والشعراء ١-٦٨ ، الأعراف ١٠٠-١٥٦ ، ١٦٠ ، يونس ٧٥-٩٢ ، النمل ٧-١٤ . النازعات ١٥-٢٦ ، هود ٩٦-١٠١ . إبراهيم ٥-٨ . المؤمنون ٤٥-٤٨ ، الإسراء ١٠١-١٠٤ .

(١) سدر : تحير .

(٢) يوكابد : أم موسى .

(٣) الكن : الجانب من المنزل .

سارت أخت موسى تقصّ أثره وما كان أشدّ هلعها حينما حُمِل الصندوق الى فرعون . ولكن رحمة الله قريب منه ، فلم تكد تنظره أمرأةُ فرعون حتى ألقَى الله محبته في قلبها ، فطلبت الى زوجها أن يكون ابناً لها وله . وقد أصبح قلب يوكابد فارغاً من الهمّ والإشفاق على وليدها ، لأنه استودعته الله ، وهي رابطةُ الجأش و ثابتة الإيمان .

وسِيقت إليه المراضع ، لعله يُقبل على واحدة منهنّ ، فيروي علّته ويشبع جوعته ، ولكنه عاف المراضع . فانبرى هامان ، وقال : إن هذه الفتاة تعرفه ، فخذوها حتى تُخْبِر بحاله . ولما سئلت الفتاة قالت : إنما أردت أن أكونَ للملك من الناصحين . فأمرها فرعون أن تأتيَ بمن يكْفُله ، وأقبل يحمل الطفل باكياً . وهو يعلّله حتى أقبلت امرأة ، فاستأنس بها الوليد ، والتقم ثديها من دون النساء .

فدهِش فِرعون وقال لها : من أنتِ ؛ فقد أبى كلّ ثدي إلا ثديك ! فقالت أمُّ موسى : إني امرأة طيِّبة الريح ، طيبة اللبن ، لا أوتى بصبيّ إلا قبلني . فدفعه إليها وأجْرَى عليها رزقاً فرجعت به الى بيتها . وهكذا كافأها الله فقرّت عينُها به . لتعلم أن وعد الله حق .

خروج موسى من مصر

أتمتْ يوكابد رضاعَ ابنها موسى ، ثم أسلمته الى القصر الفرعونيّ ليكون لهم عدوّاً وَحزَناً . ولما بلغ أشُدّه واستوى ، أوحى الله إليه بالنبوة وآتاه العلم والحكمة .

اتجهت أنظارُ المستضعَفين المغلوبين الى موسى ، ليحميّهم مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام ، وهؤلاء قومُه ، وهو ذو النفس الكريمة التي أشربت عزّة الله ، واستنارت بنور الله .

عاهد موسى نفسَه على أن يكون لهؤلاء المظلومين . وفيما هو يتجه نحو العاصمة الفرعونية ، إذ وجد رجلين يقتتلان ، أحدهما عبْريٌّ من مشايعيه ، والآخر فرعونيّ من أصحاب القوّة والسلطان ، فسأله مُظاهرُه أن يحول بينه وبين اعتداء الفرعوني ، فهمّ موسى بضرب الفرعونيّ فكانت القاضية . ثم ندم موسى على فعلته ، وعدّها من عمل الشيطان ، واستغفر ربه على ما فرط منه ، فغفر له ربه إنه غفور رحيم .

ولقد كان الغُفْران نعمةً على موسى ، وحافزاً لرحمته ، وداعياً لسلامه ، فاستعاذ بالله أن يكون ظهيراً[1] للمجرمين ! ولكن موسى تغلبت عليه بشريّته ، وانتصرت على حواسّه طبيعة الإنسان ، فلم يُعلِّق إرادته بإرادة مدبّر الأمر ، ومصرّف الكائنات ، ولم يستثْنِ مشيئة الله ، فوقع فيها عزم على النجاة من غوائله إذ أصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فاذا الذي استنصرَه بالأمسِ يستصرخه فرماه موسى بالغواية والضلال ، ولكنه اندفع الى مظاهرته ، فظن أن موسى يقصد قتله ، فتقدم إليه مسترحماً قائلاً : (يا موسى أتريدُ أن تقتُلَنِي كما قتَلْتَ نفساً بالأمسِ إن تُريدُ إلا أن تَكونَ جباراً في الأ رضِ وما تريد أن تكونَ من المصلحينَ) . فلم يكد يسمع الفرعونيّ هذا الاتهام الصريح ــ وقد كان قومُه في حيرة من أمر قتيل الأمس ، لا يعرفون قاتله ــ حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى ، فتألّب القومُ يبحثون عن موسى ليمزقوه شر مُمزّق ، ولكن رحمة الله قريب ، إذ جاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا موسى إن المَلأ يَأتَمِرونَ بِك ليَقتُلوك . ثم نصحه بالخروج من المدينة الى حيث يشاء ربُّ العالمين .

موسى ينزل أرض مَديَنْ

خرج موسى من المدينة خائفاً يترقّب ، متجهاً الى أن يصرف عنه كيد الظالمين . سار ثماني ليال قاصداً بلاد مَدْين[2] ولا مُعين له إلا عناية الله ، ولا رفيق يؤنسه إلا نور الله ، ولا زاد يحمله إلا زاد التقوى . . مشى حافياً حتى تساقطت جلودُ قدميه ، جائعاً حتى لتكاد تتراءى خضرة البقل من بطنه هُزالاً وضعفاً .

ولم يكن له عن ذلك إلا عزاء واحداً ، هو غنيمتُه بالبعد عن فرعون وقومه ، ونجاته بعيداً عن الرقباء والكائدين .

---

(١) مساعداً .

(٢) بين الشام والحجاز .

توجّه الى مدين ، فوجد حشْداً من الناس قد تزاحموا على مَورِد[1] ماء ، كل منهم يعتمد على قدرته في التقدُّم والمسابقة الى البئر ، ورأى من دونهم امرأتين تَفصِلان أغنامهما حتى لا تختلط بأغنام غيرهما في ضَعْفٍ وذلة ، الى أن ينكشف هذا الحَشد ، وينصرف الجمع ، فتتقدّما للسُّقْيَا .

ثارت في نفس نبي الله ثورة النَّصفة ، وحماية المستضعفين ، فتقدّم وسألهما : ما خَطبُكما ؟

قالتا : لا نسقي حتى ينصرفَ الرِّعاء[2] حَذراً من مزاحمة الرجال ، وقد جئنا نسقي اضطراراً ، لأن أبانا شيخ كبير لا ينهض ؛ فما تأخر موسى عن نجدة الضعيفتين ؛ بل سقى أغنامهما ، وتولى الى الظِّل ، ثم انطلق لسانهُ يسترحم رب السموات ، ويستدرُّ العطف ، لأنه فقير محتاج .

بكرت الفتاتان بالرُّجعَى الى أبيهما الشيخ على غير عادة ، فسألهما الخبر ، فأخبرتاه ، وقد استجاب الله استرحام موسى ، فحنا عليه ، إذ ألهم الشيخ أن يرسل في طلبه إحدى ابنتيه ، فجاءته الفتاة مستحيية متخفّرة ، فقالت : (إن أبي يَدعُوكَ لِيجْزِيكَ أجرَ ما سقَيْتَ لنا) .

تَبع موسى الفتاة الى بيت أبيها استجابة للدعوة ، فنزل صدراً رحباً . وآنس حَرماً آمناً ، ثم قصّ عليه قصَصه ، وأفضى إليه بمكنون سره ، فطمأنه الشيخ ، وقال : (لا تَخَفْ نَجوْتَ مِن القوم الظالِمين) .

---

(١) المورد : موضع ورود الماء .

(٢) الرعاء : الرعاة .

موسى يصاهر الشيخ[1] ثم يعود الى وطنه

هدأت نفس موسى في منزل الشيخ الكريم ، وسكنت الى صحبته ، ولا بدْع[2] فنور الإيمان يتلألأ في كلا القلبَين ، وفيضُ الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين ، وشبيه الشيء منجذب اليه .

ولقد كان موسى كريماً فتيّاً ؛ أثار في نفس الشيخ وبنتيْه عوامل الإكبار والإعجاب ، لِما زانه الله به من طبع قويم ، وخلق كريم ، فتحرّك في نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوّته ، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته ؛ فقالت : (يا ابتِ استأجِرْهُ إنّ خيرَ من استأجرْتَ القَويُّ الأمِينُ) .

أو لَيس هو الذي أقلّ الغِطاء عن البئر منفرداً مع صعوبة حملة ، على ما كان به من تعب وهزال ! أو ليس هو العف الطاهر الذيل الذي أطرق برأسه حينما بلّغته رسالةَ أبيها واستدعته إليه ، فسار أمامها وسارت خلفه وفاء لحقوق الطهارة وذِمام[3] المكرمات ، وحتى لا تمتد عينه إليها فيكون من الخائنين .

مر حديث الفتاة الى أذن أبيها ، فلم ينَبّه غافلاً ، ولم يحرّك ساكناً ، بل كان صدىً يرجّع ما كان يجيش في صدر الشيخ من أمل ورجاء ، أما وقد مزق التماسُ الفتاة حجاب السكوت ، فقد استقر أبوها في مجلسه ، ثم انبرى يقول : يا موسى ؛ إني لراغب في أن أزوّجك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تكون عوناً لي وظهيراً أجيراً ترعى الغنم ، وتقوم بنصرتي ومُساعدتي ثمانيَ حجج[4] ، وإن زدتَها اثنتين فتلك مِنّةٌ جليلة ، أرجوها منك ، ولا أحتّمها عليك ، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين .

---

(١) يرى الحسن البصري ومالك بن أنس أن الشيخ هو شعيب عليه السلام ، ويرى آخرون انه شعيب آخر وليس بالنبي .

(٢) لا بدع : لا غرابة .

(٣) الذمام : الحرمة .

(٤) حجج : سنين .

ولقد كان موسى شريداً في بلاد مَدْيَن ، وحيداً طريداً ، نائياً عن الأهل ، قصيّاً عن الأخِلاّء ، مستوحشة نفسه ، فلم يكد يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة في نفسه مسرى الماء في العود ، وانطلق لسانه يقول للشيخ : إني لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم ، قويٌّ بمناصرتك ، عزيز بمؤازرتك .

طاب مُقام موسى واخضرّ في حياته عود الأمل ، فأتم أقصى الأجَلين يكلأ أمورَ الشيخ ويدبر شؤونه برعاية الأمين الناصح الحكيم ، وتمّ الزواج بإحدى الفتاتين . ثم وهب له صهْرُهُ الكريم أغناماً له خالصة سائغة ؛ وبعد ذلك تحركت في صدره نَشوة الحنين الى الوطن ، ونزَعت نفسه إليه ، ولجّ به الشوق والهيام .

بلادٌ ألِفْتَاها على كلِّ حالة وقد يُؤلفُ الشيء الذي ليس بالحسنْ
وتستعذَبُ الأرضُ التي لا هوًى بها ولا ماؤها عذبٌ ولكنها وطنْ

جمع موسى أشتاتَ متاعِه و وهيّأ رَحْله ، واستعدّ ليذهب مع زوجه الى مصر ، فودّعا الشيخَ وداعاً حسناً ، ودعا لهما بالتوفيق والسّداد ، ثم سارا نحو الجنوب ، حتى طور سيناء ، وهناك ضلّ موسى الطريق ِفحار في أمره ، والتوى عليه قصدُه . ولكن عناية الله لاحظته ، فلم يَخُبْ ضياؤه ، ولم ينطفىء رجاؤه .

وإذا الغنايةُ لاحظتك عيونُها نَمْ فالمخاوف كلُّهنّ أمانُ

سار موسى غير بعيد ، فأبصر من الجهة التي تَلِي الطور ناراً ، فحطّ رِحَاله ، وأسرع وحده الى النار بعد أن قال لأهله : امكُثوا إني آنستُ[1] ناراً ، لعَلّي آتيكُم مِنهَا بخبَرٍ أوْ جَذْوَةٍ[2] مِنَ النارِ لعَلّكُم تَصطَلُونَ[3] .

في شاطىء الوادي الأيمن ، في البقعة المباركة من الشجرة ، في تلك الليلة المسفِرة

---

(١) آنست : ابصرت .

(٢) الجذوة : الجمرة الملتهبة .

(٣) تصطلون : تستدفئون .

الضاحكة ، بَسمَ الزمان لنبي الله الكريم ، فنودي : (أنْ يَا مُوسى إني أنا الله رُبُّ العَالمينَ) ، فكانت بدء نبوّته ، إذ خصه الله بكرامته ، وبعثه برسالته . وهناك سمع نداء الله الكريم (ومَا تِلْكَ بيمِينك يَا مُوسَى) ؟ فعجزت قدرته البشرية أن تسموَ الى سِرِّ الإبداع في السؤال الكريم ، فأجاب كما يجيب غيره من الناس : (هيَ عَصايَ أتوكّأ عَليْها وأهشُّ بهَا على غَنمي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخْرى) ، ظناً أن المقصود أن يذكر خصائص العصا ، ومنافع العصا ... تسامت قدرة الله ، وتعالى سبحانه علوّاً كبيراً ، فلم يكن السؤالُ إلا تمهيداً لتبيانه ومقدّمة لإعلانه !

سأل الله عن حقيقة العصا ، حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق ، واستبان عندها معجزات ، علم أن في ذلك آيات بينات ، وحُجَجاً صادقات ، خَصه بها رب السموات ، تمييزاً لرسالته وتقوية لدعوته :

فكم طابت به للحق نفس ... بحَبْل الله تعتصمُ اعتصاماً

أمِرَ موسى أن يلقي عصاه فألقاها ، فإذا هي حيَّة تسعى ، نمَت وعظمت حتى غَدَت في جَلادة الثعبان ، وضخامة الجانِ[1] ، لمحها موسى فخاف وهرب ، فسمع نداء العليّ العظيم : (لا تخَفْ إني لا يَخافُ لدَيّ المرْسَلُونَ) .

حقّت نبوّة موسى ، واطمأنت نفسُه لنداء الله الكريم ، وقرّت عينُه بنور الحق الواضح ، فتوجّهُ رَبُّه بمعجزة أخرى ، إذ أمره فأدخلَ يده في جيبه ، فإذا هي بيضاء مُن غير سُوء .

كانت هاتان المعجزتان لموسى نبي الله الكريم أمراً له ما بعده ، جعلها الله تثبيتاً لقلبه ، وتمكيناً لرسالته بينَ فرعون وقومه ، وتهيئة للمناداة بالحق ، فرفع صوته عالياً ، وشهر سيفه قاطعاً ، ليمزّق به حُجُبَ الزيغ والضلال[2] .

---

(١) الجان : نوع من الحيات .

(٢) اختار الله موسى ليكون معلماً يعلم الناس اللايمان وحتى يقبل الناس من موسى دعوته ينبغي أن يكون ايمانه يقيناً ولذلك أراه الله تلك الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته .

موسى الرسول

عاش فرعون وأعوانه في بلاد النيل ، يحكمون القِبْط وبني اسرائيل ، ويفسدون في الأرض ظلماً واستكباراً ، ويتخذون من نفوسهم أرباباً ، مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهة ، يفرضون على السُّوقة عبادتهم من دون الله . ثم هم بعدُ قد أنزلوا الخسفَ ببني اسرائيل ، وساموهم سوء العذاب ، وأتعبوهم في العمل ، وأطفئوا أمامهم سُرُج الأمل ، فكانوا معهم من سَقط المتاع .

وأوغلوا في شهواتهم ، وانصرفوا عن نور الإيمان ووضح اليقين ، وانحسرت نواظرُهم عن سُبل الهداية ، فحادوا عن الطريق المستقيم .

وقومٌ في الضلالة قد تهاوَوْا ألَيْسوا بالرسالة يرحمونا !

إذن فلتَفضْ رحمة الله ، ولتتفجر ينابيعُ عدله وكرمه ، وليكن أرحم بهؤلاء القساة الجفاة في أنفسهم ، فيهيء لهم مَدارج النور ، ويفسح أمامهم طريق الهداية ، وَينيرَ مفاوز[1] الظلمات .

نادى الله موسى : أن لديك برهانان من ربك الى فرعون ومَلئه ، يعزز الله بهما كلمتَك ، ويُعلي حُجَّتك ، فاذهب الى هؤلاء حتى تخرجهم من الظلمات الى النور ، وترفَع للحق علماً يخفق في بلاد النيل ؛ فينبلج نور الرشاد ، ويتوارى غَلسُ الضلال .

سمع موسى دعوة الله ، وتهيأ لتلبية النداء الكريم ، وهو وإن يكن ربط الله بالإيمان قلبه ، ووثّق بالبراهين دعوته ؛ فأراه حجتين بهما يتقوى ويَستدّ ، ويُساجل ويناضل ، ويعزِّز كلمة الله أمام فرعون وقومه — إن يكن له كلُّ ذلك ؛ فإنّ لدى موسى ثأراً قديماً لفرعون ؛ فهم يطلبونه منذ أمد ، وهو قد أمعن في الهرب ، وفارق الأهل والوطن ؛ إنجاء لنفسه ، وطلباً للسلامة من أقرب الأبواب . وهو كذلك وإن جاشت في نفسه نزعةُ

(١) المفازة : الموضع المهلك .

الحنينِ الى الوطنِ ؛ واختلجت في فؤاده عواملُ الشوق والشجَن[1] ؛ لا يزال يجد أمام الأمل سدة[2] ؛ فيغضّ الطَّرف عن هذا المطلب البعيد المنال . أما وقد دعاه الله وهيأه لرسالته ، فقد آن له أن يتقدّم حيث أحجم ، وأن تنبعث آماله حرّة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان .

فاضت الضراعةُ من قلب موسى الى ربه ، فقال : (رَبِّ إني قتَلْتُ مِنهُمْ نَفساً فَأخَاف أن يَقتُلونِ) قال قَوْلته ؛ ليطمئنَّ قلبه ، وليشرُف قدرُه ، ويعظم جاهه ، فينفحه ربه بقول كريم ، يُنير في قلبه مصابيحَ الرجاء ، ويفسح أمامه مسالك الأمل ، ويثلج خاطرَه ، ويهدّىء روعه ، ويؤمن نفسه .

أُمِرَ موسى أن يذهب الى فرعون فتهيّب الموقف ، واستعظم الأمر ، وهو الذي لا يكاد يُبين عن آيات الهدى ، ودلائل الحق ؛ لأنها فياضة زاخرة ؛ تمتلىء بها مشاعره ، وتجيش بها خواطره ، وتملك عليه عَقله وقلبه . وهو لا يملك أن يكون قويّ التعبير ، رصين الحجة ، مُفوّه المنطق ، سريّ البيان ، لأن شأنه شأن خطير ، وأمره أمر كبير ، فدعا ربه فقال : رب اشْرَحْ لي صَدْري ، حتى ينفسح لتحمُّل أعباء هذا الأمر العظيم ، ويَسِّر لي أمري برفع الموانع والصعاب ، واحلُل عُقدَة من لساني أكن ناصعَ البيان ، سديد البرهان ، حتى يَنفذ بَلاغِي الى نفوسهم ، ويتسرب الى قلوبهم ، واجعل لي شريكاً وزيراً من أهلي ، هو هرون أخي ، اشْدُد به أزْري ، وأشْرِكه في أمري .

أجاب الله دعاء نبيه الكريم ، تدعيماً للدعوة ، وتكريماً لرسوله ، وتنبيهاً لشأن الحق ، فألهم هرون ــ وقد كان بمصر ــ أن يذهبَ الى حيث يقيم موسى أخوه ، ليشْركه في أمره ، ويحمل معه أعباء هذا الأمر الخطير . فلبّى هرون داعي الحق ، وسار فقابل أخاه بجانب الطور الأيمن .

إذن قد اطمأن موسى ، وتقوّى ظهره ، وآتاه الله سُؤله

أوحى الله الى موسى وأخيه : أن اذهبا الى فرعون ، فقولا له قولاً ليّناً ، أرفقَ بنفسه ،

---

(١) الشجن : الحزن .

(٢) السدة : باب الدار .

وآلف لقلبه ، عسى أن تلينَ قسوته ، وتخضعَ سطوته ، فلا تحمله حماقته على أن يسطوَ عليكما ، ولْتسدّا أمامه منافذ التمحل والاعتذار . وعسى أن تكون دعوتُكما ليّنة رقيقة ، فلا تفجعه في سلطته ، ولا تصدمه في عزّته .

ومَنْ أولى من رب السماء والأرض بأن يعلّم الأدب ، ورقة العبارة ، وسموّ الحس ، وحسن المعاملة ! ومَنْ أحسن قولاً ممن دعاه الى الله وعمل صالحاً !

أليستْ لفرعون على موسى حقوق التربية ! فمن حقه عليه ملاينةٌ في القول ، ورقة في الأسلوب .

قال الله : يا موسى ، إذهب أنت وأخوك بآياتي الى فرعون وقومه ، وتدرّجا معه في الدعوة ، فقولا : إنّا رسول ربك ، وادعواه ليُخلّص بني إسرائيل مما هم فيه من ظلم وإيلام .

ذهب موسى وأخوه الى مصر ، فأتيا فرعون ، فاستهان بهما ، واستنكر بخطبها ، فقال : حتى أنت يا موسى ، (ألمْ نُربّكَ فِينَا وَلِيداً [1] وَلبِثتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) .

فقال موسى : أتَمُنُّ بتربيتي لديك وليداً فتحسبها نعمة ! أليس منشؤها ظلمُك واستعبادك لبني إسرائيل !

فانطلق فرعون قائلاً : وكذلك فعَلْت فَعلتَكَ التي فعلت وأنت من الجاحدين بنعمتنا . ودَحض [2] موسى حُجَّته ، وردّ دعوته ؛ فقال : بل فعلتُها إذاً وأنا من الضالين ، ولما خِفتُ بطشكم فررت منكم ، فأصابتني نعمة الله ورحمته ، فوهب لي علماً وحكمة ، وجعلني من المرسلين .

حينئذ استغلق باب النقاش أمام فرعون ، فعَمَد [3] الى طريق آخر ، واهماً أن به نَصَفته ، وفيه سلامته ، فقال : وما رب العالمين ؟

---

(١) الوليد : الصبي المولود .

(٢) دفع وأبطل .

(٣) عمد الى الشيء : قصد له .

فقال موسى : إن أيقنتَ حقيقة الأشياء ، وأدركت وجودها وآثارها ، فإلٰهي ربُّها ، رب السموات والأرض وما بينهما .

فتميّز فرعونُ غَيْظاً ، وراح يُثير سخيمة مَن حوله ، ويبعث دهشتهم وعجبهم واستنكارهم ، فقال :

أيها القوم ، ألا تسمعون ! أسأله عن حقيقة ربّه فيذكر لي أفعاله ! فقال موسى : ربي ربكم ورب آبائكم الأولين ، (رَبُّ المشرِقِ والمَغرِبِ وما بَينهُما إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) .

فثار فرعون واضطربت نفسه ، ولجّ في غضبه ، وزاد غيظه ، وعجزت حجّتُه ، فلجأ الى حيلة المُحنَق الموتور ، وعمَد الى قوّته ، وقال : (لئنِ اتخذْتَ إلٰهاً غيري لأجْعَلنّكَ مِنَ المسجونينَ) .

لم يُبالِ موسى ، واطمأن لدعوته ، وانبعث لسانه بدفء الأمل ، فقال : (أوَلَوْ جِئتُكَ بِشيءٍ مُبِين) ! حجّةٍ دامغة ، ومعجزة[1] قاطعة ، تُزيل عنك الريب والشكوك !

فقال فرعون : إذن فأتِ بها إن كنتَ من الصادقين .

معجزات موسى

كان موسى قويَّ الظهر ، مسدّد الخطا ، يستمد العون والتوفيق من الله العليّ الكبير ، وكان السحر فنّاً ذاع في القِبط أمرُه ، واشتهر شأنه ، فظهر منهم الساحر الذي يَخْلبُ العقول ، ويسترقّ الفؤاد ، ويلعب بالألباب لِعْبَ النَّكباء[2] بالعود ، برعوا في هذا الفن وأتقنوه ، فليس يباريهم سابق ، ولا يبلغ شأوهم لاحق .

---

(١) المعجزة : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تأييداً له وتكون مصحوبة بتحدٍّ أن يفعلها انسان آخر .

(٢) النكباء : الريح .

ومن هذه الناحية وحدها شاءت إرادة الله أن يُعْجزَ القوم ، وأن يقفهُمْ دهشين ذاهلين ، إذ تُصوِّب سهامهم الى نحورهم ، فلا يستطيعون ردّها ، ولا هم يُنظَرون .

تلك حكمةٌ أرادها الله ، فأجرى المعجزة على يد نبيه موسى تحاكي ذلك النوع الذي برع فيه القوم ، حتى يُفرغوا كل كنائنهم ، ويستنفدوا كلّ جهودهم فإذا عجزوا في محطّ سَبقهم ، وغاية براعتهم ، فهم عن غيره من الأعمال أعجز ، وحينئذ فكلمة الله هي العليا وكلمتهم هي السفلى ، والله لا يهدي كيد الخائنين .

ألقى موسى عصاه التي أودعها الله القوة الخارقة ، فاذا هي ثعبان مبينٌ . شُدِه[1] فرعون ، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة ، ثم قال : هل من غيرها ؟ ظاناً بأن ذلك نهايةُ الشوط ، وأن موسى لا بدّ عاجز . ولكن الرسول أدخل يده في جيبه ثم نزعها ، فإذا شعاع ينبعث منها يكاد سَنا[2] بَرْقه يأخذ الأ بصار ، ويذيع وينتشر حتى ليكاد يسدُّ الأفق .

بعد ذلك ضاقت مسالك القوم أمام فرعون ، وغشيه همٌّ واكتئاب ، ولجّ به حرصُه على مُلكه وجَبرُوته ، وبهرَه سلطان المعجزة ، فأنزله من عَليائه ، وصغّر شأنه في عين نفسه ، فنسي أنه ربُّهم الأعلى ، وأنه ما عَلِم لهم من إلٰه غيره ، ثم عَمَد الى التمسح في أذيال قومه ، ومداهنتهم ، فأشركهم في الأمر ، وتبادل معهم المشورة والرأي وتقدم لمؤامرتهم ، وتنفيرهم من موسى ، مُلبساً الباطل ثوب الحق ، والخديعة والتدليس ثوب الصراحة والحقيقة ، فقال : يا قوم هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ؛ فما ترون ؟ فقال أنصاره وحواشيه : احبسهما ، وابعث رجالك في المدائن[3] يأتوك بكل ساحرٍ عليم .

صادف هذا الرأيُ هوًى في نفس فرعون ، وهو الذي يتعلّق بخيوطٍ واهية ، ويتمسك بالأمل الكاذب ، ويستند على أوهنِ أساس لعلّ فيه الخلاص والنجاة .

---

(١) شده : تحير .

(٢) سنا : ضوء .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، كالمدن .

فجدّ في جمع السحرة من كل مكان، كلُّ ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه؛ خوفاً على صَوْلته، وفرَقاً[1] على دولته؛ إذ قال لموسى في نكران ودَهَش: (أجِئتنا لِتُخرِجنَا مِنْ أرْضنَا بسِحْرك يَا مُوسَى).

ما بالُ فرعون اضطرب وجزع، وتقطعت نفسه وهلع! أليس هو الإله المتجبّر! أو ليست له قدرة وكرامة! إنه أمامَ تلك القوة الخارقة التي أجراها رب الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!

قال فرعون لموسى: (اْجعَلْ بيْننا وبيْنكَ مَوْعداً لا نُخلفُه نحنُ ولا أنت).

قال موسى: موعدكم يوم العيد، يوم اجتماع الناس وزينتهم، حتى يشيع الحق، وينبلجَ انبلاج النهار.

جدّ فرعون واجتهد، وجمع السّحرة، وأتى بهم في ذلك الزمان، وهذا المكان، تتمشى في نفسه بقيةٌ من الأمل، ورغبة شديدة مُلِحّة من الحرص والسلطة، يدفعانه دفعاً الى مساجلة موسى والقضاء على دعواه، ولكن هيهات أن يدنّس الشمسَ غبارٌ ثائر، أو يحطّ من قدر العدالة سلطان جائرٌ.

كناطحٍ صخرة يوماً لِيوهِنها فلم يضرْها وأوْهَى قرنَه الوعِلُ

تلفّت موسى فوجد حَشداً هائلاً من السحَرة، فقال لهم: الويل لكم إن افتريتم الكذب على الله، فدعوتم معجزاته سحراً؛ ولم تصارحوا فرعون بالنور الساطع والحق القاطع، فتظهروا له ما بين سَحْركم وإعجازي، وتُفرِّقوا بين باطلكم وحقي، ومَنِ احتال منكم ليبطِلَ حقّاً، أو يُحق باطلاً فقد خاب، وباء بالخسران المبين.

كان كلامُ موسى نداءَ الحق رنّ في آذان الساحرين، فأقاموا من غَشيَة الضلال، وأزالَ عن أفئدتهم حَلك المحال[2]، وفتقَ أعشيةَ قلوبِهم لتُصيخَ لدعوة الحق، ولتستبين طريقَ الرشاد.

---

(١) فرقاً: خوفاً.

(٢) المحال: الكيد والمكر.

ائـتـمـر السحرة بأمر فرعون ، لم يتخلفْ واحد منهم ، فإذا بهم آلاف ، مع كل واحد منهـم حَـبْـلٌ وعصا ، مقبلين إقبال رجل واحد ، ومشمّرين عن سواعدهم ، ليكون ذلك أدعى الى تسرّب الخوف الى موسى وأخيه ، وبثّ المهابة في نفوس الرائين .

نادَى فرعون في قومه ، حاثاً لهم على الإسراع والبِدار[1] و ليشهدوا ذلك الحفْل العظيم ساعة الضحى من يوم الزينة ، يوم يتبارى القِرنان[2] ، ويتساجل الخصْمان .

جاء الناس مدفوعين بالرجاء في نصرة الساحرين ، لما رسخ في نفوسهم من الضلالة ، وران[3] على قلوبهم من الجهالة ، فسلبهم سلامة التقدير ، وصحة التصوير .

أقبـل السحرة مُدِلّـينَ بعلمهم و مزهوِّين بغرورهم ، وكيف لا يُـدِلون ويُعجبون وهم فوارسُ الميدان ، وجياد الرهان ، ومناطَ الأمل ومحطّ الرجاء !

قـالـوا لـفـرعـون : ألـنـا أجـر إن غَـلَبْنا ؟ فقال : لكم أجرٌ وقرْبى ! تنعمون في حِماي ، وتـسـعـدون بجواري ، وتـنـزلون موارد الرفاهة[4] والترف والنعيم ، لأنكم تشدّون أزْري ، وتـقـوُّون ظـهـري . فـاطـمـأنّ الـسّـحـرة لهـذا ، ودارت بـرؤوسـهـم كؤوس الأمل ، فأقبلوا مدفوعين ، ثم قالوا : يا موسى ، إما أن تُلقِـي ، وإما أن نكون أوّلَ المُـلْـقِـين .

فـلـم يـبـال مـوسى سـحـرهـم ، واسـتـخـفّ بـخـطْبهم ، وأذِن لهم بأن يُلْقوا حبالهم وعـصـيِّهم ، حتى يستنفدوا أقصى وسعهم ، ويفرغوا غاية جهدهم ، ثم يُـظهر الله سلطانه ، فيقذف بالحقِّ فَـيدْمَـغه[5] .

تـقـدّم الـسـحـرة وألقَـوْا ما في أيديهم ، فخُيل لموسى أنها حيّـاتٌ على الأرض تسعى ، لـكـنـه وَهْـمٌ تسلّل الى خلجات نفسه حذراً وخوفاً أن يؤخَـذَ الناس بهذا الظاهر المموّه ، الباطل المشوّه ، فينصرفوا عن دعوته مدبرين . ولكنْ حماه الله ورعاه ، فقال : لا تَـخَـفْ

---

(١) بدر الى الشيء : أسرع .

(٢) القِرنان : الخصمان .

(٣) ران على قلوبهم : غلب .

(٤) الرفاهة : السعة والرغد .

(٥) يدمغه : يمحوه .

إنّـكَ أنتَ الأعلى ، ولا تَحفل[1] بكثرة هذه الأجراء وعِظمها ، فإن العُوَيدة التي في يدك أخطرُ شأناً وأعظمُ أثراً ، فألقِـهـا فإنها بقدرة الله تبتلع ما افتعلوه وزوّروا ، وموّهوا وضلّلوا ، فما كلُّ ذاك إلا كيد ساحر ، ولا يُفلِحُ الساحِرُ حَيثُ أتى[2] .

هدأت حَصاةُ موسى ، وألقى عصاه ، فإذا هي تَلْقَف[3] ما يَأفِكُون ، وإذا السحرةُ يلمسون الحقيقة الرائعة ، ويتبيّنون الرُّشْدَ مِنَ الضلال ، والحقّ من المحال ، فإذا هم يخرّون ساجدين ، توبةً عما صنعوا و خشوعاً لهيبة الحق ، وإكباراً لذلك الأمر الخطير .

غلت مراجلُ الحقد والحفيظة في صدر فرغون ، واحتدم غيظه لتلك المفاجأة الغريبة التي فجأته ، مستطيرة الشرر ، شديدة الضرر ، على حين كان يرجو من ورائها تقويةً لسلطانه ، وتدعيماً لبهتانه ، فإذا هي عاصفةٌ هوجاء تقوّض ذلك العرش الذي أسِّسَ على الزور والبهتان .

لم يجد فرعون في كِنانته إلا أن يُشْبِع نهَم غيظه ، ويستر مرارة خجَله ، فقال : أتؤمنون له ، وتخضعون لحكمه من قبل أن آذن لكم ! أليس في ذلك اتّفاق مقرر ، ورأي مدبَّر .

حقاً إنه لأستاذكم ، وكبيركم الذي علّمكم السحر ، فاتفقتم معه على فعلكم . أما وقد أقدمتم على ذلك ، وخرجتم على حدود طاعتي ، ونقضتم حبال عهدي ، فلأقطّعنّ أيدِيَكم وأرجُلكم من خِلافٍ ، ولأصلّبنّكم في جذوع النخل ، عقاباً لكم ، وتمثيلاً بكم ، لأنكم كفرتم بنعمتي ، ونقضتم ميثاقي ، ولتُعرِّفنكم أيامُ الزمن قوةَ بأسي ، وشدّة عذابي .

ولكن قوةَ الإيمان ، وفيضَ النبوّة رَبَطاً على قلوب هؤلاء المؤمنين ، فأزال الله عن

---

(١) حفل بكذا : بالى به .

(٢) السحر قراءات مخصوصة لها تأثير على أرواح الآخرين ويوهم الساحر المشاهد أن الشيء قد تغير ولكنه كما هو .

(٣) لقف الشيء وتلقفه : تناوله بسرعة .

قلوبهم غشيةَ الباطل وغمْرة البهتان ، ودَرجوا قُدُماً نحو الصراط المستقيم ، فقالوا لفرعون : ليس في سبيلك خير ، ولا في رضاك أجر فلن نختارك على ما جاءنا من نور ساطع وحق قاطع ، فأوغِلْ في وعيدك ، وأكثِر من تهديدك ، فما أنت إلا غَوي مُضِل مُبين ، (إنّا آمَنّا بِرَبّنا لِيغفرَ لنا خطايانا ومَا أكرهتَنا عليهِ مِن السحرِ واللهُ خَيرٌ وأبقى)[1] .

عناد فرعون

شُدِه فرعون لما رأى من سحر موسى كما يسميه ، وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان : أقواهما الإبقاء على مُلكه ، ومجاهدة موسى حتى تنجلي عجاجة ظلامه ، وتنكشف سحابة غمّته ، فيستتِبّ لفرعون المصير ، وكيف لا يناضل عُتلٌّ[2] جبار في سبيل هذه العزة الشامخة والثروة العريضة ! إنه لمضطرٌّ تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يُدافع ويجالد حتى يَدحرَ[3] ذلك الخارج على سلطانه . أصر فرعون على عناده ، وظاهرهُ الملأ من قومه ، فقالوا : (أتَذَر موسَى وقوْمَهُ ليفسِدوا في الأرض ويذرَكَ وآلهتك) ! فتغالَى في بطشه وعُنفُوانه ، واستطار شره وبهتانه ، فقال : إنا سنقتّل أبناءهم ونَستحيي[4] نساءهم . ثم راح ينزل بهم صنوف الظلم وألوان الأذى ، فضجُّوا لاجئين الى موسى ، ليحميهم من أذى الكافر الجبار ، وقالوا : ياموسى ، لقد أوذينا من قبل أن تأتيَنا ومن بعد ما جئتنا . فسكّن الرسول ثوْرَتهم ، وهدّأ روعهم ، ومنّاهم الخير والنجاة قائلاً لهم : (استعِينوا بالله واصبرُوا إن الأرضَ لله يُورثُها مَنْ يشاء مِنْ عِبادِهِ والعاقِبة للْمُتقين) .

---

(١) السحرة هم الخبراء الذين سيبتون بأمر موسى فكانوا من عرفوا الحقيقة وأعلنوها على الناس .

(٢) عتل : شديد الخصومة كثير العناد .

(٣) يدحر : يغلب .

(٤) نستحيي : نتركهم أحياء .

قال موسى هذا ، واستمرّ في دعوته يمهّد لقومه سبيل النجاة ، ويتجهُ الى ربه بقلب ثابت ، وإيمان موثق ، واطمئنان موفور .

أما فرعون فقد خَلَص الى ملأ من قومه يأتمرون بموسى ليقتلوه ، فذلك أقرب طريق أمامهم ، وأدنى السُّبل لبقاء ملكهم ، بعد أن أعيتهم الحِيَل ، وسُدّت أمامهم منافذُ الخلاص . وبينما هم في أخذٍ وردٍّ ، يقلبون أوجه الرأي ، ويجيلون الفكر في الإقدام على جريمة القتل ، إذا دفعت المروءة والشجاعة رجلاً أنار الله بصيرته ، وكشف له سبيل الرشد والإيمان و فدافع عن موسى أشدّ الدفاع ، وناضل عنه وجادل ، وبيّن لهم سوء أمرهم ، وعاقبة تدبيرهم ، وفند حُججَهم ، وزيّف ضلالهم ، وطفق يضرب المثل ، ويتقوى بالحجج .

فقال : ياقوم (أتقْتلونَ رَجُلاً أن يَقُولَ رَبي الله ، وقد جاءكم بالبيناتِ من رَبكم ، وإن يَـكُ كاذباً فعليه كذِبهُ ، وإن يَكُ صادِقاً يُصِبْكم بعضُ الذي يَعِدُكم ، إنّ الله لا يَهدِي منْ هو مُسرف كذّاب) .

ثم طفق مؤمن آل فرعون يذكّرهم ببأس الله وبطشه ، فقال : (يا قوم إني أخافُ عليكُمْ مثلَ يَومِ الأحزابِ[1] . مِثل دأبِ قوم نوح وعاد وثمُودَ والذين من بَعدِهِم ، وما الله يُريد ظلماً للعباد . ويا قوم إني أخَافُ عَليْكم يَوم التنادِ[2] . يَومْ تولُّونَ مُدْبرينَ ما لكم مِن الله مِن عاصِم ، ومَنْ يُضْلِلِ الله فمالهُ مِن هاد . ولقد جاءكم يُوسفُ مِن قبْلُ بالبيناتِ فما زلتمْ في شَكّ مما جاءكم بِهِ حتى إذا هَلَكَ قُلْتُمْ لن يبعثَ الله مِن بَعدِهِ رسولاً ، كذلِكَ يَضِلُّ مَنْ هو مُسرِفٌ مُرتاب) .

ولكن القوم — على الرغم من قوة عارضته — قاوموه وكذّبوه ليلجئوه الى صفّهم ورأيهم ، فقال : (ويَا قوم ما لي أدعُوكم الى النجاةِ وتدعونَني الى النار . تدعونَني لأكْفُرَ باللهِ وأشرِكَ بِهِ ما ليسَ لي به عِلْمٌ ، وأنا أدعُوكم الى العزيز الغفارِ . لا جرَمَ[3]

---

(١) الأحزاب : الأمم السابقة .

(٢) التناد : القيامة .

(٣) لا جرم : حقاً .

أن مَا تدعونني إليهِ ليسَ له دعوَة في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ وأن مَردّنا الى الله وأن المُسرفِينَ هم أصحابُ النارِ . فستَذكرُون مَا أقـول لكم وأفوّض أمري الى الله إن الله بَصيرٌ بالعِبَاد) .

ضاق القوم ذَرعاً بهذا الرجل الذي فجأهم برأيه ، وسفّه أحلامهم بهديه ، فناوأوه وسفهوه ، وهموا به ليقتلوه ، فوقاه الله سيئات ما مكروا و وحاق فرعون سوء العذاب .

استمرّ موسى في دعوته لا يثنيه وعيد ، ولا يخيفه تهديد ، يدعو فرعون الى الإيمان بربه ، والرُّجعى الى خالق الأرض والسموات ، وأن يطلق معه بني إسرائيل ؛ ولكن هذا كان شديداً كل الشدة على ذلك الطاغية الجبار ؛ فاشتطّ في غَوايته ، وظل في جَهالته . وجمع فرعون أشتات الزائغين من قومه ، الذين أَلِفوا الذِّلة ، وارتضوْا عيشَ الهوان والاستعباد ـــ جَمعهم يريد أن يبهرهم بالقوّة ، ويثبّتهم على الكفر والمذلة ، ونادى في قومه ، قال : (يا قوم أليسَ لي مُلكُ مِصرَ ، وهذِه الأنهارُ تجرِي من تحتِي ، أفلا تبصرون . أم أنا خيرٌ من هذا الذِي هُو مَهينٌ ولا يكادُ يُبينُ . فلوْلا ألقِي عليهِ أسورة مِنْ ذهبٍ أو جاء مَعهُ الملائكةُ مُقترِنِينَ) .

وهؤلاء هم أذناب شرّه ، وعُمدُ زيْغه وظلمه ، قد أطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين .

لم يبق في قوس الصبر مَنزَع ، ولا لحجة المبين موقع ، بعد أن عَتا فرعون عتُوّاً كبيراً ، وسدّ مسالكَ القول ببهتانه ، وأنكر الشمس في وَضَح النهار ؛ بل انه قد استمر يذيق بني إسرائيل أنواع المذلة وصنوف الهوان ، فأمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله لا بدّ مذيقهم جزاء كفرهم وحبسهم بني إسرائيل .

فأخذهم الله بنقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات ، فنضب مَعينُ النيل ، وغاض ماؤه ، وقل غَناؤه ، وقصّر عن إرواء أرضهم . فنقصت ثمراتهم ، وَذوَى عودُ خيرهم ، ثم أغرقهم الطوفان[1] من مطر السماء ، فأضرّ بالزرع والضرع ، ثم زحف عليهم جرادٌ أكل

---

(١) كانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوت القبط فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء الى تراقيهم وكان ذلك لمدة سبعة أيام .

الثمار والأزهار، واستولى عليهم القمّل، فأقضَّ مضاجعهم وأقلق رقادهم، وابتُلوا بالضفادع، فنغّصت عيشهم، واحتشد جمعها في طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم، وسلّط الله عليهم الدم الرُّعاف من آنافهم، ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء خطيئاتهم وكفرهم. (ولما وقع عليهم الرِّجزُ[1] قالوا يا موسى ٱدْعُ لنا رَبَّكَ بما عَهِدَ عِندكَ لَئِنْ كشفْتَ عنا الرِّجزَ لنؤمِننَّ لكَ ولنُرسِلَنَّ معك بني اسرائيل).

كشف الله عنهم هذا البلاء، ليمهد لهم سبيل الخلاص من حمأتهم، وليقوّي بحكمته الحجة والدليل عليهم، ولكنهم نكثوا عهد الله فكانوا من الخائنين.

خروج بني إسرائيل من مصر

أفصحَ النهارُ لذي عينين، فتبيَّن بنو إسرائيل الغيّ من الرشاد، وانحازوا لرسول الله الكريم، يلتمسون لديه الرحمة والهداية، وهم الذين ضُربت عليهم الذِّلة والمسكنة وسِيموا سوء العذاب؛ فعاشوا عيشة البلاء واصطبروا على اللأواء.

وكيف لا تتفتح بصائرهم ولا تتفجر ينابيع إيمانهم، وقد لمسوا آية الحق ناصعةً مشرقة فقرّت بها عيونهم، واطمأنت الى مِهادٍ جنوبُهم. فلم يَحفلوا بوعيد فرعون، ولم يأبهوا لزَمجرتِهِ وتهديده، والتمسوا الفِرار من أرض القبط طلباً للسلامة، وبُعداً عن القوم الظالمين!

سار بهم موسى أول الليل الى الأرض المقدّسة، وقد سهّل الله اليها طريقهم فساروا حثيثاً، يدفعهم الخوف، ويعصِمهم الإيمان، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية، وإذا بهم أمام بحر لجيّ يقف أمامهم سداً منيعاً دون غايتهم، وحائلاً دون أمنيتهم، فساورهم القَلقُ، واستولى عليهم الجزع، وتوزّع نفوسَهم الرَّوْع والفَزَع، أليسوا هم المطلوبين لفرعون وجنوده، وهو الذي يجدّ في السير ويمعن في الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم،

---

(١) الرجز: العذاب.

لأنهم ــ على زعمه ــ عبيد آبقون ، وأتباع مارقون ! وكان قد جيّش جيشه ، وحشد خيله ورَجِله[1] وسار وراء موسى ومَن تبعه حتى صار منهم قابَ[2] قوسين أو أدنى .

هاجَ بنو إسرائيل وتقطّعت نفوسهم همّاً وحسرة .. أليس الموت قد كاد يُدرِكهم ، وحبائلُ فرعون قد اقتربت لتقنصهم ! هنا سُمع صوت يجأر كما تنبعث الهَيْعَة[3] الصاخبة وسط المفازة المترامية ، فيه عتب ، وفيه لوم ، وفيه استنجاد وفيه يأس ، وكان صاحب الصوت يوشع بن نون ، من قوم موسى .

قال : يا كليمَ الله ، أين تدبيرُك ، ها قد دَهَمتْنا غوائل القدَر ، فالبحر أمامنا والعدوّ وراءنا ، وليس لنا من الموت مَحِيص ولا مفرّ . فقال موسى : لقد أُمِرْت بالبحر ، ولعلي أُومر الآن بما أصنع . فسرَت في نفوس القوم ساريةٌ من الأمل ، ولكنه لا يلبث أن يمد شعاعه ، حتى تطفئه عواطف اليأس والقنوط ، ويُشيع في نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقى في قلوبهم من رجاء ، وما يعللهم به نبيُّهم من فرج ورخاء ، إذن فلْيستسلموا لقضاء الله ، والله لا بدّ راحمهم وعاصمهم من فتكِ الظالمين .

أوحى الله الى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه[4] ؛ فانجابت دياجيرُ الظلام وانحسرت طاغيات اليأس ، وإذا اثنا عشر طريقاً لاثني عشر سِبْطاً[5] ، لكل سِبْطٍ طريق ، وإذا الشمسُ والريح يهيِّئهما الله ، فتجفّ هذه الأرض ، وتمهّد تلك السبُل ، وإذا القوم يسيرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال ، وإذا ربهم يؤمِّن رسولهم ، إذ يقول : (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً لا تخافُ دَركاً ولا تخْشى)

---

(١) الرجل : المشاة .

(٢) قاب : قدر .

(٣) الهيعة : صوت مفزع .

(٤) انحسر الماء عن أرض السويس واجتمع سحتلاً كالجبال من الماء المتجمد كل فريق يرى اخوانه خلال الماء الشفاف المتجمد حتى وصلوا سيناء .

(٥) السبط : الفريق من اليهود .

انساب الأسباط يُهرعون الى بَرّ الأمان والسلام ، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطَوْد[1] العظيم ، حتى عبروا سالمين .

استشرف القومُ بعيونهم ، فأبصروا فرعون وجنوده يتأهبون ليسلكوا في البحر مسالكَ بني إسرائيل التي عبروا منها ، حتى يَلحقُوا بهم ، فيُنزلوا بهم أشد العذاب ، فغَشيَهم من اليمِّ ما غَشيهم ، وعاد القلق والاضطراب ، بعد أن ظللتهم سحابةٌ من الأمن ، وتملَّكهم الخوف والإشفاق ، خشية أن يمتدّ إليهم عُدْوان فرعون ، بعد أن يجوز البحرَ من حيث جاوزه .

اتجهت القلوب ، وتطلعت الأنظار نحو موسى حتى يكشف ربُّه عنهم هذا البلاء المحدق ، الذي يكاد يَدْهَمهم من حيث لا يشعرون . حينئذ همَّ موسى ليدعوَ البحر فيرجع الى حاله ، حتى يحول بينهم وبين فرعون ، وليكون حاجزاً يحجز عنهم ذلك البطش الذي يلاحقهم في كل مكان .

لم يكد عزمُ موسى يختلج في فؤاده حتى أوحى الله إليه ؛ أن اترك البحر ساكناً على حاله ، فلا تضربه بعصاك لئلا يتغير منه شيء ، لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلاً بينك وبينهم ، فيرجعوا الى ديارهم سالمين ، بل سبقتْ كلمة الله في هؤلاء أنهم جُندٌ مُغرَقون .

تلفَّت فرعون وجنوده ، فإذا سُبُلُ البحر ممهدة أمامهم ، فيها يسيرون ، ومنها الى بني اسرائيل يصلون ، فانفتحت أوداجهم ، وأعماهُمْ غرورهم ، وتاهوا في ضلال الصلَف[2] والإعجاب . فقال فرعون لجنوده : انظروا الى البحر كيف انفلق ، طَوْعاً لأمري ، وانصياعاً لإرادتي ، حتى أدْركَ هؤلاء الخارجين

وكأنها كانت معجزة لفرعونٍ في نظر أصحابه الضالين ، فتقَوَّوْا بقوّته ، واطمأنوا لنصرته ، ثم اندفعوا الى مسالك البحر ، وقد لجّت بهم العجلة ، طلباً لبني إسرائيل . ولم

---

(١) الطود : الجبل .

(٢) الصلف : التكبر .

يكادوا يصلون الى عُرْضِه[1] حتى انطبق عليهم، فأغرقهم أجمعين، فصاروا مثلاً للآخِرينَ.

نسي فرعون علياءه ومجده، وأدرك الحقيقة التي طالما خفيَت عليه، وأبصر فإذا هو عبدٌ كليل الرأي، حقير الشأن و لا حول له ولا قوة فانجابت عنه تلك السحابة القاتمة المظلمة، وتسرّب الى قلبه شُعاعٌ من الحق المبين.

وقد بَهرتَ فما تخفَى على أحد إلا على أحدٍ لا يعرف القمرا

في هذا الوقت العَصيب آمن فرعون، فقال: (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسْلمين).

لم يقبَل الله محال[2] هذا الطاغية الجبار الذي أهلك الحرث والنسل، بل جازاه على شر أعماله وبِئسَ المصير.

انطبق البحر، فسُمِع صوت انطباقه صاخباً شديداً، فسأل بنو إسرائيل موسى: ما هذه الضوضاء؟ فقال لهم: إن الله قد أهلك فرعون ومن معه مغرَقين. فعاودتهم غريزة تأصّلت في نفوسهم، وباطل تمكّن من قلوبهم، ووَهمٌ تسلّط على عقولهم فقالوا: يا موسى، إن فرعون لا يموت، ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور، لا يحتاج الى شيء مما يحتاج إليه بنو الإنسان!

قالوا هذا، ويغشى على أفئدتهم وهْمٌ باطل، ولكن فلْيختلقوا القدرة والحوْل، والإمكان والطَوْل لفرعون، وليُمنعوا في دعاويهم الزائفة الكاسدة، فهذه قدرة الله، وذلك حولُ الله. أمَرَ فألقى البحر جُثّةَ فرعون على ساحله حتى لا تكون في موارَاةِ البحر إياها سبيلٌ من سُبُل التقوّل لفرعون. فربما قالوا: انه يعيش في عالم آخر، وربما افتروْا، وربما كذبوا، إذن فلْيُخرس الله ألسنتهم، وليكتم أنفاسهم، ولينبذ البحر هذ الجسدَ المحطم، وذلك السلطان المهدّم.

---

(١) عرض البحر: وسطه ومعظمه.

(٢) محال: كيد ومكر.

نـظـر بـنـو إسـرائـيـل دهِـشين ذاهلين مصرع ذلك الجبار العاتي ، إذ أغرق الله فرعون وجـنـوده ، ونـجّـى فـرعـون بـبـدنـه ، لـيـكـون آية لمن خَـلـفَـه ، آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة ، وذلك الإنعام الذي تفضل به رب العالمين .

مواعدة موسى (*)

استقرّت عصا التسيار[1] بموسى ومن معه ، فأقاموا حيث واتاه المقام ، ومن ثم احتاجوا الى مِـنـهـاج يـسـيـرون عـلـيـه ، وشَرعٍ يركنون اليه . فسأل موسى ربه كتاباً يهتدون ، والى حكمه يـرجـعـون ، فـيه من الأمر ما يأتون ومن النهي ما يَـذَرُون ، حتى لا تتردّى بهم أيام الزمان ، ولا يخبِـطوا في أمور المعاش والمعاد خَـبْـط عَشواء .

أمر الله موسى أن يتطهر ، وأن يصوم ثلاثين يوماً ، ثم يأتي الى طور سيناء حتى يكلّمه ربه ، فيتلقى أمره في كتاب يكون لهم المرجعَ والمآب .

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ، ثم ذهب لميقات[2] ربّـه ، ولكنه تعجّـل فسبقهم الى الطُّـور ، فوصل بعد ثلاثين ليلة ، وقد تأخر عنه المختارون من قومه . حينئذ سُئل عن الأمـر الذي بـعثـه على الإسراع والعجلة ، فقال : هم أولاء على أثَـرَي وعجِلتُ اليك ربي لِـترْضى . فأمِـر أن يُـتـمّ ميقاتَ ربه أربعين ليلة .

وكان موسى قد ترك قومه ، واستخلف عليهم أخاه هارون وزيراً ، يقوم على شؤونهم ، ويُـصـلـح أمـورهـم ، ويَـرعَـى أحوالهم ، حتى يعود يحمل الأمانة الغالية ، ويَسعد بذلك الشرف الموعود .

سـار موسى الى طور سيناء ، فكلمه ربُّـه وناجاه ، وقـرّبه وأدناه ، حتى سَرت في نفسه

(*) انظر حديث الصون في سنن النسائي

(١) التسيار : المبالغة في السير .

(٢) الميقات : الوقت المضروب للفعل ، والميقات أيضاً : الموضع .

رَوْعَــة وهِـزّة ، أججت في فؤاده نار الشوق ، وألهبت أوَار[1] الهُـيَـام واللهفة ، فقال : ربّ أرِني أنظر إليك ، ولِـمَ لا يختلج في فؤاد موسى خاطرٌ يدفعه الى أن يطلب رؤية ربه ، وقد نعِــم بـتـلـقّـي رسـالته ، وسَـعِـد بالقرب من رعايته ، ونال ما لم ينلْه أحد من العالمين ، أليس المأرب شريفاً ، والقصد كريماً !

وموسى نفسه هو الرسول الذي طالبه قومه ، فقالوا : أرنا الله جَـهْـرَة ، فلماذا لا يسألُ ربّــه ذلك ، ليرى بنفسه أمرَ الله في ذلك المرغوب ، وليكونَ حُـكم الله حجةً قاطعة لهؤلاء الراجين المُـلحِـفين[2] !

قـال ربُّـــه : لـن تـراني ، ولـكن انظر الى الجبل ، فإن استقـرَ مكانه فسوف تراني . تـلـفّـت مـوسى فإذا الجبل قد دُكّ ، وغار في الأرض وساخ ... فارتاع لهول ذلك الخَطب الجلَـــل والأمـر الـعـظَـيم ، فخر صعِـقاً . فلطف الله به وشمله برحمته ، فأفاق من صَعقته ، وقام يسبّح الله الكبير المتعال .

أخـذ موسى الألواح ، وفيها ما يحتاج اليه بنو إسرائيل ، موعِـظةً وتفصيلاً لكلّ شيء ، فـقـال : يـا رب لـقـد أكـرمـتـي بـكـرامةٍ لم تُـكْـرِمْ بها أحداً قبلي ، فقال ، يا موسى إني اصطَـفيْـتكَ على الناسِ برسالاتي وبكلامي ، فخذْ ما آتيتُـك وكُـنْ مِنَ الشاكِـرين .

وانـتظر بنو إسرائيل أن يوافيَهم موسى بعد ثلا ثين يوماً من بدء غيبته ، ولكنه ــ على غير علم منه ــ طال غيابُـه حتى صار أربعين يوماً ، فأجالوا الرأي بينهم وقالوا : إن موسى أخـلـفَـــنـا وعـده ، وتـركـنـا في جـهل مقيم وليْـل بهيم[3] وما أجدَرنا بمن ينير لنا المسالك ، ويُـرشدنا الى سواء السبيل !

عندئذ تحركت في نفس السامِريّ نزوَة الشر والفساد ، فاغتنمها فُرصة ، وقال لهم : عـلـيـكـم أن تتخذوا لكم إلهاً ، فليس موسى برَاجعٍ اليكم ، لأنه خرج ينشد إلهكم فضلّ الطريق ، فأبطأ عليكم وأخلف الميعاد .

---

(١) الأوار : الحرقة .

(٢) الملحفين : المتشككين .

(٣) بهيم : شديد الظلام .

قال الشيطانِ قوله هذا بعد أن استشفّ ما في نفوس القوم من خَور وانحلال ؛ أليسوا هم الذين مالت قبلُ نفوسهم الى الكفر ، وقد مرُّوا على قوم يَعكفونَ على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى ؛ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

اغتنم السامريُّ هذه الجهالة الجهلاء ، وتلك الضلالة العمياء ، وأخذ حُلِياً ، ثم احتفر حفرة ، وقذفها فيها ، ثم أوقد ناراً ، وصنع منها عِجلاً جسداً له خُوار ، فأصبح فتنةً بين القوم ، ميزت فيها الغثّ[1] من السّمين .

فُتن بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه فتقطعت نفس هارون أسيً وحزناً ، وقال لهم : (يَـا قَـوْمِ إنما فُتِـنتم به وإنّ ربّكم الرَّحمن فاتّبعوني وأطِيعوا أمرِي . قالوا : لن نبرَحَ عليه عاكِفِينَ حتى يَرجِعَ إلينا موسى) .

فاقام هارون مع البقية الثابتين على وفائهم ، المتمسكين بإيمانهم ، وخشي أن يحارب الضالين الخارجين ، حذراً من التحزب ، وخوفاً من الفتنة والثورة .

استشعر موسى من ربه هذا الأمر ؛ إذ قال : يا موسى ، إنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السامريّ . فلما أتمّ مِيقات ربّه ، وسار نحو قومه ، وسمع على بُعد لغطاً وضجيجاً أدرك سرّ الأمر ، وحقيقة الحال ؛ حيث هم حول العِجْل يرقصون ويطربون . فتملكته نوبة من الغيظ والثورة ؛ فألقى ما بيده من الألواح ثم دلفَ نحو هارون ، وأخذ برأسه يجرّه إليه قائلاً : ما منعك إذا رأيتهم ضلوا ، ألا تتبع طريقي فيهم ، فتردّ شاردهم ، وتحارب مُفسدهم ، حتى تنطفىء هذه النار المتأججة بالبغي والكفران .

فتساقطت نفسُ هارون همّاً وحسرة ، وأقبل على أخيه يَستَلينه ويسترحمه ، ويهدّىء حدّة نفسه ، وثورة غضبه ، وقال : يا بن أمَّ ، لا تأخذ بلِحيتي ولا برأسي ! فإن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني . فلا تُشمِتْ بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الضالين . لقد خشيتُ أيها الأخ الكريم إن حاربتُهم أن تقول : فرّقتَ بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي !

---

(١) الغث : المهزول .

بعد ذلك سكت عن موسى الغضب ، وأخذ يعالج حالهم بحشن الرأي والحزم . فالتفت الى منبع الفتنة ورأس البدعة ، وداعية الضلالة ، وقال : ما خَطْبُكَ يا سامري ؟ فقال السامريّ : (بَصرتُ بِمَا لمْ يَبصروا به ، فقبَضتُ قبْضَةً من أثر الرسولِ فنبذتُها ، وكذلِكَ سَوّلتْ لِي نَفسِي) .

ثم أقبل موسى على قومه ، فقال : يا قوم ؛ ألم يَعِدْكم ربكم ، وعداً حسناً ، أفطالَ عليكم العهدَ ، أم أردتم أن يَحُلّ عليكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم موعدي ! قالوا : ما أخْلفنا موعِدَكَ بملكِنا[1] ، ولكنّا حُملنا أوزاراً من زينةِ القوم ، فصوّرها لنا السامريّ ، وأخرج لنا عِجْلاً جَسداً له خُوار ، فأضلّنا عن الطريق المستقيم

ثم ندموا على سَقْطتهم ، واستغفروا ربهم ، فقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننّ من الخاسرين . فقال لهم موسى : إنكم ظلمتن أنفسكم باتخاذكم العِجل ، قالوا : فأيّ شيء نصنع ؟ فقال : توبوا الى بارئكم . فسألوه أن يبينَ لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة .

فقال موسى : عليكم بقتل أنفسكم ، اكسِروا حدّتها ، واكبتوا شهوتها ، وطهّروها من الشر والإثم ، وجرّدوها عن كل مشتهى مرغوب ، وأقصوها عن كل مَرجُوّ مطلوب ، حتى يَصْغرَ شأن النفس الآثمة ويهونَ خَطبُها ، ويحقُر أمرها . فروّضوا أرواحهم ، وهذّبوا نفوسهم ، وأقبلوا على نصح نبيِّهم ، فتاب الله عليهم إنه هو التوابُ الرحيم

أما السامريُّ الذي أشاع تلك الضلالة المنكَرة ، فإن الله عاقَبه في دنياه بأن أمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ، ولا يَقْرَبُوه ، فصار وحشيّاً ، لا يألَف ولا يؤلف ، ولا يدنو من الناس ، ولا يمس أحداً منهم ، وإن له لموعداً لن يخلفه يوم القيامة ، يوم يساق الى النار آثماً ، ليعذَّب بما جَنتْ يداه ، وبئس مصير الظالمين .

وأما عِجْله فقد أحرقه موسى وألقاه في اليمّ .. وبذلك انجابت غَيابةُ هذه الجريمة الشنعاء .

---

(١) ملكنا : اختيارنا .

التيــه

لم يكـن على عهد بني إسرائيل قومٌ حباهم الله الخير ، وأفاض عليهم النعمة ، وآثرهم بـالـبركـات مـثلَ هؤلاء الأقوام ، فقد نجّاهم الله من آل فرعون بعد أن ساموهم العذاب دهراً ! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم ، وبين أسماعهم وأبصارهم ، ثم جعلهم بعد ذلك أحـراراً ، بـعد أن كانوا عبيداً أذلاء ، وجعل فيهم من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضُلالاً جهلاء ، وفجّر لهم الصخر ،وأنزل عليهم المنَّ والسلْوَى ،وآتاهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين .

وإتمـاماً لـنـعـمة الله عليهم ، ورغبةً منهُ ــ سبحانه ــ في الإحسان إليهم ، أوحى الى مـوسى أن يـقـودَهـم الى الأرض المـقـدّسـة مـن بـلاد الشام ، وهي الأرض التي وَعد الله إبراهيم الخليل أن يجعلها ملكاً للصالحين من ذُرّيته ، والقائمين على شريعته .

ولـكـن بني إسـرائـيـل كـانوا ، بما تَعاورَ[1] عليهم من ظلم القبط ، وترادَف عليهم من جَـــور الحـكـام قـد جُـــدِعَت أنوفهم و وذلّت أخادعهم ، وأمكنوا من أيديهم على خُنوع ، وأعطوا المقادة على خضوع ، حتى هان عليهم الهوان ، وحُبّب إليهم الضعف والاستسلام .

من يَـــهُـــنْ يسـهـل الهوانُ عـليـه   مـا لـجُـــرْحٍ بـمـيـتٍ إيـــــلام

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغزو ، أو يكلّفون دخول « أريحاء » ليخرجوا منها الحثّيين والـكـنـعانيين ، ويتخذوها وطناً كثير الخيرات ، وافر البركات ، حتى قالوا لموسى ــ جُبناً وضـعـفـاً ، واسـتـخـذاء واسـتسلاماً ــ : (إنّ فيها قَوماً جَـبّـارين وإنّـا لَن نَـدخُلها حتى يَخْـرُجوا مِـنها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخِـلونَ) .

وكـأنهـم طـمِـعوا أن يخرج القوم منها بما أَلِـفُـوا من المعجزات ، وخوارق العادات ، ثم يـدخـلـوا مـوفـوريـن لم يُـكْـلَـمْ أحد منهم في سبيل الله بكَـلْم[2] ، ولم يُصَب بجرح ، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان !

---

(١) تعاور : تتابع .

(٢) الكلم : الجرح .

ولكنّ رجلين كانا ممن طَبَعهم الله على الإيمان ، وفطر نفوسَهم على الطاعة والإذعان ، لم يَحطِبا في حَبْل أقوامهم[١] ، ولم يجريا في الحديث على غِرارَهم ، فتوجّها الى قومهم ناصحين ، وقاما فيهم مرشدين : ادخُلوا عليهمُ البابَ ، فإذا دَخَلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنينَ .

ولكنهم عادوا الى حديث جُبنهم ، وإعلان خوفهم ، وزادوا على ذلك القحة والتمرّد ، والغباء والتبلد ، وقالوا لموسى قولاً يُذهب صبر الحليم ، ويثير وَجيع الجرح الأليم قالوا : (يا موسى إنا لن نَدخُلَها أبداً ما داموا فِيها ، فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا إنا ها هنا قاعِدوُن) .

وعند ذلك تلفّت موسى فلم يجد مَنْ يثق بمعونته ، ويعتمد على نصرته ، إلا أخاه هارون و وهما شخصان وحيدان ، في أضعف جند ، وأنكدِ أتباع ، وأمامهما عدوٌّ قوي المِرَاس ، كثير الجنود و فتوجّه الى الله قائلاً : (رَبِّ إني لا أملِك إلا نفسي وأخي فافْرُقْ بَيْنَنا وبينَ القوم الفاسقين)

فأوحى الله اليه : أن دَعْهم يتيهون في هذه البيداء ، يضربون في مجاهلها ، ويخبطون في نواحيها أربعين عاماً ، حتى يَفنى كبراؤهم ، ويهلك رؤساؤهم ، ويظهر بعدَهم جيلٌ عزيز الجانب مَنيعُ الساحة ، وحينئذ يعودون الى الغَزْو ، ويركبون مَتن القتال .

البقرة (*)

تقدّم بالشيخ تتابعُ الأيام ، وأحسّ بدنوّ الأجل ، وكان عبداً صالحاً لا تفتنْه زخارف الحياة عن الثقة والرجاء في الله ، ولم يُلْهه التكاثر في المال والبنين ، بل كان لا يملك سوى بقرة يأتي بها الغَيْضة ، ثم يتوجه الى بارئه بقلب خالص ،ونفس ثابتة ، فيقول : اللهم إني استودعتُكها لابني حتى يكبر . وما زال الرجل يترقرق في صدره هذا

---

(١) لم يشتركا في رأيهم .

(*) سورة البقرة ٧٧-٨٣ .

الأمل القويّ بنور الله حتى مات. وبقيت البقرة لليتيم، وهي عَرَض من العروض لا تغني شيئاً، إلا أن رحمة الله أبقى وأعزّ.

واستمر اليتيم يرعى البقرة، يحدوه شُعاع من الأمل ورثه من الصالحات الباقيات لأبيه.

وكان من وجوه بني إسرائيل شيخ موسر مدّ الله في أسباب دنياه، وبسط له نعمة الغنى، ورزَقه ابناً وحيداً تنحدر اليه بعد موت أبيه كلُّ هذه الثروة الواسعة، ولكن بني عمومته نَفِسوا[1] عليه هذا المال، إذ كانوا لا يجدون من قليل ولا كثير. فتألّبوا عليه فقتلوه، ثم طالبوا قوماً آخرين بدمه. فهبّت عاصفة هوجاء، وثارت ريح نَكْباء. فلم يجد القوم ملجأ أمامهم إلا باب موسى عليه السلام، يتحاكمون اليه، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء.

سأل موسى ربه، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوه بلسانها فيحيا، فيخبر بقاتله. فضلّت أحلامهم، وعَزَبت عن عقولهم قوةُ الله وقدرته وظنوا أن موسى يهزأ بهم، ويسفّه أحلامهم، فراجعوه، فقال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

ولو أنهم ذبحوا أي بقرة من يوم أن أمرهم رسولهم لكانت كافية، ولكنهم تمادَوْا في إلحافهم ولجاجهم؛ فشدّد الله عليهم، وجعل البقرة مسُومةً بعلامات خَفيَ عليهم أمرها، فتاهوا في بيداء اللجاج.

ولقد كان هذا أمراً خارقاً، وحقيقة تقَصّر عن صدقها عقولهم، فسألوا ضالّين: ما هذه البقرة؟ أكما عهدْنا هذا الجنس من الحيوان، أم هي خلق آخر تفرّد بمزية، واختص بإعجاز؟ فأوضح الله سبيلهم، وبيّن أنها بقرة لا مسنة ولا فتيّة، بل هي عَوان[2] بين ذلك، فليفعلوا ما يؤمرون.

ولكنهم ــ وهم من البشر ــ قالوا: ادعُ لنا ربك يبيّن لنا ما لونها؟ قال: إنه

---

(١) نفس عليه: حسده.

(٢) عوان: وسط.

يقول : إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها تَسُرُّ الناظرين . فازدادت حَيْرتهم ، وضلت عقولهم ، فلم تستطع أن تسموَ الى هذا الإلهام الإلهي العجيب ، وكأنهم لم يَعُوا شيئاً . فكرّروا سؤالهم الأول معتذرين بأن البقر تَشابه عليهم ، وهم يرجون بمشيئة الله الهُدَى والرشاد . فأجيبوا بأنها بقر غير معدة لسقي ولا لحرث ، سلمت من العيوب ، لا شيةَ فيها[1] .

فاهتدوْا اليها بعد لأيٍ[2] عند ذلك اليتيم الذي بارك الله في بقرته ، فاشتروها منه بمال وافر ، فذبحوها بعد حيرة طويلة ، وتردد كثير .

موسى والخضر(*)

وقف موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل و مذكّراً لهم بأيام الله بعبارات تُثير الأسى وتبعث الشئون[3] ، ففاضت العيون ، ورقّت القلوب .

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل ، وقال : أيْ رسول الله ، هل في الأرض مَن هو أعلم منك ؟ قال : لا ، أليس هو كبير أنبياء بني إسرائيل وقاهر فرعون ! أو ليس هو صاحب اليد والعصا ، وبعصاه انفلق البحر ! أليس الله قد شرّفه بالتوراة ، وكلّمه جَهْرة وعِياناً ، فأيُّ غاية أبعد من هذه الغاية ، وأي شرف أسمى من هذا الشرف !

ولكن الله أوحى إليه أن العلم أعظم من أن يحويَه رجل ، أو ينفرد به رسول ، وأن في الأرض من خَصّه الله بعلم أوْفَرَ من علمه ، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه . قال : يا رب ، أين مكانه لعلّي ألقاه ، فأصيبَ قَبساً من علمه ، أو فَيضاً من إلهامه ويقينه ؟ قال : تلْقاه بمجمع البحرين ، قال : اجعل لي علَماً[4] يدلّني عليه ، وآية

---

(١) لاشية فيها : خالصة الصفرة .

(٢) لأي : مشقة .

(*) سورة الكهف ٦٠-٨٢ .

(٣) الشئون : الدموع .

(٤) علماً : علامة .

ترشدني إليه . قال : آية ذلك أن تأخذ حوتاً في مِكتل[1] ، فحيث فقدت الحوت فقد وَجدت الرجل .

فأخذ موسى للأمر عُدته ، واصطحب فتاه ، وحمّله المِكْتل ، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه ، وظل سائراً وقِبلتُه الرجل ، وأخذ على نفسه عهداً أنه سيظل مجدّاً في السير مُمعناً في الطلب ، حتى يبلغ هذا المكان ، ولو مضت عليه الأيام ، أو تعاقبت السنون ، ثم آذن الفتى بأن يخبره إذا فقد الحوت .

ولما بلغا مَجْمَع البحرين ، في المكان الذي أراد الله أن يلتقيَ فيه نبيّ بَني اسرائيل بعبده الصالح ، أخذت موسى سِنةٌ فنام . وفي أثناء نومه هَضبت[2] السماء ، فابتَلّ الحوت وانتفض ، وسرتْ اليه الحياة ، ثم قفز الى الماء .

واستيقظ موسى ــ عليه السلام ــ ونادى فتاه : هَيّا نواصل السير والسُّرى[3] . وأنسى الشيطانُ الفتى ما كان من أمر الحوت ، وتابعا المسير الى أن أدركهما الأيْن[4] وأحسّا الجوع ، فقال موسى لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقِينا من سفرنا هذا نَصَباً .

ولما همّ أن يأخذَ الغَداء من المكتل تذكّر ما كان من أمر الحوت وذهابه في الماء ، فقال : أرأيتَ إذْ أوينا الى الصخرة ، وحين غَشّاك النعاس ، فإن الحوت قد اتخذ سبيله الى الماء ، ونسيتُ أن أذكرك ، وما أنساني إلا الشيطان .

وحينئذ لاحت لموسى شارةُ الظّفر ، ووجد ريح الرجل ، فقال : ذلك ما كنا نبغيه وننشُده ، هيّا بنا نعود الى هذا المكان فإننا سنصيب الغاية ، ورجعا يَقْوفان الأثر[5] ويتعرفان الطريق .

ولما وصلا الى حيث فقدا الحوتَ وجدا رجلاً نحيل الجسم ، غائر العينين ، عليه

---

(١) مكتل : ما يعرف بـ (المقطف) .

(٢) هضبت السماء : أمطرت .

(٣) السري : السير ليلاً .

(٤) الأين : التعب .

(٥) يقوفان الأثر : يتبعانه .

دلائل النبوة ، وفي وجهه فَيْضٌ من السماحة والتقوى ، قد سجّي بثوبه ، وجعل طرَفه تحت رجليه ، وطرَفه الآخر تحت رأسه . فسلّم عليه موسى فكشف عن وجهه ، وقال : هل بأرضي من سلام ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ! قال : موسى نبيُّ بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، ومن أعلمك بهذا ! قال : الذي بعثك إليّ . فعلم موسى أنه ضالّتُه التي ينشدها ، وبُغيتُه التي جهد في سبيلها ، فتلطّف في القول وتجمّل بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث ، وفضل التواضع ، وقال : هل تأذن أيها العبد الصالح لرجل جاهد في سبيل لقائك ، ولقِيَ العناء حتى أصاب موضعك أن تُفيضَ عليه من علمك ، وأن تقبسه شيئاً من هديك ، على أن أتّبعك ، وأسيرَ في ظِلّك ، وألتزم أمرك ونهيك !

قال له الخضر : إنك لن تستطيع معي صبراً ، ولو أنك صحِبتني فإنك سترى ظواهر عجيبة وأموراً غريبة ، وسترى أموراً منكَرة في ظاهرها ، وإن كانت حقاً في باطنها ، ولكنك بما ركّب الله في البشر من إلْف القيل والقال والجنوح الى البحث والجدال ، سوف لا تسكت عن الاعتراض ، ولا تتورع عن الامتعاض ، وكيف تصبر على ما يخرج من مألوفك ، ويتجاوز معروفك ! فقال له موسى وكان حريصاً على العلم ، توّاقاً الى المعرفة : (ستجِدُني إنْ شاء الله صابراً ، ولا أعْصِي لكَ أمراً)[1] .

قال الخِضْر : إن صَحِبتَنِي آخذُ عليك عهداً وشرطاً ، أن تأخذ عُدّتكَ من الحزم والصبر ، ونصيبَك من الجَلَد وضبط النفس ، فلا تَبتدِرْني بسؤال ، ولا تُثر أمامي أيَّ اعتراض ، حتى ينقضي الشرط وتنتهي الرحلة ، وإني بعدها سآتي على ما في نفسك ، وأشْفي ما بصدرك .

فقبل موسى الشرط ، وقيّد نفسه بذلك العهد ، وساروا على الساحل ، حتى لحا سفينةً في البحر ، فطلبا من أهلها حملها الى حيث يذهبون . ولما قرءوا السماحة في وجهَيهما ،

---

(١) قال الخضر لموسى أما يكفيك أن التوراة بين يديك ان لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه وأن لك علماً لا ينبغي أن أعلمه . ثم نظر الى طائر أخذ من ماء البحر فقال والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله الا كما أخذ الطائر بمنقاره من البحر.

ورأوا بريق النبوّة يلمع في عيونهما ، حملوهما من غير نَوْل[1] ، وبالَغُوا في إكرامهما . والحفاوة بهما .

وبينما همافي السفينة ، وعلى حين غَفلةٍ من أهلها ، أخذ الخضر لوحَيْنِ من خشب السفينة فخلعهما ، فهال موسى ــ وهو الرسول الكريم الذي أرسِل لهداية الناس وردّ عادية الظلم عنهم ــ أن يُقابَل صنيعُهم بالإساءة ، وجميلهم بالنكران ، وخشي أن يصيبهم غَرَق أو هلاك ، فنسي عهدَه وشرطه ، وصاح : أتعْمِد الى قوم أكرموا وفادتنا ، وأحسنوا لِقاءنا ، فتخرق سفينتَهم وتحاول إغراقهم ! (لقد جِئتَ شيئاً إمراً[2]) .

فالتفت الخضر إليه ، وما زاد على أن ذكّره بشرطه ، وما قدّره من قبلُ أنه سوف لا يصبر على سؤال ، ولا يسكت عن مراء ، وقال : (ألمْ أقُلْ إنك لن تستطيعَ مَعي صَبراً) . وحينئذ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ ، وما تورّط فيه من نسيان . فاعتذر إليه واستغفره من نسيانه ، وقال : لا تؤاخِذْني بما نَسيتُ ولا تحرمني شرفَ الصحبة ، وفضْل المرافقة ، وسأكون بعد الآن كما شرطت .

وغادرا السفينة ، وتابعا السير ، فوجدا غلاماً وضيئاً يلعب مع لِداته[3] وأقرانه ، فأخذه الخضر بعيداً ثم أضجعَه وقتله ! ففزِع موسى من هذا القتل ، وكبر عنده ذلك الإثم ، إذ رأى غلاماً يافعاً ، قد يكون وحيدَ أهله و ورجاء والديه ، يقتل في غير قَوَد[4] ، ويُسفك دمه من غير إثم ، على يد ربانيّ كريم ، وإمام من أئمة الدين ! فتحلّل من عهده ، وأطلق نفسه من ميثاقه ، وقال : ما هذا المنكر الذي تأتيه ، والإثم الذي ترتكبه ! (أقتلت نفساً زكيةً بغَير نَفْس لقد جِئتَ شيئاً نُكراً[5]) .

فالتفت إليه الخضر ، ولم يزد على أن ذكّره بعهده ، وما كان من شرطه ، وما قدّره

---

(١) نول : أجرة .
(٢) شيئاً إمرا : عظيماً .
(٣) اللد والقرين : بمعنى واحد .
(٤) قود : ثأر .
(٥) النكر : المنكر .

مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف ، وامتعاضه مما لا يألف ، قائلاً : (ألم أَقُل لكَ إنك لن تستطيعَ مَعِيَ صَبراً)

وهنا استحيا موسى . وأدرك أنه قد أثقلَ على هذا العبد الصالح ، وكان خليقاً به أن يدّرع بالصبر ، ويُمسِك لسانه عن الجَدَل ، حتى يُفْصِح له بعدُ عما خفيَ من أمره ، وما تشابَه عليه من علمه ، وخشي إن تمادى أن يقع منه على مَوْجدة أو كراهية ، فاتخذ لنفسه شرطاً و ألا يعجّل بسؤال بعد الآن ، وإلا فإن رفيقه في حلٍّ من مفارقته ، وقَطْع صحبته ، وقال : (إن سألتُكَ عَنْ شَيءٍ بَعدَها فلا تُصاحِبني قَدْ بَلغتَ من لَدُنّي عُذْراً) .

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطَوَى ، ونال منهما النَصَبُ والكَلال ، وصادفا قرية في طريقهما ، فدخلا طمعاً في زادٍ يعينهما على السير ، ويُمسكهما على الجوع ، ولكنّ أهلها ــ بما كانوا عليه من لؤم النحيزة[1] وكزازة النفس ــ أبوْا أن يضيّفوهما ، وردوهما ردّاً غير جميل ، فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعاماً وخرجا جائعين ساخطين .

وقبل أن يجاوزا القرية وجدا جداراً يتداعَى للسقوط ، فأقامه الخِضْر ، وأصلح من شأنه ، فقال موسى : عجباً ، أتجازي هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساءوا اللقاء ، بهذا الإحسان ! لو شئتَ لاتخذتَ على عملك هذا أجراً نسدُّ به حاجتنا ونحفظُ به على الحياة أنفسنا !

قال الخضر ــ وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبراً : (هذا فِراقُ بَيني وَبَينِكَ ، سأنَبِّئكَ بِتَأويل ما لم تَستطِع عَليه صَبراً) .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فيصيبون منها رزقاً ، يعينهم على الكسب ، ويقطعون به مفازة الحياة ، ولكن مَلِكاً ظالماً كان يتبع كل سفينة صالحة ، يأخذها من أهلها عَنوة ، ويستولي عليها غصْباً ، فأردتُ أن أعيبَها ، رفقاً بهم ورحمة لهم ، حتى إذا شهدها مَلِكُهم تركها لعَيْبها ، فهذا عملٌ إن كان ظاهره الفسادُ ففي باطنه

---

(١) النحيزة : الأصل .

الرحمة ، وإن كنت قد حسبتَه نُكراً ، فإنما هو حِفْظٌ للمساكين وإبقاءٌ على حياة هؤلاء البائسين .

وأما الغلامُ فكان وقاحاً مُبَغضاً من الناس ، وكان أبواه مؤمنين ، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء ، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل ، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل الى طريقته ، فينتهيا الى الطغيان والكفر ، فقتلتُه حفظاً لدينهما ، ورجاء من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً .

وأما الجدار فقد علمتُ من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين ، تحذراً من رجل صالح كريم ، فأردت أن أحميَ هذا الجدار ، حتى يشتدّ أزرُهما ، ويقوَى على الحياة أمرهما ، فيستخرجا كنزهما ، مالاً حلالاً طيباً لهما .

وما فعلتُ هذا بعلمي ولا برأيي ، ولكنه وحْيٌ من الله وهدى منه : (ذلكَ تَأويلُ ما لم تَسطع[1] عَليْهِ صَبْراً) .

قارون (*)

كان من قوم موسى وعشيرته الأقربين ، يَمُتُّ إليه بسبب[2] ، وتصل بينهم رحم ، وقد آتاه الله بسطةً في العيش ، وسَعةً في الرزق ، وكثرة في الأموال ، فاجتمعت له أسباب السعادة ، وفاز من الدنيا بنصيب لا يَظفَر به إلا قليل .

وكان قارونُ ذا حظٍّ عظيم ، فقد فاضت خزانته بالأموال ، واكتظت صناديقه بها ، ضاق الحفَظة ذرْعاً بمفاتيحها ، وأثقلهم حملُها ، وناء العُصْبةُ أولو القوّة بها .

وكان يعيشُ بين قومه عيشةَ البَذخ والترف ، فكان يلبسُ الملابس الفاخرة ، ولا يخرج على قومه إلا في زينته ، ويسكن القصور ، ويصطفي لنفسه الخدَم ، ويستكثر من العبيد والحشم ، ويستمتع من الحياة بما يُشبع نهَمَه ، ويروي ظمأه ، ويريدُ أن يصلَ الى الغاية في النعيم ؛ إن كانت للنعيم غاية .

---

(١) تسطع : تستطع .　　(*) القصص ٧٦-٨٣ .　　(٢) سبب : قرابة .

والمـالُ منـذ الأزل زينة الدنيا وبهجتُها ، وأساسُ الحياة وقوامها ، ومن استَحْوَذ عليه طغـى وتـكـبّـر ، واغترّ وتجبّر ، وظن أنّ أحداً لن يقدِرَ عليه ، وخيّل إليه أن الناس جميعاً مـن طـينـة غير طـينته ، أو أنهم ما خلقوا إلا مُسخرين له ، فإذا تكلم طأطئوا رؤوسهم عند سماع صوته ، وإذا أشار كانوا عند إشارته ، وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه ، وكانوا خلصاء له ، أو يجب أن يكونوا كذلك ، وإلا فالويل لمن تُحدِّثه نفسه بالعصيان ، والحرمانُ لمن يقعد عن نُصرته أو يتوانى عن تحقيق أمانيه .

ولـن يكـون قـارون بِدْعاً في الحـيـاة ، وإنما هـو كغيره من الناس ، يسيِّرُ سيرتهم ، ويترسّم طريقهم ، فبغى على قومه ، وفرض سلطانه عليهم ، وسامهم بطْشه وجبروته .

ولـيـت هـؤلاء الأغـنياء يخففون من غُلَوائهم ، ويعرفون الحياة على وجهها الصحيح ، ويـتـبيـنـون منها الطريق الواضح ، إذاً لعرفوا أنّ المال وحده لا يُخضع الرقابَ ولا يستذلُّ العباد ، وإنما الناس عبيد الإحسان ، يستطيعون أن يجعلوهم طوعَ بنانهم إذا أفاضوا عليهم من خيرهم ، وأطعموهم شيئاً من طعامهم .

لعلّهم بذلك يستميلون القلوب ، ويدفعون كثيراً من الشر ، ويجلبون لأنفسهم الخير ، ويَجمَعُون الناس على محبتهم ، والالتفاف حولهم ، ولعلهم بذلك أيضاً يُدركون رضا الله ، فيكـافئهم بثوابه ، ويجزيهم بجنته ، فينالوا الحسنيين : حسنَ الأحدوثة[1] في الدنيا ، وحسنَ الجزاء في الآخرة .

ولكنها القلوب يُعْميها المال والبصائرُ يذهبُ بها الزهْوُ والغرور فلا ترى إلا جماعات المرائين ، ولا تسمعُ إلا كلمات المنافقين ، ولا تحسّ نقمةَ المحروم ، ولا لوعة المظلوم .

ورأى القـوم أن قـارون سادرٌ[2] في طغيانه وبَغْيه ، لا همّ له إلا أن يستكثر من المال وإن تـضـوّر غيره جوعاً ، وأن يكتسي من اللباس ما يزيِّن به ، وإن رأى العُري فاشياً . هـذا مـع غـرور واسـتـئـثـار ، وبَطـر واستكبار ... لمّا رأوا منه ذلك نقموا عليه طريقه ، وحـاولـوا أن يثيروا فيه روح الخير ، وأن يُنبِّهوه على ما غاب عنه ، ونصحوه ألا يُغويَه

(١) الأحدوثة : السيرة .

(٢) سادر : متمادي .

المالُ أو يُضِلّه، أو يحول بينه وبين الإحسان الى قومه، وإقالة عَثرة المحتاجين، ومسح دموع البائسين، فبذلك يكسبُ الحمدَ في الدنيا، وينالُ الثوابَ في الآخرة، وهذا خير من المال وأبقى.

وقالوا: إنا لا نريدك أن تنفضَ يدك من الدنيا وزينتِها، وتتجافى عن مَباهجها، وتنأى بنفسك عن الاستمتاع بها، فذلك ما لا نريده ونأباه، وإنما نرى لك رأياً فيه خيرٌ لنا ولك، هو أن تقصِد الى الطيب من الرزق، والحلال من المتاع، فارشف من منْهَله، وخُذ فيه كما تشاء.

على ألا يشغلك ذلك عن الفقراء، ولا ينسيك المحتاجين، فأحسن إليهم كما أحسنَ الله إليك، ليحفظ عليك نِعمتك، ويزيد في مالك، ويُضفي عليك خيره وبركته.

على أن المالَ ظلٌّ زائل، ووديعةٌ مستردّة، فلا تفرح بما أوتيت، ولا تغترّ به، واتخذه وسيلة لقضاء مآربك في الدنيا، وسبيلاً الى سعادتك في الآخرة وما حَملَنا على إسداء النُّصح إليك إلا حبُّنا لك، ورغبتُنا أن يبقي الله فضله سابغاً عليك، وخوفُنا أن يَسْلبَ الله مالك أو يحرمك جنّته.

وأنّى[1] للطاغية أن تتفتّح آذانه للنصيحة تُلْقى إليه! ومَنْ للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمسُّ شغاف قلبه!

إن قارون قد أشرب قلبه حبّ المال، وزاده الغنى عُلُواً واستكباراً، فليس لمثل هذا الكلام سبيلٌ الى نفسه: فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأتمر، وتتطاولُ أعناقُهم الى نُصْحِه فينتصح! إنهم لا شك قد استباحوا حِماه، ووضعوا أصابعهم فيما لا يعنيهم من أمره، بل ان هذا من أموره الخاصة!

لذلك كان جافياً في ردّه إذ قال: لستُ بحاجة الى نصحكم، فأنا أرجَحكم عقلاً، وأسَدُّكم رأياً، وما أوتيتُ هذا المال، إلا لأني به أجدر وأحق، فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم، وقوّموا بها أموركم، أما أنا فخيرٌ منكم مقاماً وأكثر عِرفاناً.

---

(١) أنى: أي كيف.

وأراد أن يزيد في إيلامهم ، فخرج على قومه في زينته ، يُدلّ بما أعطاه الله من خير وفير ، ومال كثير .

ورآه المستضعفون من قومه يَرْفل[1] في الثياب الجميلة ، ويركب المراكب المطهّمة ، وحوله الخدم يحفّون به ، فأحدقت به العيونُ ، واستشرف الناس لرؤيته ، وحزّ في نفوسهم أن يرَوْه في هذا النعيم ، وهم في ضنك وبُؤس مُقيم . وتحدّث بعضهم الى بعض يقولون : يا ليت لنا مثل ما أوتيَ قارون انه لذو حظٍّ عظيم !

ولما كانت النصيحةُ مع مثله لا تجدي ، والتّنسّب لا يكفي عنده سبباً لعطف القلوب ، ومنظر البؤس لا يستميلُ النفوس ، والفقر لا يستجيب الى دعائه مجيب ، فليسلّ سيفُ القانون لينفذَ الى تلك الحجب الكثيفة ، فيهتك ظلماتها ، ويزيل ما تراكم عليها ، فتنبعث للخير ، وتميل للاحسان .

ليعلن اليه موسى في شدّة واصرار أن يؤدّيَ زكاةَ ماله ، وأن يحسن الى الفقراء ، ففي ماله حقٌّ معلوم للسائل والمحرومٍ .

ولكن قارون قد طبع اللهُ على قلبه ، وران عليه شُحّه ، فلم يُصغ الى دعوة موسى ، بل هزىء به وسخر ، ورماه بالبُهتان ، وردّ حديثه في عنف وسخرية ، فقال : قد احتملنا منك ما احتملنا ، فقد جئتنا بدين جديد ، فجاريناك فيه ، وأمرتنا بكذا وكذا فاستمعنا لأمرك ، فأطمعَك فينا وجرّأك علينا ، فلم يبقَ إلا المالُ تسلبه ، والثروة تريد أن تستحوذ عليها ! لقد أسلمنا لك القلوب ، وأخضعنا لك الرقاب . ولكن هيهات أن نُسلِمَ لك من القلب سُويْداءه ، ومن الطرف سَواده ! إنك بهذا قد دللت على كذبك ، وكشفتَ ما حاولت سترَه من أمْرك ، إنك لساحر كذّاب !

وحاول قارون وجادل ، وأصرّ موسى وقاوم ، فهذا أمرُ الله لا يحتمل الجدل ولا المساومة ، وخضع قارون بعد لأيٍ[2] وعلى مَضض !

ورجع الى بيته يحسب ما ينالُ الفقراء من ماله ، فهالهُ ما وجد ، وأفزعه ما رأى ،

---

(١) يَرْفَلَ : يتبختر كبراً .
(٢) لأي : مشقة ، والمراد أن أبطأ واحتبس .

فرجع اليه داؤه وتملّكه شحُّه ، وأراد أن يمسكَ المالَ حتى لا يرى نفوساً بائسة يدخل اليها النعيم والسرور ! واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء ، فقال : إن موسى إنما يلبس ثوب الرياء ، ليكون له من ذلك عَرَضُ الدنيا وزينة الحياة ، ولو فتشنا عن مكنون سِرِّه ، وما يختلج في ضميره لوجدناه أبعدَ الناس من الدين وأقصاهم عن الله .

وحاول بالمال أن يَفتِنَ الناس[1] ويصرفهم عن موسى ، ويزلزل عقيدتهم ، ولكن الله كشف ما أضمر ،وأظهر ما أخفى ،وخرج موسى من هذه التجربة ،أصْفى نفساً وأعلى مقاماً .

ولما يئس موسى من صلاحه دعا الله أن يُنزل به عذابه ، ويخلص الناسَ من فتنته وإغوائه .

فاستجاب الله لدعائه وخسف به وبداره الأرض ، فما كان له من فِئَة يَنصرُونهُ مِنْ دُون الله وما كانَ مِنَ المُنْتَصِرينَ .

وابتلعته الأرض ، وساخت فيها أمواله وقصوره ، فكان عِبرَةً لقوم موسى والمستضعفين من اتباعه . ولما رأى القومُ ما حلّ بقارون رجعوا الى أنفسهم نادمين على ما كان منهم ، وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله ، وقالوا : (لولا أن مَنّ الله علينا لَخَسفَ بنَا ويك إنّه لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ . تلك الدّارُ الآخِرَةُ نجعَلُها لِلّذينَ لا يُريدون عُلُواً في الأرض ولا فساداً والعَاقبَةُ لِلمُتقينَ) .

طالوت (*)

كان التابوتُ[2] نعمةً من نعم الله على بني إسرائيل ــ ونعمُه كانت عليهم سابغة وآلاؤه متلاحقة ــ وكان لهذا التابوت عندهم شأن عجيب ، ونبأ طريف : كانوا إذا اشتبكوا

---

(١) تذكر كتب التاريخ والتفسير أنه أغرى امرأة لتنسب الى موسى الفاحشة ، وفعلت ولكنها اعترفت أخيراً أمام حفل جامع بأن قارون هو الذي دفعها الى ذلك وأنه بريء مما رمته به .

(*) البقرة ٢٤٦-٢٥١ .

(٢) التابوت : الصندوق الذي يحرز فيه المتاع ، وكان فيه عصا موسى والألواح وكانوا إذا حملوه سكنت نفوسهم وملئت شجاعة .

مع أعدائهم في قتال ، أو التقَوْا بهم في ساحة نِزَال ، يحملونه بين أيديهم ، ويقدّمونه في صفوفهم ، فينشُرَ في قلوبهم سكينةً واطمئناناً ، ويبعثُ في أعدائهم هَلعاً ورعباً ، لسرٍ عجيب فيه ، ومزايا خصه الله بها .

ولكنهم لما انحرفوا عن شريعتهم ، وغيَّروا ما بأنفسهم ، سلَّط الله عليهم الفلسطينيين فغلبوهم على أمرهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وحالوا بينهم وبين أبنائهم ، وأخيراً أخذوا التابوت منهم ، فانفصمت عروَتُهم ، وتصدّعت وحدتهم ، ثم استكانوا الى ذُل ، وأغمضوا جفونهم على هَوان .

وظلوا على ذلك حقبةً من الدهر ، حتى كان نبيّهم صمويل ، ففزع إليه نَفر منهم أرادوا أن يتجافوْا بنفوسهم عن مطارح الهوان ، وينزعوا بها عن مَعرّة الامتهان ، وطلبوا إليه أن يختار لهم ملكاً يتألفون تحت رايته ، ويُجمعون أمرهم تحت زعامته ، لعلهم به يغلبون العدوّ ، ويكتب الله لهم النصر .

فقال لهم — وقد كان سبَر أحوالهم ، وعجَم عيدانهم ، وعرف مَوْضع الضعْف فيهم : إني أتوقع تَخاذلكم إذا كتِبَ عليكم القتال ، وتواكُلَكم حينما يدعوكم داعي الجهاد .

قالوا : كيف نتخاذل ونواكل ، وقد أُخْرجنا من ديارنا ، وحِيلَ بيننا وبين أبنائنا ! وأيّ حالٍ أسوَأ مما نحن فيه ! وأيّ ذلّ أشدّ مما ابتُلينا به !

قال صمويل : دعُوني أستخيرُ الله في أمركم ، وأستوحيه في شأنكم .

واستخار الله فيمن يصلح لِمُلْكِهم ، ويقوم على قيادتهم ، فأوحى الله اليه : إني قد اخترتُ عليهم طالوتَ ملكاً . قال صمويل : يا ربِّ ، إن طالوت رجل لم أعرفه بعد ، ولم أره من قبل ، فأوحى اليه : إني مُرسِلُه إليك . وسوف لا ترى عسراً في لقائه ، ولا جُهْداً في تعرُّف ملامِحه ، فَولِّهِ المُلْكَ و وسلِّمه رايةَ الجهاد .

*

وكان طالوتُ رجلاً بادناً[1] فارعاً[2]، وافيَ التقطيع[3]، شديدَ الأسر[4] له عينان يلمح الناظر اليه أن وراءهما قلباً ذكياً، وجناناً فتيّاً، ولكنه لم يكُ رجلاً بعيد الصيت، أو معروف الذكر، كان يقيم مع أبيه في قرية من قرى الوادي، يرعى له الماشية، ويَفلح الأرض، ويُصلح الزرع.

وفيما هو في شأنه في الحقل مع أبيه، ضلّت الأتن[5]، فخرج مع غلامه يَنشُدانها في شعاب[6] الوادي، وبين أودية الجبال، وظلاّ أياماً يُغذّان[7] السير بين غَور[8] الأرض ونجْدِها، حتى ورمَتْ منها الأقدام، وأكلّهما السرى.

فقال طالوت لغلامه: هَيّا بنا نعود أدْراجَنا، فأني أحزر[9] أنّ أبي قد كثُرت بلابِله، وتشعبت هواجسه، وأخشى أن يَشتغل بنا عن الأتُن.

قال الغلام: إنا الآن قد وصلنا الى أرض «صوفِ» موطن صمويل، وهو فيما أعلم نبي يأتيه الوحي، وتهبط عليه الملائكة و هلمّ إليه نستوضحه شأن الأتُن و لعلنا نَستضيء برأيه، أو نهتدي بوحيه. فارتاح طالوت لهذا الخاطر وتجدّد عنده الأمل، وشامَ بارقَ النجاح.

ولقيا في طريقهما الى صمويل فتيات خرجْن يستقِين الماء فطلبا إليهم أن يرشدْنَهما الى صمويل نبي الله الكريم، أين يقيم؟ وكيف يلقيانه؟ فقُلن لهما: إن الشعب ينتظره فوق هذا الجبل، وهو يوشك الآن أن يجيء. وبينما هما في الحديث معهن إذ طلع عليهما

---

(١) البادن: الجسيم.

(٢) الفارع: الطويل المرافع.

(٣) وافي التقطيع: ضخم القد والقامة.

(٤) شديد الأسر: قوي البنية.

(٥) الأتن: جمع أتانة، وهي الأنثى من الحمير.

(٦) الشعبة: ما انشعب من الوادي وعدل عنه الى غيره، وجمعه شعاب.

(٧) يسرعان.

(٨) الغور: ما انخفض من الأرض، والنجد ما ارتفع منها.

(٩) أحرز: أقدر.

صـمويل يفوح منه أرَجُ النبوّة وتُحدّث معارفه[1] عن نبي كريم ورسول أمين ، والتقتْ عينا طالوت بصمويل ، فتعارفت أرواحهما واتصلت نفوسُهما ، ووقع في قلب صمويل ، أن هذا طالوت الذي أوحى الله إليه بتمليكه ، وآذنه[2] بأنه يحمل أعباء الزعامة والسلطان .

قـال طـالـوت : إنني جئـتك يا نبيّ الله مستوضحاً مسترشداً ، إن لأبي أتُناً ضلّت في شِعـاب هـذا الـوادي ، وقـد خـرجـتُ في إثـرهـا مع هذا الغلام نتعرّفُ الطريقَ ونَـقفُـو[3] الأثـر ، فمـا ظفرنا بعد ثلاث إلا بالخيبة و وما عدنا إلا بكواذب الآمال ، وقد جئناك لعل فيضاً من عِلمك يهدينا إليها ، أو يدلنا عليها !

قـال صمويل : أما الأتُـن فهي في طريقها الى أبيك ، فلا تربط قلبك بها ، ولا تعلّق حِـبال ذهنك فيها ، ولكنني أدعوك لأمرٍ أجلّ خطراً ، وأعظم مقداراً . إن الله قد اختارك على بني إسـرائـيـل مـلِـكـاً ، تجـمـع كـلمتَهم ، وتحزِم أمورهم ، وتخلّصهم من أعدائهم ، وسـيـكـتـب الله لـك ــ إن شـاء ــ الـنصر ، ولأعـدائـك الـكـبْـت والخِذلان . قال له طـالـوت : مـا أنـا والملـك والـريـاسـة ، والـزعـامة والسلطان ! أنا من أبناء بنْيامين أخملُ الأسباط ذكراً ، وأقلّهم مالاً فكيف أصير الى الملك ، أو أمسك بحبال السلطان !

قـال صـمـويل : إن هذه إرادةُ الله ووحيُـه ، وأمره وكلمته ، فاشكر له هذه النعمة ، وأجمع رأيك على الجـهـاد . وأمسكَ طالوتَ من يده ، ووقف به على القوم يقول : إن الله قـد بعث لكم طالوت هذا مَـلكاً له حقُّ الرياسة والسلطان ، وعليكم الطاعة والإذعان ، فأجمِعوا أموركم ، واستعِدوا للقاء عدوكم .

ولـكـن مـا أشـدّ ذهـولهـم ، وأظـهـر وجومَهم عندما أخبرهم صمويل أن المُـلك فيهم سيصير الى طالوت ، وهو مَنْ رأوْه خمولَ ذِكْر ، وقلةَ مال ، وسوء حال . ثم نظر بعضهم الى بـعـض ولـوَوا أخـادِعَـهم[4] ، وزمّوا بأنوفهم ، وقالوا : كيف يكونُ له الملكُ علينا ، وهو في

(١) المعارف : ما يظهر من الوجه .

(٢) آذنه : أعلمه .

(٣) قفا الأثر وقافه : تبعه .

(٤) الأخدع : عرق في المحجمين ، وهو شعبة من الوريد .

النسب غير عريق ، وفي المحْتِـد[1] غير كريم ! لا هو من أبناء لاوي[2] فرع النبوة وسَرْحة[3] الرسـالـة ، ولا هـو مـن غصن يهوذا معدِن الملك وأصحاب الرياسة ! ثم كيف تولّي علينا رجلاً فقيراً ، فارغَ اليد ، لا يجد مالاً يُدَبِّـر به الملك ، أو يحفظ به حَوزة السلطان ، وما منا إلا صاحب ثروة وجاه ، وذو سطوة ونفوذ !

قـال صـمـويل : إن زعامة الجيش ورياسة الملك لا يحتاجان الى نسب أو نَشَب وما يُجْـدي الـنـسـب لـفـدْم[4] أخـرق ، لا يـعـرف من تصريف الأمور شيئاً ! وما غـنـاء المال لـمـتـخـلِّـف الذهن ، و سقيم الفهم لا يملك في سياسة الجيوش حَوِلاً ولا طَوْلا ! ولكن هذا طـالـوت ، فـضَّـله الله عليكم ، لما فيه من الكفاية والقدرة ، وما رزقه من مواهب الزعامة والـريـاسـة ، وأنتم تـرونْـه رجلاً بسط الله جسمه وسوّى في خَـلْـقه ، صُلْب العَضَل ، متين الـعـصـب ، عـريض الألواح وذلك أجْلَبُ للمهابة ، وأنسبُ للرياسة . ألا ترون لو أن الله مَـلَّــك عـليكم رجلاً قميئاً[5] مُنسرق[6] القوة ، مُـنْـحَـل العزيـمة ، فإنه لا بد أن تقتحمه عـيـونـكـم ، وتـزدريه جنودكم . ثم إن الله رزقه استعداداً فطريّـاً ، وميلاً للحرب غَرزياً ، وأحـكـم مـن عَقله ، وأرهف في ذهنه ، حُـوّل قُلّـب ، رَحْب الذراع ، طويل الباع ، بصير بالحروب ، خبير بمواطن الكفاح .

وفـوق مـا مـنـحـه الله من الصفات المحمودة ، فإنه قد اختاره لكم وملّـكه عليكم وهو أعـلـم بـالمصالح وأعرف بالعواقب ! ثم هوــ جل شأنه ــ مالك الملك ، يؤتيه مَن يشاء ، ويـصرفه عمن يشاء ، وما يليق بكم ــ وقد اختار الله لكم ــ أن تكون لكم الخِيَرة من أمركم ، أو النُّـفْرة من جانبكم .

---

(١) المحْتِد : الأصل .

(٢) كان الأنبياء في بني إسرائيل من « لاوي » والملوك من « يهوذا » اختصا بهذا من سائر الأسباط .

(٣) السرحة في الأصل : الشجرة العظيمة

(٤) الفدم : الغبي .

(٥) القميء : الصغير الذليل .

(٦) منسرق القوة : ضعيف .

قالوا : أما إذا قضى الله بشيء ، أو صدر عنه أمر أو نهي فلا مُعقّب لحكمه . ولا مَعْدِل عن أمره ، ولكن هات لنا آية نعرف بها أمرَه ونعلم قضاءه .

قال : إن الله قد عَلِمَ لجاجَكم وعنادكم ، وقيلَكم وقالكم ، فجعل لكم علامة وآية ، أن تخرجوا الى ظاهر المدينة فتروا التابوت[1] ـــ الذي ذللتُمْ بعد ذهابه ، ولقيتم الخسْفَ والهوان بعدَ ضياعه ـــ قادماً إليكم ، وفيه سَكينة لكم تحمِلُه الملائكة ، وفي ذلكم آية إن كنتم مؤمنين .

وخرجوا كما واعدهم . فوجدوا التابوت ونزلت عليهم السَّكينة ، وصَحّت عندهم العلامة ، فبايعوا طالوت وأقروا له بالملك والسلطان .

☆

واضطلع طالوتُ بالملك ، وأحسن قيادة الجنود ، وأظهر حزماً وعَزماً ، وفِطنة وذكاء قال : يا قوم ، لا ينتظمنَّ في جيشي إلا من كان خالياً من الهواجس و فارغاً من الصوارف ، فلا يدخل فيه من كان قد شرع في بناء لم يتمّه أو خطب عروساً لم يَبْنِ[2] بها ، أو له تجارة وعقلُه مشغولٌ بها

وتم له ما أراد ، واستوى أمامه جيش متلاحِم النَّسج و قويّ القلب و قوي الجناحين ، ولكنه أراد أن يتحوّط لنفسه ، بعدما بدا له منهم الشكُّ في أمره ، والجدَل حول تمليكه ، فأراد أن يختبرهم مخافةَ أن يخذُلوه ساعة اشتباك القَنا[3] وخَفْق البُنُود[4] ، أو يفروا حين الزحف وتقابل الأقران ، فقال : إنكم ستبلغون نهراً ، فمن كان صابراً محتسباً ، فلا ينهلُ

---

(١) التابوت : الصندوق الذي يحرز فيه المتاع ، وقيل : لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلا في التابوت ، فلغه قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء .

(٢) لم يبن بها : لم يدخل بها .

(٣) القنا : الرماح .

(٤) البنود : الأعلام .

إلا بمقدر ما يُبرد كبدَه ، ويبُلُّ ريقه ، هذا الذي أحسبه مني ، وتسكُن اليه نفسي ، أما من نَهلَ وعلّ[1] فقد جاوز الأمر وركب مَتن الخلاف[2] .

وكان ما خافه طالوت ، قد شربوا منه إلا قليلاً منهم ، هم الصابرون المؤمنون ، المخلصون المجاهدون ، وأصبح الجيش أوزاعاً من ضعفاء العزيمة وخائريها ، ومن صادقي النية وكاذبيها ، ولكنه ادّرع بالمخلصين ، وصابَرَ المتردّدين ، وخرج بالجمع يلقى العدو ، ويجاهد في الله .

ولما خرجوا الى الساحة واستشرفوا للقتال ، لمحوا من أعدائهم رجالاً أشداء ، ما فيهم إلا ابنُ كُريهة[3] وخوّاض غمرات ، يفضُلونهم أهبة ، ويفوقونهم عُدّة ، وجالوت بُهمتهم[4] ، وكبش كتيبتهم[5] يصول بينهم ويجول .

وانقسم أصحاب طالوت شَعبتين : شعبة منهم خار عُودهم ، وانخلع فؤادهم ، وتخاذلت قوتهم ، وقالوا : (لا طاقةَ لنا اليوم بجَالوتَ وجنُودِهِ) . وشعبة منهم ظلّت صابرة صامدة ، هم الذين عَمر قلبهم الإيمان وأشربوا في قلوبهم حبّ الله ، واستعدّوا للموت ، ولم تزعجهم كثرة أعدائهم ، ولم تردَعْهم قِلة عَددهم ، بل قالوا لطالوت : امض لشأنك ، وسِر في سبيلك ، وإنا إن شاء الله لا نُخذل من قلّة ، ولا نُغلب على أمرنا من ضعف ، و(كمْ مِن فِئَةٍ قليلةٍ غَلبَتْ فِئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرينَ) .

وخرجوا وعَتادهم[6] الصبر ، وزادُهم الإيمان وتوجهوا الى الله ، طالبين منه أن

---

(١) النهل : الشربة الثانية .

(٢) لعل الحكمة في ذلك انه خشي لو أباح لهم الهجوم على النهَر بعد عطش شديد ، وقع أكثرهم في النهر وأفرطوا في الشرب فخارت قواهم ، وجبنوا على لقاء عدوهم .

(٣) الكريهة : الحرب .

(٤) البهمة : الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه

(٥) كبش الكتيبة : قائد الجيش .

(٦) عتادهم : عدتهم .

يُفرغ عليهم صبراً ، ويسبغ عليهم نصراً ، فإنهم ما خرجوا إلا جهاداً في سبيله ، وابتغاء لمرضاته .

ولما التقى الجمعان ، وحَمى الوَطيس[1] برز جالوتُ يدعو للمناجزة والمبارزة ، فخاف الباقون بطشه ، وهابوا صَولته ووقفوا حوله بين متقاعِس ومحجم ، أو منخذل ومتراجع .

*

كان يقيم في بيت لَحم[2] رجل تقدّمت به السنون ، وأحنَت صَعدته[3] الأيام ، يعيش سعيداً في نفسه ، آمناً في سِربه ، وادعاً مع بنيه . ولما دقت الحرب ، واستنفَر طالوت بني إسرائيل للجهاد ، انتخب ذلك الرجل ثلاثة من كبار أبنائه وقال : خذوا عُدتكم ، وظاهروا إخوانكم ، وأدُّوا في الجهاد نصيبكم . ثم قال لأصغر أبنائه : أما أنت فنصيبُك في الجهاد أن تحمل الطعام لإخوتك ، وأن تكون سفيراً بيني وبينهم ، وتُسفر لي صباح كل يوم عن أحوالهم . أما ساحة الحرب فحذارِ أن تقرَبَها ، أو تخوض غِمارها ، أو تصلى بنارها ، فإنك لست من رجالها ولا فتيانها ، ودَعْها لمن زَبنَها[4] وزَبنتْه ، وعرفها وعرفته .

كان ذلك الغلام داود عليه السلام ، وكان — مع حداثة سنه ، ولُدونَة عوده — وضيء الطلعة وأبلج الغُرة ، متسعِّر الذكاء متوقد ما بين الجوانح .

سار مع إخوته ، وما وصل الى ساحة القتال حتى وجد رجلاً راعه أنه عِملاق طاغية يتحدّى ، ولكنّ الأقران تتحاماه ، والشجعان تخشاه ، فسأل عن هذا الذي يقف متحدياً متغطرساً ! وما بال هؤلاء القوم يَنكِصون ويتراجعون ! فقيل له : هذا جالوت رئيس الأعداء وزعيمُهم ، وما برز اليه شخص إلا رده جريحاً ، أو أرْداه قتيلا ، والقلوب قد هَلِعت لهيبته ، واضطربت من بأسه وشدّته . وقد جعل طالوت جزاءً لمن يقتلُه ، ويَقي

---

(١) حمى الوطيس : اشتدت الحرب ، والوطيس في الأصل : التنور

(٢) بيت لحم : بلد قريب بيت المقدس ، وفيه ولد عيسى عليه السلام .

(٣) الصعدة في الأصل : القناة المستوية تنبت كذلك ، والمراد بها هنا القامة .

(٤) الزبن : الدفع .

المؤمنين كيدَه وشره ، أن يزوجه إحدى بناته ، ويولّيه الملك من بعده ، فثارت الحفيظة في نفس داود ، وهاجت الحمية في قلبه ، وكبُر عليه أن يرى عملاقاً كافراً يتحدى ويصول ويجول ، ويذهب ويجيء ، ولا يلق إلا رعديداً ، مخلوع الفؤاد

فخفّ الى طالوت ، وطلب إليه أن يأذن له في منازلة جالوت ، لعل مصرعَه يكون بيديه . فاستصغر طالوت شأنه ، وخشي أن يخرج هذا الحدَث للقائه ، فتنالُه ضَرْبَة تطِيحُ بها رأسه ، وتذهبُ فيها نفسه ، وهو لا يزال فتى أغرّ في ميْعةِ[1] الحداثة وربيع الأيام ، وطلب إليه أن يترك الأمر لمن عساه أن يكون أكبر سناً ، وأقوى جسماً وأمضى عزماً ، وأجمعَ قلباً .

قال داود : لا يخدَعَنَّكَ ما تراه من صغر سني ، وقماءةِ[2] جسمي ، عن حرارة الإيمان التي تجيش في صدري ، ونار الحُنق التي تلتهب في قلبي ، ولقد هجم بالأمس القريب أسد على غنم لأبي فعَدَوت وراءه حتى أصبْتُه فقتلته . وصادفني مرة في طريقي دبٌّ فاتكٌ فنازلته ثم أرْدَيتُه ، والعبرة بقوة النفس لا بكبر السن ، وبمضاءة العزم لا بضخامة الجسم

ورأى طالوت الصدق في لهجته و والحزم والعزم في نيته ، فقال له : دونك وما تريد ، الله كالئك وحافظك ، وهاديك ومبصّرك ! ثم ألبسه ثيابه ، وقلدَه سيفه و وتوَّجهُ خُوذة[3] فوق رأسه . ولكن داود لم يكن قد لبس الدرع ،ولا عالج السيف، فَناء بما حَمل ، وثقل عليه ما اشتمل ، فخلع كل ذلك ، واحتمل عصاه واحتقب مقْلاعه ، واصطحب أحجاراً مُلساً و وتهيأ للخروج .

قال طالوت : كيف القتال بالحبل والمقلاع ، وهذا مقام السيف والنُّشاب[4] ! قال داود : إن الله الذي حماني من أنياب الدب ومخالب السبع سيمنعُ عني — بلا شك — ما يريد لي هذا الطاغية من كيدٍ أو نكال .

---

(١) ميعة : أول الحداثة .

(٢) قماءة : نحافة .

(٣) الخوذة : المغفر يقي الرأس في الحروب .

(٤) النشاب : النبل .

وخـرج وهـو مـن مـضـاء عـزمـه في أمـنـع حـرْز ، ومن صدق إيمانه في أقوى حِصن ، والقلوب نحوه تهفو ، والعيون اليه ترنو .

ورأي جـالـوت قِـرنـه[1] غـلامـاً حـديـث الـسن ، صغير الجسم ، لا يحمل سيفاً ، ولا يـتـنـكّـب قوساً ، فهزىء به ، واحتقر شأنه ، وقال : مـا هذه العصا التي تحملها ! أكلباً تُطارده ، أم غـلاماً مثلك تناجزه ! أين سيفك وترسُك ؟ وأين سلاحك وعُـدّتك ؟ يخيّـل إلي أنـك كـرهـتَ حـياتك ، وسئمت عيشَك ، مع أنك لا تزال حديث السن ، ولم تحتمل بعـدُ تـكـالـيـف الـعـيش ، ولا نَصَب الحياة !! تعال ، ادْنُ مني ، فإنه بعد لحظة ستسيل نفسك ، وتُطوى صحيفة عمرك ، وأقدمك لحماً طرياً لوحوش البرية وطيور السماء .

قـال داود : لـك درعك وترسك ، وسيفك ونشابك أما أنا فإني أتيتُك باسم الله ، إله بني إسـرائـيـل الـذيـن أذللـتَهم وأخضعتهم ، وسترى عما قريب ، أهو السيف الذي يَصرع ويقتل ، أم هي إرادة الله وقوّته !

ومدَّ يده الى كتفه ، وأخرج الحَجر ، ووضعه في المقلاع ، وسدّده نحو جالوت فإذا هو مـشجوج الرأس ، سائل الدم ، مُثْخَن الجراح ، ثم قـفّـاه بحجر وحجر ، حتى خرَّ صريعاً لليدين وللفم .

وارتـفـعـت رايةُ النصر ، وانكسرت بعد جالوت شوكةُ العدو ، وولّوا منهزمين ، يتبعهم بنو اسرائيل ضَـرْباً وطعناً وتقتيلاً ، وثأروا لأنفسهم ، واستردوا عـزَّهم الذاهب .

بين طالوت وداود (*)

انـعـقـد لـداود الـنصر ، وتم لـه الظفَـر ، فائـتـلَـفَـتْ على محبته القلوب وتأكدت له أواصرُ الإخلاص ، وأصبح بين عشية وضحاها حديث القوم ، وموضع الإشارة ، ومحوَر الحديث .

أمـا طـالـوت فـقد وفّى بشرطه ، وبـرَّ بعهده ، وصدق في يمينه ، فزوَّجـه ابنته ، وأحلّـه

---

(١) القرن : المكافيء في الشجاعة

(*) البقرة : ٢٥١ .

بين نفسه وقلبه ، وأضحى موضع نصحه ، وعَيبَةَ[1] سرّه . وجمعت بينهما أواصرُ نسب ، وألّفتْ بينهما غايةٌ من جهاد ، فتهيأ لداود بذلك فتح مبين ، وفوز كبير ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ولكن القلوب مهما تكن صافية لا يؤمَن على الدهر كدَرُها ، والنفوس وإن كانت منخولةً نقية قلّ أن يَبقى على الأيام نقاؤها ، فقد أصبح داود يوماً ، فإذا طالوت عابسُ الوجه ، لاوي العِذَار[2] ، مقطبُ ما بين العينين ، ابتسامُه تكلف وقولُه تحفظ ، وحديثُه ينمُّ عن حقْدٍ وافد ، وضغْن جديد ! فماذا غيّر من قلبه ورنق من صَفو مودّته ؟ وما عسى الواشي أن يكون قد بلغ عنده ، ألم يكن داود ــ ولا يزال ــ سيفاً سلّهُ الله حديداً قاطعاً ، مجاهداً لا يكلّ ، غازياً لا يمل ، مظفّراً في الحرب ، ميمون النقيبة في ساح القتال ! ألم يجعل من نفسه وعافيته دِرعاً لطالوت يدفع عنه البلاء ، ويصدّ عنه كيد الأعداء ! أليس هو صهره وراعي ابنته ، ومن يوم أن بنى بها لا يزال بينهما مَحض الود ، وخالص الوفاء ؟ فما عسى أن يكون قد غيّر قلبك يا طالوت !

قال داود : لعله خاطرٌ متردد ، ووهم عارض ، ومِزاج متعكر ، لا يلبث أن يصفوَ ويلين

وضمه مع زوجه « مكيال »[3] ليلٌ ساج ، وشَمِلهما سكون شامل ، فقال لها ، وهو يهمِس بصوته ، ويتحفظُ في حديثه : يا مكيال ، لا أدري أمخطيء أنا فيما رأيت أم مصيب ؟ وصادق فيما حزَرْت أم غير صادق ؟ لقد رأيت أباك عابس الوجه ، ضائق الصدر ، تحدث نظراتُه عن غيظ كامن . وتَشِي معارفُه عن شيء جديد . فهل عندك شيء مما رأيتُ ؟

قالت مكيال ــ وقد أرسلتها آهةً حبيسةً ، وذَرفتها دِمعة سخينة : لست أكتُمك يا

---

(١) عيبة سره : موضع سره .

(٢) العذاران : جانبا اللحية .

(٣) اسم زوجته ، وهي بنت طالوت .

داود شيئاً أعلمه ، وأصونُ عنك أمراً تجهله ، إن أبي منذ رأى القوم من بني إسرائيل يُكنون لك في نفوسهم محبة وإجلالاً ، ويُغضون عيونهم في حضرتك مهابة وإعظاماً ، ومذ رأى كلمتك بينهم تعلو ، وخطرَك فيهم يسمو ، ومذ رآك تتنقل من ظَفر الى ظفر ، ويجيئك النصر يتبعه النصر ، خشي على مُلكه من نفوذك ، وخاف على نفسه من سلطانك . والمُلك — كما تعلم يا داود — مَرْعى خصيب ، وحِمًى عظيم ، يدافع عنه صاحبه بنفسه وسلاحه ، وقلبه وجَنانه . وصاحبُه أبداً يشك حتى في بطانته ، ويشفِق عليه حتى من صفوته وخلْصانه ، فهو لذلك يأخذ بالظن ، ويتهِم بالحَدْس ، ويعاقب لمجرد الإشفاق .

وأبي — وإن كان مؤمناً خالص الإيمان ، عالماً وافر العلم — مَلِكٌ تنتابه سَورة الملوك ، وسلطان تختلج في صدره هواجس السلاطين . وقد علمت أخيراً — وإن لم أكن أجزمُ بصحة ما علمت — أنه يفكر في التخلص منك والقضاء على سلطانك ، والقصّ من جناحك . والرأي عندي أن تأخذ بالحزم نفسَك ، وتتحوّط لحياتك ، فإن كان ما توقعتُه حقاً ظفرت بالسلامة و وإن كان بعيداً لم يضرّك الحزم شيئاً .

قال داود — وقد أشجاه ما سمع : ما أنا إلا جندي مقاتل تحت راية السلطان ومؤمن أدافع عن بَيْضة الإيمان ، ولعلّ ما دخل على طالوت كان من وسوسَة الشيطان ، أو تسويل النفس الأمّارة بالسوء ، وربما أخزى شيطانه وقهرَ هواه . ثم أغمض أجفانه على نوم هادىء ، كأنه لم يعرف من دخيلة نفس طالوت شيئاً .

*

واستيقظ داود يوماً على دعوة طالوت ، ومَثلَ أمامه ، فقال له : يا داود ، إن بي اليوم همّاً ناصباً ، وأمراً حازماً ، قد بلغني اليوم عن كنعان أنهم عادوا ، فجمعوا جموعهم ، وألّفوا أحزابهم ، فاستحصد[1] أمرُهم ، وأصبح متوقعاً شرُّهم ، وليس لي عون إلا

(١) استحصد أمره : قوي .

بك ، وليس لهذا الأمر سواك ؛ فخذ سيفَك ، واختر مَنْ ترى من جندك ، واذهب اليهم ، واياك أن تعود إلا منصوراً ، يَرْعُف[1] سيفك بدماء أعدائك ، أو مقتولاً محمولاً على أعناق رجالك .

وحسِب طالوت أنه كُفي أمر داود ، ولكن داود على الرغم مما عَرَف من أمر صاحبه ، واختلاط إرادة الشر بإرادة الخير في دعوته — أطاع طالوت ، وذهب الى الكنعانيين و مقاتلاً بسيفه ، مُرخصاً حياته ، لا يبالي أوقعَ على الموت أو وقع الموت عليه ؟ ولا يعبأ أيخرجُ من الحرب سليماً معافى ، أم تفلِتُ الحياة من بين جنبيه . وكَتب الله له النصر ، وعاد الى طالوت مظفَّراً منصوراً .

فما زاد ذلك طالوت إلا ضغناً ، وما أكسبه عنده إلا حنقاً وكرهاً ، فأضمر له القتل ، وبيّت النكال ! وعلمت زوج داود بما أضمر أبوها ، وما يُراد بزوجها فذهبت اليه لهيفة حزينة ، وحدثته بلفظ خاطف ، وقلب واجف : أن انجُ بنفسك ، وأهرب بحياتك ، وإلا أكسبتَنِي حسرة بموتك ، وضاعفت همي بمصرعك .

فما وجد داود بدّاً من الهروب ، وركوب مَتْن الاغتراب ، واتخذ الليل جملاً ، وهرب طريدَ الحسد و طريد الحِقْد ، عامر القلب بالايمان ، عظيم الثقة بالله .

وانتهى الى مَفَازة أوى اليها ، وألقى بهمومه فيها . وفزِع اليه إخوتُه ، وعلم بمكانه مريدوه من بني اسرائيل ، فَهُرِعوا اليه جماعات ، وانثالوا عليه زَرَافات .

أما طالوت فقد ضعُف أمرُه في قومه ، وكثر الخارجون عليه والهاربون من جنده ، وخاف العاقبة ، فأعمل السيف ، وعاقب بالظن ، وأخذ البريء بذنب المسيء والمؤمن بالعاصي ، ثم آذى العلماء ، واضطهد القُرّاء[2] وألقى الرعب في قلوب الجنود . واستوى له بذلك جيش محاط بالقوة على سياج من بطش وجَبروت .

---

(١) يرعف : يسيل .

(٢) القراء : طائفة من علماء بني إسرائيل .

ولكن داود لا يزال حيّاً ينافِسه في ملكه ، ويتحدّاه في قومه ، ولا يأمنه على نفسه ، وقد كشف له صحيفة ضِغْنه ، ورَاشَ له سهام مكره ، فلا بد أنه مُضغِنٌ عليه ، مريدٌ الشرَّ له . إذن فلينهض الى حربه ، وليتهيأ لقتاله ، مهما يقفُ في سبيله من عقبات .

وخرج داود من مفازته ، يتحسس أمر طالوت ، فإذا هو قد انتهى الى واد ، ومعه ثُلّة[1] من شيعته وجنده ، وقد عقدوا ، لما أصابهم من جهد وما أدركهم من أيْن[2] المسير . فمشى داود وَئيداً ، حتى استلّ رمح طالوت من بين جنبيه وعاد . ونهض طالوتُ يتفقد رُمْحَه ، ويبحث عمن أخذه ، وبينا هو حائر مضطرب وافاهُ رسول داود يقول : هذا رُمْحُك ، وقد مكن الله لداود من رأسك ولكنه كان أعزّ نفساً ، وأكرمَ قلباً ، وأدنى الى الله إيماناً .

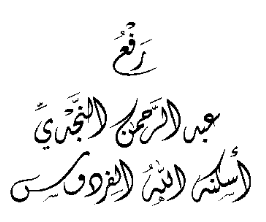
ونالت كلماتُ رسول داود من نفسه ، ولمست مكانَ الإحساس من قلبه ، فأخذته عَبرة من الأسى ، ونالته حُرْقة من الندم ، ورجع باكياً مستعبراً ، نادماً أنه قد غدر بداود ، وما كان أهلاً للغدر ، وقتل العلماء والقُرّاء ، وما استحقوا القتل ، فما يفعل غداً بين يدي جبّار السموات !

فرجع أدْراجه و ثم هام على وجهه ومضى في الغلوات يُعلِن الندامة ، وينشد من الله التوبة ، حتى وافاه الحِمام[3] .

أما بنو إسرائيل فقد هُرعوا جميعاً الى داود مبايعين ، وشدّ الله ملكه ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

---

(١) الثلة : الجماعة من الناس .
(٢) الأين : الإعياء والتعب .
(٣) الحِمام : الموت .



داود

فتنة داود (*)

تاقت نفس (أوريا بن حنان) الى أن يكون زوجاً لشريكة يسكُن اليها ، ويقوي بها أمره . وقد صادف هواه مثالٌ له صورة رائعة خلابة جذابة ، تأسر الفؤاد ، وتملك المشاعر ، وتسبي العقول ، فيها كلُّ ما ترغب النفس العزيزة الطموحُ من فتنة وجمال وكمال .

لم يَطُل ليل أوريا في البحث عن ضالته المنشودة ، وتحقيق حلمه الجميل ، بل ألقى مِرساته على فتاة كريمة من فتيات قومه سابغ بنت شائع ؛ فما اكتحل طرْفهُ بجمالها حتى طار الى أهلها ، فخطبها اليهم ، ووثق رباطه معهم . وهنا هدأت قَطاة[1] قلبه ، وسكنت حصَاةُ عقله ، وراح قرير العين بارد الفؤاد .

جعل هذا الفتى بعد ذلك همّه في أن يمهّد السُّبلَ للحياة الهنيئة التي يودّ أن يحياها بجانب شريكته ، وفي هذه الحياة كل سعادة وهناءة ، وفيها كل ما يديم حياة السكون والاطمئنان ، فصار يستعجل الزمن ، ويسترسل في شوقه وتلهفه لذلك اليوم الموعود ؛ يوم يجمع الله شملهما بعد الزواج .

ولقد كان أوريا شاباً ، وعلى الشباب كذلك جزية يؤدونها قرباناً لوجه الوطن . فعليه إذن أن يتهيأ ، وأن يخلع عن نفسه رداء السلم ، وأن يدفع بها وسط الجيش الزاخر الذي أعدّه نبي الله داود ، جهاداً في سبيل الله .

لم يَتوانَ ذلك الفتى المقدام عن تأدية حق الجهاد ، بل أقدم وانتظم في عداد الجيش ، وبنفسه ما بها من الحب واللوعة . ولكن بلابلَ نفسه سكنت ؛ إذ هدْهدها[2] بأمل حُلو مرجّى : أو ليست سابغ خطيبتَه دون سواه ، وهي له وهو لها ، مهما يتطاول الزمن ،

(*) سورة ص : ٢١-٢٦ .

(١) قطاة : نوع من اليمام الطائر . وقد استعير هنا للتشبيه .

(٢) هدهد الصبي : ربت على ظهره ليسكت .

ويمتد أمد البعاد !؟ إذن فليقض حق الجهاد ، ثم ليرجع حيث يبني بحبيبة قلبه ، ومَطرَح أمله .

طالت بالجيش أيامه ، وتعدّد إصباحه وإمساؤه ، واتسعت أمامه الغزوات ؛ وليس لفتاناً إلا أن يصبر ، وأن ينسى في سبيل الحرب كل شيء ، حتى يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً .

في تلك الغيبة الطويلة التي كُتِبت على ذلك الجندي الشجاع ، وهو قصيٌّ عن أهله ووطنه . كان في فراق يكاد يكون غيبةً منقطعة ، إذ لم يسفر لها صباح ، ولم ينكشف عن غيابتها قناع ، ولم يبرق في سمائها أمل ، ولم يُضِيء في أفقها كوكب لماع .. في هذه الغيبة من الزمن تعلقت أنظار داود بهذه الفتاة المكتملة الرائعة سابغ بنت شائع ، ثم تعلقت رغبته بأنّ تكون زوجاً له ، فما تردّدّ أن ذهب الى أهلها يطلب إليهم القربى والمودّة . ومَن هم هؤلاء حتى يردّوا يَدَ نبيّ الله الكريم ؟

أليس في ذلك الشرف لهم كل الشرف ؟ أليس أوريا قد طالت غيبتُه ، ورثّت جبال خطبته ! بهذه المعاذير تعلق آمال الفتاة ، وزَفوا بنتهم حلالاً طيباً لنبيّهم داود ، فعاشت معه عيشة كلها خير وكلها سعادة .

إلا أن تحت الأفق نفساً كان ذلك الخبر أشد عليها من وقع السهام في غَلَس الظلام ، ولكن ما بها من حيلة ، فالأمر لله من قبل ومن بعد ، يأسو برحمته جراح المنكوبين ، ويمسح عن جبين الإنسانية ما عسى أن يُلمّ بها من أذى أو هوان .

قرّت عينُ داود بزوجه الجديدة التي تعلقت بها نفسه فكانت له ، وهو من بعد قد سار على منواله و فكان يتبع نظامه الذي شَرعه لنفسه منذ حين من الدهر ، قد قسم الدهرَ أرباعاً ، واحداً لنفسه ، وآخر لعبادة ربه ، وثالثاً للفصل والقضاء بين الناس ، والرابع لبني قومه يعظهم ويرشدهم الى سواء السبيل .

وداود كذلك ملك ونبيّ ، أقام على منازله الحرّاس والجند ، وهو لا يغيّر أنظمته تلك ولا يحيد عنها ما تتابع الملَوان ، وأشرق النّيران ، بل هو يسلك الطريق الذي يسوّي بين تلك القسمة العادلة ، وهذا الحساب الحكيم .

٭

رجلان لهما كل ما للرجال من خِلقةٍ وصفات ، إلا أنهما يختلفان عن رجال بني إسرائيل قوم داود ، فأولئك تعوّدوا أنظمة مَلِكهم فأطاعوها راضين مختارين ، وذانِ خَرقا سياج العُرْف ، وخرجا على المتبع المألوف ، فتقدما الى الجند طالبَين أن يَدْخلا على داود ، وذلك في غير وقت القضاء ومقابلة الناس . فليس للحراس إلا أن يذودوهما ، وأن يمنعوهما عن ذلك الحمَى المنيع ، حتى يحين الوقت الذي يباح فيه لأمثالهما أن يتقدّما بين يدي نبيّ الله الكريم .

وما كان للحراس أن يدركوا هذه القدرة الخارقة المعجزة ، فليس هذان إلا مَلَكين في صورة الناس ، وهما سيَصِلان حتماً الى داود ، وسيكون لهما شأن لديه مشهود ، وسينفذّان اليه بتلك الحكمة الصادقة ، والحجة القاطعة ، وسيكون من أمرهما عبرة ناجحة لنبي الله داود .

تسوّر الملكان المحراب ، ودخلا على داود . ففزع منهما ، وقد رآهما بين يديه جالسين بغير إذن ولا شفيع ، فقالا : « لا تخَفْ ، خَصمانِ بَغى بَعْضُنا على بعْض فاحْكُمْ بَيْننا بالحقّ ولا تُشْطِط[1] واهْدِنا الى سواء الصِّراط » .

وجد داود نفسه أمام أمر واقع ، فتهيّأ لهما ، واستعدّ للحكم بينهما ، واستمع لجدالهما ، فإذا أحدهما يقول : إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً ، ولي نعجة واحدة ، ولكن أخي امتدّت به أطماعه و فلم يقهر نفسه ، ولم يُغالب هواه ، بل قال : أعطنيها . فلما ناقشتُه غلبني نقاشُه ، وأفحمني حِجاجه وجداله ، لأنه أفصحُ مني لساناً ، وأقوى حجةٍ وبياناً .

تلفّت داود الى الرجل الآخر ، فاستوضحه الأمر ، وسأله رأيه فيما يقول خصمه :

فقال : إن لي تسعاً وتسعين نعجة ، وله نعجةٌ واحدة و فأردت أن آخذها منه حتى تكمل نعاجي مائة . فقال داود : أوَ أخُوكَ يكره ذلك ؟ قال : نعم ! فاستشاط داود غيظاً ، ورماه شذَراً ، وقال : إذن فإنا لا نَدَعُك ، وإن رُمت ذلك ضربنا منك أنفَك وجبهتك . فقال الرجل : يا داود ، أنت أحقُّ مني بهذا ! فقد كان لك تسع وتسعون

(١) لا تشطط : لا تجاوز حد العدل .

امرأة ، ولم يكن لأوريا غير واحدة ! ومع ذلك امتدّت رغبتك اليها وحرمته إياها ، ثم صارت لك زوجة ، ولم ترْعَ لعهده حقاً ولا حرمة !

تلفّت داود بعد هذا القول الحكيم المنبعث عن نفس خبيرة بصيرة ، فلم يجد أحداً حوله ، فعرف سِرَّ الأمر ، وفطِن الى حقيقة الحال . فاستغفر ربه ، خرّ راكعاً ، وجاهد نفسه راغباً الى الله تعالى في العفو والصفح والغُفْران . فتاب الله عليه وغفر زَلّته ، وأبقى له منزلة الأنبياء المكرمين .

وما كان يدورُ بخلد نبي الله داود أنه بعمله مقدمٌ على ما يستوجب اللوم والعتاب ، ولكن الله حاسبه فألزمه الحجة ، على عُلوِّ كعبه وعظم منزلته ، حتى يوقن الناس أن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنه يؤاخذ الناس جميعاً بأعمالهم ، سواء في ذلك عامتهم وأنبياؤهم ، فلا يدع مؤاخذة نبي لنبوّته ، ولا يَغْفُل عن حقّ مظلوم أقعده ضَعفُه عن بسط ظلامته[1] .

أصحاب السبت (*)

كان من تعليم نبيّ الله الكريم موسى أن ينقطع قومُه عن أعمالهم يوماً في كل أسبوع ، فلا يركَنُون الى مزاولة ما تشغلهم به دنياهم ، بل يفرغون فيه الى عبادة ربهم ، ويَعْكفون على حمده ، وتعداد نعمه وآلائه ، حتى تطهر قلوبُهم بذكر الله .

كان يومُ الجمعة هذا اليوم الذي أمِروا أن يعبدوا الله فيه ، ولكنهم رغبوا أن يكون يوم عبادتهم يومَ فرغَ الله من عبادة الخلق[2] ، وهو يوم السبت . ولمّا اختاروه قبلَ الله اختيارهم ، فكان موسى عليه السلام يَزَعُهم ويعظهم ، وَيُقبل إليهم فيه مذكراً مرشداً .

---

(١) مثل هذه القصص يكون مصدرها على الأغلب من الاسرائيليات التي شوهت كثيراً من قصص وحياة النبيين والرسل ، ولذلك يجب أن نكون في غاية الحذر في الأخذ بمثل هذه القصص وأن نضعها في حجمها الحقيقي .

(*) الأعراف : ١٦٤-١٦٦ .

(٢) انظر التعليق رقم ١ .

مرّت الأيام وقوم موسى على عاداتهم يقدّسون يوم السبت ، ويفردونه لطاعة يتقرّبون بها ، أو لعبادة يسبحون الله فيها ، وتكاثرت أعقابهم ، وتوالت أيامُهم ، وهم على هذا مقيمون ، وعلى تلك السُّنة دائبون .

وفي قرية على شاطىء البحر الأحمر — قد يقال لها أيلَة — كان يسكن قوم من سلالة بني اسرائيل في زمن داود عليه السلام[1] ، وكان عليهم أن يلتزموا سُنّة آبائهم وأجدادهم ، فيسيروا على عبادة الله في يوم السبت . فكانوا لا يزاولون فيه عملاً من أعمال دنياهم من صيد أو متاجرة أو صناعة .

وكان على ساحل البحر هناك حجَران أبيضان ، تخرج الحِيتان إليهما ليلة السبت ويومه ، إذ قد أمنت أن تصاد ، فهي تأنس في هذا الزمن وتأمن ، فتتكاثر وتتزاحم ، والقومُ حينئذ لا تمتدّ أيديهم الى ترويع هذه الحيتان بصيد ، لأنهم مشغولون بتسبيح خالقهم ، محرّمٌ عليهم أن يفزّعوا صيداً ، أو يمارسوا في الدنيا عملاً . وإذا جاءت ليلة الأحد تسرّبت الحيتان الى البحر ، فانبعثت الى باطنه ، فتعذّر على القوم أن يصطادوها في أيام هي حِلٌّ لهم .

تحرّكت دواعي الطمع ، وثارت عوامل الجشع في نفوس الفُسّاق من أهل هذه القرية ، فغفلوا عن تعاليم أنبيائهم ، ونسوا حظاً مما ذُكّروا به ، فتشاوروا فيما بينهم وتبادلوا زمام الرأي ، وقالوا : ما بالنا نترك هذه الحيتان في يوم تكثر فيه وتزيد ، وتتزاحم متسابقة إلينا ، ونأتي الى صيدها في أيام تُحجم عنا وتدبر ! فلا سبيل إليها إلا بمشقة وجهاد ، إننا بذلك لحائدون عن طريق الصواب .

لا رأي إلا أن نقبل على هذا الصيد في يوم السبت ، فنأخذ منه ما نشاء ، ونصل فيه الى ما نبغي ونريد .

أقبلوا على الصيد ، فاصطادوا كثيراً بلا تعب ولا عناء ، ثم صنعوا به ما شاءوا وما اشتهوا من مطبوخ ومشويّ ، وأقبلوا يُشبعون نهمهم ويملأون بطونهم .

---

(١) تفسير الكشاف : ١-٣٥٥ .

علم المتقون منهم بما فعل هؤلاء الفُسّاق المستهترون ، فخرجوا إليهم ووعظوهم وحذّروهم ، فما زادهم ذلك إلا استهتاراً وإمعاناً في غيّهم ، وانسياقاً في ضلالهم . فثارت ثائرة المؤمنين ، وحاصروا القرية بسلاحهم يمنعون هؤلاء المارقين من دخولها ، لأنهم خارجون عن طاعة الله آثمون فاسقون .

اشتدّ ذلك على الفساق ، وشقّ عليهم أن يمتنعوا عن الصيد في يوم السبت ، مع كثرة الحيتان فيه ، دون غيره من الأيام . فقالوا للمؤمنين منهم : إن القرية لنا ولكم ، ولا حق لكم في دفعنا عنها ، والانفراد بها دوننا ، ولا أحد يُلزمنا بتركها لكم . إنها موطننا وموئلنا ومحط رزقنا ، لا سبيل الى تركها ، ولا مفرَّ لنا الى غيرها ، فان صممتم على رأيكم ، ولم تحيدوا عن عزمكم فلتقاسمونا القرية ، ولْنبْن حيطاناً بيننا وبينكم ، حتى يعيش كل منا على ما يشتهي وكما يريد .

ارتضى المؤمنون أن يقاسموهم القرية ، وأن يقيموا سدّاً يحجب عنهم هؤلاء المارقين .

انفردت كل طائفة ، وشُغل الفساق بلهوهم وصيدهم ، وحفروا نهيرات تصل البحر بقريتهم ، فإذا كانت ليلة السبت سارت الحيتان فيها الى أبواب دورهم ، فإذا غربت شمس السبت وهمّت الحيتان بالرجوع حجزوها بسدود أقاموها تعترض مجرى النهيرات ، فلا تملك الحيتان أن تتسرب الى البحر .

ولكن المؤمنين لم يغفلوا عن زجرهم وتخويفهم عذاب الله . فلما طال النصح ، ولم يزدهم إلا تمادياً وعنواً « قالتْ أمّةٌ مِنهمْ لِـمَ تَعِظون قوماً الله مُهلِكُهم أو مُعَذبُهُمْ عذاباً شَدِيداً[1] » !

فتركوهم في غيّهم يَعْمَهون ، وانصرفوا عن وعظهم لأنهم لا يتعظون .

استمر الفساق في لهوهم ، وسدروا في غُلوائهم . وكثرت أموالهم ، وتغالوا في فسوقهم وعصيانهم حتى ضاق بهم داود . فاتجه الى ربه يستنصر به ، ويطلب اللعنة لهم . فأجاب الله سؤله ، وحقق أمله فَزُلْزلت قريتُهم زلزَالاً عظيماً ، ففزع المؤمنون من ذلك وخرجوا

(١) الأعراف : ١٦٤ .

من بيوتهم ، «فلما نَسُوا ما ذُكرُوا به أنجَيْنا الذينَ يَنهوْنَ عنِ السوء وأخَذْنا الذِينَ ظلموا بِعذابٍ بَئِيس[1] بما كانُوا يَفْسقُون[2]» .

سليمان

سليمان وبلقيس (*)

اتجهت همةُ نبي الله سليمان الى بناء هيكل في بيت المقدس ، تسهيلاً لأسباب العبادة ، وقرباناً الى الله ، فنشط حتى أقامه عالي الأركان ، شامخ البنيان . ولما تم له ذلك إطمأن قلبُه ، وسكنت نفسه ، ثم نزعت الى أن يؤدّي فريضة الله ، فلا بد له إذن أن يتهيأ للحج في حشد عظيم .

يَمَّم النبيُّ شطرَ الحرم و فوافاه ، وأقام به ما شاء ، حتى إذا وفى نذره شدّ رَحله وفارقه . ثم حدّ به السير نحو أرض اليمن ، فدخل أرض صنعاء ، وأخذ يتفقد الماء ، ويتلمس منافذه ، ويسبر أغواره ، فأعياه البحث ، واستعصى عليه المنال .

لذلك خف سليمان ، فتفقد الطير باحثاً عن الهدهد ليدلّه على الماء ، فوجده من الغائبين ، فأقسم لَيعذِّبَنَّه أو ليذبحنّه ، إلا أن يأتي بحجة واضحة ، يمهد بها لعُذْره ويزيل ما يخالج النفس في أمره . لكن الهدهد غاب غيبة قصيرة ، وعاد يخفض رأسه وذَنبه تواضعاً لسيده ، وتقدم إليه ينزع من نفسه ما عسى أن يكون قد ألَمَّ بها من غضب عليه ، أو كيد إليه .. تقدم الطائر فقال : لقد اطلعت على ما لم يمتد اليه علمك ، ولم تصل الى إحاطة به أسبابُ قوتك وملكك ، وكشف سراً ندَّ[3] عنك أمره ، واختفى خبره .

---

(١) بئيس : شديد .

(٢) الأعراف : ١٦٥

(*) الأنعام ٨٤ ، الأنبياء ٨١ و٨٢ ، سبأ ١٢-١٤ ، النمل ١٥-٤٤ ، البقرة ١٠٣ ، سورة ص ٣٠-٤٠ .

(*) خرج سليمان مرة ليستسقي فشاهد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها الى السماء وهي تقول : اللهم أنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك . فقال سليمان : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

(٣) ندَّ : غاب .

فخفض هذا الحديث المشوق من حدة سليمان ، وبعث الى نفسه كثيراً من التلهف والاستعجال ، فاستحث سليمان آنذاك الهدهد أن يأتي بخبره ، وأن يُدْلي بحجته وعذره . فقال الهدهد : وجدت فى أرض سبأ امرأة تملكهم ، وقد أوتيتْ من كل شيء ولها عرش عظيم ، إلا أن الشيطان قد استبطنهم ، وخالط منهم اللحم والدم ، والمسامع والأطراف ، فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ... وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، فهالني أمرها وروّعني شأنها ، وما كان أجدرهم ، وأولى بهم ــ وهم أولو القوة والجد ــ أن يسجدوا لله الذي يعلم ما تُكِن الجوانح ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

دُهِش سليمان لهذا الأمر العجيب ، وقد رأى ألا يفجع الهدهد في خبره ، وألا يردّ عليه قوله ، بل قال له : سننظر في نبئك ، ونتحقق أمر صدقك من كذبك . وإذا كان الأمر كما وصفتَ ، والحق كما صورتَ ، فهذا كتابي ، إذهب به فألْقه إليهم ، ثم تنتحَّ الى مكان تنتظر رأيهم ، وترتقب جوابهم .

حمل الهدهد الكتاب ، ثم سار الى بلقيس ، فألفاها بقصرها في مأرب ، فطرح الكتاب أمامها ، فتلقَّفته وقرأته ، فإذا فيه : (إنه من سُليمان وإنه بِسْم الله ِالرّحمٰنِ الرحيم : ألا تَعلُوا عَليّ وأتوني مسلمِينَ) .

فجمعت الملكة وزراءها وأمراءها ، وأكابر دَولتها الى مشورتها ، لتطيِّب نفوسهم ، لاعتدادها بهم ورُكونها إليهم ، ولكي تعتصم بحكمهم ، وتستظهر برأيهم . فقالوا : نحن أبناء حرب وجِلاد ، لا أهل رأي وسداد ، وقد تركنا أمورنا لتدبيرك وشؤوننا لتفكيرك ، فانظري ماذا تأمرين ، نكن طوْعَ بنانك ، ورَهْن كلامك .

لمحت الملكة في كلام رجالها ميلاً الى الحرب والمدافعة ، فزيّفت كلامهم ، وخطّأت رأيهم ، وأبانت لهم أن الصلح خير ، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة أن يبدءوا بالتي هي خير لهم وأحسن ، فقالت : إن الملوك إذا غلبوا قرية ، ودخلوها عَنوة خَربوها : فأبادوا حضارتها ، وجعلوا أعزتها أذلة ، وتحكموا في الرقاب ، واشتطوا في الاستبداد ... ذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام ، وتوالت الأزمان . وإني مرسلة الى سليمان بهدية ، فيها من

كل غال وثمين ، ونفيس وكريم ، أصانعه بها على مُلكي ، وأتبين بها سبيله ، وأتعرف منها نهجه .

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم . فانتقل الرسل بالهدايا وأقبل الهدهد الى سليمان يبثُه الخبر . فاتخذ سليمان للأمر عُدته ، وقدم لما بعده أهبته ، لذلك أمر الجن فزينوا له بناء عجيباً ، وصرحاً مشيداً ، يهزُّ الأفئدة ، ويبهر الأعين ، ويدهش القلوب .

فلما دنا القوم نظروا فبهتوا ، وأقبل عليهم سليمان بوجه طلْق ، يرحّب بقدومهم ويتهلل للقائهم . ثم بدأ يستشفُّ غرَضهم ، ويتعرف رأيهم ، فقال : ما وراءكم ؟ فتقدّموا بما حملوا من هدايا ونفائس ، يبتغون بها رضاً وقبولاً من النبي الكريم . فتعفف سليمان وتلطف ، وقال للرسول : ارجع إليهم بهديتهم ، فإن الله أعطاني الرزق السخيّ ، والعيش الرضي ، ومدّ لي أسباب النبوّة والملك ، وأتاني ما لم يؤتِ أحداً من العالمين . وكيف يرضى مثلي أن يَمُدَّ بمال يصانع به ، أو كيف يلهيه عن نشر دعوته ملْءُ الأرض ذهباً ! إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فأنتم بهديتكم تفرحون . ارجع أيها الرسول إليهم ، فلنأتينَّهم بجنود لا قِبَل لهم بها ، ولا قدرة على احتمالها ، ولنخرجنهم من سبأ أذلة ، ذاهباً عنهم العزُّ والملك والسلطان .

ذهب الرسلُ فأخبروا بلقيس بما رأوا وسمعوا ، فقالت : ليس لنا بدٌّ من السمع والطاعة ، ولنبادر الى إجابته ، ونسارع لقبول دعوته .

فلما سمع سليمان بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخّر له من الجان : أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مُسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن ينقضيَ مجلسُ حكمك ، فتقوم من مقامك ، وإني لذو قوة على إحضاره ، وأمينٌ على ما فيه . قال الذي أوتي العلم والحكمة : أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طَرْفُك[1] .

أراد سليمان عرش بلقيس عنده فكان ، فقال : هذا من فضل ربي عليّ ، وتلك

---

(١) الطرف : العين .

نعمة من نعمه إليّ ، ليبلوَني[1] أأشكر أم أكفر . ومَنْ حسنتْ النعمة لديه ، وصادفت من قلبهِ مكاناً طهرتْ حواشيه ، وسكنت نَوازيه ، فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه ، لأن مرجع الشكر إليه وأما من كفر بنعمة ربه ، وخبُثت سريرة نفسه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا والآخرة ، والله غني عن العالمين . ثم قال سليمان لجنوده : نكّروا[2] لها عرشها ، وغيِّروا رُواءه لننظر : أتهتدي اليه أم تكون من الذين لا يهتدون .

فلما جاءت قيل : أهكذا عَرْشُك ! فاستبعدت أن يكون عرشَها ، وقد خلّفته في أرض سبأ ، ولكنها رأت معالمه ، وتبينت آياته ومحاسنه ، فدهشت لذلك الأمر الغريب ، وقالت : كأنه هو، ووقفت مشتتة الفِكر ، حائرة القلب ، والهة الفؤاد .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض ، ثم دعا ملكة سبأ اليه . فلما رأته حسبته لجّة ، فكشفت عن ساقيها ، قال : إنه صرح ممرَّدٌ[3] من قوارير . فانكشف حجابُ الغفلة عنها ، وقالت : ربِّ إني ملتُ حيناً عن عبادتك ، وضللت حَرْساً[4] من الزمن رحمتك ، فظلمت نفسي ، وحبستُها عن نورك ورحمتك ، والآن قد أسلمت مع سليمان ، خالصة لك ، متوجهة الى طاعتك وأنت أرحم الراحمين .

حكمة سليمان (*)

هذا داود عليه السلام قد استوى ملكاً على عرش بني إسرائيل ، يحكم فيما شَجَر بينهم ، ويصرِّف أمورهم ، ويرعى وحدتهم ومعاشهم ، وهم يغدون إليه يقصون قصصهم ، ويبسطون خصومتهم ، ويُدْلون بحججهم ، وهو يفصل في كل ذلك بالعدل والقِسطاس .

وهذا ابنه سليمان لما يكتمل ، فهو في الحادية عشرة من عمره ، ولكن أباه قد أصبح

---

(١) ليبلوني : ليختبرني .

(٢) نكره : غيره الى مجهول .

(٣) ممرد : مطول أو مملس .

(٤) حرساً : دهراً

(*) الأنبياء : آية ٨٩ وما بعدها .

شيخاً همّاً ، أوشكت شعوب أن تَخترم أجله ، فهو دائب التفكير في أمر قومه ، مهتم بمن تكون له الولاية من بعده ، يرى أبناءه من حوله ، وسليمان — وإن كان صبياً — إلا أنه يفضلهم علماً وحكمة : قد نضجت شمائله ، واكتملت بوادره ، يصرّف الأمور تصريف الناقد الحازم ، البصير النظّار[1] .

جرت سنةُ داود على أن يحضر خصومته ابنه سليمان ، حتى تزداد قوته ، ويَستحصِف[2] رأيه ، فكان سليمان ملازماً لأبيه في مجلسه ، حتى يكون له من آرائه نور يمشي به ، ودستور يسير عليه في مشكلات الملك ودقائق التدبير .

وفي مجلس من مجالس القضاء جلس الملكُ داود ، وجلس الى جانبه ابنه سليمان ، فأتى خصمان ، قال أحدهما : إن زرعاً له قد آتى ثمره ، ودنت قطوفه ، وصار بهجة الناظر ، وعتاد الزارع ، انتشرت فيه غنم خصمه ، ولم يردّها رادّ ، أو يُحكِم وثاقها راعٍ ، بل سامت ، وانسابت في الزرع ليلاً ، فأهلكته وأبادته ، حتى صار أثراً بعد عين .

قال صاحب الزرع ما قال : ولم يدفعه صاحب الغنم بحجة ولا دليل ، فلزمته الخصومة ، وحقّت عليه كلمة القضاء .

حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصةً له ، كِفاء زرعه ، وجزاء إهمال أصحابها الذين تركوها ، فنَفشَتْ[3] في الزرع بالليل . ولكن الصبي سليمان — وقد آتاه الله علماً وحكمة ، وأوقفه على دقيقات هذه الخصومة ، وجمّله بالرأي فيها تهيئة منه ليتولى ذلك الملك العريض — انبرى في مجلسه ؛ وفكّ عقال صَمته ، وانفلتت الى القوم حجته ، غيرُ هذا أرْفَق ، ودون هذا أوفق .

فدُهش القوم لجراءة الغلام ، وانتظروا صامتين ما وراءه ، فقال : تدفع الغنم الى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها ، وتسلّم الأرض الى أصحاب الغنم يقومون على زراعتها ، حتى تعود كما كانت ، ثم يترادّان ، فيأخذ كلٌّ ما كان تحت يمينه ؛ وبذلك

(١) النظار : المعمن النظر في الأمور .

(٢) استحصف رأيه : استحكم .

(٣) نفشت الغنم : رعت ليلاً بلا راع .

لا يكون هناك غُنْم ولا غرْم ؛ فهذا أقرب الى العدل ، وأصح في الحكم ، وأولى في القضاء .

كان هذا مبدأ لظهور أمر النبي سليمان ، الذي كان خير خلَف لأ بيه .

سليمان على عرش أبيه (*)

داود يهيء ابنه سليمان ، ليكون خليفةً من بعده مع ما هو عليه من حداثة السن وغضاضة الإهاب . ولعله قد أخِذ بأبهة العرش ، وازدهى بعزته ، فخالط قلبَه الفخر ، وامتدّ أمله الى التعليق بغرض من أغراض الحياة . وذلك — وإن يكن غَرَزيًّا في بني الناس — إلا أنه كثير على مَن مُنح هبة النبوة ، واصطفاه الله لهداية العالمين . وهذا ابنٌ آخر لداود : هو أبشالوم قوي عتيد ، قد استوى ساقه ، وعرّك تجارب الدهر ، وعرف دخائل الأمور ، ومع ذلك فهو مُقْصى عن المُلك ، مبعد عن الخلافة والسلطان .

وذلك تدبير لا يرضي أبشالوم ، ولا يطمئن إليه : فهو لذلك سيشق عصا الطاعة خارجاً على أبيه وأخيه ، وسيكافحُ ويناضل في سبيل هذا الملك ، مهما يكلفه ذلك من عزيز .

استمر أبشالوم ردَحاً من الزمن يتقرب الى قومه اليهود ، ويغمرهم بعطفه ، ويقضي بينهم ، ويصلح أمورهم ، ويجمع شملهم حوله . وذلك انتظاراً لأمر يدبره وعمل يُبيِّته ، حتى لقد غالى في أمره فكان يقف بباب أبيه الملك يصدّ عنه كل صاحب حاجة ، ليقضيَها له بنفسه ؛ ليكون له على كل إسرائيلي منة ويد ، وليعرّفهم أنه صاحب حوْل وطَول ، حتى يكونوا إليه نازعين ولرأيه خاضعين .

وبعد أن أعدّ أبشالوم عُدّته ، ودبر مكيدته ، واطمأن الى أنه استرق قلوب اليهود ، واستولى على زمامهم — بعد ذلك استأذن أباه داود في أن يخرج الى « جدون »[1] ليُوفي بنذرٍ نذره هناك . ثم أرسل جواسيسه في أسباط بني إسرائيل قائلاً : إذا سمعتم بُوقاً يُنذر

(*) سورة ص : ٣١ وما بعدها .

(١) جدون : بلد .

بجمعكم فانفروا إليّ وأعلنوا الملك لي ،فذلك خير لكم ،وأوفى لحقوقكم وأمكن لسلطانكم .

ثار الشعب ، واشتدّت الفتنة ، وتزايد الصَّخب ، وهبت على عاصمتهم ريح هَوْجاء تُوشك أن تأتي على الأخضر واليابس .

علم داود بالخبر ، فكان شديداً ، إلا أنه ربط جأشه ، وملك نفسه ، ثم قال لمن حوله : هيّا بنا نهرُب ، لأنه ليس لنا نجاة من بطش أبشالوم . ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن وصعد داود الى جبل الزيتون باكياً حافياً هو والذين معه .

وكان نَفرٌ قد شمتوا بداود ، فتألبوا عليه يسبّونه ، ويؤلمونه بقوارس الكلم ، فهمّ بهم خلصاؤه إلا أنه منعهم في ألم وحسرة قائلاً : إذا كان ابني يطلبني فما أحرى غيره بذلك !

ثم تقدم داود الى الله في ضراعة وذلة : أن ينجيه مما حاق به ، وأن يكشف عنه البلاءَ المحيط .

دخل أبشالوم بعد مخرج أبيه المطرود الى العاصمة وامتلك نواصي الأمور .

ثم أرسل داود قوّاده ، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالروية والحكمة ، وأن يحقنوا دم ابنه أبشالوم ما استطاعوا الى ذلك من سبيل . إلا أن القدر قد دبر غير ما اشتهى الوالد الرحيم ، فقد دخل القوّاد الى أبشالوم ولم يروا إلا قتله ، فسكنت الفتنة ، واستراح الناس .

ورجع المُلك الى داود ومن بعده لابنه سليمان .

قرّ سليمان في ملكه ، ووهبه ربه ملكاً عريضاً ، وجاهاً وسيعاً ، وسخّر له الريح تجري بأمره ، وتسير بمشيئته ورأيه ، وعلمه منطق الطير ، فكان يتفاهم بأصواتها ، ينتفع بمواهبها ، ويطمئن الى أخبارها .

وأسال الله له عيناً مُصْطهرة ، تقذف النحاس من باطن الأرض ، فيقبل عليه صنّاعه من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير ، ومن الجن من يعملُ له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجِفانٍ كالجوابي[1] وقدور راسياتٍ .

*

(١) الجوابي : الحياض الكبار .

ورث سليمان داود في نبوّته[1] وملكه، وآتاه الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمه منطق الطير، وسخر له الشياطين، وأطلق بأمره الريح، فكان يعرف تخاطُبَ الطير بلغاتها، ويعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

ولقد ركب نبي الله الملك يوماً في حَشد عظيم من الإنس والجن والطير، حتى نزل أرضاً بَراحاً، فأتى على وادي النمل. فَبصُرت به على بُعد نملة من النمال، فارتاعت لذلك الحشد، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم، فأهابت بهم أن ادخلوا مساكِنكم حتى لا تذهبوا ضحية سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

سمع سليمان قولها، وعرف مرادها في ندائها، فتبسم ضاحكاً لقولها، سروراً بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب، وإعجاباً بما تجلّى في قول النملة من شعور وإدراك، لأنها أيقنت أنه نبي، والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون.

طلب سليمان من ربه أن يقيّضه لشكره على ما أنعم عليه من عطية، وما خصه به من مزية، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات، فيهيىء له من أمره رشداً، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين.

قضاء الله في بني إسرائيل (*)

اسْتَشرى[2] الفساد في طبيعة اليهود، وتهافتُوا في حَمأة الضلال، وفشا بينهم العِصيان، واضطرب حبلُ الأمان، ولم تعد للرحمة مكان في نفوسهم، ولا لهيبة الأنبياء نصيبٌ من قلوبهم. أما أحبارُهم وقُرّاؤهم فقد أنكروا حَق الله، وأما ولاتهم فقد كذبوا الرسل، ونَبَذوا وراء ظهورهم الكتاب، كتاب الله فاستحقوا من الله أن يُذيقهم العذاب، وأن يوقع عليهم شديد العقاب، ولكنه ــ سبحانه وتعالى ــ أعدَلُ من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يرسل إليهم النذير، أو يعاقب طغاة ظالمين قبل أن يبيّن لهم وجه الطريق.

وكان «أرمياء» نبيّاً من أنبيائهم، ورجلاً من صميم بيوتهم، فوقف بينهم يصيح

---

(١) النبوة لا تورث، ولكن الله يتفضّل بها على من يشاء.

(*) سورة المائدة: ٧٤ و٧٦، وآل عمران ١٣١.

(٢) استشرى: استطار.

بكلمة الحق ، ويَصدع[1] بأمر الله : أي قومي وأبناء عشيرتي ، لقد طال فسادكم وعمّ داؤكم ، وسخط عليكم ربكم . هذا كتاب الله وراءكم قد نبذتموه ، وذلك حقه فيكم قد جحدتموه ، وقد علمتم نِعَمَه عليكم سابغة ، وأبرَاد خَيره فوقكم ضافية ، وآلاءَه عليكم ظاهرة وباطنة .. قد مكن لكم في أرضه وأنزلكم الى حمى بيته ، وفضلكم على العالمين في زمانكم .

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة ، وفي رحمته بكم عبرة . هذا سنحاريب[2] نزح اليكم من بابل في عَسفه[3] وبطشه ، وفي جنده وحزبه ، وفي قوته وصبره ، حاول أن يغزوَكم في عُقر دارِكم ، وأن يتغلغل في صميم بلادكم ، ولو خُلي بينه وبين ما يريد لأفني عددكم . وأذهب جَمْعكم ، لكنّ الله رحمكم بنبيكم شعيا ، فوقف الى الله داعياً مُتَحنّثاً ، وإليه راغباً متطلباً : أن يصْرِف عنكم السوء ، ويدفَع الأذى ، ويردّ ما يراد بكم من كيد ، فاستجاب الله دعوته ، وتقبّل كلمته ، ورجع عدوكم مذموماً مدْحوراً ، يتعثّر في ثوب الخِــزْي ، ويتسربلُ سربْال الهوان ، يعد أن هلك جندُه ، ودبّت إليهم الأمراض وتخوّنتهم[4] الأسقام .

وماذا كان جزاء شَعيا فيكم[5] ؟ وماذا كان مقامه في نفوسكم ؟ لو كان في قوم غيركم يَرْعَوْن الجميل ، ويحفظون يد الكريم ـــ لظل دهرَه بينهم مرعيّ الجانب مسموع الكلام . ولكن يا حسرة عليكم ، ويا بؤساً عليكم لصنيعكم ! لقد أهَنتُموه وخذلتموه ، ثم قتلتموه وذبحتموه ، فأرقتم منه دماً ذكيّاً ، وأهنتم كريماً وأبيّاً !! وصعدت روحُه طاهرة وقدّسة ، مبرورة مكرمة ، تشكو الجوْر والطغيان ، وتبرأ الى الله من العقوق والكفران .

ثم ما زلتم أنتم هؤلاء : تَظاهرون بالإثم ، وتواصوْن بالعدوان ، ولا تتناهون عن منكر تفعلون كأن التوراة لم تُهَذِّب نفوسكم ، وكأن الرسل تنادي في غير دياركم .

---

(١) يقال صدع بالأمر : أصاب موضعه ، جاهر به .

(٢) سنحاريب : كان ملك بابل ، أراد أن يغزو بني إسرائيل ولكن الطاعون أباد جيشه .

(٣) العسف : الظلم والجور .

(٤) شعيا بن أموص : كان نبياً من أنبياء اليهود .

(٥) تخونتهم : أضعفتهم .

اسمعوها كلمةً صادقة ، وتلقوه إنذاراً حاسماً : لقد أوحى الله إليّ أن أدعوكم الى الحق وأنذركم العذاب ، والعقاب . لئن لم تُفيقوا من سَكْرَتِكم ، وتزجُروا غرابَ جهلكم ، وترجعوا الى كتابكم تَستَمْسِكون بعروته ، وتحتكمون الى آياته ، وتعودوا قوماً صالحين ، ليبعثنّ عليكم عبيداً أشدّاء وجنوداً أقوياء ، بأسهم شديد ، وعزمُهم حديد ، لا تسكن الرحمة في نفوسهم ، ولا تعرف الرأفة سبيلَها الى قلوبهم ، يأخذون بناصيتكم ، ويُرْغِمون أنوفكم ، ثم يجوسون هذه الديار ، فإذا تلك القصور التي تَنعمون في ظلالها قد استحالت خراباً يباباً [1] ، وإذا تلك الآطامُ [2] المتراصة أصبحت شِعاباً [3] وحدائقكم التي ترونها ذات بهجة تُضحي عرّيسات [4] أسود ، وحقولُكم تلك التي تجنون ثمارها تمسي مرابض نمور وفهود ، والمعابد التي خلقها الله روحاً لقوبكم ، ومثابة لنفوسكم ، ليَنْتَهِكُنَّ حرماتها وليستبيحُنّ عَرَصاتها ... وهكذا تُصْبحون حَرماً مستباحاً ، وكلأ مباحاً ، وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل .

وقد نصحتُ لكم ما وسعني النصح ، وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح وأنتم بعد ذلك مُفوضّون في الطريق التي تسلكون ، وفي النهج الذي تنتهجون .

قال كبيرهم : أهذا الذي جمعت إليه حشدنا ، ودعوت إليه لفيفنا ! لقد كذبت على الله ، وأعظمت الفِرْية عليه ! أكان الله الذي اختارنا من بين خَلقِه ، واصطفانا لتلقي كتابه أن يُذهب مُلْكنا على يدّ كفّار لا يعبدون إلا النار ولا تعنو جباههم إلا للأوثان ! أنما ترجمُ بالعيب ، وتتظنّى بالمنكر ، وتضرب في أودية الوهم والضلال .

قال أرميا : يا هؤلاء ، إنما يُرسلهم الله عليكم معذّبين ، ويرميكم بهم معاقبين ، كما يرسل الطاعون الجارف ، أو السيل العارم . وما الفرق بين أن تصيبكم دُوَيهيَةٌ تقطع دابركم أو يظهر عليكم ملكٌ كافر يُذلُّ ناصيتكم ، ويمزّق أوصالكم ؟ وشهد الله أني نصحتكم وما غششتُكم ، فانظروا لأنفسكم وتخيّروا لأ بدانكم . قالوا : جادَلْتَنا

---

(١) اليباب : الخراب .

(٢) الآطام : الحصون .

(٣) الشعب : الطريق .

(٤) العريسة : بيت الأسد .

فأكثرت الجدال، وكأنك رأيت رُقعة الحلم وسيعة فأغريت بالكلام، وطائر الصدْر ساكناً فبلغت في الملام، وما نرى لك إلا أن تُغَلّ يداك وتصفّد رجلاك، وتُرْمى في سجن عميق، أو تنفى الى مكان سحيق. وطلع الصباح وإذا بأرميا مُلْقى في سجنه، مُصَفّداً مغلولاً!

وتلفّتوا الى الشرق يوماً، فإذا بالغبار يَعلو حتى يبلغ عنان السماء[1]، وينعقد حتى يحجبَ الضياء، ويتكاثفَ حتى يملأ الأرض حُلوكة وظلاماً، ثم ينقشع هذا الغبار، ويفتضح عنِ أشْوسْ[2] مقدام، يقطع جيشاً كقِطع الغمام، ما فيهم إلا حَمْس[3] جمع الفؤاد.

كان هذا بختنصر زحف عليهم من بابل، يريد بهم الشرّ، ويقصِدُ لهم الهلاك، وهو نِـقْمةُ الله أرسلها، وغضْبَتُه رمَى بها، فما الذي يستطيع صدَّه؟ ومن الذي يقدر أن يقف جيشه؟ وتساءلوا: أهذا العذاب الذي خوَّفنا به أرميا؟ إن كان هو فقد حَلَّت الداهية ووقعت الكارثة.

ولم يمهلهم بختنصر حتى يتمُّوا حَدْسهم، ويعرفوا ما وراء زَعيمهم، بل انقضّ على المدينة كاسراً، مخرّباً هدّاماً، جريئاً مِقْداماً، لم يصادف منزلاً إلا قوّضه، ولا صرحاً إلا هدمه، ولا طريقاً إلا أخفى رُسومَه، ولا قصراً إلا محا أعلامه.

وبيت المقدس. انتهك حُرُماتِه، وأسقط شُرُفاتِه، وعطل العبادة في جنباته. أما القوم فقد حاطَهُم قتلاً وذبحاً، وأسراً وسبياً، ثم فرّقهم في الأرض بَدَداً، وترك ديارهم خراباً يباباً.

ومرّت أعوام، وتصرمت أجيال، واشتعبت بختنصر شَعوب[4]، وقُطِعت أسبابه من الحياة، وتولىٰ عرش بابل ملك خافِض الجناح، سهل القَادة، لدْن العُود. ورأى هذا بني إسرائيل يرْسفون في أصفاد الذل، ويَغدون ويروحون تحت نِير[5] الهوان، فسأل: ما

---

(١) عنان السماء: ما اعترض من أقطارها.
(٢) الأشوس: الجريء.
(٣) حمس: شديد القتال.
(٤) شعوب: الميت.
(٥) النير (في الأصل): الخشبة المعلقة في عنق الثورين.

خطبهم ؟ وما أسباب هوانهم ؟ قالوا : إنهم أسلاف يعقوب ، وأحفاد داود ، وكانوا يُقيمون في الشام ، وبلادهم مَشفوهة[1] الموارد ، عَذْبة المناهل ، وإن سَلفَك قد أذل أبيَّهم ، وأرغم حَميْهم ، وفرّقهم في البلاد طرائق ، وشرَّدهم في الآفاق حزائق[2] وضرب عليهم ما تراه من ذل وهوان .

فوجدت هذه الكليمات منه قلباً رحيماً ، وصادفت عنده طبعاً كريماً ، فنادى فيهم أن اجمعُوا شملَكم ، ولمُّوا شتاتكم ! وضموا نشركم[3] وثوبوا الى دياركم ، وعودوا الى ما كنتم فيه من شمل جميع ، ونسج متلاحم .

ورجعوا الى ديارهم ، وردّ الله الكَرَّة عليهم ، وأمدّهم بالأموال والبنين ، وأخصب لهم الزرع ، ونما الضرع ، واطّردت لهم أسباب السعادة والوئام .

وكان من حقهم أن يَعْتبروا بما كان ، وأن يقابلوا النعمة بالشكران ، ولكن أنى للنفوس التي طُبعت على الشر أن تسترْوح الخير ، وتميل الى الصلاح ! وأنى لسلائل القوم الذين تمالئوا على يوسف ، وآذوا موسى من بَعْدِه ، أن تأنس نفوسهم الى الاطمئنان ، أو تنسى العدوان !! فإنهم ما عتموا أن رجعوا أدراجهم الى الشر ، وأخذوا يَحطِبون في حبال الظلم والبغي ، حتى إذا قام فيهم زكريا ويحيي نبيين رحيمين ، ورسولين كريمين ، سفكوا دمهما ، كأن بنفوسهم عَطشاً الى الدماء ، وكأن وتراً[4] بينهم وبين الأنبياء . وعادوا الى الشر والعدوان ، وعاد الله بهم الى المكر والانتقام ، فسلّط عليهم جُودَرْز كما سلط من قبلهم بختنصر ؛ وأعاد الكَرة عليهم مِن ذهاب ملكهم ، وتخريب معابدهم . وهكذا مُزقوا كلّ ممزق ، وتفرّقوا تحت كل كوكب ، وضرب الله عليهم أبَد الدهر الذِّلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، (ذلك بأنهم كانوا يَكفرون بآياتِ اللهِ ويَقْتلونَ الأنبياء بِغيْر حقّ ، ذلك بما عَصَوا وكانُوا يَعْتَدونَ) .

---

(١) ماء مشفوه : كثرت عليه الأيدي .

(٢) الحزائق : جمع حزيقة ، وهي الجماعة .

(٣) النشر : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

(٤) الوتر : الثأر .

عزير (*)

دخل حديقته ؛ فإذا هي مخضرَّة العود ، وارفة الظلال ، دانية القُطوف تَصْدح فيها البلابل ، وتُطرِّب الأطيار ، فقضى ساعتَه متملّياً[1] بما فيها من جَلال ، مستمتعاً بما تحتويه من شِيات[2] الجمال ، ثم ملأ سَلة من العنب ، وأخرى من التين ، واصطحب مقداراً من الخبز ، وامتطى حمارَه وأخذ طريقه الى المنزل .

وبينما هو يفكر في سر الكون ، وعظمة الوجود ، ضلّ به السير ، واضطرب أمامه الطريق ، واشتبهت معالمُ الجهات ، وإذا هو في قرية خَربة تُحدث عن قوم فرقتهم عُدَواء الدار[3] واحتبلتهم حبول المنايا : رسوم دراسة ، وأطلال عافية ، وعظام نخرة ، وأجساد بالية .

فنزل عن حماره ، وألقى بالسلّتين الى جواره ، وربط الحمار ، وأسند ظهره الى جدار حتى يجمع نفسه ، ويسترجع قوّته وفكرَه . ثم طاب له المكان ، واستراح الى النسيم ، وأطلق العنان لعقله يفكر في هذه الأموات وكيف تنشر ، وتلك الأجساد وأنى[4] تبعث ؛ بعد أن أصبحت أديماً للأرض ، وتراباً يجود عليها كل أسحم[5] هطال . ثم استحال هذا التفكير الى سهوم ووجوم ، ثم أغمِضت عيناه ؛ وتخاذلت ركبتاه ، ودخل في نوم مشتمل ؛ وكأنه لحق بمن في القبور .

ومرّت مائة عام مُجرَّمات[6] ، وهَرمت أطفال ، وفنيت أعمار ، وامّحت شُعوب ، وتقوّضت صروح ؛ وعُزير مُلقى في مكانه جسداً بلا روح ! وعظامه ممزقة الأوصال ،

(*) سورة البقرة ٢٥٩ ، سورة التوبة ٣٠ .

(١) متملياً : متمتعاً .

(٢) شيات : علامات .

(٣) عدواء الدار : بعدها

(٤) أنى : كيف .

(٥) أسحم : سحاب .

(٦) مجرمات : كاملات .

مهشَّمة المفاصل ؛ حتى أذن الله أن يفصّل في قضية حارَ الناس في أمرها ، واستعجم عليهم طريقُها ، واختلفوا في تقريرها بحكم يلمسونه بأيديهم ، أو يقع تحت حِسهم وأبصارهم ، فجمع عظامه ، وسوّى خَلقه ، ونفخ فيه من رُوحه ، فإذا هو قائم مكتمل الخلق ، شديد البَضعة[1] وإذا هو عُزير يقوم كأنه منتَبِهٌ من نومه ، يبحث عن حماره ، ويفتش عن طعامه وشرابه !

وجاء الملكُ يسأله : أتظن كم لبثت في رَقْدتك يا عزير ؟ — ولم يُروِّ ولم يفكر ؛ فقال : لبثتُ يوماً أو بعض يوم ! قال : بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأحداثَ ، ويجودك الطَل[2] ، وتهْضِب[3] عليك السماء ، وتمر عليك السافيات الذاريات[4] ومع هذه السنين الطويلة والأزمان المتعاقبة ، فإن طعامَك ما زال سليماً ، وشرابك لم يتغيَّر ، ولكن انظر الى حمارك تراه مُفَرقَ العظام ، متفصِّي[5] الأعصاب ، والله — جل شأنه — سَيُريك هذه العظام ، كيف ينشرها ويحييها ، ويبعث الحياة فيها ، لتطمئن نفسك بالبعث ، ويزداد إيمانك بيوم المعَاد ، وليجعلَكَ آيةً للناس تخرُجهم من حنادِس[6] الشك ، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذاهب الإيمان .

وتلفت عزير ، فإذا حماره بأشراطه[7] وسماته : قائم على أربع ، تجري فيه شرايين الحياة ! فقال : (أعلَمُ أنّ الله على كل شيء قدير) .

وأخذ حماره ، وشرع يتعرف الطريقَ الى بيته ، وقد تبدلت المعالم ، وتحولت المنازل . وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر في حُلم بعيد .. حتى انتهى الى منزله ، فإذا عجوز فانية ذَوَى عودُها ، ووهَن عمودها ، ولكنها لا تزال باقية على تناسخ المَلَوين[8] ، وتعاقب

---

(١) البضعة : القطعة من اللحم .
(٢) الطل : المطر الخفيف .
(٣) تهضب : تمطر .
(٤) السافيات الذاريات : الرياح .
(٥) المتفصي : المنفصل .
(٦) الحنادس : الظلمات .
(٧) بأشراطه : بعلاماته .
(٨) الملوان : الليل والنهار ، وكذلك الجديدان .

الجديدين ، وقد عَشي بصرها . كانت هذه أمَتهُ التي خلّفها في ربيع حياتها ، وريّق[1] شبابها .

سألها : أهذا منزل عُزير؟ قالت : نعم ، هذا منزل عزير . وخَنقتها العَبرة ثم جادت عيناها بدمع هَتُون ، وقالت : لقد ذهب عُزير ، ونسيه الناسُ ، وما رأيت من حِقبة بعيدة مَنْ ذكر عُزيراً إلا الآن !

قال : أنا عُزير ، أماتني الله مائة عام ، وها قد بعثني الى الوجود ، وردّني الى الحياة . فاضطرب أمرُ العجوز ، وأنكرت عليه باديَ الرأي دَعْواه ، ثم قالت : إن عُزيراً كان رجلاً صالحاً ، مستجاب الدعوة ، ما تطلّب أمراً إلا تقَبّل منه الله ، ولا تشفّع له في مريض إلا شفاه ، فادعُ الله أن يُصحّ جسمي ويرد بصري . فدعا الله ، فاذا هي ذاتُ بصر حديد ، ووجه وضيء ! فقبّلت يديه ورجليه ، ثم ذهبت من ساعتها الى القوم من بني إسرائيل ، وفيهم أبناؤه وأحفاده ، منهم من بلغ الثمانين ، ومنهم من أخذ بعنُق الخمسين ، وفيهم أترابه ، وقد برى الدهر عظامهم ، وأبلى أبراد شبابهم ، وردهم[2] على حافرتهم . وصاحت : إن عُزيراً الذي فقدتموه منذ مائة عام قد ردّه الله رجلاً غضّ الإهاب ، يَخطِر في مطارف الشباب .

وطلع عليهم عُزير رجلاً وافر المُنه ، مستوي الخلْق ، شديد الأسْر[3] ، فأنكروا صِفَته ، وأعظموا فِرْيته[4] ، ولكنهم أرادوا أن يَفتنوه[5] بالرأي و ويمتحنوه بالبرهان ، قال أحد أبنائه : إن لأبي شامةً في كتفه كان يتميز بها ، ويُعرف بصفتها . وكشفوا عن كتفه ، فإذا العلامة كما عرفها أبناؤه ، وكما سمع عنها أحفادُه . ولكنهم أرادوا أن تطمئن

---

(١) ريق الشباب : أوله

(٢) ردهم على حافرتهم ، ويقال : رجع على حافرته ، أي في الطريق الذي جاء منه ، أي رده بعد القوة الى الضعف

(٣) الأسر : الخلق .

(٤) الفريه : أشد الكذب .

(٥) يفتنوه : يمتحنوه .

قلوبهم ، وتستيقن نفوسهم ، وتمّحي خيوط الشك من بين جوانحهم ، فقال كبير منهم : لقد حُدّثنا أنه منذ زحف بختنصر على بيت المقدس ، ومن وقت أن أحرَق التوراة ، لم يكن على الأرض مَن يحفظ التوراة إلا قليلاً ، ومنهم عُزير ، فإن كنت عُزيراً فاتلُ علينا ما كنت تحفظه منها . فقرأها لهم ولم يترك نصّاً ، ولم يحرف جزءاً ، ولم يَخرم لفظاً .

عند ذلك صافحوه مصدقين ، وأقبلوا عليه مباركين ، ولكنهم ــ لشقوتهم ــ ما ازدادوا إيماناً ، بل ازدادوا كفراً ، وقالوا : (عُزَيْرٌ ابْنُ الله)[1] .

صراع بين الحق والباطل (*)

أخَوَان من بني إسرائيل تحدّرا عن رجل واحد ، وأرضعتهما أم واحدة ، ولكنهما تبايَنا في طبعهما كما تتباين النَّبْتة والنبتة وأصلها واحد ، والزهرة والزهرة وكُمُّها متشابه ، فيهوذا نشأ مؤمناً بربه ، عارفاً بمقدار نفسه ، عفيفاً كريماً ، وقُوراً حليماً ، أعرض عن الدنيا وخُدَعها ، وغض طَرْفه عن متاعها وزخرفها ، وقُطرُوس نشأ كافراً جاحداً ، شحيحاً بخيلاً ، كزّ[2] اليدين ، غليظ الكبد ، جافي الطبع .

وجمَعهما أبوهما على ثروة ضافية ، ونعمة وافية ، حتى إذا عَلِقَه حِمامُه ، وطُويت من الحياة أيامه اقتسما المال والعَقَار ، وذهب كل منهما في إنفاقه مذهباً يُوائم طبعه ، وينسجم مع نحيزته وهواه .

أما يهوذا فقد توجه الى الله قائلاً : يا رب ، إني سأخرج من مالي في مَرضاتِك ، وسأبذله في طاعتك ، شكراً لنعمائك ، وطمعاً في جنتك ... وانطلقت كفّاه بالإنفاق ، فأعطى العافي[3] ، وفكّ العاني[4] ، وحمل الكَلّ[5] ، وبذل المعروف ، وأعان على نوائب

---

(١) ذكر الله لنا قصة العزير لنستيقن أن الذي أحياه سيحي الناس لأجل الحساب .

(*) الكهف : آية ٣٣ وما بعدها .

(٢) كزّ : ممسك بخيل .

(٣) العافي : القاصد والسائل .

(٤) العاني : الأسير .

(٥) الكل : اليتيم ، والثقيل لا خير فيه .

الدهر حتى رَقَّتْ حاشية حاله ، ونَفِدَ ماله أو كاد ، ولكن ظل دهرَه هادىء الضمير ، مُرتاح الفؤاد ، قانعاً بالكفاف ، راضياً بقليل الزاد .

أما قطروس فإنه ما كاد يتسلم ماله ، حتى احتواه ، ووضع دونه المفاتيح والأغلاق ، ثم حرم السائل ، وجَبَه القاصد ، وأصمَّ أذنيه عن أنّة الفقير ، وأغمض عينيه عن رؤية المسكين ، ثم ارْتَفق حائطين[1] أنْفَق عليهما أيام عُمْره ، وأراق فيهما ماءَ شبابه ، أنبتهما كرْماً فأوْرَقا وأثمرا ، وامتد عرشُهما ، وأوْرقَ ظِلهما ، ثم اتخذ بينهما طريقاً عبَّدها ومهّدها ، وأجرى بينهما الماء ، وحاطهما بالنخيل ، فكان رائيهما يَحْسَبُ أن جنة الخلد قد نزلت الى الأرض في أبْهى حُلَلِها وأنفس حُلاها : رَبْع خصيب ، وثمر قريب ، وورق نَضِر ، وماء خَصِر[2] ، وزهر ينفح ، ووُرْق تصدح ، حتى أضحتا نزهةَ السمع ، وفتنة البصر .

ثم بسط الله في رزقه ، وزاد في ماله ، وبارك في ثمره ، ورزقه بنين وأولاداً ، زادوا في مظاهر نعمته ، ورفاهية عيشته .

وتلك النعمة التي ظلّ يمرح في أبرادها ، ويتقلب على جنباتها كان خليقاً به أن يتدبر صانعها ومُجْريها ، ومانحها ومعطيها ، فيؤمن ويشكر ، ويُذْعن ويَحْمد . ولكن فريقاً من الناس تُطغيهم النعمة ، ويغشّي على بصائرهم النعيم ، ويظلون سادرين[3] في غلوائهم ، ممعنين في إغفالهم ، حتى يَقْرَعهم الدهرُ بنابه ، فإذا الغشاوة ترتفع ، والحُجُب تَتمزّق .

وكذلك كان قطروس ، وما ازداد على نعمة الله إلا كفراناً ، وما أثمرت عنده إلا طغياناً .

مرّ عليه أخوه في خُلْقانه[4] المرقّعة ، وأسماله البالية ، فاقتحمه بعينه ، وازدراه في نفسه ، ونال منه بقارص قوله :

---

(١) ارتفق : انتفع . والحائط : البستان .

(٢) خصر : بارد .

(٣) السادر : الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع . والغواء : شرة الشباب .

(٤) خلقان : جمع خلق ، وهو الثوب البالي .

أيـن مـالـك ونَـشَـبـك[1] ؟ أين فضّتك وذهَبك ؟ لشتّـان ما بيني وبينك ! أنت رقيق الحـال ممزّق السِّربال ، فاقد الأعوان ، قليل الإخوان ، وأما أنا فكما تراني : في بُـلَـهْـنِـيـة[2] عـيش وخـفْـضِ أيـام ، ولي مـالٌ وبـنون ، وخدَم وأعوان . تعال ، أدخل الى جَـنّتي ، تَـرَ الكروم المهدلة[3] ، والأعواد المخضرّة والمياه المتفجرة ، والظل الوارف ، والغُصْـنَ العاطف ، والثمـر الـداني الـقـطـوف . ثم انظر الى هذه الثمار .. إنها تربو في كل عام ، وتنتج وافراً في كل أوان ، هو خيرٌ دائم ما أظنه يَـنْـفَد وثوبٌ من النعمة ما أراه يَـبْـلَى .

أما الساعة التي تَـرْجُف دائماً بقيامها ، والبعثُ الذي ما برْحتَ تلهَجُ بوقوعه وضرورة حـصوله ؛ فما أحسبه قولاً مفهوماً ، أو سائغاً معقولاً ، على أنني لو جريت في عِنان فكرك ، وخـضـعـتُ لمفهوم قولك فإنني لا بدّ واجدٌ عند الله خيراً من هذه الجنة ، وأكرمَ من هذه الثمـار . ألا تـراه قد آثرني في دنياي بالخير ! فما يمنعُ عنده أن يؤثرني في آخرتي بما هو أكرم عنده ، وأحسن لديه .

قـال يهـوذا : إنـك لَـتـكـفُـر بـالله ، إذ تُـنـكـر عليه أن يبعثك ، أو يحيـيَـك بعد موتك فـيـحـاسِـبَـك ، أفمن خَـلق الإنسان من سُلالة من طين . ثم جعله نطفة في قرار مكين ، ثم أحـال الـنـطـفـةَ عَـلقة ، ثم صَـيّر العلقة مُضْـغَـة ، ثم جعل المضغة عظاماً ، ثم كسا العظام لحـماً ، ثم أصبح بعد ذلك إنساناً ، عجيب الأسرار ... أفمَـن مَـرّت أدوارُ حياته على هذا الـنـحو ، يعْجـزُ خالقُـه أن يبعثه من مَـرْقده ، أو ينشره بعد موته ؟ لا ، بل إن ذلك أهونُ علـيه ، وأقربُ لديه ، ولكن على قلبك غلاف ، وفي سمعك وقر[4] ، وعلى عقلك حجاب ، فاشتَبه عليك الأمرُ ، ونَـدّ[5] عنك الصواب .

ثم تُـعَـيّرني بالفقر ، وتكاثرني بالمال[6] ، وأنا في فقري أغنى منك في غناك ، فليست الـثـروة بمـا تُـحـرز مـن مـال ، أو تحويه من مستَغلات وعقار ، مما تشغل به دائماً نفسك ،

---

(١) النشب : المال الكثير .
(٢) بلهنية : سعة وترف .
(٣) المهدلة : المدلاة .
(٤) الوقر : الثقل في الأذن .
(٥) ندّ : غاب .
(٦) تكاثرني : تريد أن تغلبني بكثرة المال .

ويتعلق به أملك، بل الثروة إنما تقَدّر بقدر ما تزهد فيه من حاج أو تستغني عنه من متاع وزخرف . وإن تلك الجواهر التي تَفخرُ بها ، وتكاثرني على حسابها ، لا تعدُو أن تكون في نظري حصى يتألق ، أو آلاً[1] يلمع ، وذلك البستان المونق[2] المعجب ، لا يجاوز في تقديري عُشْباً يطلع في الأرض ينمو ويترعرع ، ثم يَيْبس ويصبح هشيماً[3] تذروه الرياح . وذلك النفر الذين تعتدُّ بهم ليسوا إلا أعواناً لك على الشر ، يُطغونك ويفتنونك .. أما أنا فحسبي بالله نصيراً ووكيلاً .

والنعمةُ كل النعمة عندي أن أجد الكفاف حاضراً ، والصحة فارهة ، وأن أكون آمناً في سِرْبي ، خارجاً من سلطان ما بيني وبين الناس . ولأن أجوع يوماً فأدعوا الله ، وأشبع يوماً فأحْمده وأشكره : خير لي من هذا المال الذي قد يُبطرني ويطغيني ، كم أبطرك وأطغاك . وعسى ربي — كِفاءً لما صبرت على قضائه ، وما أنفقت من مالي على فقرائه — أن يكون قد أعدّ لي جَنَّة خيراً من جنتك ، ونعيماً مقيماً خيراً من نعيمك .

أما جنّتاك هاتان فقد لا تأمن عليهما عواديَ العواصف ، أو تقلّب الأنواء[4] ، فإذا الأوراق جافة والكروم كعَصف[5] على الأرض مأكول . وهذا الماء النَّمير الذي يجري سَلْسَلاً بيهما ، فيبعث الحياة ، وينشر الموات ، قد يغور في أعماق الأرض فتتطلبه بكل حيلة ، وتحتال لاستنباطه بكل سبيل فإذا هو أعزُّ عليك من بَيْض الأنوق[6] .

وفرغ يهوذا من قوله ، ثم ترك اخاه يعجب ببستانه ، ويمرح بين أزهاره ونَوّاره .

وأصبح قطروس يوماً ، وذهب كعادته الى جنّتيه يستروح — كما اعتاد — النسيم

---

(١) الال : السراب .

(٢) المونق : الجميل .

(٣) الهشيم : اليابس المتكسر من النبات .

(٤) النوء : سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها

(٥) العصف : الورق الجاف .

(٦) الأنوق : طائر يخفي بيضه فلا يكاد يظفر به أحد .

ويتفيأ ظلال الكروم، فما راعه إلا أن رآهما أطلالاً بالية، ورسوماً عافية، ونبتاً مصوَّحاً[1] وعروشاً محطمة، وأعواداً ملقاة.

فجق حَــلقُه، وغُـصَّ بريقه، وتساقطت خوافيه وقوادمه، ثم ذلّت أخادعه[2] ولانَ بعد جماحه، ودان بعد طماحه، وأخذ يقلّب كفيه حسرة على ما أنفق، ويقول: (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أحدا).

أصحاب الجنة (*)

تنفس الصباح، وهبت نسائمه هينة ناعمة. وأقبل الشيخ[3] وئيد الخطو، مبهور[4] النفس، أحنت ظهره السنون، وألان قناته الإصباح والإمساء، ولم يكد حاجب الشمس يبدو حتى كان يدق بعصاه باب حديقته في ضرَوان[5].

وكانت حديقة الشيخ جنة دانية القطوف، فواحة الزهر، قد رقت حواشيها وتأنق واشيها، وجرى الماء في جداولها عذباً سلسالاً، وتنقل النسيم بين خمائلها بليلاً دانيا، وعلى بساطها نَشر الربيع حلله ومطارفه، وحاك أزهارَه وأنواره. وفيما وراء ذلك أشجار موقرة الثمار، وبقلٌ وأعناب وزرع ونخيل، صِنوان وغير صنوان، فغدت مُتعة الناظر، ونزهة الخاطر، واتخذها الناس مثابة وأمْنا، لهم تحت أشجارها ظلٌ ومَقِيل، وبين أفيائها سمَر وحديث.

ودار الشيخ في جنباتها، وتنقّل بين زرَابِيِّها وأنماطها، فنشق من شذا الأزاهير، وامتلأت عينه بداني الثمار، وأصغت أذناه الى تغريد البلابل وتطريب الأطيار، ثم ذهب

---

(١) مصوحاً: يابساً.

(٢) ذلت أخادعه: استكان.

(*) القلم: ١٧-٣٣.

(٣) ذكر ابن كثير أنه من بني إسرائيل.

(٤) البهر: تتابع النفس.

(٥) ضروان: قرية من قرى اليمن.

الى مُصلاّه فسجد شاكراً لله أنعمه، راغباً إليه أن يجنبه طغيان الغنى، وأن يُنئيه عن فتنة الدنيا ووسوسة الشيطان.

وتلك كانت عادة الشيخ مُصبَح[1] كل نهار، ثم يتعاقب الجديدان[2]، وتتوالى عشيات وأصائل، حتى يرى الجنة قد آتت أكلها وآذن حصادُها فيدعو البستانيّ وأعوانه، ويُعملون المناجل، ويقطفون الثمار: ثم يَفِدُ إليه جماعاتُ الفقراء على ما عوّدهم من كل عام، فيعطيهم نصيبهم وافراً: هذا يملأ مِكْتَله، وذاك يحمل في ثيابه، ولهم بعد ذلك ما أخطأه المِنجل، وما تركه الحاصد، وما تناثر بين الأشجار رزقاً حلالاً طيباً. وجرى على هذا في كل عام.

لم يُطق أبناء الشيخ صبراً: أن رأوا مال أبيهم موزعاً بين الفقراء، وبستانه مستباحاً للمساكين، وأنهم والعافين والسائلين سواء، بل ربما كان هؤلاء أحسن منهم حالاً، وأكثر بالجنة استمتاعاً.

قال قائل منهم: إنك يا أبي بما تنفق على الفقراء وتعطي، وما تخصهم به من بذْل ورِفْد لتَبْخَسُنا حقنا، وتضيّق علينا في رزقنا.

وقال غيرُه: وإنك يا أبت لو مَضيت في شأنك هذا فإنك سوف لا تُبْقي مالاً ولا نَشَبا[3]، وسوف لا تُخلف ضَرْعاً ولا ثمراً، وسنغدو بعدك فقراء نمدّ الأيدي ونتكفف الناس.

وهمّ ثالث بالكلام، فأشار اليه بالصمت، وأدار عينيه في وجوه الجميع وقال: ما أراكم إلا خاطئين في الوهم والتقدير، ما هذا المالُ الذي تريدون أن تتحكموا فيه وتستأثروا به! ليس المال مالي أو مالكم، وهذا البستان ليس في حوزتي أو حوزتكم، إنما هو مال الله مَكّنني فيه وآمنني عليه، على أن أنفقه في أكْرَم وجوهه وأنفعها

---

(١) مصبح النهار: صباح النهار.
(٢) الجديدان: الليل والنهار.
(٣) النشب: المال.

لخَلْقه، فللفقراء والمساكين حقُّهم، ولأبناء السبيل والعافين نصيبُهم، والطيور والبهائم طعامُها، وما فَضَل بعد ذلك فهو لي ولكم... ذلك ما فعلتُه وعَوّدتُه الفقراء وأنفذت فيه حكم الله، والمال بهذا يَزكو[1]، وعلى هذا النحو من الإنفاق يزيد، وتلك خطة درجتُ عليها شاباً طرياً[2]، والتزمتها رجلاً كهلاً، فكيف بي أن أتركها اليوم شيخاً هِمّاً فانيا!

على رِسْلِكم[3]، فها أنتم أولاء ترون شعري قد اشتهب، وجسمي قد نَحَل. وعودي قد ذَوَى. والأسقام قد أخذت سبيلَها إليّ، ولن ألبث إلا قليلاً حتى ألقى الله، وإنكم سترثون البستان والمال والنَّعم والشاء[4]. وأنتم بين خطتين: إن أنفقتم فإن الله وعد مُنفقاً خلفاً، وإن بخلتم فإن الله أنذر مُمسكاً تَلفاً، وله فيكم أمر هو بالغه.

ولم يمكث الشيخ طويلاً حتى لَزِمَتْه العلة، وألحَّ عليه السقم. ثم لفظ آخر أنفاسه، وفرغ من شؤون الناس والحياة.

ومضت الأيام سراعاً، وتهيأت الحديقة للجَني، ودنت أثمارُها للقطوف، واستشرف الفقراء لنصيبهم في الثمر، دأبهم في كل عام

واجتمع الأبناء يديرون الرأي، ويُعدُّون شأنهم للحصيد، قال قائلهم: لم يعُد بعد اليوم في البستان حق لسائل أو فقير، ولم تصبح الخمائل مأوى لقاصد أو ابن سبيل، ولكلٍّ نصيبُه يثمّره إذا شاء، ويخزن منه ما يشاء. إننا لو فعلنا ذلك فإن شأننا سيعلو، ومالنا سيزيد.

قال أوسطهم ــ وكان أقرب الى أبيه نَحيزة[5] وجبلّة، وأدنى الى الخير واصطناع الجميل: إنكم تقدمون على أمر تظنونه خيراً لكم. ولكنه يحوي الشر في طياته، وتحسبونه نفْعاً لكم، ولكنه سيقضي على بستانكم من جُذُوره إنكم لو حرمتم الفقراء وعطلْتم حق

---

(١) يزكو: يزيد.

(٢) يقال: طر شاربه: أي نبت.

(٣) على رسلكم: على مهلكم.

(٤) الشاء: الغنم.

(٥) النحيزة: الطبع. وكذلك: الجبلة.

المساكين ، لا تأمنون منهم شراً واعتداء ، ويوشك ـــ لو فعلتم ـــ أن يعلنوها ثوْرة وعُدواناً . امنحوهم حقّهم ، واذهبوا مَذْهَب أبيكم في إرضائهم ، وما فضَل بعد ذلك فإن الله ينمّيه ، ويبارك فيه .

ولكنهم صاحوا في وجهه : لا تقترح شيئاً فيما لا تملك ، وكفّ من نصائحك ولن تجد منا إلا آذاناً صماء !

قال : أما إذا رأيتم ألا تسمعوا لقولي ، أو ترغبوا في نصحي ، فعليكم بالصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد تردُّكم الى الحق ، وتعطف قلوبكم الى الفقراء . ولكنهم ما استمعوا ولا أجابوا .

وبيَّتوا أمرهم عشاء أن يقوموا في عَماية[1] الصبح ، وقبل أن ينبلج عمودُ النهار ، ويفارقَ النوم مضاجعَ الفقراء ، ويعمدوا الى الحديقة يقطفُون ثمارَها ، ويوزعون فيما بينهم أنصباءهم منها ، و (أقسمُوا ليصرمُنّـهَا[2] مُصبحينَ ولا يَستثنونَ) .

وعلم الله سوء نيتهم ، ودخيلة نفوسهم ، وما انعقد عليه رأيهم من حرمان المسكين ، وأكل نصيب السائل والمحروم ، فأرسل الى جَنتهم طائفاً[3] قلع نَبْتها ، وأسقط ثمرها ، وجفف أوراقها وأعوادها .

وطلع عليهم النهار وهم على أسوار الحديقة يتساءلون : أهذه جنتنا ، وقد تركناها بالأمس مُورِقةَ الشجر ، جارية الماء ، فوّاحة الزهر ، دانية القطوف ! ما نظن أن هذه حديقتنا ، وإننا لضالون .

قال أوسطهم : بل هي جنتكم حُرمتم منها قبل أن يحرم الفقير ، وجُوزيتم بأسوإ ما يجزي لحَـزِ[4] شحيح ! (ألَمْ أقُلْ لكم لولا تُسبحون قالوا : سبحان ربنا إنا كُنا

---

(١) عماية الصبح : أوله .

(٢) ليصرمنها : ليقطعنها

(٣) الطائف : البلاء .

(٤) لحز : بخيل .

ظالمين . فأقبَلَ بَعضُهم على بَعض يَتلاوَمُون ، قالوا يا ويْلنا إنّا كُنا طَاغِينَ . عَسى ربُّنا أنْ يُبْدِلنا خيْراً مِنْها إنا الى ربنا راغِبونَ) .

ولكن مَضى قدر ، وبقي أسف ، وليذوقوا عاقبة كيدهم . (كذلِكَ العذابُ ، وَلعَذَابُ الآخِرَة أكْبرُ لوْ كانوا يَعْلمون) .

أيوب (*)

تشقَّق الحديث بين ملائكة الله عن الخَلْق وعبادتهم ، ومعصيتهم أو طاعتهم ، قال قائل منهم : ما على الأرض اليوم خيرٌ من أيوب ، إنه مؤمن قانت ، ساجد عابد بسط الله في رزقه ، وأنسأ[1] في أجله ، وفي ماله حق معلوم للسائل والمحروم ، وأيامه عِبادة لربه ، وشكر لنعمائه ، وعبادته حجة على الأغنياء والمُترَفِين إليه من خَلْقه ؛ فكلُّهم ظاهَرَ قوله ، وصدّق دعواه .

سمع إبليس قالتهم ، ولم يكن محجوباً عنهم ، أو بعيداً عن ساحتهم ، فساءه أن يكونَ رجل في الأرض يعبدُ الله كما يعبده أيوب ، وهمّه في الأرض إغواء للصالح وإفسادٌ للمؤمن ، ووسوسة للطائع المُذْعِن . فَخفّ إليه يغْويه أو يضله ، فوجده امرءاً يَمْرح في مطارف النعمة ، ويجول في حقول الثراء ، ولكنه لم يُبْطِره الغنى ، ولم يغوه المال ، فهو أبداً لاهجٌ بذكر ربه ، بَر بأهله ، حَدِب عاطف على عبيده وخدمه ، يُطعم الجائع ، ويكسو العاري ، ويفك العاني[2] ، ويبسط وجهه للعافي[3] . ثم هو يرد الظالم ، ويعلّم الجاهل ، وينشر العلم والمعرفة بين الناس .

فحاول أن يقترب من قلبه ، أو يوسوس إليه وراء أذنه ، وأن يَزَيِّن له الدنيا ومجاليها ، وأن يزهّده في العبادة وما فيها ، ولكنه وجد أذناً صماء عن الخنا[4] ، وقلباً أغلقَ

(*) ص : ٤١-٤٤ ، الأنبياء ٨٣ و ٨٤ . الأنعام ٨٤ .

(١) أنسأ : أخر .

(٢) العاني : الأسير .

(٣) العافي : طالب العطاء .

(٤) الخنا : الفحشاء .

عن الهوى.. وجده من عباد الله المخلصين، الذين ليس له عليهم سلطان. فكرّثه ما رأى، وحزَبه[1] ما لقي من أيوب، ثم رجع الى الله، ووقف منه الموقف الذي كان يقفه منه من قبل أن يطرده من رحمته، ويقصيه عن سُدّته، وقال: يا ربّ، عبدك أيوب الذي يعبدك ويقدّسك، ويهتِفُ قلبه بذكرك، ويلهج لسانه بتسبيحك وما يعبدك تطوّعاً عن نفسه، ولا نافلة من عنده، إنما يعبدك ثمناً لما منحته من مال وبنين، وما أسبغته عليه من ثروة وعقار، وطمعاً في أن تُبْقي له ماله، وتحفظ له دنياه: ألوف من الغنم والإبل، ومئات من الأُتُن والبقر، وعدد من الفدادين[2] والعبيد، وبنون وبنات، وأرض عريضة، وحقول خصيبة. أليست هذه النعم جديرة بأن تُعينه على شكرك، وأن تحمله على عبادتك، خشية أن يمسّها الزوال، أو يصيبها الفناء! فعبادته مشوبة بالرغبة والرهبة، مُشربَةٌ بالخوف والطمع. انزع منه هذه النعمة، وجرِّده من هذا الثراء، فإنك تراه وقد خرس لسانه عن ذكرك، وأعرض قلبُه عن طاعتك.

قال الله تعالى: إن أيوبَ عبد مؤمن خالص الإيمان، لا يعبدني إلا لما يراه من حق العبادة ولا يذكرني إلا لما يعرفه من حق الذِكر، ذكر وعبادة مجرّدان عن حب الدنيا، بريئان من المطامع والأغراض.

ولكن، ليكونَ أيوب قبَساً وهّاجاً في الإيمان، ومثلاً عالياً في الصبر واليقين، قد أبحتُكَ ماله وعقاره، اجمع لهما جنودك وأعوانك، وشيعتَك وحزبَك، وافعلوا بهما ما تريدون، ثم انظروا ما تنتهون.

فنكص إبليس على أعْقابه، وراح يجمع الشياطين من شيعتِه وأوليائه، وأوحى إليهم أن الله رخّص له في مال أيوب، يذهب به ويُفنيه، وأنه يطمع في أوليائه أن يصنع كلٌّ منهم في الإهلاك نصيبه، ليعود أيوب مجرّداً من ماله، ثم يرجع بعد ذلك سليباً من إيمانه

فانطلقت الشياطين، وفعلت أفاعيلها، حتى أتت على الغنم والإبل، والأُتُن والعبيد، والناطق والصامت، والأخضر واليابس، وأصبح بعدها أيوب فارغ اليدين، صِفر الراحتين.

---

(١) حزبَ الامر: شدّد.

(٢) الفدادين، جمع فدان، والفدان: الثور أو الثوران يقرنان للحرث بينهما.

أما إبليسُ فتمثّل لأ يوب رجلاً هِمّاً [1] حكيماً مجرّباً . وقال له : إن النار قد أتت على ثروتك من قَواعدها ، وقد هلك الزرع والضرع ، وذهب المال والنشَب ، ووقف الناس أمام هذا واجمين مبهوتين ، من قائل يقول : إن أيوب ما كان إلا في غرور من عبادته ، وضلال من زكاته وصلاته . وآخر يقول : لو أن الله استطاع دفعَ شر وجَلب خير لكان أيوب أولى بذلك وأجدر . ومن آخر يقول : إن الله لم يفعل ما أراد إلا ليشمت به عدوّه ، أو يَفْجَع فيه صديقه .

وظن إبليس بما ألقاه من خَبرٍ فاجع ، ونبأ مروّع ، أنه سيزحزح من إيمانه ، أو يُفسد من جَنانه . ولكن أيوب كان أقوى إيماناً وأشدّ إذعاناً ، وأعمرَ بالتقوى قلباً ، وأحكم ما يكون رأياً ولُبّاً . قال : عارية الله استردها ، وديعة كانت عندنا فأخذها ، نَعِمْنا بها دهراً و فالحمدُ لله على ما أنعم و وسَلَبنا إياها اليوم فله الحمد مُعطياً وسالباً ، راضياً وساخطاً ، نافعاً وضاراً ، هو مالكُ الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، ويَنزِعُ الملك ممّن يشاء ، ويعز من يشاء ويُذلُّ من يشاء ، ثم خرّ لله ساجداً وترك إبليس خَزْيان ينظر !

ولكن إبليس رجع الى الله يحاول أن يحوك للشر ثوباً جديداً ، ويَنسجَ للإغواء رداءً قشيباً [2] . وقال : يا رب ، إن أيوب وإن كان لم يقابل النعمة إلا بالحمد ، والمصيبةَ إلا بالصبر ، فليس ذلك إلا اعتداداً بمن يعتز بهم من أولاد ، وانه يطمع أن يشتد بهم ظهرُه ، ويَستدّ عضده ، فيُرَدّ اليه ما ذهب من ماله ؛ ويرجع ما فقد من ثروته وعقاره . وإن سَلّطتني على أولاده أفعل بهم ما يَكرهُ فأنا موقن أن أيوب سيصيرُ أشدّ ما يكون كفراً وجحوداً ، وأعظم ما أرجو منه جهلاً وعِناداً ؛ فلا أشدّ من فتنة الولد ، ولا أحفَظَ للنفس من الفجيعة فيهم .

فأجاب الله قائلاً : لقد سلطتك على ولده ، ولكنك سوف لا تنقص ذرّة من إيمانه ، أو تَذْهَب بقطرة من صبره وعزمه .

انصرفَ إبليس ، ودعا إليه شيعتَه وحزبَه ، وذهبوا الى حيث يقيم وَلدُ أيوب في قصر

---

(١) الهم : الشيخ الفاني .

(٢) القشب : الجديد .

مَشيد ، بين نعمة ضافية ، وبُلَهْنِيَةٍ من العيش سابغة ؛ فزلزل قصرَهم ، حتى تصدّع بنيانه ، ووقعت حيطانه ، وأصيبوا جميعهم ، وفَنُوا عن آخرهم .

ولما بلغ إبليس ما أراد ، ذهب الى أيوب متمثلاً في رجل يَنعاهم ، وقال له : لو رأيتَ أولادك اليوم قتلى مُضرّجين : هذا مجروح ، وذاك مُشدُوخ ، لعلمتَ أن الله لم يكافئك بعبادته ، ولم يَرْعَك حق رعايتك .

فاستعبر أيوب وبكى ؛ ولكنه قال : الله أعطى ، والله أخذ ، فله الحمد مُعطياً وسالباً ، ساخطاً وراضياً ، نافعاً وضاراً ؛ثم خرّ لله ساجداً ، وترك إبليس يكاد يتميَّز من الغيظ ، ويتمزّع من الحنَق .

ثم رجع إبليس الى الله يقول : يا رب ؛ لقد ذهب المال عن أيوب ، وفنِي الولد ؛ ولكنه لا يزال في عافية من بَدَنه ، وصحة من جسمه ؛ وإنه ليعبدُك ، أملاً في أن يعودَ المال ويُرَدّ الولد ، ولكن سَلِّطني على جسمه ؛ ورخّص لي في أن أنال من عافيته ، وأنا زعيم أنه لو مسه الداء ، وأنهكه السقم ، وأدْنفه[1] المرض أن يُهمل عِبادتك ويخلعَ ثوب طاعتك ، ويُشغل بأسقامه عن ذكرك .

فأراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمناً ، صابراً شاكراً ، تكونُ قصته عِبْرَة للمصابين ، وعزاء للمكروبين ، وسَلوى للمرضى والمحرومين ، وليكون أيوب على الدهر المعلم الأول للصبر ، والمثل العالي في الإيمان ، وليرفع في الدنيا ذكرَه ، ويُعلي في الآخرة مقامه . فقال لإبليس : لقد سلّطتُك على جسده ، ولكن حذَارِ أن تقترب من رُوحه ولسانه ، وعَقْله وجنانه ، فان فيها سرَّ إيمانه ، ومظهر دِينه وعِرفانِه .

فذهب إبليس في كيد ، ونفخ في أيوب ، فاستحال سقيماً مريضاً مُدْنفاً عليلاً ولكنه ما ازداد إلا إيماناً ، وما ادّرع إلا صبراً وحَزماً ، وكلما ألحّ عليه الداء وتخوّنه[2] السقم ازداد شكره واذعانه ؛ وتقوّى إيمانه ويقينُه .

*

(١) دَنِفَ المريض : اشتدّ مرضه وأشفى على الموت .

(٢) تخونه السقم : أصابه .

ومرت الأيام وتحدرت الأعوام، وأيوب لا يزال على شكاته، حتى هزل جسمُه، وذهب لحْمُه، وأصبح منقوف[1] الوجه، شاحب اللون، لا يَقَرُّ على فِرَاشه من الألم. ففرّ عنه الصديق، وجانَبه الرفيق، ورغبت عنه شيعتُه ومَنْ حوله، إلا زوجه الرءوم العطوف، فإنها تحنّنت عليه ما وسع قلبها الحنان، وعُنيت به ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ورقّت عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها، وما شَكَت إلا هموماً تساورها من آلامه، ومخاوف تحذرُها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة.

أما إبليس فقد أعياه أمر أيوب، وشق عليه ما رآه من إيمانه ويقينه. وأهمه ما صادف من الإخفاق، فجمع أعوانه مرة أخرى، وشكا إليهم ما امتنع من أيوب، وما يستلئم به من إيمان وصبر، بعد أن سلّط على ماله وولده، فلم يزدد إلا إيماناً وشكراً، وبعد أن سُلط على جسده فما فَتر لسانه عن ذكر الله، وما تزعزع قلبُه عن الإيمان بالله.

فقالوا له: أين مكرُك وحيلتُكَ، وتلطّفك في الوسوسة، وحسن تأتّيك في الإغواء! بَطل كل ذلك في أيوب!!

فقال أحدهم: لقد أخرجتَ آدم أبا البشر من الجنة، فمن أتيته؟ قال: أتيته من قِبل امرأته، فقال: فشأنك في أيوب من امرأته، قال: أصبتم الرأي، ولم تجاوزوا الحق. وانطلق الى امرأته، وهي في بعض شأنها مع أيوب، وتمثل لها رجلاً، وقال: أين زوجك؟ قالت: هو هذا، عميداً[2] وقيذاً يتضوّر من الحمى، ويتقلب مما ألحّ عليه من الداء، لا هو ميت فينعى، ولا هو حيٌّ فيرجى.

فلما سمع قولها طمع في إغوائها، فأخذ يذكّرها بما كان لزوجها في صَدْر شبابه، وغَضاضة إهابه من صحة وعافية، ونعمة ضافية، فأعادتْ لها الذكرى الأشجان، وأثارت لديها كوامِنَ الأحزان، ثم أخذ يدركها الضجر، وينساب الى قلبها اليأس.

---

(١) منقوف الوجه: ضامره.

(٢) عميداً: ضعيفاً. وقيذاً: مشرفاً على الموت.

وذهبت الى أيوب، وقالت : حتى متى يعذبك ربك ! أين المال ؟ أين العيال ؟ أين الصديق ؟ أين الرفيق ؟ أين شبابك الذاهب ؟ أين عزّك القديم ؟ قال : لقد سوّل لكِ الشيطانُ أمراً ! أتراك تبكين على عزٍّ فات، وولد مات ! فقالت : هلا دعوتَ الله أن يكشفَ حزنك، ويُزيحَ بلواك ! قال : كم مكثت في الرخاء ؟ قالت : ثمانين. قال : كم لبثتُ في البلاء ! قالت : سبع سنين.

قال : أستحي أن أطلب من الله رَفع بلائي، وما قضيتُ فيه مدة رخائي ! ولكن يخيل لي أنه بدأ يضعف إيمانكِ، ويضيق بقضاء الله قلبُك، ولئن برئتُ وأتتني القوّة لأضربنك مائة سوط، وحرامٌ بعدَ اليوم أن آكلَ من يديك طعاماً أو شراباً، أو أكلفك أمراً أو عناء، فاعزبي عني حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

*

ولما رأى أيوب أنه قد أصبح وحيداً فريداً، وقد اشتدّ آلامه، وتضاعفت أسقامه، فزع الى الله، لا مُتسخطاً ولا متبرماً، بل داعياً متحنناً. وقال : يا ربّ، إني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين. والى هذه الساعة كان أيوب قد بلغ غاية الإيمان. وصمد لوسوسة الشيطان، وادّرع بصبر عجيب، واحتمل همّاً تنوء به الجبال، وبلغ ما أراد الله له : من أن يكون مثلاً عالياً للصبر، ورسولاً من رسل الإيمان، فاستجاب الله دعاءه، وأصاخ لشكواه، وأوحى إليه أن اركُض برجلك ينفجر لك نبع الماء، فاشرب منه واغتسل به، تعود إليك صحتك، وتردّ إليك قوّتك، فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحُه وبرئت جروحه، وصَحّ جسمه، وصلح بدنه، ونَسَل[1] عنه المرض، وعاد أكمل ما يُرى صحة وعافية.

وكانت زوجه قد رقّ قلبها له، وحدبتْ عليه، ولم تطاوعها نفسها الكريمة أن تتركه وشأنه. وقد لزمته من أول مرضه، وكانت من قبل قد شاركته في نَعْمائه، فرجعت إليه تعاوده إصلاح شأنه، والقيام بأمره، فرأت عجباً : رأت شاباً مكتمل الشباب، غضّ

---

(١) نسل عنه المرض : ذهب عنه.

الإهاب ، مكتنز اللحم ، وافر المنّة والقوّة ، فأنكرتْه باديِ الرأي ، ولكنها ما عرفته حتى عانقته ، وحمدت الله على ما رَدّ اليه من صحة وعافية ، وهو أوفى ما يكون إيماناً ويقيناً .

ثم أوحى الله إليه أن خُذْ حُزْمَةً من القشّ واضرب بها زوجك ضَرباً خفيفاً رقيقاً ، رُخصةً لك في يمينك ، ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة التي احتملتك في مرضك وشاركتْك في آلامك . وجازاه الله على صبره ، فردّ عليه ماله ، ورزَقه ولداً أضعاف ولده ، إذ كان مثالَ العبد المؤمن الأوّاب[1] .

يونس (*)

في نينوى ، وتحت ظِلال الأصنام ، وبين حَنادِس[2] الجهل والشِّرك ، أشعل يونسُ قبَس الإيمان ، وحَمل عَلم التوحيد ، وأهاب بقومِه الجاهلين ، أن اربئوا بعقولكم عن عبادة الأصنام ، وكرّموا جباهكم أن تسجد لهذه الأوثان ، وتبصّروا في أنفسكم ، وأنعِمُوا النظر فيما حولكم وما يحيط بكم ، تجدوا أن وراء هذا الكون البديع إلٰهاً كبيراً ، فرْداً صَمَداً ، جدير بأن يختصّ بالعبادة ، ويُقصد وحده بالتقديس ، أرسلني هدايةً لكم ، ورحمة بكم ، لأدلكم عليه ، وأرشدكم اليه إذ كان الجهل قد رانَ على قلوبكم فلم تتبصّره ، وَغشى على بصائركم فلم تتدبّر .

فدُهِش القوم أن سمعوا قولاً لم يألفوه ، وحديثاً عن إلٰه لم يعرفوه ، وكبُر عليهم أن يروا واحداً كان منهم فخرج عليهم ، ورجلاً من عامتهم ينصِب نفسه رسولاً إليهم ، وهادياً لهم .

قالوا : ما هذا القول الذي تهذِر به ، والبهتان الذي تدعو إليه ؟ هذه آلهة عَبَدها آباؤنا من قبل ، ونعبدُها نحن اليوم ، وما الذي حدث في الكون أو ظهر من الأحداث ، حتى نترك هذا الدين الذي نعتقده ، ونستريح الى دينٍ أبدعته واخترعْته ، وجئت تدعو إليه ، وتجاهد فيه .

---

(١) أواب : مقبل بنفسه على الله تعالى .

(*) الصافات ١٣٩-١٥٨ ، الأنبياء ٧٨ و٨٨ ، الأنعام ٨٦ و٨٧ ، يونس ٩٨ .

(٢) الحندس : الليل الشديد الظلمة ، جمعها : حنادس .

قال : يا قوم ، ارفعوا عن عيونكم غِشاوة التقليد ، ومزّقوا عن عقولكم نسيج الأوهام ، وفكّروا شيئاً ، وتدبروا قليلاً . أهذه الأوثان التي تتوجهون إليها في صَباحكم ومسائكم ، وتعتمدون عليها في قضاء حاجاتكم أو دَفْع الشر عنكم ، تجلبُ لكم نفعاً ، أو تستطيع أن تدفع عنكم شراً ! أهي قادرة على أن تخلُقَ شيئاً ، أو تُحييَ ميتاً ، أو تشفِي مريضاً أو تردّ ضالاً ! أهي تستطيع دفع الشر عنها لو أردتُه بها ، أو تقيم نفسها لو حطمتُها وهشمتها !

ثم مالكم تُعرضون عن هذا الدين الذي أدعوكم اليه ! وهو يأمركم بما فيه صلاحُ أموركم ، واستقامةُ أحوالكم ، وتقويمُ جماعتكم ! إنه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، ويُبغِّضكم في الظلم ، ويحبب إليكم العدل والسلام ، وينشر فيما بينكم الأمانَ والاطمئنان . ثم هو يحثكم على العطف على المسكين والحَدَب[1] على الفقير ، وإطعام الجائع ، وفَكِّ العاني : مما فيه صلاح الحال ، واستقامة الأعمال .

فما ظفر منهم إلا بجواب الجاهلين ، وما جادلوه إلا بسفسطة[2] المتعنّتين . قالوا : ما أنت إلا بشر مثلنا ، وواحد منا ، ولا سبيل الى نفوسنا أن تَسيرَ في هَديك ، أو تذْعِن لدعوتك ، فكفكِف عن غَرْبك ، وأقصر من قولك ، ودون ما ترجو غاباتٌ بعيدة ، وحُجُز قائمة .

قال : لقد دعوتكم بالهوادة واللين ، وجادلتكم بالتي هي أحسن ، فإذا كانت دعوتي تصل الى قرارة نفوسكم ، كان الخير الذي أرجوه ، والإيمان الذي أبتغيه ، وإلا فإني أنذِركم عذاباً واقعاً ، وبلاءً نازلاً ، وهلاكاً قريباً ، ترون طلائعه ، وتتقدم إليكم دلائلُه .

قالوا : يا يونس ، ما نحن بمستجيبين لِدَعْوتك ، ولا خائفين من وعيدك ، فأتنا بما تعدُنا إن كنت من الصادقين .

ولم يُطِق يونس صبراً ، بل ضاق بهم ذرعاً ، وقطع الرجاء فيهم قبل مُطاوَلتهم ، ومدّ

---

(١) الحدَب : العطف .

(٢) الفسطة : المعاندة الشبيهة بالحكمة .

الحبل لهم ، فرحل عنهم مغاضباً لهم ، يائساً من إيمانهم ، نافضاً الكف منهم . أما دعاهم فلم يؤمنوا ، وبصّرهم فلم يتدبروا ، وجادلهم فلم يستمعوا ! وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فعل ، وظن أنه يكفي لإبلاغها ما كان .

ولعله لو كان قد أطال مدّته ، واستمر في نشر دعوته ، لوجد فيهم مَنْ يؤمن ويستجيب ، ولوجد فيهم من يستغفر ويُنيب ، ولكنه رَحل ليلقى من الله قضاء ويتلقى جزاء ...

ولم يكد يَبْعُد يونس قليلاً عن نينوى ، حتى وافَتْ أهْلَها نُذُر العذاب ، واقتربت منهم طلائعُ الهلاك : اغْبَرَّ الجوُّ حولهُم ، ثم تغيرت ألوانهم ، وتشيّأت[1] وجوهُهم . فداخلهم القَلَق ، وساورهم الخوف ، وعلموا أن دعوة يونس حق ، وإنذارَه صدق ، وأن العذاب لا بدَّ بهم واقع ، وأنه سيصيبُهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح .

ولكنه وقع في نفوسهم أن يلجئوا الى إله يونس فيؤمنوا ، ويتوبوا إليه ويستغفروا ، فخرجوا الى شِعاف[2] الجبال ، وبطون الصحراء ، شاكين متضرعين باكين متوسلين ، وفرّقوا بين الأمهات وأطفالها ، والإبل وفُصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحُملانها ، ثم أعوَل الجميع ، فصاحت الأمهات ، ورَغت[3] الإبل ، وخارت البقر ، وثغتِ[4] الغنم ، وكانت ساعة بسط الله عليهم بعدها جَناحَ رحمته ، ورفع عنهم سحائب نِقمَته ، وتقبَّل منهم التوبةِ والإنابة[5] ، إذ كانوا مخلصين في توبتهم ، صادقين في إيمانهم ، وردّ عنهم العقاب ، وحبس العذاب ، ورجعوا الى دورهم آمنين مؤمنين ، وودّوا لو يعود إليهم يونس ، ليعيش بينهم رسولاً ونبياً ، ومعلّماً وإماماً .

ولكنه ــ وقد فارقهم ، وترك ديارهم ــ أخذ يضرب في الأرض ويُغذّ[6] في السير ،

---

(١) تشيأت : تشوهت .
(٢) شعاف : جمع شفعة ، وهي رأس الجبل
(٣) الرغاء : صوت الإبل .
(٤) الثغاء : صوت الغنم .
(٥) الإنابة : العودة الى الحق .
(٦) يغذ في السير : يسرع .

حتى انتهى الى البحر . وهناك وجد جماعة يَعْبُرون ، فسألهم أن يصحبوه معهم ، ويحملوه في سفينتهم ، فقبلوه على ارتياح ، وأنزلوه بينهم منزلاً كريماً ، ومقاماً عزيزاً ، إذ كان يظهر في وجهه الكرمُ والسماح ، وتتحدّث غُرّته[١] عن تقوى وصلاح . ولكنهم ما ابتعدوا عن الشاطىء ، وجاوزوا البر ، حتى هاجت الأمواج ، واصطلحت على السفينة الأعاصير ، وتوقّع الراكبون سوء المصير . فزاغت الأبصار ، وانخلعت القوائم ، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا . فاشْتوَرُوا ما يصنعون ، ثم اتفقوا على الاقتراع ، فساهم[٢] الجميع ، ووقع السَّهم على يونس . ولكنهم ضَنُّوا به على البحر ، تكريماً لشأنه وعِرْفاناً بمكانه . فعادوا للمساهمة ، وعاد السهم على يونس ، فضنوا به أيضاً وعادوا للمساهمة ، فعاد السهم عليه !

فعلم يونس أن من وراء ذلك سِرّاً ، وأن لله في ذلك تدبيراً ، وأدرك خطيئته وما كان من تركه لقومه قبل أن يُؤذَن له في الهجرة ، أو يستخير الله في الرحيل . فألقى بنفسه في اليم ، وأسلم نفسه للأمواج ، يتقلب بين طَيَّاتها ، ويتخبط في ظلماتها .

وأوحى الله الى الحوت أن يبتلعه ، وأن يَطْويَهُ في بطنه ، ولكن على ألا يأكل لحمه ، ولا يهشم عظمه ، فما هو إلا نبيٌّ كريم ، تأوّل فلم يُصبْ ، وعَجِلَ ثم ندم ، وأنه وديعة عنده ، يؤديها حينما يأذن له الله

وقبع يونس في بطن الحوت ، والحوت يشق الأمواجَ ، ويهوي الى الأعماق في ظلمات متضاعفة ، وحنادس[٣] متعاقبة . فضاق صدْرُه[٤] ، واعتلج هَمَّه ، وفزع الى الله غياث الملهوف ، وملجإ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة وغافر الذنب . (فَنادَى في الظُّلمات أن لا إلٰه إلا أنتَ سُبحانكَ إني كُنْتُ مِنَ الظالِمينَ) .

فاستجابَ الله الدعاء ، وأوحى الى الحوت في الماء ، أن ألقِ بضيفك في العَراء فقد

(١) غرته : علامته الظاهرة .

(٢) ساهموا : اقترعوا .

(٣) الحنادس : جمع حندس ، وهي الظلمة .

(٤) ضاق صدره : أصابه هم شديد .

أوفى على الغاية ، ونال ما قُدّرَ له من جزاء . فألقاه الحوت على الشاطىء سقيماً هزيلاً ، مُدَنفاً عليلاً[1] وتلقّته رحمة الله فأنبتت عليه شجرة من يَقطين[2] ، طعِم بثمرها ، واستظلّ بوَرقها ، ودَبّتْ إليه العافية ، وظهرت فيه تباشير الحياة .

ولما استوى على سوقِه ، ورجع الى سابق عهده ، أوحى الله إليه : أن ارجع الى بلدك ، وموطن آصِرَتِك وعشيرتك ، فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان ، ونبذوا الأصنام والأوثان ، وإنهم الآن يتحسسون مكانك ، ويترقبون مجيئك .

وعاد يونس الى قريته ، وما راعه إلا أنه خلفهم — وليس فيهم إلا من هو عاكفٌ على الأصنام ، وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمن[3] .

زكريا ويحيى (*)

تقدمت بزكريّا السنون ، وهو الآن مُشتهب[4] الرأس ، واهن العظم ، معوجّ القناة ، لا يستطيع من المشي إلا بمقدار أن يذهب الى الهيكل يتعهدُ شؤونه ويُلقي مواعيظه ، ثم يتنسك ويَتَألّه[5] ، ويعود في أعْقَابِ يومه يقضي ظلام الليل ، في بيت يحوي زوجَه وهي عجوز مثله ، قد اشتعل الرأسُ منها شيباً ، ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب الى حانوته ساعة من نهار ، فإن أصاب بعضَ مال مسحَ دمعَة البائس ، وقضى حاجة السائل ، ثم رجع الى داره فارغاً إلا من فضل الله ، صامتاً إلا عن ذكر الله .

ولكنّه حتى هذه السَنة التي أشرف فيها على التسعين ، لم يُرزق طفلاً ، ولم يُثمر ولداً ، يتخذه سبباً بالحياة ، ويصل ما بينه وبين الوجود . فكان يدخل البيت حزيناً ،

---

(١) مدنفاً : مريضاً

(٢) اليقطين : نبات لا ساق له .

(٣) النبي نبي حتى يموت وإذا أراد ترك هذا الشرف لا يسمح له بذلك وكذلك الايمان شرف للانسان المؤمن اذا ارتد عنه فانه يقتل .

(*) مريم : ٢-١٥ .

(٤) الشبهة في الألوان : البياض الغالب على السواد .

(٥) يتأله : يتعبد .

كاسف البال ، قليل الرجاء ... ثم هو عما قريب يطوي صحيفة أيامه ، ويمضي الى حِمَامه[1] ، فمن الذي يقوم على وراثة حكمته ، والاضطلاع بأمانته ؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار ، لا بد لهم من وازع ، وسوائم مطلقة يُعْوِزهم الراعي الرادع ، ولو خُلّوا ونفوسهم فإنهم يَمحُون الشريعة ، وينشرون الفساد ، ويُغيِّرونَ معالم الكتاب .

ظلت هذه الخواطر تحِزُّ في نفسه ، وتضطرب بين لفائف صدره ، ولكنه كان صابراً متحملاً متجملاً ، إلا من زَفرات كان يلفظها كلما جَنَّ عليه الليل ، وأنات كان يُصعِّدها كلما احتواه الظلام .

ذلك قضاءُ الله فمن أجدر بالنبي من أن يتلقاه بالارتياح ؟ وتلك حكمته ، فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان ؟ فلعَلّ من وراء ذلك حكمة لا يعلمُها ، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها . وله الحمد لله على ما أنعم ، ومنا الصبر على ما أراد .

ويذهب زكريا الى الهيكل يوماً كعادته ، ويُصلي ويتنسّك ، ويعبد ويتهجد ، ثم يدخل على مريم في مِحرابها ، فإذا هي غارقة في تفكيرها ، ذاهبة في صلاتها ؛ ثم يرى أمامها شيئاً يذهله ، ويثني سؤاله : هذه فاكهة أمامها ، عجباً ! تلك فاكهة الصيف ولكنا في الشتاء ؛ ثم من أين دخلت إليها ، إنها من يوم أن تنازع مع القرّاء في شأنها ، وفاز سهمه بكفالتها ، لا زالت حبيسةً في مِحرابها ، محجوبة عن أترابها ؛ حتى إنّ أمها من يوم أن أودعتها الهيكل وفاء بنذرها ، وتقرّباً الى ربها ، لم تسْعَ يوماً الى لقائها ، فمن أين لها هذا الرزق العجيب ! وكيف اتفق لها هذا الأمر الغريب !

ليسألنّها ويستكنّ أمرها ؛ فقال : يا مريم أنّى لك هذا ! قالت : هو من عند الله ؛ يُصبح الصباح فأرى رزقي حاضراً ، ويمسي المساء فأرى رزقي حاضراً على أنني ما سعيت لهذا الرزق ، ولا سألت الله ذلك الخير ، ولكنه يأتيني عفواً وأجده أمامي سَهْلاً . ومالكَ تُدْهَش وتَعْجب ، ومالك تؤخذ وتُشْده ! أليس الله يرزق من يشاء بغير حساب !

---

(١) الحمام : الموت .

عـند ذلك أدركت زكريا حالٌ جديدة ، ودخل في تأمل عميق ؛ فقد أثارت في نفسه هـذه الـفـتـاة الكريمة ، وتلك الربّانية[1] المقرّبة الحنين الى الوَلد ، والرغبة في البنين ! حقاً إنـه قـد وهَـنَ مـنـه الـعـظـم ، ورقّ الجلد ، وبلغ به الكِبَرُ ، ولم يَـعُد فيه للولد مطمح ، وامرأتـه الـعـجوز العاقر ليس في نفسها لِلنسْلِ رجاء ، ولكن أليس الله ـــ الذي اختص مريم بالكرامة ، وحباها النعمة ، ورزقها الفاكهة الغريبة ، تأتيها كل يوم في غير أوانها ـــ بـقـادر على أن يَـرزُقه ولداً ، وإن كانت امرأتُـه عاقراً ، وإن كان قد أصبح شيخاً فانياً ! لِيَـدْعُ الله ، فما هو بيائس من استجابة دعواه !

وبسط زكريا يديه متوسلاً ، وهمس بصوته داعياً : (ربِّ لا تَـذَرْني فَـرداً وأنتَ خَيرُ الـوارثـيـنَ) . وزكـريـا كـان أكـرم على الله من أن يردَّ دعوته ، وأعز عليه من أن يخيّب رجـاءه ، فـإنـه مـا مـكـث طـويـلاً حتى نـادتـه الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب : (يا زكريا ، إن الله يُـبَشرك بغلام اسمه يَحْيى لم نجعل له من قبل سَمِـيّـا) .

وسـمـع زكـريـا الـنـداء ، فشُده وعَجب . وحاشاه أن يكون غافلاً عن قدرة الله ، أو يـائـسـاً مـن استجابة دعواه . ولكن أدركه ما يدرك المؤمِّـل وجد رجاءه ، والسائل العافي وجـد حـاجـتـه . ثم عاد فسأل الله : كيف يرزقه طفلاً ، وقد أصبح شيخاً فانياً ، وامرأته عـجـوز عـاقـر ، كما سـأل إبـراهيم ربه من قبله : كيف يحيي الله الموتى ؟ وكيف يُبعث الناس يوم النشور ؟ وما كانا بسؤالهما جاحدَين ، ولكن ليزداد قلبهما اطمئناناً .

وقـالـت الملائكة : أليس الله ـــ الذي خلقك من قبل ولم تكُ شيئاً ـــ بقادر على أن يرزقك الولد ، وإن كنت في أعقاب[2] أيامك ، وأطراف حياتك ؟

سـأل زكريا ربّـه أن يجعل له علامة تتقدّم هذه العناية ، وتدل على وقوعها ؛ فأجابه الله : إن آيـتـك أن تَـعْـجِــز عـن خطاب الناس بحصَر يعتري لسانَك ثلاثة أيام ، وإن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو رمزاً .

---

(١) الربانية : المتألهة العارفة بالله .

(٢) أعقاب : أواخر .

ورزقه الله على الكِبَر يحيى ، غلاماً ذكياً ، فأحكم الله عقله ، واستنبأه[1] صبياً . ثم عَشقَ العبادة حتى أصبح مَنهُوك الجسم ، نحيل الظل ، مُتَضَمِّر[2] الوجه ، معروق العظام[3] ، واشتهر بالعلم ، حتى أحصى مسائلَ التوراة واستجلى غوامضها وأحاط بأصولها وفروعها ، وأضحى فيْصل أحكامها ، وقاضي معقولها ؛ وعُرف بين الناس أنه جريء في الحق ، شديد على الباطل ، لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا صَولَة عاتٍ ظالم .

نقلوا إليه يوماً أن هيرودوس حاكم فلسطين ، قد هوِي هيروديا بِنتَ أخيه إذ كانت بين عينيه بارعة الشكل ، فتانة المحاسن ، جميلة التكوين ، وأنه قد عَزَم على زواجها ، والدخول بها ؛ وظاهَرتْه على ذلك أمُّها ، وذوو قرباها ، فأعلن يحيى أن ذاك زواج باطل لا تقرّه شَريعة ، وتأباه رُوحُ الكتاب ، وقال : إني لا أعترف به وأجهر باستنكاره .

وشاع رأيُهُ في المدينة ، وفي القصور ، وفي الخدور ، وفي أماكن اللهو ، وفي مواطن العبادة . وبلغ هيروديا ما جَهر به يحيى ، وما اشتهر به بين الناس ؛ فسخطت عليه في نفسها ، وأضمرت الحسيكة[4] ، وأبطنت الغِلّ . ثم استحال غيظها الى حزن وكمد ، وهمٍّ وأسى ، وخافت أن تذهب هذه المقالَةُ برجائها المعسول ، وربما صرفت عمّها عن الزواج ، ولكنها عزمت على أن تستعين بحسنها وجمالها ، فلعل جمالها يُنيلها غرضها ، ويحقق غايتها . فتجمّلت ما استطاعت أن تتجمّل ، وعُنيت بزينتها ما قدر لها أن تعنى ، ودخلت على عمها قسيمةً وسيمة ، حسنة الشارَة ، جميلة الهيئة . فاقتُنِص بحبائل فتنتها ، واختُلب بعذوبة منطقها ، ثم سألها أي أمنية تتمنين ! قولي فأنا رَهنٌ لإشارتك ، قيدٌ بكلمتك !

قالت : إن رضي الملك فلست أبغي إلا رأسَ يحيى بن زكريا ، ذلك الذي سَمَّع

---

(١) استنبأه : جعله نبيا .

(٢) يقال : تضمر وجهه ، إذا انضمت جلدته هزالاً .

(٣) من قولهم : عرق العظم : إذا أكل ما عليه من اللحم .

(٤) الحسيكة : العداوة .

بـالملك وبي في كل مكان ، وغمزه في كل نادٍ ، إن رضي الملك بذلك فإني قريرة العين ، هادئة البال ، منقوعة الغليل .

فـأجـاب هـيـرود لـداعـي الهـوى ، وأصـاخ لـكلمة الجمال ، وأصمَّ عن نداء الضمير والوجدان . وما هي إلا ساعات حتى كان رأسُ يحيى بين يديها ، فشفت غلها ، وأطفأت وَقدَة غيظها ، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بني إسرائيل .

مريم (*)

لم تُـرزق أمُّـها بولد ، لأنها كانت عاقراً ، وطالما تمنَّته ، لتُمتِّع نفسها بمرآه ، وتقـرّ عيناً بـطـلـعـتـه ؛ وكلما رأت طائراً يُطعِم فَـرْخه ، أو سيدة تحمل طفلها ، اشتدت رغبتها فيه ، وأحسّـت زيادة الميل إليه . ولقد عانت في ذلك مثل ما تُـعاني المرأة حينما تجـد نفسها قد حـرمـت الـطـفـل الـذي هـو سلـوتهـا في وحشتها ، وسميرها في وحدتها ، والذي تَـبْسِم به حياتها ، وتهون به مصاعبها وأوْصابها[1] .

وأقضَّ ذلـك مَـضْـجَـعـها ، وودّت لو بذلت أغلى ما تملك ، ثم تنظر فترى ولدها يَـرْنُو إليهـا بـنـظـره ، ويُـقبل عليها بوجهه ، فتُـفرغ عليه حَنانها ، وتغمره بعطفها ، وتبذل له من نـفـسـهـا مـا يريح جسمه ، وينمي جسده ، ويسمو بروحه ، حتى يَشِبّ فيصير مِلء سمع الأرض وبصرها .

وقـد تـكـون أمـضـت الأ يام ، بل السنين ، ترقب تحقّـق هذا الرجاء وتنتظر نوال هذه الأمـنـية ؛ وقاسـت فيها المتاعب : وذاقت مرارة اليأس ، وقد تكون أيضاً غَبطت[2] الشجرة المثمرة ، والمرأة الولود .

(ه) آل عمران ٣٣-٤٧ ، النساء ١٥٦ ، مريم ١٦-٢٤ ، الأنبياء ٩١ ، التحريم ١٢ .

(ه) مريم بنت عمران من سلالة داود . قـال ص : خير النساء أربع : مرين بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) الأ وصاب : الأمراض .

(٢) غـبـطت : بمـعنى حسـدت . إلا أن الحسـد مزموم . والغبط محمود . وهو أن تتمنى نعمة دون أن تتمنى حرمان الناس منها .

وأنا أراها في ذلك قد لبت نداء جبلّتها ، وطاوعت غريزتها ؛ فأحلى أماني المرأة أن تجد ولدها بجانبها ، وترى طفلها بمرأى منها ؛ حتى لقد نرى ذلك في البنات الصغيرات ، فهنّ يدلّلن العرائس ، ويُناغين الدُّمى .

التجأت الى ربّ السموات والأرض ، وتوسلت إليه في خضوع وخشوع ، ونذرت له إن أنالها أمنيتها ، وحقّق رجاءها ، ورزقها ولداً ، تتصدّق به على بيت المقدس فيكون له خادماً وسادناً[1] فيه . وأخذت العهد على نفسها ألا تستخدمه في شيء بأمر ، بل هو لخدمة البيت محرراً ، ولسدانته مُخلصاً .

أليس ذلكَ دليلاً على أنها لا تبغي الخَلَف إلا لإشباع رغبتها واستقرار نفسها ! فهي لا تريده ليكون عائلاً لها ، أو عَضُداً تشدّ به أزرها ، بل ترجوه وتأمله . حتى إذا تحقق الرجاء ، واستجيب الدعاء ، وهبته لله وحرّرته لخدمة بيته ؛ ويكفيها أنها ولدّت ليطمئن قلبها ، ويشيع السرور في فؤادها .

أجاب الله دعاءها ، وآتاها سُؤلها ، فشعَرت بالجنين يتحرك بين أحشائها ، فاخضر عودها ، وأشرقت الدنيا في عينيها ، وفارقها عبوسُها وافترّ ثغرها ، وأصبحت مَرِحة مُقبلة على الحياة بصدر منشرح ، تجلس الى زوجها ، تحدّثه عما يجول بنفسها ، وما تقدّره لولدها : وهو يستمع إليها مبتهجاً ، ويُصغي إلى شهي حديثها مغتبطاً . وعمرّتها نشوة من السرور ، أنستها ما قاسيا في الحياة من ألم ومسحت ما فاضت به عيونها من شئون[2] .

وبينا هي سابحة في أحلامها وآمالها ، تُعِدّ للمولود عدّته ، وترجو الحياة من أجْله ، قلب لها الدهر ظَهْرَ المِجنّ ، فبدّلها بسرورها حزناً ، وغيّر فرحها تَرَحاً ، إذ مات زوجها عمران . فاشتدّ حزنها عليه ، وفاضت دموعها غزيرة لفقده ، وقد كانت تتمنى لو أبقاه حتى يَنْعم برؤية فَلذَةِ كبده ، ويتملى بقرّة عينه ويَقطِف جَناة بَذْره ؟ ولكن قضاء الله حُتمٌ[3] ، ولا رادّ لقضائه .

---

(١) السادن : خادم بيت الأصنام .

(٢) الشئون : الدموع .

(٣) حتّم : محتّم .

صارت وحيدة مَهيضة الجناح عابسة الوجه ، وكلما تقدمت بها الأيام اختلط حزنها بأملها ، وأحست آلامها تكثر ، ورأت صَرْحَ آمالها ينهار . ولكن رجاءً في الله عَمَر به قلبها ، وشعاعاً من الأمل فيما تحمل بين جنبيها ، كانا يخفِّفان ما بها من لوعة وأسى ، ويسرِّيان عنها ما كانت تجد من حزن ووحْشَة .

هُيىء لها مثل ما يُهَيَّأ للنساء عند الوضع ، ووضعت ، وإذا المولود أنثى . ولما عرفت ذلك تحسرت على ما كان من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ، وتحزنت[1] إلى ربها ، إذ كانت ترجو أن تلد ذكراً تَهَبُه لبيت المقدس ، وتقفه على خدمته ، تقرباً إلى الله ، وشكراً على نعمته .

ولكن المولود أنثى ، والبناتُ لا يصلحن لذلك . فغشيتها[2] سحابة من الحزن ، وغمرتها موجة من اليأس ، وسمّتها مريم[3] ، وطلبت الى الله أن يعصمها بعنايته ، وأن يكلأها برعايته وأن يجعل فعلها مطابقاً لاسمها ، وأن يُعيذها[4] وذريتها من الشيطان الرجيم .

ألا ترى الآن قلباً محطماً ، ونفساً سَحَقها الحزن ، وامرأة توالت عليها المحن حتى لتكاد تضيق بها ، عاشت جُلّ أيامها ، وزهرة حياتها كئيبة كاسفة البال ، لأنها لم ترزق الولد ، فلما انفرج كربها ، وانقشعت غُمتها ، وسمع الله دعاءها ، واستشعرت الجنين في أحشاءها عَدَا عليها الدهر ، فاختطفت المنيةُ زوجَها ، وقد كانت تتمنى أن يهَبَ لها الله ولداً ، لتجعله مُخلصاً لخدمته ، فولدت أنثى ، فزاد حزنها ، واشتد كربها !

ولكنها انطوت على همّها ، والتجأت إلى ربها ، فرحم الله ضعفها ، واستجاب دعاءها ، وقَبِل هبتها ، وأتم نعمته عليها ، بأن رضي أن تكون ابنتها وفاءً للنذر ، وأخبرها بأنه أعلمُ بما وضعت ، وبقدر ما وُهبت .

حينئذ سُرِّي عنها ، وعلمت أن الله قد اختصها بإكرامه ، وأفردها بنعمته ! فلفّتها في

---

(١) يقال فلان يقرأ بالتحزين : إذا أرق صوته .

(٢) غشيتها : أصابتها .

(٣) مريم : معناها العابد .

(٤) يعيذها : يحصنها .

خِرْقة ، وحملتها إلى بيت المقدس ، وقدمتها الى الأحبار ، ودفعتها إليهم قائلة : دونكم هذه البنت فإني نذرتها لخدمة البيت . وتركَتْها وانصرفت .

لنترك هذه الأم التي فقدت بالأمس زَوجها ، وأودعت اليوم فلذة كبدها بين يدي سَدنة البيت وخدمه : ولنتصورها استسلمت لقضاء الله ، ورضيت بما قدّره لها ، واطمأن قلبها لقبول بنتها بقبول حسن ، وإيثارها بهذه المكرمة دون غيرها من نساء العالمين .

ولنتخيل أيضاً أنها قد دفعها الحنوُ . وحرّكتها عوامل الشفقة على بنتها ، فذهبت الى بيت المقدس : تستفسر — من بُعد — عن حالها ، وتتعرفُ خبرها ، حتى إذا اطمأنت عليها قَفلت راجعة ، تحمد أن قَبِل الله قُربانها ، وأسبغ نعمتَه عليها .

ولنتبع الآن حال هذه البنت التي حلت ضيفاً على أهل هذا البيت المقدس ، فخفّوا إليها سراعاً ، وتنازعوا في كفالتها ، كل يريد أن يكون المدبر لشئونها ، والقائم على تربيتها ، لأنها بنتُ إمامهم ، وسليلة صاحب قربانهم .

وكان أشدَّهم حَدباً عليها ، وأكثرهم رغبة في كفالتها زكريا ، فقال لهم : أنا زوج خالتها ، فأعطوني إياها ، وخصُّوني بالعناية بأمرها ، فأنا أقربكم رحماً إليها ، وأوثقكم صلة بها .

اشتد النزاع ، وكثر الجدال ، وطال الحوار ، واسترسل كلٌّ يدلي بحجته ، ويبين فضله على غيره ، ويطلب في الحاح وعنف أن يستأثر بها ، ويختص بكفالتها . ولم تجتمع كلمتهم على تسليمها لأحد ، لأن كلاً منهم كان يرجو الزُّلفى[1] الى ربه .

وقد كان زكريا يرى نفسه أحقّ بهذا الفضل ، وأولى من غيره بذلك الشأن . وبعد ما لمسوا استحالة اتفاقهم ، وأحسوا افتراق شملهم ، أعلنوا أنهم لن يخضعوا لرأيه ، أو يؤثروه على أنفسهم ، حتى يقترعوا عليها . فرضي زكريا بذلك حكماً بينه وبينهم . وانطلقوا جميعاً الى نهر ، فألقوْا فيه أقلامهم[2] ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ، ورسبت أقلامهم .

---

(١) الزلفى : القربة والمنزلة .

(٢) الأقلام : سهام الاقتراع .

فانصاعوا لرأيه ، وخضعوا لإرادته ، وسلموها إليه ، فتكفلها ، وصار وليَّها ، والقائم بتربيتها .

أراد زكريا أن يمهد سبيل الراحة لتلك التي ألقى الله إليه مقاليد أمورها ، ودفعه حب الاستئثار الى أن ينأى بها عن الناس ، ويُبْعدها عن ضوضائهم ، ويخص نفسه بخدمتها ، ويحرِّم على غيره الدخول إليها ، فبنى لها غرفة عالية في بيت المقدس ، لا سبيل إليها إلا بالصعود في سُلَّم .

وكان دائماً يتفقد شؤونها ، ويتردد عليها في محرابها ، ليطمئن على حالها ، ويمهد لها سبيل عيشها

ولا ريب أنه كان قرير النفس بكفالتها وأنه لذلك عُني براحتها ، وتوفير أسباب السعادة لها ، واستمر على ذلك حتى رأي يوماً شيئاً عجب له ، بل شُدِه وتحيَّر في أمره .

ذلك أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب[1] وجد عندها رِزْقاً ، وعَهْدُه بها ألا يدخل إليها أحد ، أو يطرقَ باب حجرتها طارق ؛ ولم يحمل إليها مثل هذا الرزق ، أو يَعلم شخصاً قد أدخله عليها ! وكثر تفكيره في الأمر ، ومال الى الوقوف على سره .

لم يستطع تعليلَ ذلك ، فحاول الوقوف على السر العجيب ، وطرق لذلك أبواباً عدّة فلم يوفق . وأشكل عليه الأمر والتَوَى ، فدخل إليها ، وقال : يا مريم ؛ أنى لك هذا الذي لا يُشبِه أرزاق الدنيا ، وهو آتٍ في غير حينه ، والأبواب مغلقة عليك ، ولا سبيل للدخول إليك ؟

فقالت : إنه من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

هنالك عظم تقديره لها ، واشتد حدبُه عليها ، وعلم أن الله قد اختصّها بمنزلة دونها منازلُ الناس ، وأنه قد اصطفاها على نساء العالمين .

وقد أثارت في نفسه تلك المكرمات التي أجراها الله على يدها ، كامنَ الرغبة في أن يهب الله له ولداً من صلبه .

وليس من شك في أنه الآن قد جاوز السن التي يُرْزق فيها الرجال بالأولاد ، وأن

---

(١) المحراب : المصلى .

زوجته قد يئست من ذلك ، ولم يَعُدْ لها أمل فيه ، لكن رحمة الله واسعة ، وقدرته لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض ، وهو يعلم ذلك ويعرفه . لذلك اتجه الى فاطِر السمواتِ الأرض ، وناداه نداءً خفيًّا ، وتمنى أن يُسبغ عليه هذه النعمة ، وأن يحقق له تلك الرغبة وقال[1] : (رَبِّ إني وهَنَ العَظمُ مِنِّي واشتعَل الرَّأسُ شيْباً ولَمْ أكُنْ بدُعائكَ رَبِّ شَقِيًّا . وإني خِفتُ المَوَالي[2] مِنْ وَرَائي وكانت امرأتي عَاقِراً ، فهَبْ لي مِنْ لدُنكَ ولِيًّا . يَرِثني ويَرِثُ مِنْ آل يَعقُوبَ ، واجعَلهُ رَبِّ رَضيًّا) .

فاستجاب الله دعاءه ، وآتاه سؤله ؛ وقال : (يَا زكرِيَّا إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لم نجعَلْ لهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) .

نمت مريم وترعرعت ، وشبَّت واستدّ[3] ساعدُها ، وعمر قلبها بالتقوى والصلاح ، ومكثت بالبيت تعبد الله الذي يرسل إليها رزقاً رَغداً ، وأخلصت في القيام بسدانة البيت وخدمته ؛ حتى صارت مَضْرب الأمثال[4] .

عيسى (*)

عيسى الوليد

في يوم ما اعتكفت مريم كعادتها ، تصلي لله وتعبده ، فاضطربت نفسها فجأة وداخلتها رَهْبة لم تعهدها من قبل ، وظهر أمامها ملكٌ من السماء ، وقد تمثّل لها بشراً

---

(١) مريم ٢-١٥ .

(٢) كان مواليه عصبته إخوته وبنو عمه ، شرار بني إسرائيل . فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين (الكشاف ٢-٢) .

(٣) استد : اشتد وقوي .

(٤) جعل الله نفسيّة كل نبي مماثلة لدينه حتى يكون النبي متمثلاً شريعته قلباً وقالباً . لذلك نجد اختلافاً بيناً بين شرائع الأنبياء فيا لا يتعلق بالأمور الاعتقادية .

(٥) مريم ١٦-٢٤ ، البقرة ٨٧ ، آل عمران ٤٥-٦٠ ، النساء ١٥٦-١٥٩ و ١٧١ و ١٧٢ ، المائدة ١٧ ، ٤٦ و ٧٢ و ٧٥ ، التوبة ٣٠ و ٣١ ، المؤمنون ٥٠ ، الزخرف ٥٧-٦٥ . الصف ٦ و ١٤ . المائدة ١٠٩-١٢٠ . الحديد ٢٦ و ٢٧ ، التوبة ١١١ .

سويـا ، لتأنس به ، ولا تنفر منه . فحاولت الهروب ، واستعاذت بالله إذ ظنته معتدياً أثيماً ، وفاجراً زنيما[1] ، وهي التقيةُ المؤمنة ، العفيفة الطاهرة . ولكنه أعاد إليها طمأنينتها ، وسكّن رَوْعَها ، ثم أخذ يتحدث إليها قائلاً : (إنّما أنا رَسولُ رَبّك لأهَبَ لك غُلاماً زكيّاً[2]) .

فغشيتها سحابة من الحزن ، وطافت بها موجة من الأسى ، ولكن هَوْل الموقف وشدّته لم يعقد لسانها ؛ بل استجمعت شاردة قوّتها ، وخرجت من صَمْتِها ، وحاجّته قائلة : (أنى يَكونُ لي غُلامٌ ولَمْ يَمْسَسني بَشر ولمْ أكُ بَغِيّاً) .

(قال : كذلك قال رَبُّكِ هُوعَليَّ هَيِّنٌ ولنَجْعلهُ آيةً لِلنّاس ورَحْمة مِنّا ، وكان أمراً مَقضِيًّا) . ثم مضى واختفى .

جلست مريم حائرة تفكّر فيما سمعته ، وأوجست في نفسها خيفة ، ولا شك أنها تخيّلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بَعْل[3] ، وأنها قد أفزعتها هذه الأفكار ، وصيرتها قلقة مضطربة ؛ إذ قد بدت تفطن الى الريبة التي سوف تخامر قلوب الناس ، والشكوك التي ستخالج نفوسهم . فأصبحت تحبُّ العُزْلة ، وتميل إلى الانفراد . واستحوذ عليها الحزن ، وغلب عليها الخوف ، وصارت دائمة التفكير في ذلك السر الرهيب الذي أغلِق عليه داخل أحشائها .

مرت أشهر ، وهي تقاسي الآلام النفسية المبرّحة ، وتتعاورها الأحزان ، وتنتابها الوساوس ، وتمضي أكثر أوقاتها منفردة كئيبة ، لا يهنأ لها عيش ، ولا يطيبُ لها طعام ولا شراب ؛ وكثيراً ما كانت تُرى شاردةَ الفكر ، موزعة النفس ، لا تصغي الى حديث ، ولا تعْنى بأمر .

حَلّتْ تلك الفتاةُ المثقلة بالهموم في « الناصرة » ، منبتها ومسقط رأسها ، وأقامت في

---

(١) الزنيم : اللئيم المعروف بلؤمه أو شره .
(٢) زكياً : صالحاً .
(٣) البعل : الزوج .

بيت ريفي ، خلا من كل بهجة ورُواء . وقد تكون اتخذت هذا البيت جُنّة[1] لها تتستر فيه عن أعين الناس ، وتختفي به عن أنظار الرقباء . وأظنها كانت تنأى عن الاختلاط بقومها ، والاتصال بعشيرتها ، متظاهرة بالتعب والإعياء ، خوفاً من أن يُفَضّ مكنون سرها ، ويُكْشف مستور أمرها ، فتلوك الألسنة اسمها ، ويتحدّث الناس في شأنها . وكانت كلما تقدمت بها الأيام زاد همُّها ، وكثر حزنها ؛ فسيظهر ما تحرص الآن على أن تخفيه ، ويشيع ما تحاول أن تستره !

رُحْماك يا رب ! ما هذا الذي يخبئه لها القدر ، وما الذي تكنّه لها الليالي ! إنها من أسرة أصلُها ثابت وفرعُها في السماء ، لم يكن أبوها امرأ سَوْءٍ[2] ، وما كانت أمها بغيّاً ؛ فكيف تلوك الألسنة الحديث في عرضها ؟ وبماذا تدفع عن نفسها تلك التهمة التي ستُرى بها ! حقاً إنه أمر ترتعد له الفرائص ، ويشيب من هَوْله الولدان . أيزعمون أنها فقدت أثمنَ ما تحرص عليه الفتاة ، ويقولون : إنها أوْدت بكرامة أهلها ، ووسَمتْ أسرتها بما يَثلِم شَرَفها ، ويُنزلها من عليائها ، ويُلْصق بالرَّغام[3] أنفها ! إن ذلك لعظيم ! كلُّ ذلك كان أو سيكون ، مع أنها لم ترتكب إثماً ، ولم تقترف ذنباً ، وهي بَرَاء[4] ، من كل ما يجول بنفوسهم ، وأبعدُ ما تكون عما يمرُّ بخواطرهم .

وهل تستطيع ، وهي في هذا الحرَج والضيق ، إلا أن تستسلم لقضاء الله ، وتنتظر ما يأتي به القدَر ، وما تكنُّه الأيام !

وليس من شك في أن ما درجت عليه من عبادة الله وتقواه خفف عنها بعض ما كانت تعانيه ، وجعلها تترقب لضيقها فرَجاً ، ولنفسها الفَزِعة[5] سكوناً وأمنا . أو لم

---

(١) جنة : ستر ووقاية .

(٢) سوء : شر .

(٣) الرغام : التراب .

(٤) براء : بريئة .

(٥) الفزعة : الخائفة .

يُـنبئها الْـمَلَكُ أنها ستلد مَنْ يكلِّم الناس في المهد ! أليس ذلك كافياً لردّ كيد الناس ، وأوضح برهان على براءتها وطُهرها !

كان ذلك هو سَلْوتها ، وأملها الذي تتعلق به ، وترجو الخلاصَ من طريقه .

اقتربت ساعة الوضع ، وأحستْ ألَـمَ المخَاض[1] ، وخرجت من القرية ، فأجَاءهَا[2] المخاضُ الى جذع نخلة يابسة ، وهي وحيدة منفردة بلا يد شفيقة تسددها وتساعدها ، وتخفف آلامها وتعالجها . هناك قاست تلك الأم العذراء آلام الوضع ، وفي الفضاء الواسع ولدت الطفل .

آلمتها تلك الوَحدة ، وحزّ في نفسها رؤية تلك الثمرة ، فنظرت الى الطفل في حسرة واكتئاب ، وجعلت تتمنى لو ضمّها القبر ، وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أمّاً من غير أن تتزوج ، فقالت : (يَا ليْتني مِتُّ قبلَ هَذا وكنْتُ نَسياً مَنْسيّاً) .

هي الآن لا تدري ماذا تفعل ! سُقِط في يدها ، وتحيّرت في أمرها ، واشتد حزنها ، وغلى مِرْجل غيظها ، وجلست حانقة ساخطة . ولكنها ما لبثت أن سمعت صوتاً يَرنُّ صداه في أذنها . فبدّد الصوتُ مخاوفها ، وكفكف دموعها ، وناداها من تحتها : (ألا تحزَني قد جَعلَ رَبُّكِ تحْتَكِ سرِيّاً[3]) ، يجري ماؤه في تلك البقعة الجرداء (وهُزّي إليك بِجذع النخْلةِ تُساقط[4] عَليكِ رُطَباً جَنِيّاً) ، فكلي منه ليعيد إليك بعض ما فقدتِ من قوّة ، وقرّي عيناً ، واطمئني قلباً ، بما تَرين من قدرة الله التي أخضر بها جذع النخلة اليابسة ، وطِيبي نفساً بما حباك الله من جَريَان الماء في تلك البقعة المقفرة .

قد كانت تلك المعجزة[5] ــ بلا شك ــ أقوى دليل على براءتها وأسطع بَرهان على طُهْرها ، وقد كانت آية بينة تردُّ بها قذفَ القاذفين ، وعيب العائبين . ولكنها إنما تدفع بها

---

(١) المخاض : وجع الولادة .

(٢) فأجاءها : فألجأها .

(٣) السري : الجدول .

(٤) تساقط : تسقط .

(٥) المعجزة : هي الأمر الخارق العادة .

التهمة، وتقيم بها الحجة على من يحاجّونها في هذا المكان الذي أجاءها المخاضُ إليه، وهي تريدُ الجواب الذي تجيب به لُوّامها، والزّارين[1] عليها، والمعيِّرين لها، وهم الذين سيستقبلونها في القرية، ويَسلُقونها بألسنة حِداد. لذلك لم تتبدد مخاوفها، ولم تنقشع سَحابَةُ حزنها.

وكأن ذلك المولود الصغير، وقد أطْلعَهُ الله على سبب حيرتها، وكشف له عن دخيلة نفسها. فكفاها الكلامَ بما يبرئها، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجَّه إليها. فقال: (فإمَّا ترينَّ مِنَ البشرِ أحَداً فقُولي إني نذَرْتُ لِلرّحمن صَوْماً فلن أكلِّمَ اليوْمَ إنسِيّاً).

اطمأنّت نفسها، وعاد إليها ما عزَب[2] من لُبِّها، واستجمعت قوّتها، ورجعت الى القرية، وأتت به قومها تحْمِله. وسرعان ما شاع أمرها، وعُرف خَبرها، فَسرَحُوا في عرضها، وتحدثوا في طهرها، وأخذ بعضهم يوجه اللوم إليها، ويشتد في تأنيبها وتقريعها، ويُذكّرها بشرف أسرتها، وكرم مَحتِدها[3]، فقالوا: (يَا مَريمُ لقَدْ جِئتِ شيْئاً فرِياً[4]. يا أختَ هَارُونَ مَا كانَ أبُوكِ امْرأ سَوْء ومَا كانتْ أمُّكِ بَغِيّاً).

لم تنفرج شفتاها، وعَقدَ الحياءُ لسانها، فالتزمت الصمت، وأبت الكلام، وقالت: إني نذرتُ للرحمنِ صوْماً، فلن أتكلم بكلمة أو أردّ سؤالاً. وإن أردتم الوقوف على جَليَّة الأمر فها هو ذا — وأشارت الى الغلام، أن كلِّموه! فعجبوا من أمرها، وسخروا من إشارتها، وقالوا: (كيف نُكلم مَن كان في المهدِ صبيّاً).

ولكن الله أنطق لسان ذلك الصغير[5]، وأطلق الصوت من تلك اللَّهاة التي لمَّا يكتمل تكوينها بعد، وحرّكَ تلك الشفاه التي لم تهتد الى موضع الأثداء! فالتفت الغلام موجِّهاً إليهم الخطاب في وضوح وبيان، ولكنه لم يتحدّث إليهم فيما وجّهوه الى أمه من

---

(١) الزارين: العائبين.

(٢) عزب: بَعُد وغاب.

(٣) محتدها: أصلها.

(٤) فريا: جديداً منكراً.

(٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريج. رواه ابن كثير.

لوْم ، أو يجادلهم في تهمتهم التي ألصقُوهابتلك البارّة ، بل قال : (إني عَبْدُ اللهِ آتانيَ الكتَابَ وجَعلني نَبيّاً ، وجَعلَني مُبارَكاً أينما كنْتُ وأوْصاني بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً . وبَراً بوالدتي ولَمْ يَجعلني جَباراً شقيّاً . والسلام عَليَّ يَوْمَ وُلِدتُ و يَوْمَ أمُوتُ ويَومَ أبْعثُ حيّاً) .

أتراه بعد هذا في حاجة الى دليل يَمحق باطلهم ، أو برهان يبيّن كذبَهُم ! ألم ينطقه الله بالحكمة ، ويُعدّه للنبوة ، وهو لم يزل في المهد صبياً ، وفي حِجْر أمه طفلاً ؟ قد كان هذا آية على براءتها ، ومعجزة دالّة على طهرها ؛ إذ القدرة التي أنطقته بالحكمة في هذه السنّ لا تَعْجز عن خلق مثله من غير أب . فبكَلمة منه خُلِق فلْيكفُّوا إذاً عن لومهم ، وليتجنبوا الخوض في عِرْضها ، وإشعال الفتنة حولها .

ولا نظن إلا أن هذا الصوت قد بَهَرهم ، وتلك الآية أخرست ألسنتهم ، وأن هذه الحكمة من طفل في مَهْدِه قد ذاع أمرها في القرية ، وانتشر خبرها في هذه الحِلّة[1] ، وصارت حديث الناس في دورهم ، ومجال القول في أنديتهم . فأكبروا من شأن هذا الوليد ، وبدّلوا بظنهم السيءَ يقيناً ببراءتها ، وعلموا أن هذا الصبي ليس كصبْية القرية ، بل سيكون له شأن خطير ، وخطب جليل .

وليس لك أن تتصور أن هذا هو ما اعتقد الناس جميعاً ! فمحالٌ أن تجتمع كلمتهم على شيء ، بل إني لأرَى بعضهم قد ظنه حديثَ خرافة ، أو حسبه شيئاً ابتدعه أهلها ، رغبة في إظهار براءتها وسَتْر فعلَتها ، وحبّاً في قطع ألسنة السوء التي شُواظها يُلْهبهم ويؤذيهم . ولا شك أن هؤلاء الذين لم تقْرَع أسماعَهم الحجة ، ولم يمح شكهم البرهان الواضح كانوا قِلَّة ، وكانوا من الجهالة بحيث لا ينصاعون للحق ، ولا تبدد وساوسهم الحجة البالغة ، والآية البينة ، فلم تستسغ عقولُهم أن الله الذي يُمْسك السموات والأرض أن تزولا ، وبيده ملكوتها ، قادر على أن يخلق إنساناً بكلمة منه ، وأن ربهم الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون يستطيع أن يخالفَ المنهج الذي ألفوه ، والطريق الذي اعتادوه .

---

(١) حلة القوم : البيوت .

وخَـلْق هذا شأنهم أجدر بأن تنبذهم نَبْذَ النواة ، وأولى ألا تقيم لكلامهم وزناً . ولا لرأيهـم قدراً . ولعل حقـداً نَـشِب[1] في صـدورهـم ، وغِـلاً تمكن من نفوسهم ، فأعمى أبصـارهـم ، وطبع على قلوبهم ، لذلك نراها لم تحتفل[2] بتلك الفئة القليلة الظالمة ، ولم تُـعْـنَ بتلك الجماعة المكابرة ، وأقامت في القرية تُـعْنى بطفلها ، وتُـرَبّي وليدها ، قريرة النفس ، منشرحة الصدر ، لأنها تعلم أن الله سوف يكلؤه[3] برعايته ، ويحفظه بعنايته ، حتى يؤدّي رسالتـه .

نبوة عيسى (*)

نـشـأ عيسى كما ينـشأ كثير من الأطفال ، وشبّ كما يَشِبّ جُلُّ البنين ، إلا أنه قد ظهرت بـوَادرُ فضلـه ، وبدت مظاهر نبوّته . فهو إذ يلعب مع لِداته ، ويلهو مع أقرانه ، ينبّئـهُم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم . وهو إذ يذهب الى معلّم القرية ، ويجلس إليـه ، لا يَنهَجُ منهج غيره ، ولا يسلك سبيل أنـداده ، بل تراه يستمع الى حديثه في جدّ واهتمـام ، ويُصغي الى دروسـه في شوق ولهفة . ثم هو لا يعلّمه شيئاً إلا بَـدَرَه[4] إليه ، وسَاءَله عنه ، فلا تغيب عنه شاردة ، ولا تنبو عن ذهنه مسألة .

ثم يـرحل الى بيت المقدس مع أمه . ولم تعْـدُ[5] سنُّـه الثانية عشرة من عمره ، فلا يَبهره مـا يـرى من جماعات مختلفة ، وألوان من الناس متباينة ، ولا يفتنه ما يقع عليه بصرُه من مشاهـد رائعة ، ومظاهر خلابة ساحرة ، ولم تُـلْهه تلك المدنيّـة بزيفها ، أو يَـزُغْ بصره من زخـرفهـا . وهو في هذه السنّ التي هي في مجرى العادة لا توحي إلا بالعبَث ، ولا تدفع إلا

---

(١) نشب : علق .
(٢) لم تحتفل : لم تبال وتهتم .
(٣) يكلؤه : يرعاه .
(*) آل عمران ٤٩-٥١ .
(٤) بدر اليه : استبق اليه .
(٥) لم تعد : لم تجاوز .

الى اللهو، ولكنه يُغضي عن كل ذلك، ويلقي بنفسه في ميدان العلم، يستقي من مَوْرِده، ويرتوي من مَنهله، ويلزَم حلقة الدرْس يصغي لمن اتخذوا لأنفسهم سمْت العلماء، وهم يُزَخْرفون للناس أحاديثهم.

ولما اندمج في جماعتهم، واحتوته حَلْقتهم، أنصت الى حديث الكهنة كما ينصت الناس، واستمع الى آرائهم كما يستمعون، فوجَد القوم يؤمنون بكل قول، ويصدّقون كل حديث، وهم جميعاً ينصتون كأنّ على رؤوسهم الطير. فلم يلبث أن انبرى من بينهم متسائلاً، وانتضى سيفَ الحق مقاتلاً. فنقم[1] بعض الناس منه جرأته، وأنكروا عليه مسألته، وضاق العلماء به ذَرعاً، وأوسعوه تأنيباً، إذ لم يعهدوا قبله أن يجترىء أحد على جِدالهم، أو يُقْدم سامع على البحث في قولهم.

ولكنه لم يعبأ بما كالوا له، ولم يصرفه ما قابلوه به، بل استمرّ يُمطِرهم بأسئلته ويسد المسالكَ أمامهم بمحاجّتِه.

وأنساه ذلك طعامه، وألهاه عن شرابه، وانتظرت أمه أوْبتَه[2]، ولكنه لم يرجع، فبحثت عنه في كل مكان تظنه يهواه، وفتشت عنه في كل مَجال تحسبه يَرُوده، ولكنها عادت يائسة من لقائه، ورجعت غير آملة في العثور عليه.

ولما أعياها البحث ظنته قد رجع مع بعض أقاربه، أو سافر به بعض أهل بلده، فعادت الى قريتها، وهي تحسب أنه قد سبقها إليها. وسألت عنه فلم تجده، وحاولت أن تقفَ على خبره، وتتسمّع نبأه، ولكنها لم تجد صدى لصوتها، ولا أثراً لندائها، فقفلت راجعة الى بيت المقدس تعيد الكرّة في سؤالها، وتطلب المزيد من بحثها.

ولم تترك في هذه المرة مكاناً إلا دخلته، أو باباً إلا ولجته، وبينما هي مجدّة في بحثها، وقعت عليه عيناها، وقد اندمج في زُمْرة العلماء، وزجّ بنفسه في لجة الباحثين. وهو يكثر معهم الحوار، ويتطاول عليهم في الجدال، فدهشت لما رأت، وأزعجها ما شاهدت،

(١) نقم: غضب وحقد.

(٢) أوبته: رجوعه.

ودعته إليها، وساءلته عما ألهاه عنها، وأنّبته لفعلته، وعنّفته لغيابه، ولامته على أنه قد أتعبها في البحث عنه، وأضناها في السؤال عن مكانه. فأجابها بأنه قد استهوته مُناقشة الحكماء، ومناقلة العلماء.

ثم سار مع أمّه، ورجع الى «الناصرة[1]».

ولما بلغ الثلاثين من عمره هبط عليه الرُّوح[2] الأمين، فكان ذلك بَدْءَ الرسالة، وفاتحة النبوّة. ثم تَلَقّى عيسى من ربه الكتاب الذي جاء مصدّقاً لما بين يديه من التوراة، فأخذ يؤذّن في الناس برسالته، ويدعوهم الى متابعته، ويسعى في أن يرد اليهود عن زَيْغِهم، ويصدّهم عن ضلالهم... فقد انحرفوا عن الطريق القويمة، وحرّفوا شريعة موسى السمحة، وجعلوا همهم جَمْعَ المال. فصاروا يحرّضون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكل ما استطاعوا من نذور، ويُؤثرون بما ملكت أيمانهم من هِبات، ليسيل النُّضار[3] الى جيوبهم، ويتدفق الذهب في خزائنهم، وإن كان من يحرّضونهم في أمسّ حاجة الى المال: يعولون به آباءهم، ويمسكون به رَمَقَهم[4]، ويسترون به أجسامهم.

وكان من اليهود طائفة أنكروا القيامة، واستبعدوا الحشر، وكذبوا بالحساب والعقاب، وطائفة غيرهم ألهتهم الحياة الدنيا، وانغمسوا في ملاذها، وأقبلوا على شهواتها يَستسرون بها ويَتسترون عن أعين الناس وهم يقترفونها، يُراءُون الناس، ليوقعوهم في مخالبهم ويبتزّوا أموالهم.

هذه كانت الحال عندما بزغ نجم عيسى، وأشرقت شمسه، وبعثه الله ليخرج قومه من الظلمات الى النور، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه، ولا باباً إلا طرقه: يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة، ويخلصهم من تلك الحَمَأة.

وشعر رجالُ الدين بالتيار يَجرفهم، وأحسوا بالخطر يدهمهم، فها هو ذا عيسى ينكر

---

(١) الناصرة: البلدة التي نشأ بها.

(٢) الروح الأمين: جبريل.

(٣) النضار: الذهب.

(٤) رمقهم: حياتهم.

عليهم انغماسهم في الشهوات ، وتهالكهم على اللذّات ، وتسابقهم الى جمع المال ، ثم هو يفضَح أسرارهم ، وينشر بين الناس مخازيهم !! فأجمعوا أمرهم بينهم على مناوأته[1] أينما حلّ ، وتكذيبه حيثما ذهب .

ولكنه لم يبالِ جمعهم ، ولم تثنيه مناوأتهم ، بل صمد في سبيل الحق ، وثبت لدعوة الصدق ، وسار متنقلاً بين القرى يزيّف آراءهم ، ويفنّد أقوالهم . فطالبوه بما يؤيد رسالته ، ويثبت دعوته ، ويدلهم على نبوته . فأيده الله بالمعجزة الباهرة ، وآزره بالآية البينة ، فصار يَخلُق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ويبرىء الأكْمَه[2] والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله[3] .

ولا شك أن ذلك أمراً لا يستطيع أحد أن يعالجه ، ولا يقدر بَشَر أن يأتي به إلا بتأييد من الله ، ونَصرٍ من عنده . ولكنهم مع قيام حُجّة عيسى ، ووضوح آيته ، تمادوا في طغيانهم ، وثبتوا على ضلالهم ، وقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين .

ثم وجدَت دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية عند كثير ممن لم تفتنهم زخارف الدنيا ، ولم تمتدّ أعيُنهم الى متاعها . ودفعته الحميّة لدينه ، الى أن ينقضّ على رجال الدين في حُجْرهم ، ويَقتحِم عليهم حِصنهم . فرحل الى بيت المقدس ، واختار يوم عيدهم ، ووقت اجتماعهم ، وعرض دعوته على الوافدين من شتى القرى ، والنازحين من مختلف المدن . فالتفّ الناس حوله ، وتفتّحت قلوبهم لحديثه ، وكثُر أنصاره ، وانتشر أتباعه .

فأثار ذلك حفيظة[4] الكهنة ، وحرّك كامن غيظهم ، ودفعهم الى التفكير فيما يريحهم منه . ويكفيهم شره . ولكنهم لم يستطيعوا أن يمسّوه بأذى ، أو ينالوه بضرر ، فقد وعد الله بحفظه ، وأيّده بنصره . (ومَكَرُوا .. ومَكَرَ الله ، والله خَيرُ الماكِرينَ) .

---

(١) الأكمه : الذي ولد أعمى .
(٢) مناوأته : معاداته .
(٣) آل عمران ٤٩ .
(٤) الحفيظة : الغضب .

المائدة (*)

خرج عيسى يَجُوب[1] البلاد ، ويجول في القرى : يدعو الى دين الله ، ويؤذِّن في الناس برسالته ، ويحاول أن يقوِّض صروح الظلم ، ويطمسَ معالم الشرك . وكان معه الحواريون[2] ، يشُدّون أزْره ، ويشتدّ بهم عضده ، ويقاسمونه سروره ، ويخففون عنه أحزانه ، ويحتملون معه وعثاء السفر ، وشظف العيش ، ويحولون بينه وبين أعين الرقباء الذين يتبعون ظله أينما سار ، ويطاردونه حيثما حلّ . فقد كان عيسى من أسرة قلّ أعوانها ، وعز نصراؤها ، وخمدت جَذْوة العصبية فيها ، وللعصبية أثرها في دفع المعتدين ، وردّ كيد الظالمين : ألم يقل قوم شُعيب لنبيهم : (ما نفقَهُ كثيراً مما تقولُ وإنا لنرَاك فينا ضعيفاً ولولا رَهْطُكَ لرجمناك وما أنت علينا بعزيزٍ[3]) .

أقاموا بقرية ، وارتحلوا الى أخرى ، وتلبّثوا بثالثة ، وحَطُّوا رحالهم بغيرها ، وهكذا حتى أدّت بهم خاتمة المطاف يوماً الى مَفازة[4] ، مترامية الأطراف ، وقد أجدبت أرضُها ، وأقفرت جنباتها ... هناك طوَوا[5] من الجوع ، وجفّت منهم الحلوق ، ووهنت قوّتهم ، وفترت عزيمتهم ، واشتد بهم الكلالُ والإعياء . فنزلوا على غير ماء وطعام ، وجلسوا يتبادلون الحديث في شؤونهم ، ويقلّبون وجوهَ الرأي في أمرهم ، علّهم يهتدون الى خير الطرق لبثّ دعوتهم ، ومغالبة الصعاب التي تعترضهم ، والنجاة من الأعداء الذين يترصّدونهم . وكان عيسى يحيي آمالهم ، ويَشْحذ عزيمتهم ، ويخفف آلامهم ، ويواسي المكتئب منهم ؛ ثم لا يفتأ يبيّن لهم ما اسْتَغلق عليهم فهمُه ، ويوضح ما انْبهم أمامهم أمره .

(*) المائدة ١١٢-١١٥ .

(١) يجوب : يتجول .

(٢) الحواريون : خلصاء عيسى وأنصاره .

(٣) هود ٩١ .

(٤) المفازة : الصحراء المقفرة .

(٥) طووا : خلت بطونهم .

وهؤلاء الحواريُّون ــ وإن كانوا قد شَهدوا برسالته، وآمنوا بنبوّته، واجتمعوا تحت رايته، واستماتوا في سبيل نُصرته ــ لا يزالون في حاجة الى أن يزدادوا يقيناً الى يقينهم، وإيماناً الى إيمانهم.

وجاشت تلك الرغبة في نفوسهم، فلم يلبثوا أن كشفوا لعيسى عما اختلج في صدورهم، فقالوا: يا عيسى، هل يستطيع ربُّك أن يُنزل علينا مائدة من السماء!

لم يكن ذلك منهم شكّاً في قدرة الله، أو طعناً في نبوّة عيسى، فحاشاهم أن يكونوا من الشاكّين في قدرة الله، أو المرتابين فيها، بعد أن آمنوا بالله وبرسوله وقالوا لعيسى: آمنا واشهَدْ بأننا مسلمون، أسلمنا لك قيادنا، وألقينا اليك مقاليدنا.

وقوم هذا شأنهم لا يسلك الشك سبيلاً الى نفوسهم؛ وإنما سألوه تلك الآية كما سأل إبراهيمُ ربّه من قبل، إذ قال: (رَبِّ أرِني كيفَ تُحْيي المَوتى. قال: أو لمْ تؤمِن؟ قال: بَلى، ولكن لِيطمَئِنَّ قلبي[1]).

قال لهم عيسى، وقد عجب من أمرهم، وخاف عاقبة سؤالهم: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، واحذروا أن تقترِحوا أمثال هذه المعجزات، لئلا تكون فتنة لكم، وسبباً في فسادِ أمركم، أو لم تَرَوْا ما تطمئن به نفوسُكم، ويزيل كل شَك تُحسُّونه في قلوبكم!

إن ذلك قد ينبيء عن عناد ومكابرة؛ فما لكم تقترفون هذا الإثم، وترتكبون ذلكم الجرم، وتطلبون تلكم المعجزة بعد أن رأيتم ما أجرى الله على يدي، من إبْراء الأكمَه[2]، والأبرص، ثم ما شاهدتم من إحياء الموتى بإذن الله؟ فهل انتابكم الشك، وداخلكم الرَّيب، وتسرّب الى نفوسكم الظن، بعد أن رأيتم من الآيات ما يمحَق كل باطل، ويَمحُو كل شك! يا قوم، دعوا هذا اللجاج[3]، واتركوا تلك الوساوسَ إن كنتم مؤمنين.

هدّءوا روعه، وسكّنوا من جأشه، وأبانوا له عن حقيقة الأمر وجَليّتِه فقالوا: قد

---

(١) البقرة ٢٦٠.

(٢) الأكمه: الذي ولد أعمى.

(٣) اللجاج: الخوض في الباطل.

كنا صادقين في إيماننا ، مخلصين في إسلامنا ، ولسنا منكرين لآياتك ، أو شاكّين في رسالتك ، ولا زلنا مُقرّين بنبوتك ، مؤمنين بدعوتك ، وما دَفعنا الى انتهاج هذه الطريق ، وحملنا الى اختيار تلك الآية ، واقتراح هذه المعجزة إلا أن لها فضلاً ومزية . فنحن نريد أن نأكل منها[1] ، ألم ترنا وقد خَوَتْ منا البطون ، وأصبحنا لا نجد ما يمسك رمقنا ، ويخفف من سغَبنا[2] !

على أننا قد علمنا قدرة الله بالدليل ، وشاهدنا آثاره بالبرهان ، وعرفنا آياته بقراءة صُحُف الكوْن ، فآمنا به ، وصدّقنا برسالته إليك . فإذا جئتنا بتلك المعجزة اطمأنت قلوبُنا ، وازداد يقيننا ، وثبت إيماننا .

ولتعلم أننا على يقين أنّ معجزاتك تشفي أمراضَ القلوب ، وتستأصل بذورَ الشك ، وقد سبق أنّ أيّدت لنا نبوّتك ، وعلمنا بها صِدْق دعوتك ، فلن ترى منا شكاً ، ولن تجد انتقاضاً ، وإنما سألنا هذه الآية ليزداد الدليل وضوحاً ، والقلب اطمئناناً ، والجَنانُ ثبوتاً .

حنانيك ! فإننا نعلم أنك صدقتنا ، واستمددت وحْيَكَ من ربنا ، وأن الله مؤيّدك بنصره ، مُسْبِغ[3] عليك نعمته ؛ ولكن معجزاتِك السابقة كانت أرضية ، وهذه الآية التي نطلبها سماوية ؛ سنرى بها أعظم مما رأينا وأعجبَ مما شاهدنا ، فإذا أتيتَ بها كنا لها مُذيعين ؛ وبخبرها شاهدين ، فيكثر تابعوك ، ويزداد المؤمنون بك .

ولما رأى عيسى منهم إصراراً على طلبها ، وإلحافاً[4] في سؤالها ، وعلم أنهم لا يقصدون الى عَنَت ؛ ولا يدفعهم إليها شك أو عِناد ، وتبين له صحة قصدهم وصوابُ غرضهم ، دعا الله تعالى فقال : اللهمّ يا مالك الملك ، ومدبّر السمٰوات والأرض ، ومتولي شؤون

---

(١) قال بعض المفسرين : إنهم كانوا صائمين ، ولذا قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا بأن الله قبل صيامنا .

(٢) السغب : الجوع .

(٣) مسبغ : متم .

(٤) إلحافاً : إصراراً .

خلقك و ومسيّر أمور عبادك (أنزلْ علينَا مائدة من السماء تَكون لنا عِيداً لأ وّلنا وآخِرَنا وآية مِنْك وارْزُقنَا وأنْتَ خَيرُ الرّازقين) .

أجاب الله دعاءه، وسمع ضَراعته ، فقال : إني منزّلُها عليكم ، ليزدادوا إيماناً بك وثقة بنبوّتك، ولكن ليعلموا أنّ هذه الآية تُلزمهم الحجة ، وتوحي إليهم بالبرهان الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، فمَن يكفر بعدُ منهم فإني أعذّبُه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين .

أنزل الله عليهم مائدة من السماء ، فاضت بالرزق السابغ ، والخير الوافر ، إنجازاً لوعده ، وتأييداً لنبيّه ، واستجابة لدعوته . وخشي عيسى الفتنة إذ رآها ، فدعا الله أن يجعلها رحمة لهم ، ونعمة عليهم ، وسأل ربّه أن يهديَهم الى الإيمان الثابت والطريق القويم ، ثم قال لهم : ها هي ذي المائدة قد أنزلها الله عليكم ، فكُلُوا مما سألتم ، واشكروا له ، يزدكم من فضله .

طعِموا منها ما شاءوا ، وقرّت بذلك أعينهُم ، وقويَ إيمانهم ، ثم تحدّث الناس بتلك المعجزة الباهرة ، والآية البينة ، فآمن خلقٌ كثير ، وازداد المؤمنون يقيناً في الإيمان وثباتاً عليه .

النهاية (*)

كان عيسى جادًّا في رسالته ، غير متوانٍ في دعوته : ينكر على اليهود ما دَرجوا عليه من النظم التي درّت عليهم الأموال الطائلة ، وجعلتهم في بَسطة من العيش وسَعة ، ويعيب عليهم أن تستعبدهم دولة الألفاظ ؛ وتأسِرهم ظواهر الشريعة ، وينعي عليهم أن يطمسوا معالم الدين ، ويبعدوا عن صراطه السويّ ، ويبين لهم أن ما هم عليه لا يوافق ما يدعو إليه ربهم .

(*) آل عمران ٥٥ ، النساء ١٥٧-١٥٨ .

ولم يَثنه عن مُنَاوَأتهم ما أعلنوا من حروب ، وما ألّبُوا من جموع ، وما بثّوا من عيون .

حتى إذا قهرت البينات ألبابَهم[1] ، وبهرت الآيات بصائرهم ، وخَصَم[2] نورُ الحق حجتهم ، لم تجد عقولهم سبيلاً الى دفع حقه ، أو طريقاً الى مغالبته وصدّه ، ولكنهم مع ذلك كذّبوه بأفواههم وبألسنتهم ، بغياً وعداوة ، وحسداً ولجاجة ، يخافون أن تبيد دولتهم ، وتميد عروشهم ، وتُطوَى صحيفة سلطانهم .

وكثُر مع ذلك أتباعه وأنصاره ، وإن كانوا من طبقات دُنْيا ، وأخلاط جاهلة .

حاول اليهود أن يخفّفوا من أثر دعوته ، أو يموّهوا على الناس أمره فلم يستطيعوا . فقد كان كالفلك الدائر ، والنَّجْم السائر ، يُدَوّي صوته بالدعوة الى الله في كل مكان ، ويَنقِم على اليهود حيثما حلَّ .

بل كان يجهّل أحلامهم . ويفنّد مذاهبَهم . حتى غضبوا عليه ؛ وضاقوا ذرعاً به فصوّروه لرجال السياسة مُؤلّباً للجموع ، مثيراً للفتن ، متطلعاً للملك ؛ لينضم هؤلاء تحت لوائهم في معاداته . وفي ذلك شفاءٌ لنفوسهم ، وتحقيقٌ لآمالهم .

وعيسى على كل حال وحيد فريد ؛ ليست له عصبية تحميه ؛ ولا قبيلة تؤازره وتنصره ؛ ولكنه لا يحفل بغضب هؤلاء ، ولا يرهب عَنَت أولئك ، فقد تكفَّل الله بحفظه ، ورعاه بقدرته ، وطهّره من الكافرين بدعوته ، وعصمه من الجاحدين برسالته ، ووعده أن يُحبط مكرَهم ويردّ كيدهم في نحْرِهم .

هال اليهود ما رأوْا من تألُّبِ الناس عليهم وانصرافهم عنهم ، وخيّلت لهم نفوسهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنة ، وتكاد تشبُّ من بين أنصاره الثورة ، مع أنه قد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ولكن أين هم منها ! وقد بدّلوا نعمة الله كفراً ، وأحلّوا قومهم دارَ البَوار ، واستبدلوا بدين الله ما ينمّي ثروتهم ، ويغدق الخيرَ عليهم ، ويبقي السلطان في أيديهم ، وزمام الشّعْب في حَوْزتهم .

---

(١) ألبابهم : عقولهم .

(٢) خصمه : غلبه .

ولما يئسوا من مقاومته، وعجَزوا عن صدّ تيار دعوته ــ وقد كاد يجرفهم ويمحو أثرهم ــ بثّوا العيون والأرصاد له في كل طريق، يَنْفُثون سموم الدسائس ويحيكون له خيوط العداء، ويذيعون أنه ساحر، وأن ما يُظهر من معجزات، وما يدّعي من آيات إنما يمليه عليه الشيطان، وأنه لا ينحو نحوهم، ولا يقتفي[1] أثرهم، فلا يكفّ عن أعمال الدنيا في يوم السبت، وهو يوم عيدهم وعبادتهم. ثم رمَوه بالبعد عن دينهم، والكفر بنبيهم، والمرُوق من عقائدهم.

ولكن ذلك لم يَخْفِت من صوته، ولم يَثنه عن عزمه، بل دَأبَ في دعوته، واستمر يؤذّن برسالته، وهم يخالون كل كلمة سَهْماً، ويحسون لكل همسة وقعاً. فلاكت الألسنة الحديثَ في شأنهم، وابتدأت الجماعات تنفضُّ من حولهم. خاف هؤلاء أن ينْضَب معين ثروتهم، وتنقطع موارد أرزاقهم، فقلّبوا وجوه الرأي، ثم أجمعوا أمرهم بينهم على أن يُبيدوا أصلَ الداء، ويستأصِلوا شأفته، وبيتوا له الشر، ودبّروا القتل، حتى لا يتألب الناس عليهم، وينتقضوا على سلطانهم.

وما كان أجهلهم بدين الله، وأبعدهم عن صراطه، حين هموا بقتل نبيّ يؤمن بكتابهم، ويقرّ دينهم، وهو لم يجترم[2] جرماً إلا دعْوَتُهمْ الى التزام حدود الله، ونَبْذ المآثم والذنوب، ولم يقترف إثماً إلا أنه رغب في أن يردّهم الى حقيقة الدين، ودعاهم الى حسن القيام به وحثهم على الإخلاص له.

عقدوا العزم على قتاله. ولكنْ أنى لهم ذلك، وهم لا يعرفون مكانه، ولو أنهم بحثوا عنه بأنفسهم لأعياهم البحث، بل لرَجعوا بالحسرة وباءوا بالخيبة! إذن فليلجئوا الى الوعود الكاذبة، والأماني المعسولة، يبذلونها لمن يأتيهم به، وليَركنُوا الى العيون يبثُّونها حوله، والى الأموال يغدِقونها على من يَدُلهم عليه، وأخيراً الى الوالي يُثيرون غضبَه، ويوهمونه أنّ في دعوة عيسى زوالاً لملك قيصر، وتقويضاً لسلطانه.

---

(١) يقتفي : يتبع.
(٢) يجترم : يرتكب جريمة.

واجتمع رجالُ الدين في بيت المقدس يجيلون الرّأي في أمر عيسى ، لعلهم يهتدون الى مكانه ، فيثأروا لأنفسهم منه ، ويشفوا غلهم ، ويدركوا وترهم .

وبينما هم في اجتماعهم — وقد ضاقت بهم السبُل ، وتملّكهم الحزن واليأس ، وحاروا في أمرهم ، وخافوا أن تضمحلّ دولتهم وتزول عروشهم ، وينصرف الناس عنهم — وبينما هم في هذا الحزن الشامل ، وذلك اليأس القاتل ، دَلفَ الى الحارس[1] رَجلٌ من أتباعه ، يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرى ، وأسرّ إليه في خوف وحذَر ، أن لديه أمراً يريد أن يُفضي به الى المجتمعين .

ولما دخل عليهم أقبلوا عليه يستنبئونه عن حاجته ، ويسألونه عن سبب مَقدَمه فأفضى إليهم بما سكّن اضطرابهم ، وأذهب خوفهم ، وأدخل السكينةَ الى قلوبهم ، وحدّثهم أنه إنما أهمّه خروجُ عيسى عن دينهم ، وأقضّ مضجعه إنكارُه نظمهم ، وأقذى عينيه أن يرى الناس يَلتفون حوله ، ويؤيدون دعوته . ثم أبدى — في حذر واضطراب — رغبتَه في أن يدلّهم عليه ، ويعرفهم بمكانه ، ليريحَهم من مصدر كَمدهم ، فيصفو عيشهم بعد كَدره ، وتستقرّ حالهم بعد قلقها .

وما كاد يُتم كلامَه حتى تنفّسوا الصُّعَداء ، وطَفَحت وجوههم بالبِشْر ، وأقبلوا عليه يمنُّونه الأماني ، ويبسطون له واسعَ الآمال فاطمأنَّ الى حديثهم ، وطابت نفسه بمعسول كلامهم ، ولعلّه كان كذلك يشفي غلاً نَشب في صدره ، أو حقداً عَلِق في قلبه .

ذهبوا به الى الوالي ، فقص عليه القَصص ، وخبّره بمكنون أمر عيسى ، فابتعث مع ذلك الشيخ جنداً يأتون بعيسى ، ليقضوا فيه أمرهم ، وينفذوا حكمهم .

وكان عيسى حينذاك قد عَلِم ما يُخفي القوم ، وما بيّتوا له من شر ، وانتهى إليه ما أجمعوا أمرهم عليه ، وعرف أن عيونَ الكهنة تترصده ، ورجال السلطان يجدّون في البحث عنه ، فأخذ ينتقل من مكان الى مكان ، يختفي حيناً ويظهر آناً ، وهو لا يني عن بثّ

---

(١) هو يهوذا الأسخريوطي .

دعوته ، ولا يقصر في إعلان رسالته ، ولا يفتأ يحضُّ على التمسك بحبل الله ، ويدعو الى البعد عن المنكرات والآثام ، وتلاميذه لا يفارقون ظلّه ، ولا ينأون عنه .

وآوى معهم يوماً الى بستان يسكنون إليه ليلتهم ، وظنوا أنهم بمنجاة عن العيون ، ولن يهتدي الى مكانهم الباحثون . ولكنهم كانوا واهمين ، إذ لم يكد يجنهم[1] الليل ، ويسترهم الظلام ، حتى تهدّى الباحثون الى مكمنه وعثروا عليه في مخبئه ، فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم .

ولما رأى التلاميذ ما كاد يحيق بهم وبصاحبهم تركوا نُصرته ، وانفضّوا من حوله ، وولوا هاربين .

أما عيسى فما كان الله ليسلمه الى أعدائه ، وهو يجاهد في سبيل إعلاء دينه ، وقد أيده بالمعجزات ، وآزره بالبينات ، ووعده بنصره على أعدائه ، ونجاته من كيد الكائدين .

في هذه الساعة الرهيبة الفاصلة ، تجلت قدرة الله ، وامتدّت إليه يد العناية ، فأخفاه الله عن أعين الناظرين ، ووقع تحت بصرهم رجل شديد الشبه به ؛ وما لبثوا أن حسبوه هو فانقضوا عليه ، وأخذوا بتلابيبه . فتملكتْه الدهشة ، وعقد لسانه الخوف ، فلم يستطع الدفاعَ عن نفسه ، ولا الإعلان عن حقيقة أمره بل استسلم خائفاً مذعوراً . ولا غروَ[2] فالجماعات وقت انفعالها واضطرابها لا تتحرّى ولا تستكْنه الأمور ، بل سبيلُها التسرع والاندفاع ، والاكتفاء بما يشبه الدليل والبرهان ، بلا رويّة ولا إمعان .

ذلكم الرجل هو يهوذا الذي دلّهم عليه ، فردّ الله كيده في نحره ، وجازاه على خيانته ومكره .

فاستاقوه الى ساحة صُلبَ فيها بين الصخب والضجيج ، والفرح والتهليل ، وهم

---

(١) يجنّهم : يحتويهم .

(٢) لا غرو : لا عجب .

يزعمُون أنهم قتلوا عيسى . (ومَا قتلوهُ ومَا صلبُوهُ ، ولكن شُبِّهَ لهُم وإنَّ الذين اختلفُوا فيه لفي شَكٍّ مِنْه ، مَا لهم بِهِ من عِلْم إلا اتِّباعَ الظنِّ ومَا قتلوه يَقيناً ، بَلْ رَفعَهُ الله إليه ، وكان اللهُ عزيزاً حَكِيماً[1] .

ذو القرنين (*)

فصَل ذو القرنين الى المغرب غازياً فاتحاً ، محارباً مجاهداً ، لا يصادف في طريقه حَزْناً[2] إلا سلكه ، ولا عالياً إلا ظهَرَه ، ولا عَدُوّاً إلا كسَّر سلاحه ، وقَصَّ جناحه : ولا يُبالي في الجهاد الحرّ ولا القَرّ ، ولا السهل ولا الوعر ؛ إذ كان الله قد مكّن له في أرضه ، ورزقه الطاعة والانقياد في جنده ، وآتاه من كل شيء يحتاج إليه في توطيد ملكه سَبَباً ، ومنحه في القتال حظّاً سعيداً ، وفتحاً مبيناً .

وما زال في طريقه يسير ويَسري ، حتى انتهى الى عين اختلط ماؤها وطِينُها . فتراءى له أنّ الشمس تَغرب فيها ، وتختفي وراءها ، وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو . ولا سبيل للجهاد . ولكنه رأى عندها قوماً هاله كفرهم ، وكبُر عليه ظلمُهم وطغيانهم ، إذ كانوا قد عَتوْا في الأرض ، وأكثروا الفساد ، وسفكوا الدماء : استجابة للشيطان ، وجرياً وراء نوازع النفوس . فاستخار الله في أمرهم ، وما يصنع بهم ، فخيره الله بين سبيلين يختار إحداهما ، ويسلك ما يريد منهما : إما أن يذيقهم القتل ويوقع بهم النكال ، جزاء كفرهم وطغيانهم ، وإما أن يُمهلهم ويدعوهم ، لعلّ منهم مَن يهتدي ، أو يرتدع ويرعوي . فاختار ذو القرنين الإمهال على القتل ، والحسنى على الإثخان[3] ، ثم قال :

---

(١) النساء : ١٥٧ و ١٥٨ .
(*) الكهف ٨٣-٩٨ .
(٢) الحزن ــ بالفتح : المرتفع من الأرض .
(٣) يقال : أثخن فلان في الأرض قتلاً ، إذا أكثر .

(أمَّا مَن ظَلمَ فسَوْف نُعَذِّبُهُ ثم يُرَدُّ الى رَبّه فيُعَذِّبُهُ عذاباً نُكْراً . وأمَّا مَن آمن وعَمِلَ صالحاً فله جَزاءً الحُسْنى . وسنقولُ لهُ من أمْرِنا يُسراً) . وأقام فيهم مدّة ، ضرب على يد الظالم ، ونصرَ المظلوم وأخذ بيد الضعيف ، وأقام عمود العدل ، ونشر لواء الإصلاح .

ثم بَدا له أن يَثني عِنانَ عزمه الى الشرق ، فسار غازياً مجاهداً ، منصوراً موفقاً ، حَسنَ الطالع ، مظفراً . حتى انتهى في سيره الى غاية العمران في الأرض ، وهناك وجد أقواماً تطلُع الشمس عليهم ، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم ، أو أشجارٌ تُظِلّهُم ، ولعلهم كانوا على حال من الفوضى ، ونصيب من الجهل ... فبسط على بلادهم لواءَ حُكمه ، وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه ، وخلفهم الى الشمال غازياً مجاهداً مظفَّراً منصوراً ، حتى انتهى الى بلاد بين جبلين ، يسكنها أقوام لا تكاد تُعرَف لغاتهم ، أو يفهم في الحديث مرماهم ، ولكنهم قد جاوروا يأجوج ومَأجوج ، وهم قومٌ في الأرض مفسدون ، وأوزاع من الخلق ضالون ومضلون .

وما إن رأوا ذو القرنين ملكاً قوي البأس ، شديد المِراس ، واسع السلطان كثيرَ الأعوان ، حتى فزعوا[1] إليه أن يقيم سداً بينهم وبين جيرانهم ، يفصل بلادهم ويحول دون عُدوانهم ، إذ كان يأجوج ومأجوج قوماً قد رُكبَ الشرُّ في نفوسهم جِبلَة ، وامتزج الفساد بين جوانبهم خلْقة ، السيف لا يمكنه أن يَرْدَعَهُم ، والنصح محال أن ينفَعَهم ، وشرطوا على أنفسهم نوْلاً يدفعونه إليه ، وأموالاً يضعونها بين يديه .

ولكنّ ذا القرنين ــ بما طبعه الله على الخير ، وما فطره على الصلاح وما أعطاه الله من كنوز الأرض وخيراتها ــ أجابهم الى سؤالهم ، وردّ عطاءهم ، وقال لهم : (ما مَكَّني فِيه رَبّي خَيْرٌ) . ثم طلب إليهم أن يعينوه على ما يفعل ، ويساعدوه على ما يصنع ، فحشدوا له الحديدَ والنحاس ، والخشب والفحم ، فوضع بين الجبلين قطع الحديد ، وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه ذائب النحاس ، واستوى كل

---

(١) فزعوا : هرعوا .

ذلك بين الجبلين سدًّا منيعاً قائماً ، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أنْ تَظهَره[1] لملاسته ، أو تَنْقُبَه لمتانته ، وأراح الله منهم شعباً كان يشكو من أذاهم ، ويألم من عدوانهم .

أما ذو القرنين فإنه لما رأى السدّ منيعاً حصيناً هتف من قرارة نفسه قائلاً :

(هذا رَحْمةٌ من رَبِّي . فإذا جاء وَعْدُ رَبِّي جَعلَه دَكَّاء[2] ، وكانَ وَعْدُ رَبِّي حقاً)[3] .

أصحاب الكهف (*)

خرج أهل أفْسوس[4] في يوم عيدهم ، يحتفلون بأوثانهم ، ويتقرّبون لأصنامهم ، ولكنّ شاباً من أشرافهم ، وأكرم بيوتهم ، لم تطمئن نفسه الى ما رأى ، ولم يسترحْ عقله الى الآلهة التي يعبدون ، فشكّ وارتاب ، واضطرب تفكيرُه وتحيّر ، ثم انسلّ من بين جموعهم ، وخرج مختفياً من صفوفهم ، حتى انتهى الى شجرة جلس اليها ، ساهماً[5] مطرقاً ، مرتاباً متحيراً .

وما لبث أن تهادى إليه آخر ، ممن ذهب مذهبه في شكه وحيرته ، واضطرابه وارتيابه ، وممن أشبهه في شرف عُنصره ، وكرف نِجاره ، ثم آخر وآخر ، حتى انتهى عددُهم الى سبعة . وما أسرع ما تعارَفتْ أرواحهُم ، وتعانقت آراؤهم ، وألّفتْ بينهم فكرة واحدة ، وإن لم يكنْ بينهم نسب جامع ، أو رحم ماسّة . وأعلنوا لأنفسهم شَكّهم وارتيابهم ، وإنكارَهم لآلهة أقوامهم . ثم جالوا في رِحاب الكون ببصائرهم النافذة ،

---

(١) تظهره : تعلو عليه .

(٢) الدكاء : الأرض المستوية .

(٣) يأجوج ومأجوج يعيشان على وجه الأرض يحملان لواء الحرب ضد الإيمان بالله تعالى خلقهما الله يمحص المؤمنين في كل زمان . وهذان الشعبان يشكلان أكثر أهل الأرض .

(*) الكهف ٩-٢٦ .

(٤) أفسوس : بلد بثغور طرسوس .

(٥) ساهماً : شارداً .

وفِطرهم السليمة حتى ضاءت نفوسهم بنور التوحيد، وهُدُوا الى الله منشىء الخلق وسر الوجود. واستراحوا الى هذا الدين واطمأنوا اليه، واتفقوا على أن يكتُموه بين جوانحهم، ويستروه في أعماق نفوسهم، إذ كان الملك وثنيّاً ممعناً[1] في الوثنية، مشركاً ظهيراً للمشركين.

وظل كلّ واحد يخوض فيما يخوضُ فيه القوم، ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس، حتى إذا ما خلا بنفسه، واجتمع مع قلبه، اتجه الى الله عابداً مُصلياً، ومنزهاً ومقدّساً. حتى إذا كانت إحدى ليالي اجتماعهم، وانتظام عِقْدِهم، قال أحدُهم في صوت خافت، وحذر مريب: لقد سمعتُ يا رفاق بالأمس خبراً لو صدق راويه ــ ولا إخاله إلا صادقاً ــ فإنّ فيه إفسادَ ديننا، أو ذهاب حياتنا. سمعت أن الملك قد علم بأمرنا، وافتضحَ عنده عقيدتنا وديننا، فثار ثائرُه، وهاج هائجه، وتوّعدنا شرًّا إن لم نصْبأ[2] عن هذا الدين الذي أشربته نفوسُنا وانسجم مع عقولنا وتفكيرنا، وإنه يوشك أن يطلع علينا الغد، فإذا جميعنا في حضرته، وبين وَعْده ووعيده، وسيفه ونِطْعه[3]، فتدبروا أمركم، واحزموا رأيكم.

قال الثاني: هذا خبر كنت سمعت به من قبل فحسِبْتُه من إرجاف المرجفين، وتأويل الجاهلين. ولكن يظهر أنه استفاض وذاع، حتى دل على صدقه، أو إمكان وقوعه. وما أرى إلا أن نثبت على ديننا، ونصمد لاضطهاد يراد بنا، ومحال أن نرجع الى هذه التماثيل التي يعبدونها، بعد أن عرفنا فسادها وبطلانها. لسنا براجعين عن عبادة الله، ومع مطلع شمس كل يوم دليلٌ على وجوده، وفي كل سَبْحة من سبحات التفكير شاهد على عظمته.

وصدقت الإشاعات، وصحت الأخبار، وانتظم جمعُهم أمام الملك، بعد أن انتُزعوا من منازلهم. وأخذوا من بين أهليهم.

---

(١) ممعناً: متعمقاً.

(٢) نصبأ: نرجع.

(٣) النطع: الجلد يوضع عليه القتيل.

قال لهم : لقد حاولتم سَتْر أمر فلم تفلحوا ، وجاهدتم في كتمان دين ولكنكم لم تنجحوا ، وقد انتهى إليّ عُجرُكم[1] وبُجَرُكم ، وخُبْركم وخَبركم . ووصل إليّ أنكم صَبَأتُم عن دين الملك والرعية ، الى دين لا أدري كيف هبط عليكم ، أو وصل علمه اليكم . وقد كان يهون عليّ أن أتركَكم تهيمون في دينكم ، وأن ألقي حبلكم على غاربكم ، لولا أني علمتُ أنكم من أشراف قومكم ، ومن أوساط عشائركم ، وتوشك العامة — لو علمتْ بأمركم — أن ترِد شريعتكم ، وتدخل دينَكم ، وتَتَقبّل[2] طريقتكم ، وفي ذلك ما فيه من إفساد المُلك ، وانتقاض حبل الأمان .

ولست بمُعجِّل لكم العذاب ، أو مُوقع عليكم العقاب ، حتى تفكروا فيما أنتم مُقدِمون عليه ، فإما رجوعٌ الى مِلتنا وإذعان لما فيه الناس ، وإما أن يرى الرائي فإذا أمامه رؤوس ملقاة ، وأشلاء ممزقة ، ودماء منكم تسيل .

وربَط الله على قلوبهم ، وأيّدهم في إيمانهم ، فقالوا : أيها الملك ، إن هذا الدين لم ندخل فيه مقلدين ، ولم نعتنقه مُكرَهين ، ولم نَسِرْ فيه جاهلين ، وإنما دعتْنا إليه الفطرة فلبَّينا ، وأضاء لنا العقل وفي ضَوئه سرنا ، هو الله الأحد ، لن نَدعُوَ مِنْ دونِهِ إلهاً . أما قومنا هؤلاء فقد عَبدوا أصنامهم جاهلين مقلدين ، لم يأتوا عليها بسلطان ، ولم يُدْلُوا عليها ببرهان[3] .. هذا ما انتهى إليه علمنا ورأينا ، فاقض ما أنت قاض .

قال الملك : اذهبوا اليوم على أن تأتوني في الغد أنظر في أمركم ، وأفصِل في قضيتكم .

وخلِصوا الى أنفسهم يشتورون فيما يفعلون ، ويُجيلون قِداحَ الرأي كيف يصنعون ! قال واحد منهم : أما وقد عَرَف الملك أمرنا فلا مقام لنا بين وعدِه ووعيده ، وإطماعه وتهديده ، ولْنَفِرّ بديننا الى ذلك الكهف من الجبل ، فإنه قد يكون على ظلامه وضيقه ،

---

(١) عجركم وبجركم : ما أبديتم وما أخفيتم .

(٢) تتقبل طريقتكم : تتبعها .

(٣) لم يدلوا عليها ببرهان : لم يحضروا دليلاً ، ولم يأتوا بحجة .

أفسحَ صدراً ، وأطيب مكاناً من هذه الأرض الوسيعة التي لا نستطيع أن نعْبُد الله فيها كما نريد ، وأن نجهر بديننا كما نعتقد ، ولا قرار في مكان نُراد فيه على دين لا نطمئن إليه ، ولا كرامة في وطن نُقْهر فيه على رأي لا نعتقده .

وأصبحوا جميعاً يَحمِلون زادَهم ، مفارقين أوطانهم ، مهاجرين بدينهم . ولَمَحهم كلب في الطريق ، فسار في إثرهم ، وتَعَلق بهم ، فلم يروا بأساً في أن يرافقهم ، يصحبهم أو يحرسهم .

وما زالوا في سيرهم حتى انتهوا الى الكهف ، وهناك وجدوا ثِماراً فأكلوا ، وماءً فشربوا ، ثم اضطجعوا قليلاً ليُبردوا أقدامهم ، ويعيدوا ما ذهب من عافيتهم في أثناء سيرهم ، ولكنهم ما عَتِموا أن أحسوا إغفاءة خفيفة ، داعبت جفونهم ، ثم أسلمت رؤوسهم الى الأرض في نوم عميق .

*

وتعاقب ليلٌ إثر نهار ، ومضى عام وراء عام ، والفتْيَة راقدون ، والنوم مضرُوب على آذانهم والكَرَى[1] معقود بأجفانهم ، لا تزعجهم زَمْجرة الرياح ، ولا يوقظهم قصف الرعود ، تطلع الشمس فتنفذ الى الكهف من كوّته ، فتمنحه الضوء والحرارة ، ولكن أشعتها لا تصل إليهم ، وتغرُب فتميل وتبتعد ، تحقيقاً لما أراد الله من حفظ أجسادهم ، وبقاء جثثهم . ولو اطلع مطّلع عليهم لرآهم يتقلبون مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال ، وقد تغيّرت حالهم ، يبعثون الرعب فيمن يراهم ، والهول فيمن يطلع عليهم .

ودخلت سنة تسع وثلثمائة منذ نومهم ، انتبهوا بعدها ، وهم لا يكادون يُمْسكون نفوسهم من الجوع ، أو يجمعون أعضاءهم من التعب ، ظانين أن الزمن لم يمض بهم ، وأن عَجلةَ التاريخ واقفة عند كهفهم .

---

(١) الكرى : النوم .

قال واحد منهم يسأل : يُخيّلُ إليّ أن ساعات طويلة رقدناها ، فما تظنون يا رفاق ؟

وقال الثاني : ربما نكون قد لبثنا يوماً ، فإنّ الجوع الذي نُحسُّه ، والتعب الذي نشعر به ، لَيُؤذِن بما أظن .

وقال الثالث : نحن قد رقدنا في الصباح ، وهذه الشمس لم تطْفُل[1] ، فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضاً من يوم .

وقال الرابع : دعونا من تساؤلكم ، فالله أعلم بما لبثتم ، ولكنني أحس الجوع شديداً ، وكأني لم أطْعَم منذ ليال ، فلْيَذهب واحد منكم الى المدينة يلتمِس لنا طعاماً ، وليكن حَذِراً لبيباً ، فَطِناً أريباً ، حتى لا يعرفه أحد ، ولا يفطِن إليه إنسان ، إنهم لو ظَهروا علينا ، وعرفوا مكاننا ، يقتلوننا أو يفتنوننا في ديننا .

فخرج الى المدينة واحد منهم يلتمس الطعام ، وهو خائف حَذِر ، ودخل أفسُوس . وما راعه إلا تغييرٌ في معالمها ، وانقلاب في مبانيها : هذه خرائب أضحت قصوراً ، وتلك قصور أمست خرائب وأطلالاً ، وتلك وجوه لم يعرفها ، وصُوَر لم يألفها .

أما الديار فإنها كديارهم   وأرى رجال الحيّ غير رجاله

وتحيَّرت نظراتُه ، وكثرت لفتاته ، وظهر الاضطراب في مشيته ، والوجوم في حيرته ، وألحّ عليه الاضطراب ، وتتابع الوجوم[2] ، حتى لفت الناس إليه .

قال له أحدهم : أغريب أنت عن هذا البلد ؟ وفيم تتأمل ؟ وعلامَ تبحث ؟ قال لست غريباً ، ولكنني أبحث عن طعام أشتريه ، فلا أرى مكان بيعه . وأخذ الرجل بيده حتى انتهى به الى صاحب طعام . وأخرج صاحبُ الكهف دراهمه ، ونقدها التاجر ، وما راعه إلا أن رأى نقوداً ضُربت من نحو أكثر من ثلاثمائة عام ، فحسب أنه عثر على كنز ،

---

(١) لم تطفل : لم تدن للغروب .

(٢) الوجوم : السكوت بسبب الاندهاش .

وأن من وراء دراهمه دراهم كثيرة، وأموالاً عظيمة، فجمع الناس من حوله ودلفوا[1] اليه من كل مكان.

فقال: يا قوم، ليس الأمر كما زعمتم، وليست هذه النقود كما توهمتم، وإنما هي دراهم قد وقعتْ لي في بعض معاملتي مع الناس بالأمس، وأنا أشتري بها طعامي اليوم، فما يدعوكم الى الدهشة؟ وما يدفعكم للافتراء عليّ بما تظنون! ثم همّ بالعودة، خشية أن يفتضح أمره، أو تظهر حقيقة حاله، ولكنهم عادوا فرفقوا به وتلطّفوا معه في القول، وحاوروه في الحديث. وما كان أشدّ ذهولهم حينما علموا أنه أحد الفتيَة الأشراف، الذين هربوا من تسع وثلثمائة سنة من مَلِكهم الجائر الكافر وأنهم هم الذين — فيما سمعوا — تطلّبهم الملك فلم يظفر بهم، ونشدهم فلم يهتد إليهم. وما كان أشد خوف الرجل حينما علم أنهم فطنوا لأمره، وعرفوا قصته، فخاف على نفسه وإخوانه، وهمّ بالهرب.

قال له أحدهم: لا تُـرَعْ يا هذا ان الملك الذي تخافه قد مات من نحو ثلاثمائة عام، وإن الملك الذي يجلس الآن هو مؤمن بالله كما تؤمنون، وأما أنت فأين بقية صحبك؟

فأدرك الرجل حقيقة حاله، وعرف تلك الفَجْوة من التاريخ، التي تفصل بينه وبين الناس، فهو الآن لا يعدو أن يكون شبحاً يمشي، أو ظلاً يتحرك. ثم قال لمن يحدّثه، دعوني أذهب الى صحبي في الكهف، أحدّثهم عن شأني وشأنهم، فربما يكون قد طال انتظارهم، واشتدّ قلقهم.

وسمع الملك بأمرهم، فخف الى لقائهم، وسعى الى كهفهم، فرأى فيهم قوماً أحياء تُشرق بالحياة وجوهُهم، وتجري الدماء في عروقهم. فصافحهم وعانقهم، ودعاهم الى قصره، والإقامة في داره، فقالوا: وما نبغي بالحياة، وقد مات الحفيد والولد، وعفت الدار والسَّكَن، وانقطع ما بيننا وبين الحياة من أسباب!؟ ثم توجهوا الى الله طالبين أن يختارهم الى جواره، وأن يشملهم برحمته، وما هو إلا ارتداد الطرْف حتى وقعوا أجساداً لا حياة فيها.

---

(١) دلفوا: أقبلوا واجتمعوا.

أما القوم فقالوا : لعل الله أعثرنا عليهم ، لنعلم أن وعد الله حق ، والبعث صدق والساعة آتية لا ريب فيها . ثم تنازعوا أمرهم بينهم ، (فقالوا ابنوا عليْهِمْ بُنيَاناً رَبُّهُمْ أعلمُ بهِمْ ، قالَ الذينَ غَلبُوا على أمرِهم لَنَتَّخِذَنَّ عليهِمْ مَسْجِداً) :

أصحاب الأخدود (*)

صنْعاء[1] قد لفحتها الشمس بسهامها المحماة ، ومسّتها الصحراء بأوارها المتسعر[2] ، ولهذا أقفرتْ شوارعُها ، وسكنت حركتُها ، وخَلت من الناس ، إلا رجلاً ظهر فجأة من الشمال ، وكأنه قادم من الصحراء ، وقد جاوز الأرْباض والحدود ، واتخذ سبيله نحو قصر الملك ذي نُوَاس .

وكان كلّ ما فيه يبعث على الشك والارتياب : وجه يعلوه الوُجوم ، وعينان تخْتلجُ فيهما الحيرة ، وخطوات مضطربة غيرُ مطمئنة ، وكأن بين جنبيه سرّاً يريد أن يُفضي به ، أو أمراً جليلاً قدم من أجله . إلا أن حارس القصر لم يَدَعه يستمر في اضطرابه ، بل سأله ما قدومه في هذه الساعة التي ألزم فيها الحرّ الناس الدور ، وسكن فيها الإنسان والحيوان ، والطير والنبات ؟

قال الرجل : أتيت في أمر جليل الخطر ، عظيم المقدار ، أكاشف به ذا نُواس .

قال الحارس : إن المَلك في شغل عن لقاؤك ، ولقاء غيرك من الطُرَّاق والوافدين ، وإن يكن انتهى من قتل ذي الشَّناتِر ، وتوطيد الملكِ في صَنْعاء ، وإرجاع اليهودية في اليمن الى ما كانت عليه في عهد تُبَّع ، إلا أنه يعدّ العدّة ، ويهيء الرحلة لغزوة بعيدة في الأرض تنتظم الشرق والغَرْب ، والسهل والجبل . وقد أقسم يميناً غليظاً ألا يَقَرّ له جنب على وساد ، ولا يغمض له جفن على نوم هادىء ، حتى يرى اليهودية ديناً شاملاً ،

(*) البروج . والأخدود : هو الخندق الطويل في الأرض .

(١) صنعاء : مدينة باليمن .

(٢) بأوارها المتسعر : بحرّها المتقد .

وحكم التوراة في الأرض نافذاً. وهو حينا تضَيَّف[1] الشمس للغروب، وحينما تخف وطأة الحرّ، يخرج الى هذه الحديقة من القصر، ويجمع اليه الأذواء والأقيال[2] والأشراف والقوّاد، الذين تألّفهم لطاعته، وأرادهم على دينه، فيشاورهم في الأمر، ويهيئون جميعاً سبل الغزو والجهاد.

قال الرجل: إنني لم أبعُد شيئاً عما فيه الملك، وإني ما قدمت عليه إلا في أمر له صلة بهذا الدين الذي يَسُلّ سيفه في سبيله، ويريد أن يحمل الناس على اتباعه، ولو أنك حدّثته بما قدمتُ له فإنني لا أرتاب في أنه سيدعوني إليه، ولا أشك في أنه سيهتم لهذا الشأن، وسيكون منه موضعَ تفكير وتدبير.

ثم أوى الى زاوية من زوايا القصر، ريثا تخف وطأة الحر، وينزل الملك ليأخذ مع من يجيء إليه فيما يهمهم من شؤون.

*

وخرج ذو نواس من مخدعه، وأخذ سبيله الى مكانه من حديقته، واجتمعت حوله حاشيته. وقبل أن يخوضوا في الحديث جاء الحاجب يقول: إن رجلاً قدم اليوم من نجران[3] للقاء الملك، وإنه — فيما يزعم — يريد أن يُفضِيَ الى الملك بأمر دين جديد، يخشى منه على اليهودية.

قال ذو نواس: دين جديد! عليّ بالرجل من فورك. وجاء الرجل فقال: أيها الملك المتوج! نَعِم مساؤك، ودام لك سلطانك، وليَهْنِئك الظفر بأعدائك، ولْيُهيء لك الله هداية وتوفيقاً فيما تريد. جئتك يا مولاي لا طالباً رفداً، ولا مُستعدِياً بك على مظلوم، ولكنّ حادثاً بنجران قد وقع، وإنه إن لم يُتدارك أمره، فإنه يوشك أن يمتد الى غيرها من البلدان، وربما امتدّ الى اليمن، وربما جاوزها الى غيرها من أصقاع الأرض.

---

(١) تضيف: تميل.

(٢) الأذواء والأقيال: ملوك اليمن.

(٣) نجران: إقليم باليمن من ناحية مكة.

فقال ذو نُواس : قد رَوَّعتني بأخبارك ، وشَغلت بالي بحديثك ، فهاتِ لما أجملت تفصيلاً ، ولما لوّحت به بياناً وتبييناً .

قال الرجل : إنه منذ أيام دخل على نجران دين جديد يدعونه النصرانية ، ويُبَشرون له باسم عيسى المسيح ، فأما الوثنيون من أهلها فقد ارتاحت قلوبهم إليه ، وتغلغل في نفوسهم ، ودخلوا فيه أفواجاً ، وأما اليهود ففريق منهم صبَأ عن دينه ، ودخل فيما دخل فيه الوثنيون ، وفريق ظل على اليهودية ، ولكنه مُمتحن بالأذى ، مُبْتَلى بالكيد ، وإن لم يتَدارك الملك اليهودية بنجران فإنه يُوشك أن يمّحي ظلها ، ويعفو رَسمُها ، وينتهي تاريخها .

فاستوى ذو نواس في جلوسه ؛ وكأنه قد غُص بريقه وقال : كيف دخل هذا الدين نجران ! وكيف مُكن له في هذه الأرض ! وكيف استطاع أن يصل الى القلوب على قرْب على عهده وحداثة ميلاده ! زدني إيضاحاً .

قال الرجل : قد وفد على نجران فيمن يفِد عليها من الأرقاء رجلان : أحدهما رومي واسمه فيميون ، والآخر عربي واسمه صالح ، أما فيميون فاشتراه رجل من الوثنيين عبّاد النخلة ، فوجده كريماً مِسْماحاً ، يجول في غُرّته ماء التقوى ، ويفوح من خلائقه عَرْف الصلاح ، فكان يعمل له عامة يومه ، لا يعرف الكلال ولا الشكوى ، فإذا كان المساء أوى الى حجرة أفردها ليصلي فيها .

وطلع عليه سيده يوماً فوجده يصلي ، والحجرة مضيئة من غير سراج ! فعجب منه وسأله عن دينه ، وهل يؤدي عبادة أخرى لغير هذه النخلة التي يعبدونها ، ويستلهمون أسرارها ، قال : إنما أعبد الله مالك الملك ومدبّر الخلق ، ومصدر الوجود ، ذلك الذي أرشد النبي عيسى الى وجوده ، ودلّ على قدرته ، وأما هذه النخلة فإنها لا تملك ضراً ولا نفعاً ، بل لا تستطيع جَلب خير لها ، ولا دفع شر يُراد بها ، ولو شئت لدعوت الله أن يرسل عليها ريحاً تجففها ، أو ناراً تحرقها ، فربما فعل ، وربما استجاب .

قال له سيده : أو تستطيع ! قال فيميون : أتؤمن بديني لو فعلت ؟ قال : نعم ، فصلى فيميون ــ فيما يزعم أصحابه ومريدوه ــ ودعا الله فأرسل على نخلة سيده ريحاً جفّفتها وألقتها . فعند ذاك آمن الرجل ، وشاعت هذه القالة في نجران ، ودخل الناس في

النصرانية أفواجاً . ولست ترى الآن في هذه الأرض إلا من دخل ، أو هو سيدخل في هذا الدين[1] .

قال ذو نواس : وهل بقي عندك فَضْل[2] من حديث ؟ قال الرجل : لو شئت لحدّثتك ما يتناقله أهل نجران عن فيميون ، لتعلم مبلغ حبهم لدينه . وتعلقهم بذاته .

قال ذو نواس : هات كلّ ما عندك ، فإنك قد شغلت بالي بحديث هذا الدين وأمْر هذا الرجل .

قال : زعم رفيقه صالح ــ من تاريخه معه ــ أنه بينا كان يعمل في قرية من قرى الشام ، بَصُر بفيميون سائراً في إحدى طرقاتها ، فشهد عليه علائم التقوى وتحدّثت معارفه عن عقل راجح ، فأحبه وعلِق به . وقد تبعه أنى ذهب من حيث لم يشعر بذلك ، حتى خرج في يوم من أيام الآحاد الى الصحراء يصلي ، وبينا هو في صلاته أقبل نحوه تِنّين فاغرٌ فاه ! فذعر صالح وارتاع ، وصاح : يا فيميون ، احذر التنين فإنه مقبل نحوك ، ولكن فيميون أقبل على صلاته ، وما اقترب منه التنين حتى مات ![3] عند ذلك ظهر له صالح ، واستأذنه أن يرافقه ويأنس به ، فأذن له ، وما زالا ينتقلان من قرية الى قرية ، وفيميون يظهر من كراماته وعجائبه ، مما زاد صالحاً فيه حُباً ، وبه تعلقاً . حتى كانا بإحدى البَوادي إذ طلع عليهما بعضُ قطاع الطرق ، وأخذوهما أسيرين ، ثم باعوهما ، وكان من أمر فيميون ما سمعت .

وما انتهى الرجل من حديثه ، حتى ثارت حَفيظة[4] ذي نواس ، واضطرمت نار

---

(١) وفي رواية لأحمد : أن سبب شيوع الإيمان بالله هو غلام آمن على يد راهب ثم عجز الملك عن قتله لأن الله أيده فقال الغلام للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . قال وما هو : قال تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل باسم الله رب الغلام . ففعل الملك ورماه بهذا السهم فقال الناس : آمنا بالله رب الغلام .

(٢) فضل : أي بقية .

(٣) وهذا من مزاعم آباء الكنيسة ، ولا تنين في الأرض ، بل هو خرافة .

(٤) الحفيظة : الغضب .

الغضب في صدره ، أن يَظهر في نجران دين غير اليهودية ، أو يعلو فيها حكم لغير التوراة . وحلف لا يغمد سيفاً ، ولا تسكن منه ثائرة ، حتى ينكّل بأهل نجران ، أو يرجعوا الى اليهودية مذعنين .

وخرج ذو نواس من صنعاء بجيش يملأ أقطار الأرض قاصداً نجران ، فلما وصل اليها ضرب من حولها نطاقاً ، فارتاع[1] أهلها وذهلوا ! ولكنه قبل أن يبدأهم بعذاب أو ينالهم بمكروه جمع سادتهم ، وأصحاب الزعامة فيهم ، وقال : إني قد رأيت — كَرَماً وتفضلاً — قبل أن يستَحرَّ فيكم القتل ، ويعمل فيكم السيف ، وينالكم الأذى ؛ أن أخيِّركم بين اليهودية ، ديني اليوم ودين تبّع من قبل ، وبين ما اعتنقتموه من دين جديد . ولستُ بصانع لكم العذاب حتى تفكروا ، ولا بمُعْمِلٍ فيكم السيف حتى تتدبروا .

فقالوا : إنما ديننا الجديد دين أُشربته نفوسنا ، ودخل شغاف قلوبنا ، وما لنا عنه محيص ولا معدل ، وسواء علينا أوسّعت لنا في الأجل ، أم عجلت لنا بالموت !

فلما رأى منهم إصراراً وعناداً ، وتمسكاً بدينهم واعتصاماً ، أمر بشق أخدود[2] في الأرض ، وأحضر وقوداً وحطباً . ثم أشعلوا النار ، وبعثوا الدخان ، وأخذوا أهل نجران يلقونهم في لهبها ، لم يعفوا شيخاً ، ولا امرأة عجوزاً ، ولا طفلاً رضيعاً حتى خلت نجران من النصارى ، ولم يبق بها غير اليهود .

سيل العرم (*)

قامت دولة سبأ على أطلال الدولة المعينية باليمن ، وخلفَتها في لغتها وعاداتها ، واقتبست منها حضارتها ومدنيتها وتدرّجت من الإمارة البسيطة ، الى الدولة المحدودة ، الى الملك الواسع العريض . وأسسوا القصورَ الشامخة بِصرواح[3] ، ثم انتقلوا منها الى مأرب

---

(١) ارتاع : خاف .

(٢) الأخدود : الشق الكبير في الأرض .

(*) سبأ ١٥-٢٠ .

(٣) صرواح : مدينة ذات حصون باليمن .

واتخذوها حاضرة لهم، حيث أخصب لهم العيش، وطابت الحياة، وتقلبوا في أعطاف النعيم.

كانت اليمن بلاداً مُستفيضة الرقعة، ذات أودية عريضة، وتربة خصيبة، ولكنها كانت شحيحة بالماء مقفرة من الأنهار، إلا وابلاً[1] من المطر يتحدّر من سفوح الجبال، ثم يمضي قُدُماً الى الصحراء ولا يلوي على شيء، حتى يأخذ سبيله الى باطن الأرض، فلا يلبث إلا كما يلبث الطيف، أو تقيم سحابة الصيف، فألجأتهم الحاجة الى أن يبتدعوا أمراً يتوقّوْن به هذه السيول، ثم ينتفعون بها، فهُدوا الى طريقة السدود والحواجز، يقيمونها بين الأودية، ويصطنعون الطرق الهندسية التي تسهّل الانتفاع بما تخلّفه وراءها من مياه.

كثرت هذه السدود، وتعدّدت تلك الحواجز، بكثرة الأودية وتعدّد الجبال حتى جاوز عددها المئات، ولكن سد مأرب كان أقواها وأمتنها، وأجداها وأنفعها.

تقع مدينة مأرب في نهاية واد فسيح يتجه الى الجنوب، ثم يقصر أمدُه، وتضيق رقعتُه رويداً رويداً، حتى يكون أضيق ما يكون. ثم يمتد حتى يلتقي بمجرى السيول المتحدرة من جبال السراة.

ففي هذا الوادي أقام الملوك الصّيد[2] من سبأ سداً عريضاً منيعاً حصيناً، قوياً مكيناً؛ وجعلوا على جانبيه مصارفَ بطرق هندسية منتظمة، هيّأت لهذا الوادي أن يصبح بفضل ما احتجزوه من الماء أرضاً خصيبة، فيها زروع نضرة، وحدائق ذات بهجة، ونطقت تلك الحجارة الصماء بألفاظ من الأشجار مورقة، وأساليبَ من الأزهار مُعجبة، واستحالت رمال الصحراء بسطاً هندسية خضراء، تجري بينها القنوات الملتوية، وتَصدَح في خمائلها الشحارير[3] المغنية، الى الأثمار الدنية القطوف، والأزهار المعجبة الألوان.

---

(١) الوابل: المطر الكثير.

(٢) الصّيد: جمع أصيد، وهو الملك العظيم المتكبر.

(٣) الشحارير: جمع شحرور، وهو نوع من الطيور.

كانت المرأة تسير وسط هذه الحدائق حاملة مكْتلها[1] فوق رأسها ، فلا تمضي في السير غلوة[2] ، حتى يكون قد امتلأ المِكْتل من الثمر المتساقط من شجره .. واتسعت لديهم النعمة وفاض عندهم الخير ، واشتغل جماعة منهم بالتجارة والرحلة ، فكانوا يسيرون الى القرى التي بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين ، لا يسيرون مرحلة أو مرحلتين حتى يكون الله قد هيّأ لهم مكاناً يُبردون فيه أقدامَهم ، ويريحون أبدانهم ، ويتغلبون ، بطيب الزاد ، وعذب الماء ، وهم فيما بين ذلك آمنون مطمئنون ، نعمة تظاهرُ نعمة ، وفضل من الله يعقب فضلاً . (بَلدَة طَيِّبَةٌ وربٌّ غفُور) .

فكانوا خُلقاء[3] أن يشكروا لله نعمته ، وأن يحمدوه على ما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ولكنهم جَرَوْا في عِنان بعض مَنْ سبقهم من الأمم ، وساروا في دروبهم ، وتقيّلوا[4] طريقَتهم ومذهبهم ، فكفروا بالنعمة ، وبالغوا في البطر والأثرة[5] ، حتى أرسل الله فيهم أنبياء نصحوهم ، فأعرضوا ، وهداة مرشدين حاولوا إصلاحهم وشُغِلوا عن العمران ، فأراد الله أن يذيقهم وبالَ أمرهم ، وأن يريهم عاقبة كُفرانهم ، ليكونوا عبرة لغيرهم ومَثلاً لما يأتي من بعدهم ، وعقوبة قاسية لمن تحدّثه نفسه أن يسلك طريقهم ، ويفعل فعلتهم .

فتهدّم السدّ ، وتقوّض البناء ، ولم يستطع أن يحجز السيول المتدفقة ، والأوديّ المتلاطمة . وانطلقت المياه الحبيسة في شِعاب الوادي ، وبين الغياض ، فغرق الزرع ، وهلك الضرع ، وتقوّض البناء ، وعاد الوادي كما كان في صحراء مقفرة صامتة مجدبة لا نبات فيها سوى أشجار لا تثمر إلا كلّ مُرٍّ بَشِع ، وأثلٍ لا غناء فيه ، وشيء من سِدْرٍ[6] قليل . وهربت العصافير والبلابل ، وخلَفها البوم يصيح فوق الخرائب العافية ، والغربان

---

(١) المكتل : وعاء من خوص .

(٢) غلوة : مسافة كبيرة .

(٣) خلقاء : جديرين .

(٤) تقيّلوا طريقتهم : حاكوها وشابهوها .

(٥) الاثرة : حب النفس .

(٦) السدر : شجر النبق .

تـنـعـق في ذُرى الأشـجـار الجـافة . أما الأهلون فإنهم لما رأوا أن مَعين رزقهم قد غاض ، ونَـبع نحْسِهم قد فاض ، لم يطيقوا صبراً على أن يقيموا في صحراء كانت بالأمس جِناناً ، وخـرائـب قـطـنـوهـا قـصوراً ، ففارقوا أوطانهم على الكُره منهم ، ونزحوا عن ديارهم بقلب محـرور ، وعين عـبـرى . ثم تمزّقـوا في شتى الـبـلاد ، غَسّان الى الشام ، وأنمار الى يثرب ، وجُـــذَام الى تهامـة ، والأزد الى عـمـان ، ومُـــزّقـوا كـل ممزق ، حتى صار أمرهم حديثاً يتنقل ، وحكايات تروى ، وأحاديث تتداول .

كـانـوا في نـعـمة سابغة فلم يحفظوها ، وثياب من العز ضافية فلم يصونوها ، فجزاهم الله بما كفروا ، (وهَـلْ نُجازي إلا الكَـفُـور) .

أصحاب الفيل

مـلـك ذو نُـــوَاس بلادَ اليمن ، وهي تلك البلادُ التي تكثر خيراتها ، وتفيض بالأ رزاق أرجـاؤهـا ، ولـمـا قـبـض على نـاصـيـة المـلـك فيها نَـقَـم[1] من سلفه لانغماسه في اللذات ، وجنوحه الى دواعـي الـشهوات ، وأنكر عليه ميله الى الإثم ، وإغراقه في الفحش ، فأنبأ ذلـك عـن نـفـس تطمح الى الزهد في الدنيا ، وتميل الى النأي عن المآثم والفجور ، وتحب الـبـعـدَ عـن مـبـاهـج الحـيـاة وزخرفها ، وترغبُ في إصلاح النفوس وبثّ روح الدين في الرعية . وقد كان منه بعد ذلك ما صدق هذا الحدس وأكّد هذا الظن .

مـرّ ذو نواس يوماً بيثرب[2] مجتازاً ، وقد كان بعض أهلها استجابوا لليهودية ، وأشربت بهـا نـفـوسـهـم ، وتأصلت في قلوبهم مبادئها ، واتخذها دعاة اليهود منبراً لدعوتهم ، ومعقلاً لـديـانتهـم ، وانتشرت فيها معابدهم ، وصارت وَكْراً لمبشريهم ، وعُـشّـاً لدعاتهم . وسرعان مـا هـرعـوا الـيـه يلقون شيئاً من مبادىء اليهودية ، ويبسطون له ما عرفوا من خصائصها ،

---

(١) نقم منه : عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله .
(٢) يثرب : هو الاسم القديم للمدينة المنورة .

علّهم يجدون منه عضداً لهم، ومساعداً على نشر دينهم. فصادف هذا الدين هوى في نفسه، ورغبةً كانت كامنة في فؤاده، فأحبّه وجاهر بالدعوة اليه، ونصب نفسه داعياً له ونصيراً، ثم دعا العرب جميعاً الى مشايعته فيه، والدخول في زُمْرته، واشتد في عقاب من خالفه. فأطاعه بعض العرب، منهم من يخاف بطشه وقوّته، وقليل منهم انخرط في سلك هذا الدين بعد أن رآه يُصلح نفسه، ويوافق هواه. وشاع أمر ذي نواس، وعظمت شوكتُه، وخاف الناسُ بأسه، فدخلوا في الدين الجديد أفواجاً.

ولكن أهل نجران قد تفتّحت قلوبهم لدين جديد، وهو الدين المسيحي، عَلِق بأنفسهم، واختلط بقلوبهم، فكانوا خارجين على دولة ذي نواس.

ووفد الى ذي نواس من يُثيره عليهم، ويُغريه بهم، عله يهدم ذلك الصَّرح الذي امتنع عليه دخوله، ويفتتح هذا الحصن الذي أعياه وُلوجه، ويمحوا هذا الدين الذي يوشك أن يُمحَى به ظل اليهودية، ويعفو رَسْمها، وينتهي تاريخها.

فاستجاب لهذا الدعاء، واندفع وراء هذه الغَواية، وخرج الى أهل نجران يدعو الى نبذ[1] دينهم، ويأمرهم بالأخذ بدينه، والدخول في زُمْرة أشياعه وأتباعه. فأبَوا الانحراف عن دينهم، وأصروا على امتناعهم، ولم تُرْهبهم عزته، أو تُلِنْ قناتَهم صولتُه. فعزّ عليه أن يجد له مناوئاً، ولدينه مخالفاً، فحفر لهم حُفْرة أضرم النار فيها، ثم أذّن فيهم مؤذّنه[2]، أن هذه جزاء لمن لم يدخل في دينه، وهي عقاب لمن يصرّ على مخالفته. فلم يثنهم أوارها[3]، أو تزغ أبصارهم من وهجها، بل استمسكوا وتشبثوا بعقيدتهم، فرماهم في الأخدود، وصير أجسادهم وقوداً للنار، جزاء عِنادهم ومخالفتهم.

*

(١) نبذ: ترك.
(٢) أي أعلمهم.
(٣) أي فلم يصرفهم عن عقيدتهم شدة حرّ هذه النار.

فــرّ رجـل مـن هـؤلاء الـذين اصطلوا بتلك النار ، فمضى حتى أتى قيصر ملك الروم ، فاستنصره على ذي نواس وجنوده ، وأخبره بما كان منهم ، فقال له : بَعُـدَتْ بلادك منا ، ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة ، فإنه على هذا الدين وهو أقربُ من بلادك[1] .

وكتب إليه يـأمره بنصره ، والطلب بثأره . فقدم بلاد الحبشة بكتاب قيصر وشكا الى النجاشي ما حلّ بقومه من الهلاك والدمار ، وأسمعه أنين القتلى ، وغَوْث الشهداء ، ونعى اليه رجال المسيحية والحامينَ ذمارها[2] .

وعــزّ على الـنـجاشي أن يخبو ضوء الدين المسيحي في هذا البلد ، وتنطفىء شعلتُـه في ذلـك المـعـقل ؛ فصمّم على الثأر من ذلك الذي أراق دماءهم ، واستباح أموالهم ، وأهلك زروعـهـم . وجـهّــز جيشاً كثر عدده ، وتوافرت عُـدّته ، وبعث به الى اليمن يغزو ملكها ، وينتقم من أهلها .

ولـما الـتقى الجـمـعان ، واشتبك الخصمان ؛ تتابعت الهزائم على ذي نُواس وأصحابه ، وأخيـراً أسلمت[3] اليمن الى النجاشي قيادَها ، وألقت اليه بزمامها ، وبذلك أصبحت بلاد اليمن ولاية تابعة لنصارى الحبشة يتجبّرون فيها .

٭

ثم صـار أبْــرهَـة والياً على الحبشة ؛ فأراد أن يعيد الى الدين المسيحي شأنه ، ويرجع الـيـه قـوّتـه ؛ ولـما رأى الناس جميعاً يقصدون مكة ، يحجون بيتها الحرام وكعبتها المقدّسة ، فـكـر في أن يغتصب ذلك الإكليل الذي ازيّنت به قريش ، وأراد أن يصرف الناس عن مـكـة وبـيتهـا ، ويجـذب قـلـوبَ الـنـاس نحـو بـلاده ، ويستميلَهم الى دينه ، فبنى كنيسة

---

(١) الـسـبـب الحـقـيقي لاستعداء الحبشة على اليمن هو الطمع في استغلال الطريق التجاري لتوابل الشرق ، لا حرصاً مصطنعاً على المسيحية .

(٢) الذمار : كل ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه ، وإن ضيعته لزمك اللوم .

(٣) كـانت اليهودية هي دين الأقلية الحاكمة المتسلطة ، وهذه زالت وأسلمت قيادتها للغزاة المسيحيين الجدد . أما عامة اليمنيين فقد ظلوا يمقتون اليهودية والمسيحية على السواء ، ولم يتقبلوا أياً منها كديانة للشعب .

بصَنْعاء[1] ، وزيّنها بما يبهر الأبصار، ويأخذ بالألباب ، وعُنِـي بزخرفتها غاية العناية ، وجلب لها فاخر الأثاث وثمين الرياش ما خُيل اليه أنه صارِفٌ العرب وصارف أهل مكة أنفسهم اليه . ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا الى البيت العتيق ، ورأى أهل اليمن أنفسهم يدعون البيت الذي بناه ، وينصرفون الى مكة . واشتد غيظ العرب ، واشتعلت نيران الحقد في نفوسهم ، إذ رأوا لبيتهم مناوئاً[2] ، ولموئل أصنامهم عدوّاً ، فعمدوا الى تحقير بيته ، والحطّ من قدره ، فأحدث فيه رجل من كنانة ليلاً !

ولما علم أبْرَهَةُ بذلك اشتدّ غضبُه ، وغلى مرجلُ غيظه ، وأقسم ليَهْدِمنّ الكعبة ، وليزيلنّ بيت إبراهيم وإسماعيل ، وليثأرنّ لكنيسته من العرب ، حتى ينصرفوا عن كعبتهم ، ويُوَلّوا وجوههم نحو بيته .

تهيأ للحرب ، وقاد الجحافل تتقدّمها الأفيال ، وسار نحو مكة ليهدم بيت العرب ، الذي هو موْئِل حجيجهم ، ومَعْقد آمالهم ، ومكان اجتماعهم .

ولما سمع العرب بذلك النبأ عزّ عليهم أن يُقدم رجل نصراني على هدم بيت حجهم ومقام آلهتهم ، فهبّ رجل من أشراف اليمن يدعى ذا نَفر ، فاستنفر قومه ، واستثار حميتهم ، ودعا أهل وطنه وغيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة ، وصدّه عن عزمه . ولكنه لم يستطع مقاومته ، ولم يصمد للقائه ، فهزِم ومن التفّ حوله ، وأخِذ أسيراً .

ولكن هل كان هذا مما يَثني غيره عن مقاتلة أبرهة ، ويُقعد العرب عن محاربته ! لا ، فإن كثيراً من العرب قد دفعتهم الغَيرة على جزيرتهم ، والحمية لنصرة دينهم ، الى مناوأة أبرهة ومقاتلته ، ولكن جيش أبرهة كان أقوى .

سار أبْرهَة نحو مكة بعد أن ازيّن رأسُه بتاج النصر ، وتحلى صدرُه بوسام الفوز ، وخضعت له ضعاف قبائل العرب ، وسعت اليه وفودها ، تُقدّم له الطاعة ، وتظْهر له الخضوع ، ويسعى أمام جيوشه من يَدله على الطريق ، ويرشده الى آمن السبل .

---

(١) قصبة اليمن .

(٢) مناوئاً : معادياً .

خرج أبرهة ومعه أبو رغال[1] حتى أنزله المغَمّس[2] . ولما استقرّ به وبجيشه المقام بعث أبرهة رجالاً من جنده ، فساقوا اليه أموال أهلِ تهامة من قريش وغيرهم ، ومن بينها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ صاحبُ السّقاية[3] ، وشريفُ قومه ، وسيدُ عشيرته . فهمّت قريش ومَنْ معهم من أهل مكة بقتال أبرهة ، ولكنهم رَأوا أن لا طاقة لهم به ، فاستكانوا لما نالهم من أبرهة ، واحتملوا الضيم الذي لحقهم منه .

وبينما هم في هذا الضّيق الذي شملهم ، وذلك الحزن الذي تخالج في نفوسهم وفد إليهم رجل من رجال أبرهة ، يسأل عن سيد مكة ، وصاحب السلطان فيها ، فأتِي به الى عبد المطلب بن هاشم ؛ فلما مَثل بين يديه قال له : ان الملك يقول :اني لم آت لحربكم ، وانما جئت لهدم هذا البيت ؛ فان لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم ، فان هو لم يرد حربي فأتني به .

فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا به طاقة . قال الرسول : فانطلق معي اليه ؛ فانه أمرني أن آتِيه بك . فسار معه عبد المطلب ومعه بعض أبنائه وغيرُهم من أهل مكة وأصحاب الرأي فيها ، حتى معسكره . ولما دخل عبد المطلب عليه قيل : إنه سيِّدُ قريش ، الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في الجبل ؛ وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً ، تعلوه الهيبة ويحفُّه الوقار ، فلما رآه أبرهة أكرم وِفادته ، وأجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن يراه الأحباش يجلس معه على سرير مُلكه ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه الى جانبه ؛ ثم أقبل عليه يستفسره عن طَلبته ، فطلب اليه ردَّ ما اغتصبت جيوشُه من إبله . فقال أبرهة ؛ وقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدتُ فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين

---

(١) أي أنه اقترف جريمة الخيانة الوطنية بتعاونه مع العدو الغازي . ولذلك حق عليه الرجم .

(٢) موضع بطريق الطائف ، فيه قبر أبي رغال دليل أبرهة .

(٣) في الحديث : « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت » وسقاية الحاج هي ما كانت قريش تسقيه الحاج من الزبيب المنبوذ في الماء .

آبائك، فقد جئت لأهدمه، لا تكلمني فيه! قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. قال أبرهة: ما كان ليمتنعَ مني. قال عبد المطلب: أنت وذاك!

وأسرع أبرهة الى إرضائه، احتقاراً، وردَّ عليه أذْواده[1]، وعرض وفدُ مكة على أبرهة أن يرجع عن هدم الكعبة، على أن ينزلوا له عن ثلث ثروة تِهامة؛ ولكنه أبى الإصغاء الى أي حديث في هذا الشأن، ورفض أن يقبل أي فِدْية، فانصرفوا وقد أفزعهم الخَطب، وعادوا الى مكة يجرُّون أذيال الخيبة.

ونصح لهم عبد المطلب أن يخرجوا الى شعَاب الجبل، إبقاء على نفوسهم، وحفظاً لأرواحهم، وتخوّفاً عليهم من مَعَرَّة الهزيمة. وكانت ليلة ليلاء[2]، تلك التي فكر فيها القوم في هجر بلدهم، وفيما هو نازل بها وبهم، فاشتد الهرْج والمرْج وتعالى الضجيج والعويل، وكنتَ ترى الناس وقد اكتظت بهم شُعُوف[3] الجبل، وضاقت بهم شوارع المدينة، وكنت تسمع رُغاء الإبل، وثغاء الغنم، وعَويل النساء، وبكاء الأطفال[4].

وخرج عبد المطلب من بين تلك الجماعات النازحة، وذهب معه نفر من قريش الى البيت، وأمسك بحلقة باب الكعبة، وجعل يدعو ويدعون، يستنصرون الله على أبرهة وجنده، ويضرعون اليه أن يمنع بيته، ويحمي كعْبته، ثم انطلق ومن معه من قريش، حتى صعدوا في الجبل، ومكثوا ينتظرون ما يفعل هذا الطاغية بمكة إذا دخلها!

وخَلَت مكة منهم، وآن لأبرهة أن يوجِّه جيشه ليهدم البيت، فتهيأ لدخول مكة،

---

(١) الذود من الإبل: ما بين الثلاثة الى العشرة، وجمعه أذواد.

(٢) ليلاء: شديدة.

(٣) شغفة كل شيء: أعلاه وشغفة الجبل: رأسه، والجمع شعوف.

(٤) لقد هربوا اقراراً بالعجز لا تدبير لخطة معينة.

وجهّـز فِـيلَــه[1] وعَـبّـى[2] جيشه ، ولكن الله أرسل عليهم أسراباً من الطير ، تحمل في منـاقـيرها حجارة رمتهم بها ، فهشّمت رؤوسهم ، وأدمتهم ، ففتك بهم المرض حتى جعلهم جثثاً هامدة ، وأشلاء مُمزقة .

وأصـاب أبرهة شيء مما أصاب جنده ، فأخذه الـرّوْع[3] ، وداخله الفزع ، فأمر من بقي معه بـالعودة الى اليمن ، بعد أن فني عدد عظيم من جنده ، وتشتّت شمله وتفـرّق جمعه ، وبلغ صَـنْـعَاء ، وقد وهنت قوّته ، ثم لَحِق بمن مات من جيشه .

وبـذلـك حـفـظ الله لـقريش بيتها ، وأبقى لها زعامتها . وزاد هذا الحادث العجيب في مكـانـة مكـة ، وجـعـل أهلها يحتفظون بتلك المكانة الرفيعة ، ويتربصون لكل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها .

وقـد كـان ذلـك إرهـاصاً لنبوّة محمد ، الذي تفرّع من هذه الأ رومة[4] الطيبة ، ونشأ في ظـل هـذا الـبـيت العتيق ، وعدّ هذا الحادث من أعجب الحوادث ، لأن الله ردّ أصحاب الـفـيل على أعقابهم خاسرين ، فأرّخ العرب بعامِه[5] ، وتحدّثوا بوقوعه ، وصار ذكرى لهم ، وحديثَ أبنائهم .

بلال (*)

دَلـفَ[6] الـرجـل الى أمـيـة بن خلف ، وهو في مجلسه من ناديه في قريش . وقال له : أوَما بلغك الخبر ! قال أمية : وما كان ! قال : لقد شهدتُ عبدك بلالاً يختلف الى محمد في قـائـلـة النهار أحياناً ، وفي ظلام الليل آنا ، وهو خائف في مشيته ، يبدو عليه الحذر في

(١) برك الفيل في وادي المحسر ما بين مزدلفة ومنىٰ في المكان الذي يضيق فيه الوادي وجعل كلما لفت أبرهة رأسه تجاه الكعبة برك واذا وجهه الى اليمن قام يمشي .

(٢) عبى الجيش : هيأه للحرب .

(٣) الروع : الخوف الشديد .

(٤) الأ رومة : أصل الشجرة وما يبقى منها في الأ رض بعد قطعها . ويراد بها الحسب .

(٥) كان ذلك سنة ٥٧٠م . وفي هذا العام انتشر الطاعون في الحجاز لقذارة الأحباش .

(*) الليل ١٤-٢١ .

(٦) دلف : قدم .

لفْتَتِه ، ولقد يخيل اليّ فيا توسمتُه في وجهه ، واستَقْرأته من حالته ، أنه دخل فيا يدعو اليه محمد ، وانخرط فيا تهاوى فيه كثير من قومنا في هذا الدين .

قال أمية لمحدّثه : أحقاً ما تقول ! وعلى بينة أنت مما تروي ! قال الرجل : نعم ، ولهذا نفضت عليك الخبر ، وأفضيت اليك بما أرى ، لِتُهَذِّب هذا العبد وتقضي على هذه الفتنة ، التي توشك أن يندلع لهيبُها بين الموالي ، وقد أخذتْ سبيلها بين الأشراف .

انفتل أميةُ من مجلسه الى داره ، وإن قلبه ليحترق من الغيظ ، وهو يُعدّ لبلال الشر والمكروه .

وجاءه بلال ، ووقف بين يديه يضطرب ويرتعد : أن رأى الشرّ يلمع في عينيه ، ونار الغيظ تكاد تخرج جمراتٍ من بين جنبيه . قال له أمية : ما هذا الذي بلغني عنك وترامى اليّ من أمرك ! أحق ما يقال إنك تختلف الى محمد تحت رواق من الظلام ، و ستار من قائلة النهار ، وإنك آمنت بدعوته ، واستجبت الى أوهامه وضلاله ، كافراً باللات والعزّى ، صابئاً عن آلهة قريش والعرب ؟

قال بلال : أما إذا وصل اليكَ علمي ، وانتهى إليك إسلامي ، فاني لا أكتمك أني قد جئت محمداً فآمنت برسالته ، وصدَّقته فيا يدعو اليه ، ولا عليّ بعد أن حدَّثتك أن يعلم الناس جميعاً أمري .

قال أمية : أوَما علمت أنك مملوك في يميني ، وعبد رقيق كبقية متاعي وأني من يوم أن اشتريتك إنما اشتريت جسمك وعقلك ، وتملكت روحَك وجوارحَك وأنه لا قدرة لعقلك أن يعتقد ما يشاء ، ولا لتفكيرك أن يذهب أنى شاء ! فا هذا الذي تجاوز به حدَّك ، وتخرج به على دين سيّدك !

قال بلال : أما إني عبدك وأسيرك ، وخادمك ومولاك ، فهذا ما لا أنكره عليك ، ولو أمرتني بقطع واد مُسْبع في جوف الظلام لفعلت ، أو كلفتني حَملَ الأحجار في رَمضاء الظهيرة لما شكوت ، أما عقلي وفكري ، وعقيدتي وإيماني ، فهذا الذي لا يقع تحت سلطانك ، ولا يدخل في حوزتك ، ولا إمكانك ، وما يضيرك من إيماني وإسلامي ؟ وما يهمك في أن أملك عقلي وتفكيري ، ما دمتُ قائماً على خدمتك ، حافظاً لعهدك !

قال أمية ــ وقد ثار ثائره ، وهاج هائجه : لستَ أيها العبد إلا مملوكاً لي من مَفرِق[1] رأسك الى أخمَص[2] قدمك ، وفيما بين ذلك من عملك وتفكيرك . حتى خلجات قلبك ، وخَطرَات نفسك ، وهمسات لسانك ، لا تملك من كل ذلك شيئاً . وسأذيقك من ألوان العذاب وضُروب النكال حتى أستلّ ما تعتقده من قلبك ، وأمزق نسيج ما تتوهم بين ألفاف صدرك . ثم هجم عليه مَغيظاً مهتاجاً ، عزيزاً قادراً ، غليظ الكبد ، شديد الوطأة[3] ، وشدّ وثاقه وقيد يديه ورجليه ، ودفع به الى الصبيان في بَطحاء[4] مكة يتلعبون به ويقذفونه كالكُرة ، ويدفعونه كسقط المتاع .

وعاد أمية في أعقاب يومه الى بلال يشهد مَصْرع الإيمان في قلبه ، ويرى مبلغ العذاب من نفسه وجسمه ، ولكن ماذا عسى أن يبلغ العذاب من نفس أسلمت لله ، ووجّهت وجهها له . وما القيدُ والاغلال ، وما الكيد والنكال بجانب حلاوة الإيمان التي ذاقها ، ونعمة الاسلام التي ينعم قلبه بها !

قال له : كيف وجدتَ العذاب يا بلال ؟ أخيرٌ لك ما أنت فيه من همّ وبلاء ، أم عودة الى اللات والعزى ، وكفر بما جاء به محمد ، وما يزعمه ؟ فنظر اليه نظرة جمع فيها كل ما تطويه نفسه من احتمال للعذاب ، واستعداد للبلاء ، واحتقار لما يوقعه به أمية من تعذيب وإيذاء ، وكأنه يقول له : قد تملك السوط تنال به جسمي ، والحبل تغُلُّ به عُنقي ورجْلي ، بل لك السهم الذي تستطيع أن تُسدّده الى نحْري ، والسيف تضرب عنقي ، أما أن تملِك عقلي وقلبي وتحتكم في ديني وعقيدتي ، فهذا الذي لا يستطع أن يناله بطشك ، والذّروة التي لا تستطيع أن ترقيها بقوّتك وسلطانك .

ثم زاد بعد نَظرَتهِ على أن قال : « أحد أحد » ، إعلاناً لسيده بأنه سيظل على

---

(١) المفرق : وسط الرأس .
(٢) الأخمص : ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض .
(٣) شديد الوطأة : شديد القوة .
(٤) البطحاء : مؤنث الأبطح ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

توحيده وإيمانه ، وعقيدته وإذعانه ، وإن ترادفت عليه ضروب المِحن ، واستقبلته صنوفُ البلاء .

وطلعت الشمس في اليوم الثاني قوية ملتهبة ، انبسطت أشعتها على الصحراء ، فاستوقد أديمها واضطرم بالنار إهابُها ، وجاء أمية ببلال ، فأضجعه على الرَّمضاء[1] وأتى بصخرة عاتية فأراحها على صدره . وظل بلال بين رمضاء ملتهبة ، وصخرة ثقيلة ، وفيما بين ذلك الشمس تقذفه بسهامها ، والرياح تُزْجي إليه غبارَها ، ولكن كل هذا وبلال لم يُغيِّر حرفاً من الكلمة التي أصبحت شعارَه وعقيدته ، وعُنوان إسلامه وإيمانه : « أحد أحد » ، هو الله الذي أعبده وأتوجه إليه ، وهو الذي أقصِده وأعتمد عليه ، لا يضيرني هذا العذاب ، ولا يزحزحني عن الإيمان به هذا العقاب .

« أحد أحد » ، هو الله وحده الذي أستدفع به البلوى ؛ وألتجيء اليه في المحنة الكبرى ، وإن ضاقت منافذ الأمل ، ورثّت حبال الرجاء .

« أحد أحد » ، هو الله وحده الذي بعث محمداً رسولاً ، ومرشداً أميناً ، ومن نُعماه عليّ أن كنت من تابعيه ، ومن مُحبّيه ومريديه ، وكفاء لهذه النعمى سأصبر على هذا البلاء ، وأصمد لذلك القضاء .

ثم ما زالت الأيام تتوالى وتتتابع ، وألوان العذاب على بلال تترادف[2] ، وأمية ما يزداد إلا غيظاً وحِقداً ، وما يلقى من بلال إلا صبراً واحتساباً ، حتى كان أبو بكر يمشي يوماً في بعض شِعاب مكة . فإذا بلال يئنُّ من آلامِه ، ويتلوى في محنته ، وأميةُ واقف أمامه في كبره وجهله ، وظلمه وعسفه ، ينظر إليه وكأن قد شُفي من غيظه ، أو أطفأ وقدِة من الحقد بين جنبيه ! فأدركت أبا بكر الرحمة ، وتحركت في نفسه بناتُ العطف والشفقة ، فقال لأمية : حتام تترك هذا المسكين غَرَضاً لعذابك ، وهدفاً لبلائك ! وما حظك من هذا الأنين تسمعه ، ومن هذه الدموع تبعثها من مآقيها ! أيّ جرم اقترفه ! وأي إثم أتاه ؟

---

(١) الرمض : شدة وقع الشمس على الأرض . والأرض رمضاء .

(٢) تترادف : تتابع .

قال أمية ــ في صَلَفه وعُجْبه وخيلائه : هذا عبدي ، ومِلك يميني أعذّبه كيف أشاء ، وأطلقُه متى أشاء . وما أوقعه في بلائه ، وجرّ عليه أسباب شقائه ، إلا أنت وصاحبك ؛ وإذا كنت مشفقاً به ، وحَدِباً [1] عليه فدونكه اشتره ، وخلّصه مما هو فيه . أما ما دام هذا العبد في ملكي ، فلن أرفع عنه العذاب ، حتى يعود الى اللات والعزى .

وانتهزها أبو بكر فرصة يخلّص بها بلالاً من محنته ، ويرفع عنه عذاب سيده ، فقال لأمية : قد اشتريتُه منك ، وليس لك عليه الآن من سبيل ، وأما أنت يا بلال فقد أعتقتك حِسْبة لله وائتجاراً .

فهذا أمية وهذا أبو بكر ؛ هذا مؤمن وذاك كافر ، وهذا برٌّ وذاك فاجر ، وقد سجل الله عاقبتها ، وفصل في أمرهما : (فأنذَرْتُكمْ ناراً تَلظّى . لا يَصلاهَا إلا الأشقى . الذي كذَّب وتَولى . وسَيُجَنَّبُها الأتْقى الذي يُؤتي مَالهُ يَتزكى . ومَا لأحد عندهُ من نِعْمَة تُجْزَى ، إلا ابتِغاء رَبّه الأعلى . وَلسَوْفَ يَرْضَى) . وشتان ما بين الرجلين ، ويا بُعْدَ ما بين العاقبتين .

الاسراء (*)

أمضى رسول الله ﷺ ليلة في منزل أم هانىء ، بعد أن فرغ من شؤون الناس ، وصلّى العشاء الآخرة ، حتى إذا ما كاد النهار ينسلخ من إهاب الليل ، وتفتحت الأعين على تباشير الصباح ، أهيب به أن يستيقظ للصلاة فنهض ، ودعا بالوضوء [2] فتوضّأ ، وحضرت الصلاة فصلى ، ثم دعا اليه أم هانىء ليحدثها ، إذ هو ﷺ قد شهد الليلة أمراً عظيماً ، ورأى مشهداً عجيباً ! وقد اختصه الله بفضل ، وآثره بشرف ، ما يعلم أنه

---

(١) حدباً : أي مشفقاً .

(*) الأسراء .

(٢) الوضوء (بالفتح) : الماء الذي يتوضأ به .

قد حباه أحداً من قبله ، أو يتاح لأحد من بعده ولا مَعْدِل عن الإفضاء به والتحدّث عنه .

وجاءت اليه أم هانىء ــ وهي بنت عمه أبي طالب ، ومن شيعته وأنصاره ومن مؤازريه وأعوانه ــ فقال لها : يا أم هانىء ، لقد صلّيت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصليتُ فيه ، ثم قد صليتُ صلاة الغداة معكم الآن كما ترين . وأعلنها أنه خارج الآن ليلقى قريشاً ويخبرهم بما رأى ، ويقف عليهم ما شاهد ، تحدّثاً بالنعمة وإعلاناً لقدرة الله .

كانت أم هانىء مؤمنة قوية الإيمان ، مسلمة آكد الإسلام ، ولهذا لم يخامرها شك في صدق ما رأى ، ولم يداخلها ريب في صحة ما روى ، ولكنها عرفت قريشاً ، مكرَهم وإيذاءهم ، وشاهدت قومها ، كيدهم وتكذيبهم ، فخافت على رسول الله ﷺ من الكيد والتكذيب ، وأشفقت عليه من الأذى والاستهزاء فأخذت بطرَف ردائه ، وتعلقت به من ثوبه ، وقالت : إني أذكرك الله يا بن عمي ، أن تأتي قوماً يكذّبون رسالتك ، وينكرون مقالتك ، فأخاف أن يسطوا بك . وتمنت من وراء توسلها ، وأمّلت من وراء تعلقها أن يكتم حديثه ، وأن يحفظ ما رأى بين طيّات صدره ، حدَباً وعطفاً وخوفاً وإشفاقاً .

ولكنه ﷺ يحتمل رسالة البشرية كُلّها : حاضرها ومستقبلها ، فكيف السبيل به الى الخوف ! ويتنزل اليه أمر عظيم فكيف يحوطه بالكتمان ! إنه لا يخاف الكيد والأذى ، ولا يخشى الاستهزاء والتكذيب ، ولهذا جذب رداءه ، وجمع عزمه وخرج .

*

ذهب رسول الله غير هيّاب يحدّث قريشاً ، ولكن أم هانىء تضاعف همُّها وزاد وَجلها . فدعت اليها نَبْعة ــ وكانت جاريتها وموضع سرها وثقتها ــ وقالت : انطلقي خلف رسول الله واسمعي ما يقول ، وتعالي بعد ذلك حدثيني بما سيكون .

وذهبت نبعة تقُص أثر الرسول ، ثم عادت الى سيدتها ، وقالت : لقد أدركت رسول الله في الحطيم ، بين الكعبة والحجر الأسود ، وما أن رآه أبو جهل حتى ابتدره قائلاً

ـ مستهزئاً كعادته، متعنتاً كدأبه[1] : هل كان من شيء ! فقال رسول الله : نعم، أسري بي الليلة، قال : الى أين ؟ قال رسول الله : الى بيت المقدس، قال له : ثم أصبحت بين ظهرانَيْنا ! قال رسول الله : نعم، فعاد أبو جهل وقال : أرأيت إن دعوت قومك أن تحدثهم بما حدّثتني ؟ قال رسول الله : نعم، وانطلق أبو جهل يعدو كالثور، وينادي : يا معشر بني كعب بن لؤيّ.

قالت أم هانىء : اجلسي يا نَبعة، ثم أتمي الحديث فما أرى إلا أنه سيطول. وجلست نبعة، واستأنفت الحديث، وقالت : ما راعني إلا القوم ينثالون من كل ناحية وينسِلون من كل حدَب، يقدمهم أبو جهل حتى أحاطوا برسول الله من كل جانب، وطلب أبو جهل أن يخبرهم الرسول بما رأى، وحسب أنه سيغيِّر من قالته، أو يبدّل من خبره، فقال رسول الله : اني أسرِيَ بي الى بيت المقدس، فنُشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى، وصليت بهم وكلمتُهم.

قال أبو جهل مُـمْـعِناً في هزئه ومكره : إن كنت قد رأيتهم فصفهم، قال رسول الله : أما عيسى ففوق الرَّبْعة ودون الطول، تعلوه حمرة كأنما يتحادر عن لحيته الجمان، وأما موسى فضخم آدم طويل كأنه من رجال شَنُوءة[2]. وأما إبراهيم فانه والله لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه.

ثم عادوا فطلبوا منه آية تدل على صدق ذلك، فقال : آية ذلك أني مررت بعير[3] بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفَرهم حسُّ الدابة فَندّ لهم بعير، فدللتهم عليه وأما مُوجَّهةٌ الى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضَجْنان[4] مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء، وقد غَطّوْا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم

---

(١) الدأب : العادة المتأصلة.

(٢) قبيلة عربية.

(٣) العير : الإبل تحمل الميرة.

(٤) ضجنان : جبل بمكة.

غطيته كما كان . وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثَنِيّة التنعيم البيضاء ، يقدمها جمل أورق[1] ، عليه غرارتان[2] : احداهما سوداء والأخرى بَرْقاء[3] .

وابتدروا الي الثنية ، فوجدوا العير كما ذكر الرسول ، يقدمها جمل أورق كما أخبر .

قالت أم هانىء : يا نبعة ، وماذا كان من أمر القوم بعد هذه الآيات البينات ؟

قالت : لقد رأيتهم لَوَوْا رءوسهم ، وغمزوا بعيونهم ، ثم صاحوا منكرين بملء حناجرهم . وقد اجترأ المُطعم بن عديّ ، فقال : كان أمرك قبل اليوم أمراً يسيراً ، فاذا بك اليوم تُعجب وتغرب ! نحن نضرب أكباد الإبل الى بيت المقدس نصعّد شهراً ، وننحدر شهراً ، وأنت تزعم أنك أتيته في ليلة واحدة ! واللاتِ والعُزَّى لا أصدقك ، ولقد أشهد أنك كاذب .

وما وصلت نبعة في الحديث الى هذا المقدار ، حتى علت وجه أم هانىء سحابة من الهمّ ، وتحيرت في عينيها دمعة من الإشفاق .

ولكن نبعة استأنفت حديثها وقالت : أما أبو بكر فإنه نطق من فوره ، وقال لرسول الله : أشهد أنك صادق . فقال له المطعِم بن عديّ : أتصدّق انه ذهب الى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ! قال أبو بكر : نعم ، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أنا أصدّقه في خبر السماء في غُدُوّه ورواحه ، أفأكذبه في إكرام الله بأن ينقله مسيرة شهر ؟ وتبع المسلمون أبا بكر ، ولكن واأسفاه ! لقد ارتدّ نفر قليل منهم ، لم تتسع عقولهم لأن تدرك قدرة الله ، ولم تستروح[4] قلوبهم لما اختص به رسول الله .

قالت أم هانىء : لا بأس على دين رسول الله من هؤلاء النفر الذين ارتدُّوا ، فلعلَّ من الخير أن يبتعدوا عن صفوف المسلمين ، ويمحّوا من صحيفة المؤمنين ، إذ لا خير للمسلمين في ضعيف متردد ، ولا نفع لهم في مذبذب مضطرب .

---

(١) الأورق من الإبل : ما في لونه بياض الى سواد .

(٢) الغِرارة : حِمْل من التبن .

(٣) برقاء : كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض .

(٤) تستروح : تستريح .

الهجرة (*)

قالت الأوس : إن الحرب قد ضرَّستنا ، وألقت بصدْرها علينا ، وهؤلاء بنو عمنا الخزرج قد ألّبُوا اليهود علينا : ليشتدّ بهم أزرهم في القتال ، فالتمسوا لنا عليهم حِلْفاً عند بعض قبائل العرب .

وكانت الأوس والخزرج[1] قبيلتان تنحدران عن أصل واحد ، وتقيمان في المدينة ، ولكنّ نار الحرب ما كانت بينهما تنطفىء ، ولا ثورة الخلاف تهدأ ، وما زال ما بينهما يشتد ، حتى كان يوم « بُعاث »[2] ، ففنيَ فيه رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، ثم وقعت بينهما هُدْنة حالفت الخزرجُ فيها اليهود ، وأخذت الأوسُ تلتمس الحِلف عند العرب .

وفصَل عن المدينة رهط[3] من الأوس : أبو الحَيسر ، وإياس بن مُعاذ وآخرون وولوا وجوههم نحو مكة يلتمسون الحلف عند قريش على بني عمهم من الخزرج ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرف موسماً يقام أو جمعاً يَحْتشد ، أو نفراً يفِد ، إلا أذاع فيهم دعوته ، ونشر رسالته ، لا يبالي الكيدَ ولا الأذى ، ولا الصدّ ولا الإعراض ، فلهداية البشر يدعو ، وفي سبيل الله ما يلقى .

وسمع بهؤلاء الرهط ، فأتاهم وجلس إليهم ، وقال لهم : هل لكم من خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثني الى العباد أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب . وتلا عليهم القرآن ، ثم ذكر الإسلام . فقال إياس ، وكان غلاماً حدثاً : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر حَفنَة من البَطحاء فضرب بها وجه إياس ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ! فصمت إياس ، وقام رسول الله ، وانصرف القوم .

*

(*) الأنفال : ٣١ .

(١) هما الأوس والخزرج : ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو ... من كهلان سبأ ، ملوك اليمن .

(٢) بعاث : من أيام العرب المشهورة بين الأوس والخزرج ، وهو موضع قرب المدينة .

(٣) رهط : جماعة .

وفي الموسم من هذا العام وفد على مكة نَفَرٌ من الخزرج ، ولقيهم رسول الله ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : من موالي يهود[1] ؟ قالوا : نعم ، قال تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، ودعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال بعض لبعض : يا قوم تعلّموا[2] والله إنه لَلنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يَسبِقُنّكم اليه . ثم أجابوه فيما دعا اليه ، وصدّقوه فيما بلّغ ، وقَبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمَعهم الله بك ، فسنقدُم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرِضُ عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعز منك . ثم انصرفوا راجعين الى المدينة ، وهناك دعَوْا قومَهم الى الإسلام ، فلَقِي في نفوسهم الكريمة قبولاً ، ومن سُوَيْدَاء قلوبهم استئناساً ، وفشا بينهم الإسلام ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ لرسول الله .

واستبشر صلى الله عليه وسلم خيراً بإيمانهم ، وفرح بإسلامهم ، واتسعت أمامَه رُقْعَة الأمل ، وامتدت خيوط الرجاء . فهؤلاء قريش ما فتئوا يسفّهون رأيه ، ويحولون دون قصده ، وهم ما برحوا أيضاً يَقْعدون لأنصاره كل مَرْصَد ، ويؤذونهم في كل مكان ، ثم هو صلى الله عليه وسلم قد عرض نفسه على القبائل ، وأعلن دعوته في العشائر : أعلنها في ثقيف وكِنْدة ، وفي بني عامر وبني حنيفة ، فلم يكونوا خيراً من قريش رأياً ، ولا أقلّ منهم صداً أو إعراضاً . أما هؤلاء القوم من الخزرج فلم يجد عُسراً في إيمانهم ، ولم يَلق جهداً في إقناعهم ، إنهم آمنوا مخلصين ، وهُدُوا مطمئنين ، ومن يدري ! لعلهم يكونون من أنصاره وأعوانه ، ومن شيعته وخُلَصائه .

*

(١) موالي اليهود : أحلافهم .

(٢) تعلموا : اعلموا .

ومضى عام، وترقّب رسول الله الموسم: موسم الحجيج، وإذا اثنا عشر يفدون مُسْلمين: اثنان من الأوس، وعشرة من الخزرج، وأعلنوا للرسول إسلامَهم، ومدّ يده الكريمة لبَيْعَتهم، فبايعوه وعاهدوه ألا يُشركوا بالله شيئاً ولا يزْنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترون بين أيديهم، وأرجلهم، ولا يعصوا الله في معروف. فإن وفَّوا فلهم الجنة، وإن غَشَوا من ذلك شيئاً فأمرهم الى الله، إن شاء عذب، وإن شاء غفر. ثم عاهدهم على كتمان أمرهم عن قريش، ووعدهم اللقاء في العام المقبل.

وأرسل معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير[1]، يفقّههم في الدين ويقرئهم القرآن، ويعلمهم قواعد الاسلام.

وعادوا الى المدينة ونور الله يضيء بين جوانحهم، وسِمَات[2] الاسلام تعلو وجوههم.

ومضت الأيام، ودعوة الرسول تصادف في نفوسهم مكاناً خصيباً، وصدراً رحيباً، وذهبت من نفوسهم الأحقاد، وذابت الأضغان، وصَفَت منهم القلوب، حتى كان العام المقبل، فوفد على المدينة ـــ فيمن وفد عليها ـــ سبعون رجلاً وامرأتان من مُسْلِمي الخزْرج والأوْس. وعلم الرسول بقدومهم، فواعدهم العقبة[3] من أوسط أيام التشريق[4].

ولما كان الموعد، ومضى من الليل ثُلثُه وخرجوا من رحالهم مستخْفين، يتسللون تسلُّلَ القطا، حتى اجتمعوا في الشّعب عند العقبة، ثم أقبل رسول الله ﷺ، ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو إن كان لا يزال على دين قومه، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوَثّق له.

---

(١) لم يكن وراء مصعب إلا نبي مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون السائد. وما كان يملك من وسائل الاغراء ما يطمع طلاب الدنيا. كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة قبسها من النبي وإخلاصه لله جعله يضحي بمال أسرته وجاهها في سبيل الإسلام.

(٢) سمات: علائم.

(٣) العقبة: منزل في طريق مكة.

(٤) أيام التشريق: من أيام الحج: ينحر فيها اللحم ويشرق، أي يقدد.

قال العباس : يا معشر الخزرج[1] ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزة من قومه ، ومنعة في بلده ، وانه قد أبى إلا الانحياز اليكم ، واللحاقَ بكم ، فإن كنتم تَروْن أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم فمن الآن فدَعُوه ، فإنه في عزة ومَنعَة من قومه وبلده .

فقالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ : وتلا القرآن ، ودعا الى الله ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فقام البَراء بن مَعْرور ، وقال : نعم ! فوالذي بعثك بالحق لَنَمْنعنَّك مما نمنع منه ذرارينا ، فبايعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، ورثناها كابراً عن كابر .

وقال العباس بن عُبادة : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ! قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود[2] من الناس ، فان كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وذهبت أشرافُكم قَتْلاً أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خِزْي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفّينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك نبايعك ، ثم بايعوه .

واعترض أبو الهيثم ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين اليهود حبالاً[3] ، وإنّا قاطعوها ، فهل عَسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجعَ الى قومك وتَدَعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدمَ والهدمَ الهدم[4] ، أنا منكم وأنتم مني .

---

(١) العرب يسمون هذا الحي من الأنصار : الخزرج خزرجها وأوسها .

(٢) يريد بالأحمر والأسود الناس جميعاً .

(٣) حبال : عهوداً ومواثيق .

(٤) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمي دمك ، وهدمي هدمك . يعني ما هدمت من الدماء

أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم قال لهم : أخْرِجُوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ، ولما انتخبوا نقبَاءهم قال لهم : أنتم كُفَلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ، وأنا كفيل على قومي .

*

وشاع في مكة أمر البيعة ، وعلمت قريش بظهور الإسلام في المدينة ، فاضطرب حبلُهم ، وزاد غيظهم ، واشتدّت الحفيظة[1] في صدورهم . ثم ضاعفوا الأذى بالمسلمين ، وأخذوا يوقعون عليهم ضروب المِحن ، ويصُبُّون فوق رءوسهم ألوان العذاب : من تنكيل واستهزاء ، الى سخرية وإيذاء . وهم فيما بين ذلك مُضَيَّق عليهم في العبادة ، مضطهدون فيما يعتقدون ، فساءت حالُهم وكثرت أحزانهم . رأى رسول الله ما هم عليه من محنة وفتنة ، فأذِن لهم بالهجرة الى المدينة وقال لهم ، ان الله جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها . فاستجابوا لله وللرسول ، وهاجروا الى المدينة أرسالاً ، ونزحوا اليها جماعات ووحداناً ، تاركين ــ ابتغاء مرضاة الله ــ ديارهم وأوطانهم ، وأولادهم وأموالهم .

وما عليهم لو هاجروا ! أليسوا قد امْتُحِنوا بأنكى ألوان الأذى ، وفُتِنوا بأشدّ صنوف الآلام ! أوَلم يضيّق عليهم في العبادة ، وتسدّ عليهم منافذُ الطرقات فاضطروا لِلزوم الدور أحياناً ، والهجرة الى الحبشة أحياناً !

وذلك رسول الله ــ وهو أكرم من طلعت عليه شمس ، وأفضل من أظلته سماء ــ ألم يَضَعْ واحد منهمُ الثوب في عنقه حتى كاد يميته خَنقاً ، ألم يحملْ واحدٌ منهم الحجَر ليشجَ به رأسه ، ولولا أن عناية الله لاحَظتْهُ لأ رْدَاه قتيلاً !

هذه مكة وقد أصبحت دارَ بلاء وعذاب ، فما المقام على دار الهوان ــ وهم العرب أبَاة الضيم والإذلال ! وهم المسلمون ــ والإسلام دين العزة والمنعة .

ثم هو الاسلام دين عامّ شامل ، ليس دينَ مكة وحدها ، وليس دين قريش وحدها ،

---

(١) الحفيظة : الغضب .

بل هو دين البشر كلهم : حاضرهم ومستقبلهم ، ودين الخلق أجمعين : عربيهم وعجميهم ، وأسودهم وأحمرهم ، من تلك الساعة التي هتف فيها محمد داعياً الى يوم تتبدّل الأرض غير الأرض والسموات .

وإذن فليخرج هؤلاء المسلمون مهاجرين الى المدينة يضربون أحسن الأمثال ، ويُلْقُونَ درساً على من يُضطهد في عقيدته ممن يأتي بعدهم من الأجيال . وكذلك خرجوا ، واستقبلهم الانصار بالمدينة ، ولَقوا فيها أهلاً بأهل ، وجيراناً بجيران .

عَلِمَ رجال قريش خروج المسلمين الى المدينة ، فَسُقِط في أيديهم ، ورأوْا أنهم إن لم يتدبّروا في أمورهم ، وينظروا في غَدِهم ، فإن أمر محمد غالب ، وشأنهم في ذهاب ، فاجتمعوا في دار النّدوة يتشاورون ويتدبرون ، ويُبرمون ويَنقضون ، وكذلك كانوا يفعلون حين يَحْزُبهم[1] الأمر ، وتشتبه عليه الآراء . واجتمع أشرافهم وبَهاليلهم[2] ، ورؤساؤهم وغطاريفهم ، ثم قام واحد منهم ، فقال :

لقد جمعناكم اليوم لِيُدْلي واحد منكم برأيه في محمد ، فهو كما علمتم قد ظهر أمره واتّضح ، وقد جاوز مكة ، وامتدّ الى يَثرْب ، وربما امتدّ الى غيرها من البلدان . واعلموا قبل ان تتشققوا بالآراء : أنا قد فَتَنّاه بأنواع الأذى ، فوجدناه صابراً جليداً ، وأنا بلوْنا أصحابه بصنوف المحن فوجدناهم صامدين أقوياء . ولقد ارتاحت نفوسُنا حينما علمنا ما لقيه من خذلان عند بني حنيفة ، ومن كيد وأذى في ثقيف ، ومن تكذيب عند غيرهما من أحياء العرب بل تنفسنا الصُّعَداء حين مات أبو طالب ، ذلك الذي يؤويه وينصره ، ويحميه ويخفره[3] ، ولكن وأسفاه ! لقد وجد اليوم عند الخزرج عضداً ونصيراً ، ووليّاً وظهيراً ، بل لقد أصبحوا بعد دعوته فيهم إخواناً وكانوا أعداء ، وأقوياء وقد كانوا متخاذلين ضعفاء ! وذهبت من صدورهم الإحَن ، وامّحت الأحقاد . وليت المصيبة

(١) يحزبهم : أي يداهمهم .

(٢) البهاليل : جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .

(٣) يخفره : يجيره .

وقفت عند هذا الحد ، ولم تجاوز ذلك المقدار ! فهاهم أولاء أصحابه قد هُرعوا إليهم ، وانثالوا عليهم ، غير مبالين أوطانهم أو ديارهم ، ولا عابئين بأموالهم أو أولادهم . وأكبر الظنّ أن محمداً سيلحق بهم ، وإذن تكون المصيبة أشدَّ ، ويكون الخطب أنكى ، وما تأمنون أن يثب علينا بهم فيسقط الأمر من أيدينا ، وتعود الدائرة علينا .

قال أبو البَخْتريّ بن هشام : احبسوه في الحديد ، وغلّقوا عليه الأبواب ، حتى يصيبه ما أصاب غيرَه من الشعراء .

قالوا له : ليس هذا برأي ، وقد علمتم أصحابَه ، وحبَّهم له وتعلقَهم به وإنه ليوشك ــ لو علموا ــ أن يكاثرونا ، ويطلقوه من أيدينا ، فلا نكون قد صنعنا شيئاً .

وقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو : نخرجه من بين أظهرنا ، وننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع !

قالوا : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروْا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يَحُلّ على حَيٍّ من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم ، حتى يطأكم بهم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . أديروا فيه رأياً غير هذا !

وقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه رأياً ، ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحَكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى ، شاباً جليداً ، نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يغمد هؤلاء إليه ، فيضربوه بها ضربةَ رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، تَفرّق دمه في القبائل ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، ثم يرضوا منا بالعقل[1] فنعْقِل لهم[2] . فصفقوا لرأيه ، واستراحوا لقوله ، وتفرّقوا على ذلك .

*

(١) العقل : الدية .

(٢) عقل له : اكتفى بالمال عن القتل .

وكان أبو بكر رجلاً رضيّ القلب ، سخيّ النفس ، حلو الشمائل ؛ أحبَّ رسول الله من كل قلبه ، وآثره على خاصة نفسه ، ووَدّ لو يُفَدّيه بروحه وماله وعرف رسول الله فيه هذه الصفات ، فقرّبَه اليه ، أدناه منه وسماه صِدّيقاً ، ودعاه من النار عتيقاً .

وأذِن رسول الله للمسلمين بالهجرة إلا أبا بكر ، فإنه كلما استأذنه في الرحيل واستشاره في الذهاب الى المدينة يستبقيه ، ويقول له : لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمئن أبو بكر ، و يودّ لو يكونُ الرسولُ صاحبَه في هجرته ، ورفيقه في سفرته ، ولهذا اشترى راحلتين أعدّهما ليوم رحيل[1] .

ويوم أن اجتمعت قريش في دار نَدوَتها ، وأعدّت مَكْرَها ، وهيَّأت كيدها ، أوحى الله الى رسوله : إن القوم قد أجمعوا لك كيداً ، وبيّتوا لك مكراً ، ولكن الله عاصمُك من كيدهم ، وحافظك من مكرهم ، فخذ عزمك للسفر ، وهيىء نفسك للرحيل الى المدينة .

فتوجه الرسول من ساعته لأبي بكر : وقال له : يا أبا بكر ، إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، فقال رسول الله : الصحبة . وواعده العتَمة[2] . وفرح أبو بكر ، وراح يهيىء الراحلتين .

وعاد رسول الله ﷺ الى داره ، وهو عالم أن القوم سيحيطون به ، وفي أيديهم سلاحُهم ، وبين جوانبهم كيدهم ومكرهم . وجاء القوم ، وتربصوا ينتظرون خروج رسول الله ، ولكنه لم يعبأ بجمعهم ، ولم يبال كيدَهم ، لأن الله وعده بالعصمة ، ومنَّاه النجاة . وما انتصف الليل حتى خرج عليهم بعد أن أمر عليًّا أن ينام في فراشه ، وأن يتسجّى[3] ببُرده . وألقي عليهم النوم فناموا ، وخرج رسول الله فلم ينتبهوا . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

---

(١) لم يتوانى رسول الله أن يتخذ الأسباب اللازمة لنجاح أعماله ليعلمنا الطريقة المثلى في التعامل مع رب العالمين . مع أن الله لا يعجزه أن يعطي العبد بسبب وبغير سبب . ولكن هكذا شاءت حكمة الله . وعندما خالف رماة الجبل في غزوة أحد أحد الأسباب الظاهرية خسروا أما ان أفلس العبد من الأسباب فلا بأس أن يسأل ربه النصرة بما شاء .

(٢) العتمة : ثلث الليل الأول .

(٣) يتسجّى : يتغطّى .

وذهب رسول الله الى دار أبي بكر ، وخرجا من خَوْخة[1] هناك ، وسارا حتى بلغا غار ثَوْر[2] ، وهناك كمنا فيه .

أما القوم الذين ظلوا يترقبون خروج الرسول ليقتلوه ، فقد كشف لهم الصباح أنهم إنما باتوا يحرسون عليَّ بن أبي طالب ، لا محمد بن عبدالله ! وعندئذ ذُعِرُوا وَهُرِعُوا الى أشرافهم . وهؤلاء أدركتهم الحَيْرَة ، وعلاهم الوجوم ، وذهب أبو جهل الى منزل أبي بكر ، وسأل أسماء بنته : أين أبوك ؟ فقالت له : لا أدري ، فلطمها على وجهها ، ثم خرج مع قومه يقتفون الأثر حتى وصلوا الى الغار !

ولكن الله ردّهم على أعقابهم ، وخَذَلهم في كيدهم ، إذ بانَ لهم أنه غار مهجور ، وأنه مكان لم يطأه قدم منذ أزمان !

ثم عادوا الى مكة ، وجعلوا لمن يدل على محمد مائة ناقة . وعرض سراقة الكنانيّ لهذا الأمر ، وأعدَّ نفسه لتلك الغاية ، على أن يوفوا له بالشرط ، ويأخذ النياق إذا دلّهم عليه .

ومكث رسول الله وصاحبه في الغار ثلاثة أيام ، يمر عليهما عامر بن فهيرَة مولى أبي بكر بالأغنام في أعقاب اليوم ، فيحتلبان ويأكلان ، ويأتي لهما عبدالله ابن أبي بكر بالأخبار حتى سكن الطلب ، وغفل عنهما الناس[3] .

وجاءهما عبدالله بن الأرَيْقط بالراحلتين ، وخرجا متوجهين الى المدينة ، وأبو بكر لا يفتأ يذكر الطلب فيتلفت خلفه ، ويخاف الرَصد فيتلفت أمامه ، حتى أدركهما سُراقة . وما اقترب منهما حتى عَثَر به فرسه ، وساخت قوائمه في الأرض ، ثم ثار من حوله الدخان والاعصار ، فأدرك سراقة أن محمداً رسول الله ممنوع منه ، ولهذا استغاث واستنصر ، على ألا يخبر قريشاً بشيء مما رأى ، فدعا له الرسول ، وعاد سراقة ولم يقل لقومه شيئاً .

*

---

(١) الخوخة : كوة تؤدي الضوء الى البيت .

(٢) ثور : جبل بمكة فيه الغار .

(٣) لم تكن هجرة النبي هروب رجل خائف على نفسه أو على أصحابه ، ولكن لأن رسول الله صاحب دعوة هدفه أن تعم كلمة التوحيد كل الخلائق فهو يجري حيث يتحقق هدفه . لقد ذهب للطائف علّ أهلها يساعدونه حتى يبلغ دعوة ربه . فلما لم يجد فيهم معيناً تركهم ووجد ذلك في يثرب .

ونعود الى المسلمين من أهل المدينة ، فإذا بهم يخرجون الى ظاهر البلد كل يوم ، من ساعة أن علموا بخروجه عن مكة ، لا يعودون الى منازلهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، الى أن كان يوم سَعفَتْهم[1] الشمس ، وتحرّقت منهم الأقدام فرجعوا الى منازلهم ، وما راعهم إلا صائح يَهْتف[2] بهم : إن محمداً قد جاء ، فخرجوا اليه مهرولين ، وإذا به ورفيقه أبو بكر يتفيّئان ظلال النخيل ، فأحلّوه في قلوبهم ، وحاطوه بنفوسهم ونزل على بني عمرو بن عَوْف ، وأقام فيهم أياماً ، وأسس المسجد بقُباء[3] .

ثم خرج بناقته ، وقد وضع لها زِمامها ، وكلما مرت بقوم تهافتوا عليها ، وقالوا للرسول : هلمّ يا رسول الله إلينا ، الى العَدد والعدة والمنعة ، ولكن رسول الله يقول : خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة . وما زالت تسير حتى إذا أتت دار مالك بن النجار ، بركَت على باب المسجد ، وهو يومئذ مِربْد تمر[4] لسهل وسهيل ابني رافع بنِ عمْرو ، وهما يتيمان في حجر أسيد بن زُرَارَة . ثم سارت ورسول الله ﷺ عليها ، حتى بركت على باب أبي أيوب ، الأنصاري ، فقال عليه السلام : ها هنا منزل إن شاء ، (رَبِّ أنْزلني مُنزَلاً مُبَاركاً وأنت خَيْرُ المُنْزِلينَ) فاحتمل أبو أيوب رحله ، ووضعه ، في منزله ، وجاء أسيد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته . فكانت عنده .

ثم دعا من جاء من مكة ، وسماهم مهاجرين ، ومن أسلم من أهل المدينة أنصاراً ، وآخى بينهم وجمعهم على المَحَجةِ[5] الواضحة ، والصراط المستقيم ، ثم بدأ يستأنف الدعوة الى الله بعزم جديد .

---

(١) سفعتهم : لفحتهم وقرصتهم .

(٢) يهتف بهم : يصيح منادياً .

(٣) قباء بئر المدينة ، ثم عرفت بها مساكن عمرو بن عوف .

(٤) مربد تمر : مكان يجمع فيه التمر ويرص ويجفف .

(٥) المحجة : وسط الطريق . وقد سميت بذلك لأنها تُقْصَد .

بدر (*)

١

ما كاد يستقرّ أمرُ المهاجرين بالمدينة ، حتى عقدت أواصرُ المحبة بينهم وبين الأنصار ؛ فعاشوا بها إخواناً متآلفين ، وجيراناً متعاونين ؛ غير أنهم لم ينسوا ما حاق بهم من إيذاء خصومهم بمكة ، وما برحوا يتطلعون الى نشر دينهم ، ويستشرفون الى وطنهم ، ويهيمون بواديهم الذي فيه نشئوا ، ومن مائه شربوا ، ومن هوائه تنفسوا ، وفيه أبناؤهم وأقاربهم ، وخئولتهم وعمومتهم ، وطريفهم وتليدهم .

ورأى هؤلاء — الذين اضطروا الى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد ، وما لاقوا من الأذى — أن لا بدّ من التعرض لتجارة قريش : في ذهابها أو رجوعها ، حتى يحس هؤلاء قوّتهم ، ويشعروا بـبأسهم ، وحينئذ يخافون على تجارتهم أن تَبُور وقوافلهم أن ينقطع بها الطريق ، فيزول ما بينهم وبين المهاجرين من إحَن ، ويصفو ما بينهم من كدر ، وينفسح المجال أمام المسلمين ، لنشر دينهم ، والدعوة الى عقيدتهم[١] .

في السنة الثانية من الهجرة[٢] ، بعث رسول الله عَبدَالله بن جَحْش ، ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع اليه كتاباً ، وأمره ألا ينظرَ فيه إلاّ بعد يومين من مسيره ، فيمضي لما أمره الله به ، ولا يستكْره أحداً من أصحابه .

ويمضي عبدالله في طريقه ، وهو لا يعرف له وجهة ، ولا يقصد إربَة[٣] ، ولكنه يندفع في سيره ، طوعاً لأمر الله ، وتنفيذاً لإشارته ، ثقة بالله ، واطمئناناً الى رأي رسوله .

(*) البقرة ٢١٧ و٢١٨ . الأنفال ٥ وما بعدها .

(١) لم يكن هدف المهاجرين استرداد أموالهم وانما الله أراد أن يسلم رقاب المشركين للمؤمنين ليذلهم بعد أن استكملت لهم أسباب القتال وصار لهم أرض وشعب .

(٢) هذه هي سرية عبدالله بن جحش .

(٣) الإربة : الحاجة .

سار يومين كاملين ، ثم فتح الكتاب ، فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامْض حتى تنزل نخلة[1] بين مكة والطائف ، فترصَّدْ بها قريشاً وتعلَّم[2] لنا ، من أخبارهم » .

وأعلن في أصحابه أمر الرسول ، وقال لهم : أمرني رسول الله أن أمضي الى نخْلة ، أرْصُد بها قريشاً ، حتى آتيه منهم بخبر ؛ وقد نهاني أن استكره منكم أحداً ، فمن كان منكم يريد الشهادة ، ويرغب فيها فينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله .

فاستجابوا لدعوته ، واستعدّوا لمعاونته ، وساروا جميعاً نحو غرضهم الأسمى ، تدفعهم الثقة بالله ورسوله ، وتحدوهم[3] عناية الله ، وتشدّ من أزرهم قوّته ، ولكن اثنين منهم ضلّ منهما بعير ، كانا يتعاقبانه[4] فتخلّفا في طلبه ، فأسرتْهما قريش

ومضى عبدالله وبقيةُ أصحابه حتى نزل بنخلة ، ومرت به عِيرٌ[5] لقريش تحمل تجارة لهم ، وما إن رأوه حتى فزعوا لتلك المفاجأة ، ودهشوا لهذه المقابلة . وتشاور أصحاب عبدالله فيما بينهم ،فقال قائل منهم : والله لئن تركتم القومَ هذه الليلة ليَدْخُلُنّ المسجد الحرام ، فليمتنعُنّ منكم به ، وان قتلتموهم لتقتُلُنّهم في الشهر الحرام .

فتردّد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، وخافوا أن يقاتلوهم ، ولكنهم ما لبثوا أن أقدموا على الاشتباك معهم ، وأجمعوا أخْذَ ما يحملون من مال ونَشَب .

التقى الخصمان ، فرمى وَاقِدُ بن عبد التميميّ عمروا بن الحضرميّ بسهم فقتله ، وأسِرَ عثمان بن عبدالله ، والحكم بن كيسان ، وأفاء الله على المسلمين ما كانوا يحملون من أموال ، وخلص لهم ما جمعوا من تجارة .

---

(١) نخلة : موضع .
(٢) تعلم : أعلم .
(٣) تحدوهم : ترعاهم .
(٤) يتعاقبانه : يركبانه واحداً بعد الآخر .
(٥) العير : الإبل التي تحمل الميرة .

٢

أقبل عبدُ اللّٰه بن جحش وأصحابه بالعِير وبالأسيرين ، حتى قدموا بهما على رسول الله في المدينة ، فلما رآهم ، وعلم أنه قد التقى الفريقان ، فانهزم المشركون وفاز المسلمون بالغَلبة والنصر ، قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام !

ووقف العِيرَ والأسيرين ، وأبى أن يأخذَ من ذلك شيئاً ، حتى يفصلَ الله في أمرهما بحكم ، ويقضي في شأنهما بوَحْي .

وسُقط[١] في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وثارت ثائرة قريش حين علموا بالتعرض لتجارتهم ، وإيذاء قومهم ، وقالوا : قد استحلّ محمد وأصحابُه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخَذُوا الأموال ، وأسروا الرجال .

ولكن الله أنزل على المجاهدين رحمته ، وأظلهم بعطفه ورعايته ، وأوحى الى نبيه الكريم : (يَسْئلُونَكَ عن الشَّهْر الحَرَام قِتال فيه قُلْ قِتالٌ فيه كبيرٌ وصَدٌّ عن سَبيل الله وكُفْرٌ به والمَسْجِدِ الحَرَام ، وإخْراجُ أهلِه منه أكبَرُ عند الله والفِتْنَة أكبرُ من القَتْلِ)[٢] .

فلما نزل هذا القرآن ، وفَرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفق[٣] ، سُرّي عن أصحاب هذه السّرية ، وانقشعت غياهب الحزن عن تلك الفئة المقاتلة ، وقبض رسول الله العِيرَ والأسيرَيْن .

ثم بعثت إليه قريش ، تطلب منه فداء أسيريها ، ولكنه أبى إلا أن يكون ذلك بردّ صاحبيه اللذين أسروهما ، وقال : لا فِدَاء حتى يقدم صاحبانا ، فإنا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

---

(١) سقط في يده : احتار .

(٢) البقرة ٢١٧ .

(٣) الشفق : الخوف .

فنزلوا على رأيه ، واستسلموا لشرطه ، وردّوا اليه أسيريه ، وأتم الله نعمته على المسلمين ، وأنجز لهم وَعْده ، إذْ أيّدهم بنصره .

أما عبدالله بن جحش وأصحابه ، فما تجلى عنهم ما كانوا فيه من الحزن ، وانقشع ما غمرهم من اليأس ، حتى طمعوا في الأجْر ، وتطلعوا الى الثواب ، فقالوا : يا رسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعْطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله في شأنهم : (إنَّ الذينَ آمنُوا وَالذينَ هاجَروا وجَاهَدُوا في سَبيل الله أولئك يرْجُون رَحْمة الله والله غَفُور رَحيمٌ) .

بذلك انجابت[1] أحزانهم ، واطمأنّت قلوبهم ، وشاع السرور في نفوسهم ، إذ غمرتهم نعمة الله ، وأظلتهم رحمته .

☼

كانت هذه السرية مفترقَ طرق في سياسة الإسلام ، وأول دِعامة استقر بها نظامه ، وقام عليها عماده ، فيها أجيب المشركون على تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام بأنه كبير ، ولكن هناك ما هو أكبر منه ، وهو الصدُّ عن سبيل الله ، وردُّ المسلمين عن دينهم بالوعد والوعيد ، والخوف والتهديد . والكفر بالله وإخراج أهل المسجد الحرام منه . وهذا هو ما ارتكبه المشركون ، وما اقترفه أعداء المسلمين ، لذلك شرع بعد ذلك قتال من يصدُّون عن دين الله ، ويفتنون[2] الناس عن عقيدتهم التي رسخت في نفوسهم ، وتمكنت من قلوبهم .

٣

شعَرت قريش بالحط من كرامتها وعزتها ، والنيل من بأسها وقوّتها ، إذ أغِير على أموالها ، وقتل أبناؤها وأسر رجالها .

---

(١) انجابت : ذهبت وغابت .

(٢) يفتنون : يردون .

لذلك حاولوا إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه : أن قاتلوا في الشهر الحرام ، حتى لقد أيْقنَ المسلمون أن لم يبق في مصانعتهم أو الا تفاق معهم رجاء .

وكان يوم أخبر فيه النبي المسلمين أن أبا سُفيان بن حرب قد أقبل من الشام في عير لقريش ، فيها أموالهم وتجارتهم ، ونَدَبهم اليها ، وقال لهم : هذه عِيرٌ لقريش ، فاخرجوا اليها لعل الله يُنفِلكُموها[1] .

فخفّ بعضهم ، وثقل بعضهم ، لأنهم ما كانوا يظنون أن رسول الله يلقى حرباً .

أما أبو سفيان ، فقد كان يتحسس الأخبار ، ويتسمّع الأنباء ، ويسأل مَن لقَى من الأعراب : تخوّفاً على تجارته ، وحرصاً على أمواله ، فأصاب خبراً من بعض الركبان : أن محمداً قد استنفر[2] أصحابه لك ولعيرك . فخاف العاقبة ، وَحَذِرَ الأمر ، وأراد أن يأخذ للأمر عدّته ، فاستأجر ضَمْضَم بن عَمْرو الغفاري وأرسله إلى مكة . وأمره أن يأتي قريشاً ، فيستنْفِرهم الى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عَرَض له في أصحابه .

٤

قال العباس بن عبد المطلب — وقد لقيَ الوليد بن عتبة بمكة : إن عاتكة قد رأت رؤيا أفزعتها ، ولما قصّتها عليّ تخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة . قال الوليد : وماذا رأت ؟ قال رأت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأ بْطَح ، ثم صرخ بأعلى صوته ، ألا انفروا يا لَغُدر[3] لمصارعكم في ثلاث ! ثم دخل المسجد والناس يتبعونه . فبينما هم حوله مَثل[4] به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ : ألا انفروا يا لَغُدر في ثلاث ! ثم

---

(١) أنفله اياه : أعطاه نفلاً وغنماً .

(٢) استنفر أصحابه : طلب منهم النصرة .

(٣) غدر : إذا نقض العهد ، ورجل غادر ، وغدر . وأكثرها ما يستعمل هذا النداء في الشتم ، يقال : يا غدر ، ويقال في الجمع يا لغدر .

(٤) مثل : قامَ منتصباً .

مَـــثَـــل به بعيره على رأس أبي قبَيْس[1] ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تَـــهْوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ترفَّضت[2] فما بقي بيت من بيوت مكة ، ولا دار إلا دخلها منها فِلْقة[3] .

ها هي ذي رؤياها[4] ، فاكتم مني ما أحدّثك به .

ولـكـن الوليد حدّث أباه بها ، وفشا أمرُها ، حتى أصبحت حديثَ قريش في أنديتها ، ومَثار الجدل في مجالسها .

*

وغـدا الـعباسُ يطوف بالبيت ، وأبو جهل في رهْطٍ[5] من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عـاتـكـة أختـه ، فلما رآه أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فَرغْت من طوافك ، فأقْبِل إلينا .

فلما فـرغ جـلـس مـعـهـم ، فـقـال لـه : يا بني عبد المطلب ، متى حدثتْ فيكم هذه الـنـبـيَّـــة ؟ قـال الـعـبـاس : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأتها عاتكة . قال : ما رأت ؟ قـال أبـو جـهـل : يـا بني عـبـد المطلب ، أما رضيتم أن يتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نـساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها أن راكباً قال انفروا في ثلاث . فسنتربّص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول ، وإلا كنتم أكذب أهل بيت في العرب .

فأنكر العباس أن تكون قد رأت شيئاً ، ثم افترقوا .

*

وأمسى المسـاء فـلـم تـبقَ امـرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس ، وصِحن به ،

---

(١) أبو قبيس : جبل بمكة .

(٢) ترفض الشيء : إذا تكسر .

(٣) الفلقة : الكسرة .

(٤) رؤيا : حلم ، منام .

(٥) الرهط : ما دون العشرة من الرجال ، والمراد : الجماعة .

فقلن له : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول نساءكم وأنت تسمع ! ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت !

قال العباس : قد والله فَعلتُ ، ما كان مني اليه من كبير ، وأيمُ الحق[1] لأتعرضنّ له ، فإن عاد لأكفيكُنّه .

وغدا الى المسجد في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وهو حديدٌ مُغْضَب[2] يرى أنه قد فاته أمر يحبُّ أن يُدرِكه . ودخل المسجد ، فرأى أبا جهل ومشى نحوه يعترض له ليعودَ لبعض ما قال ، فيقع به .

ولكنه رأى أبا جهل يتّجه نحو باب المسجد ، فظنه قد فَرِق[3] منه أن يشاتمه . ولكنه كان قد سمع صوتاً لم يسمعه ، ورنَّ في أذنه صَدى لم يعهده ، فشُغِل به ، وخرج إليه .

٥

كان ضَمْضَمُ بن عَمرو الغفاري رسولُ أبي سفيان قد وصل الى مكة ، ووقف على راحلته ، وقد جَدّع أنف بعيره ، وحوَّل رَحْله ، وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر ، وجعل يصيح : يا معشر قريش ، اللطيمة[4] اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عَرَض لها محمد في أصحابه ، ولا أرى أن تدركوها ، الغَوْثَ !

وشُغِل الناس بهذا الأمر ، واجتمعوا يُجيلون قِدَاحَ الرأي ، ثم أجمعوا على أن يتجهزوا سِراعاً ، فكانوا بين ، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً . وأوْعبَت[5] قريش ، فلم يتخلف من أشرافها أحد ، إلا أبا لهب ، فقد بعث مكانه من استأجره بأربعة آلاف درهم ، كانت ديناً عليه .

*

---

(١) أحد أشكال اليمين عند العرب .

(٢) رجل حديد : يكون في اللسن والفهم والغضب .

(٣) فرق : خاف .

(٤) اللطيمة : المال والتجارة .

(٥) أوعب : جمع .

ولما أجمعوا سيرهم ، وفرغوا من جهازهم ذكروا ما كان بينهم وبين كِنَانة من إحَن[1] ، وما وقع بينهما من حروب ، وقال قائل منهم : إننا نخشى أن يأتونا من خلفنا . وكاد ذلك يَثنيهم ، ويقعد بهم عن الخروج ، ولكن سُرَاقة بن مالك ــ وكان من أشراف كنانة ــ قال : أنا لكم جار من أن تأتيكم كِنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

إذ ذاك رجحت كِفَّةُ رأي الدعاة الى الخروج ، ولم يبق بمكة متخلفٌ قادر على القتال .

٦

أما محمد فقد خرج[2] من المدينة وأمامه رَايَتان سوداوان : إحداهما مع علي ابن أبي طالب ، والأخرى مع الأنصار .

وسار مع أصحابه يَتعاقبون في الإبل[3] ، حتى إذا لقي رجلاً من الاعراب سأله عن الناس ، فلم يَجدْ عنده خبراً ، فواصلوا السير والسُّرى حتى إذا كانوا قريباً من الصَفْراء[4] بعث رسول الله من يتحسّس أخبار أبي سفيان بن حرب ، وسار حتى كان بذَفِران[5] نزل به ، فأتته العيون تخبره أن قريشاً قد سارت الى أبي سفيان ، ليمنعوا عيره .

استشار النبي أصحابه فيما عرض لهم من أمر قريش ، فقد تغير وجهُ الأمر ، وصار أمام عدوٍّ لا بد أن يلتحم معه في حرب ، ويشتبك معه في قتال !

قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أمَرَكَ الله ، فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربُّكَ فقاتِلا إنا هاهنا

---

(١) احن : خلافات وعداوة .

(٢) هذه هي بدر الكبرى .

(٣) يتعاقبون الإبل : يختلفون عليها : أي يركبونها واحداً بعد واحد .

(٤) الصفراء : قرية بين جبلين .

(٥) ذفران : واد قرب الصفراء

قاعدون ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سِرْتَ بنا الى برْكِ الغُماد[1] لَجالَدنا معك من دونه حتى تبلُغه . فقال له النبي خيراً ، ودعا له به .

ثم قال : أشيروا عليّ أيها الناس — وإنما يريد الأنصار ، فقال سعد بن مُعاذ : لكأنك تريدُنا يا رسول الله ! قال : قد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضْناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نَكره أن تَلْقي بنا عدوّنا في الحرب ، إنا لصُبُر في الحرب ، صُدُق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك : فسِرْ بنا ، واستمدّ العون والتوفيق من الله .

وما إن أتمّ كلامه ، وانتهى من حديثه حتى أشرق وجهُ الرسول ، وشاع السرور في نفسه ؛ ثم قال : سيروا وأبشروا ؛ فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين[2] والله لكأني أنظر الى مصَارع القوم ! وارتحلوا حتى نزلوا قريباً من بدر[3] .

*

وبعث النبي بعض أصحابه الى ماء بدر[4] يتحسسون أخبارهم ، فأصابوا رجلين يستقيان لقريش ، فأتوا بهما ، وسألوهما : الى أين يذهبان ؟ والى أي قبيلة ينتسبان ؟ وأي غرض يقصدان ؟ فقالا : نحن سُقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم

---

(١) برك الغماد : موضع باليمن . أو أقصى معمور الأرض .

(٢) إحدى الطائفتين : القافلة بالنصر أو الجنة بالشهادة في قتال قريش .

(٣) بدر : بئر مشهورة على الطريق من مكة الى المدينة .

(٤) بدر : ماء على ثمانية وعشرين فرسخاً من المدينة في طريق مكة ، وقد نزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل . والقليب ببدر : هو في العدوة الدنيا .

خبرهما ، وقد رجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فانهالوا عليهما ضرباً ، وأشبعوهما لطماً ، فلما أذلقوهما[1] قالا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

ولما رأى النبي ما كان من أصحابه ــ وقد كان يصلي ــ أقبل عليهم ، يقول : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإن كذّباكم تركتموهما ! صدقا والله إنهما لقريش .

ثم التفت اليهما يقول : أخبراني عن قريش ، قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدْوة[2] القصوى ، فقال رسول الله : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدّتهم ؟ قالا : لا ندري . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ، و.يوماً عشرا .

فقال الرسول لأصحابه : القوم فيما بين التسعمائة والألف . ثم أقبل على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

٧

هذا أبو سفيان قد تقدم عِيرَه حذراً من أن يفاجئه أصحاب محمد ، ولما علم بمكانهم ، وأفضَت[3] اليه عيونه بمستور أمرهم رجع اليه أصحابه سريعاً ، وغيّر وجهة سيره وجانب الطريق بعيره ، وترك بدراً يساراً ، وانطلق حتى أفلت من محمد وأصحابه ، واستخلص عِيره من بين أظفارهم .

ولما رأى أنه قد استخلص عيره ، وأحرز تجارته ونجا بأمواله ، أرسل الى قريش : إنكم إذ خرجتم ، لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجوت بها ، فارجعوا .

فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنقيمَ ثلاثاً ، فننحر الجُزُر ، ونُطْعِم الطعام ، ونَسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا : فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا .

ولكن الأخْنَس بن شَريق عارض رأيه ، ونقض حجته ، وقال لبني زُهرة وكان

---

(١) أذلقوهما : أضعفوهما .

(٢) العدوة : شط الوادي .

(٣) أفضت : أعلمت .

حليفاً لهم : يا بني زهرة ، قد نجت أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم ، وإنما نفرتم لتمنعوه ومالَه ، فارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضَـيْـعَـة[1] لا ما يقول هذا .
وقد كان الأخنس فيهم مطاعاً ، فلم يشهدها زُهريّ واحد ، ومَضت قريش حتى نزلوا بالعُـدْوة القصوى من الوادي .

✲

وأسْـفَـر الصباح ، والمسلمون في انتظار مرور العِير بهم ، فإذا الأخبار تصِلُهم أن أبا سفيـان قـد فـاتهم ، وأن مقاتِلَة قريش هم الذين ما يزالون على مقربة منهم ، فذَوى في نـفـوس جمـاعة منهم الأمل الذي كانوا ينعمون به ، وجادل بعضهم النبي ، كي يعودوا الى المـديـنـة ، ولا يَـلْـقَـوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم . فأنزل الله عليهم : (وإذْ[2] يَـعِـدُكـمُ الله إحْدَى الطائـفتين[3] أنها لكمُ وتَـوَدُّونَ أن غيرَ ذات الشَّوكةِ تَـكُـون لكم ويُـريدُ الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلَماته ويقْـطَـعَ دابِرَ الكافِـرينَ) .
فـأجمـع المسلمـون أن يَصْـمُـدُوا للعدوّ إذا اشتبكوا معه في القتال ، وبادروا الى ماء بدر، وبعث الله السماء[4] ، فأصاب الوادي ماء : لبّد لهم الأرض ، ولم يمنعهم عن السير ، وأصـاب قـريشـاً منهـا مـاء ، فلم يقدروا أن يرتحلوا معه وخرج رسول الله ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بَـدْر نزل به .

٨

استـقـرّ بهـم المـقـام ، فـقـال الحُباب بن المنذر : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ؟ أمـنـزلاً أنـزلـكـه الله لـيـس لـنـا أن نـتـقـدمـه ، ولا نـتـأخـر عـنـه ، أم هو الرأي والحربُ والمَـكـيـدة ؟

---

(١) الضيعة : العقار والأرض المغلة وتجارة الرجال .
(٢) الأنفال ٧ .
(٣) الطائفتان : العير والنفير ، وغير ذات الشوكة : العير . والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم
(٤) السماء : المطر .

قال النبي : بل هو الرأي والجهاد . قال : يا رسول الله ، ليس هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فتنزله ، ثم نُغَوِّر[1] ما سواه من القُلُب[2] ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون . فقال رسولُ الله : لقد أشرتَ بالرأي .

فساروا ، حتى إذا أتوا أدنى ماء من القوم نزلوا عليه ، ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت ، ثم بنوا حوضاً وملئوه ماء .

*

بنوا الحوض ، وأخذوا عُدّتهم للقتال ، وبينما هم يتحدثون ويتشاورون تقدّم سعدُ بن معاذ قائلاً : يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً[3] تكون فيه ، ونعدّ عندك رَكائبَك ! ثم نلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله ، وأظهرنا على عدوّنا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على رَكائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام — يا نبيّ الله — ما نحن بأشدّ لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى رسول الله على سعد ودعا له بخير . ثم بني العريش للنبي ، حتى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه ، لم يقع في يد عدوه ، واستطاع اللّحاق بأصحابه في يثرب ، يؤذّن فيهم بدعوته ، وينشر بين غيرهم من أبناء العرب دينه .

٩

ونزلت قريشٌ منازل القتال ، ثم بعثوا مَنْ يقصّ[4] لهم خبر المسلمين ، وجاء رائدهم يُنبئهم بأن أصحابَ محمد ثلثمائة أو يزيدون أو ينقصون ، وليس لهم كمين ولا مَوْرد ،

(١) نغور : نردم حتى ينضب الماء .

(٢) القلب : جمع قليب : البئر العادية القديمة .

(٣) عريشا : خيمة من خشب .

(٤) يقص : يتجسس .

ولكنهم مع ذلك قوم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم، ولا مَنعة لهم إلا إيمانهم الثابت، ويقينهم المكين.

وداخل الرعبُ قلوبهم، وخاف بعض ذوي الحكمة منهم أن يَقْتُل المسلمون كثرتَهم، فلا تبقى لمكة مكانتها، فقام عتبة بن ربيعة، وقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تَلْقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابنَ عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته! فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض لما تكرهون.

وبلغت أبا جهل مقالته، فاستشاط غيظاً، وذكّر القوم بما بينهم وبين المسلمين من إحَن[1]، وما فشا بينهم من عداوة، وما وقع من دماء، فأعجل ذلك القتال، وتزاحف الناسُ، والتقى الجمعان.

١٠

ورأى رسول الله كثرة أعدائه، ووفرة عُدّتهم، فخرج الى أصحابه يشدّد من عزمهم، ويعدل صفوفهم، ويأمرهم ألا يحملوا عليهم حتى يأمرهم وقال لهم: إن اكتنفكم القوم فانْضَحوهم[2] عنكم بالنَّبْل.

وعاد الى العريش معه أبو بكر، وهو أشدُّ ما يكون خوفاً من مصير أصحابه، وأكثر ما يكون إشفاقاً مما سيؤول اليه أمر الإسلام والمسلمين.

ثم لجأ الى الله يستمدّ منه النصر، ويستنجزه الوعد، وجعل يضرع اليه ويقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيَلائها وفَخرها، وتحادّك[3] وتكذّب رسولك. اللهم فنَصْرَك الذي وعدتني، اللهم إن تَهْلِك هذه العصابة[4] اليوم لا تُعبَد».

وما زال يدعو ربَّه، باسطاً يده، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه. وجعل أبو بكر

---

(١) الإحَن: الأحقاد.

(٢) نضح فلان بالنبل: رماه.

(٣) المحادة: المعاداة والمخالفة والمنازعة.

(٤) العصابة: الجماعة القليلة والمراد بها المسلمين.

من ورائه يردُّ على مَنكِبَيه رداءه ويهيب به . يا نبي الله ، بعضَ مُناشدتك ربك ! فإن الله منجزٌ لك ما وعدك من النصر .

ولكن النبي ﷺ ظلّ فيما هو فيه من ضراعة الى الله واستغاثة بربه ، حتى أخذته سِنةٌ ، رأى خلالها نَصْر الله ، إذ أوحي اليه : « يأيُّها النبيُّ حرِّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يَغلِبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغْلِبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقَهون »[1] .

فخرج النبي الى أصحابه يحرّضهم على القتال ، فقال : « والذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . ثم أخذ حَفْنة من الحصْباء[2] ، فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : « شاهتِ الوجوه » ، ثم أمر أصحابه ، فقال : شُدُّوا . فازداد المسلمون قوة ، وصاحوا مهلّلين : أَحَد أَحَد !

وأمدّهم الله بالملائكة يُبشِّرونهم ، ويزدادون بهم يقيناً وإيماناً ، ووقف النبي وسط المعمعة[3] ، يُقوّي من عزيمتهم ، ويشدّ من أزرِهم ، ويبشرهم بنصر الله لهم .

١١

ازداد المسلمون قوة بتحريض النبي لهم ، ووقوفه بين صفوفهم ، وأمدّهم الله بملائكة ، فأكثروا في قريش القتل والسّبي ، وخاضوا وطيس المعركة ، فثار النّقع[4] ، وامتلأ الجوّ بالغبار ، وجعلت هامُ[5] قريش تطير من أجسادها .

ورأى بلالٌ أمية بن خلف يَخْطِر في صفوف المقاتلين ، ويسير وسط هؤلاء المشركين ، وقد كان يغريه بمكة أن يترك الإسلام ، فيخرجه الى رمضاء[6] مكة إذا

---

(١) الأنفال ٦٥ .

(٢) الحصباء : الحصى .

(٣) معمعة : شدة الحرب .

(٤) النقع : الغبار .

(٥) هام : جمع هامة .

(٦) الرمض : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، والأرض رمضاء .

حمِيَت ، ويضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تفارقَ دين محمد ، فيقول بلال : أحَد أحَد :

رآه بلال ، فاقتحمته[1] عينه ، وأقبل نحوه ، وقال : رأس الكفر أمية ابن خلف ! لا نجوت إن نجا ، وحاول غيره أن يأسره ، ولكنه صرخ بأعلى صوته ، وأقبل عليه بسيفه فأرْدَاه قتيلاً .

١٢

وتبدد الغبار ، وانجلت المعركة عن جثث هامدة ، وأشلاء متناثرة ، وولى أهل مكة الأدبار كاسفاً بالهم ، خُشَّعاً من الذل أبصارُهم .

وأمر رسول الله بالقتلى أن يُطرحوا في القَليب ، ووقف عليهم ، فقال : « يأهل القليب ، وبئست العشيرة كنتم لنبيكم : كذبتموني ! وصدّقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » !

فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتنادي قوماً قد جيّفوا[2] ! فقال لهم : « ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني » .

٭

وبينما النبي في حديثه مع قومه في شأن قَتلى قريش إذ أبو حذيفة بن عتبة كئيب قد تغـيَّر ، فقال يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مَصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديَه ذلك الى الإسلام . فلما رأيت ما أصابه وذكرتُ ما مات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له : أحزنني ذلك !

---

(١) اقتحمه : احتقره .

(٢) جيفوا : أنتنوا .

فَطَمْأنه الرسول ، ودعا له بخير[1] .

وانصرف المسلمون الى الغنائم يجمعونها ، والى الأسلاب يضمّون أشتاتها ، وهم بِنصر الله فرحُون ، ولنعمته شاكرون .

العتب في الفداء (*)

عادت قريش يوم بَدْر كسيرة الفؤاد مقصوصة الجناح ، يطأطىء الذلّ هاماتهم ، ويصدع الأسى أكبادهم ، ويأكل الحَقْد لفائفَ صدورهم ، فقد اشتبكوا مع رسول الله في يوم ثار فيه النَّقْع ، واشتبك القنا ، وتلاقت الأبطال بالأبطال ، ثم تكشَّف القَتام ، وتجلّى اليوم عن عشرات القتلى وعشرات الأسرى ، دَع الغنائم والأسلاب ، والخيل والركاب ، ولو أن أولئك القتلى وهؤلاء الأسرى كانوا من عامّتهم ودَهمائهم ، أو صغارهم وسَوادَهم ، لهان الخطب وخفّ المصاب ، ولكنهم ، ويا بؤس لهم ! فقدوا رؤوسهم وشجعانهم ، وبَهاليلهم[2] وأعلامهم ، فهم اليوم أشدّ ما يُرَوْن ذلة ، وأعظم ما يكونون مهانة وانكساراً .

أما رسول الله ــ وقد عقد الله له النصر ، واختار له التوفيق ــ فقد أمر بالقتلى أن تلقى في القلِيب أجسادُهم ، وأن توارَى بالتراب أشلاؤهم ، وعَمَد الى الغنائم فقسَّمها عدلاً ، ووزعها إنصافاً .

وجاء دور الأسرى . ماذا يفعل بهم ؟ وكيف سلوكه معهم ؟ وليس عنده ــ صلى

---

(١) في هذه المعركة التقى الآباء بالابناء والاخوة بالاخوة خالف بينهم الايمان . كان أبو بكر مع رسول الله وابنه عبد الرحمن مع المشركين وقاتل أبو عبيدة أباه وقتله .

واستمرت المعركة من الصباح الى الظهيرة . سأل علي من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت . قال : أشجعهم أبو بكر كان مع رسول الله في العريش فوالله ما دنا منه أحد إلا وأبو بكر شاهر بالسيف على رأسه .

(*) الأنفال : ٦٨ وما بعدها .

(٢) البهاليل : جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .

الله عليه وسلم ــ فيهم أمر صريح ، أو حكم منزّل ! عمد الى صحابته يستشيرهم ، ويتعرّف الصواب في ضوء آرائهم ــ وكذلك كان دأبه ﷺ في كثير مما كان يعرض له من أمور الحرب والجهاد ــ وإن كان أوفرَهم عقلاً ، وأنفذهم في المشكلات رأياً ، وأمضاهم في الحادثات عزماً ، ليضع سنناً صالحة يَستنُّها ملوك الأنام[1] ، ومن يكون بيدهم زمام الأمور والأحكام .

قال لهم : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستأن[2] بهم ، لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فِدْية تقوّي بها أصحابك . وقال عمر : يا رسول الله ، أخرجوك وكذّبوك ، اضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمةُ الكفر ، وإنّ الله أغناك عن الفداء .

فسمع رسول الله ﷺ رأيهما ، وأصاخ الى غيرهما ، ولكنه دخل مخدعه ، لم يبد رأياً ، ولم يتخذ حكماً . واشتجرت الآراء بين المسلمين ، من قائل يقول : إنه سيفُك إسارهم ، وما هو إلا أن طلع عليهم فقال : إن الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حين قال : (فمَنْ تَبِعَني فإنه مِــنّي ومَنْ عَصاني فإنك غَفُور رَحيم) . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى حين قال : (إن تُعَذِّبْهُم فإنهم عِبادُكَ وإن تَغفِر لهُمْ فإنّك أنتَ العزيزُ الحكِيمُ) . وإن مثلَك يا عمر كمثل نوح حين قال : (رَبِّ لا تذرْ على الأرض مِنَ الكافِرين دَيّاراً[3]) . وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين قال : (رَبّنا اَطمِسْ على أموالِهِمْ ، واَشْدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يَــرَوا العَذاب الأليم) . أنتم عالة ، فلا يبقينَّ أحد إلا بفداء أو ضربة عُنُق .

وشاع في جَنَبات مكة وبين أندية قريش أن محمداً قد أعلن في الأسرى أن خيَّرهم

---

(١) الأنام : الناس .
(٢) استأنى بفلان : لم يعجله .
(٣) دياراً : أحداً .

بين القتل والفداء ، فخفّوا سراعاً الى المدينة ، ودفعوا المال ، وفكوا عن أسراهم الأغلال [1] .

وما انتهى رسول الله ﷺ من أمر هؤلاء الأسرى ، حتى أوحى الله إليه يعاتبه في إيثار الفداء على القتل ؛ إذ كان المسلمون في بدء دولتهم ومطلع ملكهم ، حاجتهم الى إذلال عدُوهم بالقتل أشدّ ؛ ليعظم شأنهم ، ويعلو في الأرض سلطانهم ، وتستقرَّ في نفوس الأعداء هيبتُهم ، وتضعف شوكة أعدائهم ، وهم في عنْفوان [2] قوّتهم وكثرتهم ، أما المال فهو نفع عَرَضِيٌّ ، ومرتبة ثانية بعد إضعاف العدوّ بالقتل . على أنه سبحانه وتعالى قد جرت سنته ، واقتضت رحمته وحكمته ألا يؤاخذ مجتهداً وإن أخطأ ؛ ولا مُتَأَوّلاً وإن أضله رائدُ التوفيق ، فقال : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخنَ [3] في الأرض تريدون عَرَض الدنيا والله يُريدُ الآخرة والله عزيز حَكيمٌ لوْلا كِتاب [4] من ٱلله سَبَق لَمسّكم فيما أخذْتم عذاب عَظيمٌ [5] » [6] .

---

(١) مرَّ مصعب بن عمير بأخيه أبي عزيز الأسير يربط صحابي على يديه . فقال له مصعب : شد عليه فان أمه غنية تفديه بمال كثير . فقال له أخوه : أهذه وصاتك يا أخي ؟ فقال له مصعب : ان هذا هو أخي دونك .

(٢) عنفوان : بداية عزهم .

(٣) يثخن في الأرض : يقوى ويشتد ويغلب .

(٤) كتاب : أي حكم .

(٥) روي أنه لما نزلت هذه الآية دخل عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال : يا رسول الله ، أخبرني فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت ، فقال : ابك على أصحابك في أخذهم الفداء ، ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة .

(٦) خرج العباس عم النبي مع المشركين وكان في الأسرى . ولم ينم النبي ليلة بعد الحرب فقال له بعض أصحابه ما يسهرك يا نبي الله فقال أسهر لأنين العباس فقام رجل فأرخى وثاقه فقال له رسول الله : افعل ذلك بالأسرى كلهم . ثم طلب من عمه أن يفدي نفسه وابنا أخويه وحليفه فقال العباس : تركتني فقير مكة . فقال له رسول الله : فأين المال الذي دفعته لأم الفضل قبيل الحرب . فقال العباس : أشهد أنك رسول الله ما علم بهذا الأمر أحد .

أحد (*)

في السنة الثانية بعد الهجرة ، والصراعُ قائم بين الكفر والإيمان ، غُلب كفارُ قريش ، ورجع فَلُّهمْ[1] الى مكة مذموماً مدحوراً ، بعد أن هُزِموا يوم بدر ، فقتل منهم من قُتل ، وأسر منهم من أسر .

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيمهم يعود الخَيْزَلى[2] بحزب الشيطان ، وقلوبهم تصطلي ناراً ، وتتّقد أواراً ، مما أصابهم يوم نصر الله المسلمين ببدر .

وهذا رسول الله الكريم في صحابته يَقبل فداء الأسرى ، ويترفق بضعيفهم ، ويمنّ على فقيرهم ، ومن بين هؤلاء أبو عزة الجُمَحِيّ يقول : يا رسول الله ، إني فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها ، فامنن عليّ ! ويفيض كرم الرسول ، فيمنّ عليه ويعطيه مما أفاء الله .

استمرّت قريش سنةً تعدّ سلاحها ، وتؤلف عديدها ، حتى إذا كانت السنة الثالثة بعد الهجرة مشى عبدالله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان ابن أمية في رجال من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، يحرضونهم على القتال والأخذ بالثأر ، فينادون : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتَرَكُمْ ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حَرْبه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا .

يدبّ هذا النداء في آذان القوم ، فيتبارون في حشد الجنود ، وبذل الأموال ، فهذا جُبَير بن مُطعِم يقول لغلامه : إن قتلت حمزة عمّ محمد بعمّي قتيلِ بدر فأنت طليق : وهذا غيره من طغاة القوم يقدمون أموالهم وعبيدهم وعتادهم للقاء هذا اليوم العظيم : « إن الذين كَفرُوا يُنفِقون أموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عن سبيل الله فسَيُنفِقونها ثم تكون عَليْهم حَسْرة ثم يُغْلبُون والذين كَفَروا الى جهنّم يُحْشَرون) .

(*) آل عمران : ١٢٥ وما بعدهم .

(١) فلهم : ما بقي من جيشهم .

(٢) الخيزلى : المشي في تثاقل .

وبهذا وعدهم الله ، ومن أصدق من الله قيلاً ! ولقد صدق الله وعده ، ونصر جُنْدَه يوم الفتح العظيم .

اجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، يقودها أبو سفيان ، ومعهم جَمْعٌ من كنانه وأهل تِهامة ، وانبثّ شياطينهم ، ينفّرون المقاتلين لحرب الله ، فهذا صفوان بن أمية يقبل على أبي عزة طليق بدر ، فيقول : يا أبا عزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنّا بلسانك ، فاخرُج معنا ، فيرد أبو عزة قائلاً : إن محمداً قد مَنَّ عليَّ فلا أريد أن أظاهر[1] عليه . فيقول صفوان : فأعنّا بنفسك ، فَلَكَ عليّ إن رجعت أن أغنيَك ، وإن أصِبْت[2] أن أجعل بناتك مع بناتي ، يصيبهنّ ما أصابهنّ من عُسْر ويسر .

خرج كبار قريش ومعهم نساؤهم ، فهذه هند بنت عتبة زوج أبي سفيان احتشدت في نساء من أشراف قريش ! تحمّس الجيش ، وتنفّر المقاتلين ، وهم يخبّون في سيرهم ويُوضعون[3] ، حتى تستقر رحالهم بجبل أحد[4] مقابل المدينة . وهذا رسول الله الكريم في جمع من صحابته يشاورهم في الأمر ، ويجيل معهم قداح الرأي[5] إذ يقول : فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدعوَهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم . فينطلق عبدالله ابن أبيّ ابن سلول محبّذاً رأي رسول الله ، داعياً الى الأخذ بما يراه ! إلا أن نفراً ممن حبّب الله اليهم الاستشهاد في سبيله قالوا : يا رسول الله ، أخرج بنا الى أعدائنا ، لا يرون أنا جَبُنّا وضعُفْنا . فيرّد دعوتهم عبدالله بن أبيّ : أن يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه .

---

(١) أظاهر عليه : أعين عليه .

(٢) أصبت : قتلت .

(٣) الخبب والإيضاع : نوعان من السير .

(٤) أحد : جبل تلقاء المدينة .

(٥) القداح : جمع قدح ، وهو ما له نصيب في الميسر ، والمراد : أنواع التفكير .

وما زال القوم في أخذٍ وردٍّ حتى قام رسول الله ﷺ بعد صلاة الجمعة، فلبس لأمته[1] وتهيّــأ للقتال، فقال القوم: يا رسول الله، استكْـرَ هناك، وليس لنا ذلك، فان شئت فاقعد، فيقول عليه الصلاة السلام: «ما يَنْبغي لنبيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى تُقاتِلَ».

ثم خرج الرسولُ في الف[2] من أصحابه بعد أن خلّف بالمدينة ابن أم مكتوم يَؤم الناس في الصلاة، حتى إذا كان الجيش بين المدينة وأُحُد انخذل عنه عبدالله ابن أبيّ بن سلول بثلث الناس، وهم بنو سلمَة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، متعللاً بأن الرسول أطاع غيره وعصاه، ثم قال: لو نعلم قتالاً لاتّبعْناكم، ما ندري علامَ نقتلُ أنفسنا ها هنا أيها الناس. ولكنّ عبدالله بن عمرو اتبعهم يقول: يا قوم، أذكّركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم. ولكنهم ولوا عنه مدبرين فكان هذا جلاء لسرٍّ كشفه رب الأرض والسموات: (ولِيعلم الذين نافقُوا وقيل لهم تَعالَوا قاتلوا في سبيل الله أو ادْفَعوا قالوا لو نَعْلمُ قتالاً لاتَّبعناكم هم للكفر يَوْمَئذ أقرَبُ مِنهُم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يَكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقَعدُوا لو أطاعونا ما قُتِلوا قل فادْرءوا[3] عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين). ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعبَ من احُد في عُدْوة الوادي الى الجبل، ثم جعل ظهره وعسكره الى الجبل، وقال: لا يُقاتِلنّ أحد منكم حتى نأمره بالقِتال[4].

وتعبّأ رسول الله للقتال، وهو في سبعمائة رجل، وتعبّأت قريش، وهم ثلاثة آلاف

---

(١) اللأمة: الدرع.

(٢) رد النبي ١٧ فتىً لصغر أعمارهم منهم: أسامة بن زيد. عبدالله بن عمر. زيد بن ثابت. أبو سعيد الخدري. التنعمان بن بشير. رافع بن خديج. سرة بن جندب.

(٣) فأدرءوا: ارفعوا.

(٤) جعل النبي على الرماة عبدالله بن جبير وعددهم خمسون فأقامهم على جبل صغير مرتفع وقال لهم: احمو ظهورنا لا يأتونا خلفنا وارشقوهم بالنبل فان الخيل لا تقوم على النبل. انا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم اللهم اني أشهدك عليهم.

رجل ومعهم ماثتا فارس، جاعلين على مَيمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميْسرتها عِكرمة بن أبي جهل.

قام الرسول ممسكاً سيفاً، فقال: من يأخذُ هذا السيف بحقه؟ فقال أبو دُجانة: وما حقه يا رسول الله؟ أن يضرب به العدوّ حتى ينحني، قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، فلما أخذ السيف من يد الرسول أخرج عصابة له فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال الرسول عليه السلام حينما رآه: إنها لمِشية يُبْغِضُها الله إلا في مثل هذا الموطن.

وهذا أبو سفيان يتقدم الى أصحاب اللواء من بني عبد الدار، يحرّضهم على القتال ويقول:

يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من راياتهم إذا زالت زالوا. فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

فهُموا به وتوعدوه وقالوا: نحن نسلم إلَيْك لواءنا! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع!

وهذه هند بنت عتبة في النسوة اللاتي احتشدن معها، أخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال محرّضات على القتال.

التحمت الموقعة، واستعَر القتال، وحمِيت الحرب، وأبو دجانة يقاتل بسيف الرسول. وبينما هو في كفاحه وجلاده إذ بإنسان يحرّض الناس ويدفعهم دفعاً شديداً الى قتال المسلمين، فصمد له أبو دجانة، حتى إذا حمل السيف، فسله على رأسه ولول[1] وانتحب، وضجَّ وصخب، فإذا هي هند بنت عتبة، فأكرم أبو دجانة سيف الرسول أن يضرب به امرأة.

وهذا وحشي الحبشي يتحيَّن الفرص، لينفذ الى قتل حمزة حتى يعتق، فإذا به يراه

---

(١) ولول: صاح بخوف.

صائحاً كالجمل الأورق[1] ، فيقدم عليه وحشي فيطعنه بحربته ، فيخرّ صريعاً شهيداً في سبيل الله[2] .

اشتد القتال يوم أُحُد ، وجلس الرسول تحت راية الأنصار يقوّي عزم المسلمين ، ويربط على قلوبهم بالصبر والتقوى ، ويحذّرهم المخالفة فلا يتركون مراكزهم ، ولا يغترّون ببوادر النصر ، ولا يؤخذون ببريق من متاع الحياة ، ولا يحرصون على جمع الغنائم ، وتعقب المشركين طمعاً في زينة الحياة .

أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، حتى أزالوا المشركين عن عسكرهم وكانت الهزيمة منهم قاب قوسين أو أدنى ، وولى الكفار الأدبار . إلا أن نزوة من النزوات الشيطانية ، وهفوة ما تزال تعتري النفس الانسانية ، صرفت جموع المسلمين عن متابعة النصر ، وموالاة المشركين حتى النهاية ، وأنستهم نصْح نبيهم . وقد كان في أخراهم يدعوهم : « إليّ عِباد الله إليّ عِباد الله ! » فانصرفوا عنه ، وانكبوا على الغنائم ، وانخذلوا عن مواقفهم ، وعصوا أمر الرسول : (إن الذين تولّوا مِنْكم يومَ التقى الجَمْعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كَسبُوا) .

وقع هذا بعد أن كان النصر معقوداً لواؤه للمسلمين ، وكان لواء الكفار مع غلام لأبي طلحة ، فقاتل به حتى قُطعت يداه ، ثم أخذه بصدره وبرك عليه ، فأسرعت اليه عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فلاذت به قريش ، واجتمعت تحت ظلاله .

تراجع المسلمون ، وخضدت شوكتهم ، وغشيهم فتور وضعف ، وداخل قلوبهم الهم ، وشغلوا عن ذكر الله ، فرجع عليهم القوم ، وكان اليوم يوم بلاء وتمحيص[3] ، أكرم الله فيه

---

(١) الأورق : ما في لونه بياض الى سواد .

(٢) لما انتهت المعركة شقت هند صدر حمزة واستخرجت كبده ولاكت بضعة منها ولفظتها . فرأى النبي عمه وقد مثل به وحلف أن ينتقم من سبعين منهم فنزل قوله تعالى : لئن صبرتم لهو خير للصابرين . عندئذ عفا وكفر عن يمينه .

(٣) تمحيص : اختبار وامتحان .

من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو الى رسول الله عليه الصلاة والسلام فأصيبت رُباعيَّته ، وشُجَّ وجهه ، وكُلِمت شفَته .

ثم شاع أن محمداً قد قُتل ، فاضطرب أمر المسلمين ، وانفرط عقدهم ، (وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قَبْلِهِ الرُسلُ أفإن ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتم على أعقابكم ، ومن يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْه فَلَنْ يَضُرَّ الله شيئاً وسَيَجْزي الله الشَّاكرين . وما كان لِنَفْس أن تَموتَ إلا بإذن الله كتاباً مُؤجَّلاً ومن يُرِدْ ثَوابَ الدُّنيا نُؤتِهِ مِنْها ومَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَة نُؤتِهِ مِنْها وسَنَجْزي الشَّاكرين) .

ثم أبصر كعبُ بن مالك الرسول ، وعيناه تزدهران تحت مِغفره[1] فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين : أبشروا هذا رسول الله ﷺ ، فلما عرف المسلمون الرسول نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعب ، ومعه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبدالله ، والزبير بن العوام ورهط من المسلمين ، فأدركه أبيّ بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا ! فقال القوم : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال الرسول : دعوه ، فلما دنا تناول الرسول عليه السلام حربة ضرب بها عنقه ، فكانت سبباً في موته .

ثم قدَّم عليٌّ للرسول ماء ، فغسل دمه ، ثم أصابه عليه السلام ضعفٌ ، فكان يصلي من قعود .

٭

وقفت رحى الحرب بين المسلمين والكفار في أحد[2] ، وقد هُزم المسلمون فيها ، واستشهد منهم سبعون من الأخيار الطاهرين ، بعد أن لمسوا النصر بأيديهم ، هكذا قدَّر

---

(١) المغفر : حلقة يتقنع بها المتسلح .

(٢) تضعضع جيش المشركين فترك الرماة المسلمون الجبل ليشاركوا اخوانهم في جمع الغنائم وخالفوا وصية رسول الله بالثبات في أماكنهم . رأى خالد تحولهم عن مكانهم فالتف بفرقته من وراء الجبل وحوّل هزيمة المشركين الى نصر .

الله وهو خير الحاكمين ، (ولقَدْ صَدَقكُم الله وعْدَهُ إذ تَحسُّونهم[1] بإذنه حتى إذا فَشِلْتم وتَنَازعتم في الأمر ، وعَصَيتُم من بَعْد ما أراكُم ما تُحبون مِنكُم من يُريدُ الدُّنيا ، ومِنكم من يُريدُ الآخِرة ، ثم صَرَفكم عَنْهم لِيَبتلِيَكُم ، ولقَدْ عفَا عَنكُم ، والله ذُو فَضْلٍ على المؤمنين . إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحَدٍ والرَّسولُ يَدْعوكم في أخْراكم فأثابكم غمًّا بغَمٍّ لِكَيلا تَحزَنوا على ما فاتَكم ولا ما أصابَكم والله خبيرٌ بما تَعملون . ثم أنزل عليكم من بَعدِ الغَمّ أمَنَةً نُعاساً يغشى طائفة منكم وطائفةٌ قد أهمّتهم أنفسهم ، يَظنُّون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قُلْ إن الأمر كله لله ، يُخفون في أنفسهم ما لا يُبْدون لك . يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا هاهُنا ، قُل لو كُنْتم في بيوتكم لبرز الذين كُتِب عليهم القَتلُ الى مضاجِعِهم ، وليَبتليَ الله ما في صدوركم ، وليُمَحِّصَ ما في قلوبكم والله عليم بذات الصُّدور) .

انتهت الموقعة ، وأراد أبو سفيان بن حرب الانصراف ، فأشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : إن الحرب سِجال[2] ، يوم بيوم ! فقال الرسول : قم يا عمر فأجِبهُ ، فقال : الله أعلى وأجلّ لا سواء ! قَتْلانا في الجنة وقتلاكم في النار . فلما أجاب عمر قال له أبو سفيان : هلمّ إليّ يا عمر . فقال الرسول لعمر : ائته فانظر ما شأنه ، فجاءه ، فقال أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ! قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

ولما انصرف أبو سفيان بعث الرسول علياً أن اخرج في آثار القوم ، فإن جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل : فهم يريدون المدينة . والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنّ إليها فيها ، ثم لأناجِزَنَّهم .

ولكن أبا سفيان وقومه رجعوا الى مكة بعد أن مثَّل المشركون بكثير من قتلى المسلمين ، فكانت نساؤهم يَجْدَعْن الأنوف ، ويقطعن الآذان ويتخذن منها قلائد ،

---

(١) تحسونهم : تستأصلونهم قتلاً .

(٢) سجال : متقلبة .

وبَقَرَتْ[1] هند بطن حمزة عَمّ رسول الله عليه السلام، ثم أخذت كبده وجعلت تلوكها فلم تُسيغْها فلفظتها، وقد أمر رسول الله بحمزة فسُجِّيَ[2] ببرده، ثم صلى عليه، ثم أتى بالقتلى الى جانب حمزة، فصلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة، ثم أمر بدفنهم جميعاً. ثم خرج عليه السلام في أثر العدو واللواء معقودٌ لم يُحَل، حتى وصل حمراء الأسد، على ثمانية أميال من المدينة، ليُرهب قريشاً. وليعلموا أن قوّة الله لا تغلَب ولا تُفَل.

فلما علم بذلك أبو سفيان وأصحابه فُتّ[3] في عضدهم، فمضوا سراعاً الى مكة، ينتظرون بطش محمد في كل حين (إن الذين اشْتَرَوا الكُفرَ بالإيمان لن يَضرُّوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم. ولا يَحسَبنَّ الذين كَفَروا أنَّما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مُهين).

بنو النضير(*)

من أين أقبلت يا عمرو؟ وما ذلك الأمر الذي يتخالج بين عينيك؟ ليُخيَّل إليّ أنك فعلت عظيماً، وأنك تحمل في طيّات صدرك شيئاً كثيراً!

قال عمرو بن أمية الضمري فاتك الجاهلية وفارس الإسلام: أجل! لقد أصبت ما في نفسي ولم تبعد، صادفتُ في طريقي الى المدينة غِرّة من رجلين من بني عامر فقتلتهما، ورَوّيت الثرى بدمائهما، ولعلي أكون قد أطفأت وقدَة غيظ تتسعر في صدور المسلمين، مما أصاب فينا بنو عامر يوم بئر مَعونة[4]!

قال محدّثه: يا بؤسَ لما صنعت! ويا خرقَ ما رأيت! لقد فعلت شرّاً من حيث

---

(١) بقرت: شقت.

(٢) سجي ببرده: غطى بثوب.

(٣) فت: سبب صفقاً.

(*) الحشر ٣ وما بعدها.

(٤) بئر معونة: في طريق المصعد من المدينة الى مكة.

حسبتَ أنك أردت الخير، وركبت مركباً حراماً من حيث أردت الثأر. إنك بما فعلت قد أوطأت المسلمين العَشوة[1] وأردْتهم على الحَسك[2] والسَّعدان، ذانك العامريّان اللذان قتلتَهما، وحسبت أنك أدركت الثأر فيهما، إن هما إلا رجلان معهما من رسول الله عَهدٌ وجوار، ولهما حرمة وذمام. انطلق اليه تجد عنده الخبر اليقين.

وأدرك عمرو أنه قد ضلّ فيما أراد، وأنه ارتكب خطأ فيما فعل، فخاف عاقبةَ أمره، وذهب الى رسول الله ﷺ خائفاً يترقّب.

قال: يا رسول الله، لقد قتلتُ العامريَّين اللذين صادفاني في طريقي الى المدينة، وحسبت أني أصبت فيهما من بني عامر ثأراً. وما نفض على الرسول هذا الخبر حتى رآه قد تربّد وجهه، وانعقدت سحابة من الهم بين عينيه، وقال: لقد قتَلتَ لأدِيَنّهما[3].

ولكن رسول الله في ضَنْك من المال، وخَصاصة من العيش، فماذا يفعل! ودِيَة القتيل عاجلة لا تحتمل النسيئة، والدمُ الفائر لا ينفع في تسكينه التسويف!

لِيَذهَبْ الى بني النَّضير، انهم حلفاؤه ومعاهدوه، ولقد عقد معهم يوم حضر الى المدينة عقداً، ألا يحاربهم ولا يحاربوه، وألا يؤذيَهم ولا يؤذوه، وإنهم بعد ذلك حلفاء بني عامر، فليس ما يمنع أن يستعين بهم على دفع دية القتيلين.

ودعا رسول الله نفراً[4] من صحابته، وذهبوا حيث يقيمُ بنو النّضير في أطراف المدينة.

*

قال حُييّ بن أخطب زعيم بني النضير: ذلك محمدٌ مُقبِلٌ في بعض صحبه، ولأمرٍ ما قدِم، ولأمرٍ ما وطئت قدماه هذه الديار، لننهض جميعاً للقائه، ولنتعرّف ما وراء قدومه.

---

(١) العشوة: ركوب الأمر على غير بيان.
(٢) الحسك والسعدان: من النبت ذي الشوك.
(٣) أدينها: أدفع ديتها.
(٤) النفر: الجماعة القليلة.

وقاموا اليه هاشّين باشين، وحيّوْه معظمين! وإن قلوبهم لتَنْحَني على المكر والكيد، وإن أنفاسَهم لتصّاعد بالغيظ والحنَق.
قال حُييّ: خيرٌ ما جاء بك يا محمد! لقيت أهلاً، ومكاناً سهلاً! قال الرسول: لقد قتَل واحد من المسلمين اثنين من بني عامر، حسب أنه أصاب فيهما عدوّاً، وأدرك ثأراً، ولكنهما كانا معنا في حِلْف، ولهما ذِمام، وقد جئناكم نستعين بمالِكم على دِيَة هذين القتيلين، بما بيننا من حِلف وعهد.

*

قال حُييّ بن أخطب: لك ما تريد يا محمد، وهوناً ما أردت! استرح الى هذا المكان، وأنظِرْنا قليلاً، حتى نجمعَ المال، ونأتي بما تريد.
وجلس رسول الله ﷺ الى جدار، وجلس معه صحبهُ انتظاراً لما وُعدوا، أمّا هُمْ فسرعان ما ألّف الشرُّ بين جموعهم داخل الدور. وسرعان ما أقبل بعضهم على بعض يتذامرون ويتآمرون: كيف لا يفتِكون بمحمد، وهو بين أظهرهم، حاضر في رحابهم؟ ها هو ذا قد مكن لهم من نفسه، وهيأ لهم الفتكَ به، ليس معه مَنْ ينصره، ولا يوجد حَوْله مَنْ يعصمه، إلا نفراً ضعافاً، عُزلا من السلاح. قالوا: لئن قتلتموه لتستريحنّ، وتستريح العرب من هَمٍّ ناصب، وبلاء واقع. ولئن أفلت منكم اليوم فلن تَظهروا عليه أبداً... مَنْ منكم ينتدِب لقتله، ويتطوّع للتنكيل به؟

قال عمرو بن جحاش: أنا بذلك زعيم، دعوني أقتله، وأشفي غيظكم منه. وانطلق يعدّ صخرة يرْضَخُه[1] بها. وتسلّق الجدار، وأعدّ الحجر، ولكنه نظر فإذا برسول الله انصرف وخذل الله الكيد والمكر.

*

---

(١) يرضخه: يرميه.

وعـاد رسول الله الى أصحابه ، فأعلن فيهم أن بني النضير قد غدروا ونكثوا ، وأنهم قد أرادوا لـه قـتـلاً وبه شرّاً ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى اليه بسوء نيتهم وخُبْث دَخيلتهم ، لناله منهم شرٌ وكيد ، والمسلمون بعد ذلك في حلّ من عهدهم ولا جُناح عليهم في حربهم ، إذ لم يعد أمان لجوارهم ، ولا عهد لميثاقهم .

وانتدب صلى الله عليه وسلم محمد بن سلمة ، لينذرَهم الخروج من ديارهم ، والجلاء عن أوطانهم ، وإلا عوجِلوا الحرب ووقع عليهم النّكال .

وذهـب إليهـم محـمـد بـن سـلـمـة ، ونـادى فيهـم : يا بني النضير ؛ قد علمنا مكركم وغدرَكم ، وأطْلع الله رسوله على مؤامرتكم ، وقد قدرنا مواثيقكم وأيمانكم ، فلا بقاء لكم بـعـد اليوم في ديارنا ، ولا نأمنكم على رجالنا ، فارحلوا عن هذه الديار سالمين بأنفسكم ، موفورين في حياتكم ؛ ولكم أسوة في إخوانكم بني قينُقاع[1] .

وأدرك بـنـو النّضير حرجَ موقفهم ، وعاقبة فعلتهم ، وكادوا يُصيخون للقول ويستمعون للنـذير ، ويتهيئون للخروج . لولا أن قيَّض الله لهم عبدالله بن أبيّ[2] الذي قال لهم : لا تخـرجـوا مـن ديـاركـم ، وإياكم والجلاء عن أوطانكم ، وإننا سنكون في حزبكم ، ومن أنـصـاركـم (لئن أخـرجْـتُـم لـنَـخْـرُجَنَّ مَعَكم ولا نُطيعُ فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتِـلتم لننصُرنكم ، والله يَشْهَدُ إنَّهم لَكاذِبُون) .

وعلم رسول الله كفرَهم وعنادهم ، فتهيأ لحربهم ، ونهض لقتالهم ، وحاصرهم ليالِيَ ، فـلـم يـفـتـحـوا لـه بـابـاً ، ولم يُـلقوا اليه يداً ، ولكنهم ما رأوا المسلمين يقطعون النخيل ، ويتهـيـئـون للغـارة حتى خـار عـودهـم وانخـذلـت قواهم ، والتجئوا الى الرسول يسألونه أن يُجلِيَـهُم ، ويكف عن دمائهم ، على ألا يأخذوا من أموالهم إلا ما حملت جمالهم .

وأجـابهـم رسـول الله الى طلبهم واحتملوا إثمَ غدرهم ومكرهم ، فتركوا الديار ورحلوا

---

(١) ورد في إنـذار النبي لهم : وقد أجلتكم عشراً . فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه ثم جاهدهم خمسة عشر يوماً عند رفضهم الخروج ، ثم استسلموا عندما قعد عن نصرتهم المنافقون .

(٢) رأس المنافقين بالمدينة .

عن الأوطان : (وَمَنْ نَكَثَ فإنما يَنكثُ على نَفْسِه) . (ولولا أنْ كتبَ الله عَليهمُ الجْلاء لعذّبهم في الدنيا ولهم في الآخِرَة عَذابُ النار ، ذلك بأنهم شَاقُّوا الله ورسُوله وَمَن يُشاقِق الله وَرَسُوله فإنَّ الله شَديدُ العِقاب) .

الأحزاب (*)

حُيي بن أخطب زعيم بني النضير ، وعظيم من عظماء اليهود ، وهو الآن منبوذ طريد ، منفيّ شريد ، يقيم في أرض خيبر ، مَهيض الجناح ، مُغْمد السلاح ، ذليل الرأس ، وقيذ الجوانح [1] .

ومذ أجلاه رسول الله مع قومه عن المدينة ، جزاء وفاقاً لما ارتكبوه من نكْث في العهد ، وحنث في اليمين — لا يزال عليه حنيقاً مُوغَر الصدر ، ملتاع الفؤاد ، يتربص به الدوائر ، ويتوقع للمسلمين غائلة السوء ، ويودّ لو انتصر الكافرون ، وتخاذل المسلمون ، ويودّ لو يهلك رسول الله بالمدينة ، فيستطيع أن يعود الى وطنه ، وأن ترجع اليه في قومه سابقُ زعامته ؛ ولكنه لِعثار جَدّه ولما كتبه الله له أن يموت بغيظه : لا يسقط في أذنه إلا ما يكرهه من نصرة المسلمين وهزيمة الكافرين ، فيغصّ بريقه ، ويتسعّر في غيظه ، ويتأوه من آلام الحقد والحسد كما يتأوه السليم .

وصاحب الثأر لا يسكت عن وِتْره [2] ، والمنفيّ أبداً يحن الى وطنه ، ثم هو يتعلق بالرثّ البالي من الآمال ، ويجري وراء ما يَدهن له الوهم من معسول الخيال .

ولقد أصبح حُيَي يوماً على زعْمٍ زخْرفه له الشيطان ، ووهم زيّنته له خوادع الآمال : أن يجمع اليه نفراً من قومه ، ممن جلوا عن أوطانهم ، وأكل الحقد قلوبهم ،

(*) الأحزاب ١٠ وما بعدها .

(١) وقيذ الجوانح : كسير القلب .

(٢) الوتر : الثأر .

ويُحَزِّبوا[1] على محمد أعداءه، فهم كُثر ويُؤلِّبوا[2] عليه القبائل جميعاً، فهم منه على وتَر، ومن يدري ؟ لعل محمداً تذهب دولته، وتسكُن حركته، ويعود أمرهم من الزعامة والعزة كما كان.

وجمع اليه حُيَيّ على هذا الزعم سلام بن الحُقَيق[3] وكنانة بن الربيع، وهما من بني النضير، وهَوْزة بن قيس وأبا عمار، وهما من وائل، ونفراً غير هؤلاء ممن ذهب مَذْهبَهم، انطلقوا الى قريش.

قالت لهم قريش : يا معشر يَهود، دعونا مما جئتم فيه الآن، وأخبرونا عما نسألكم عنه، إنكم أهل الكتاب الأوّل، وإليكم ينتهي عِلمُ ما نختلف فيه، وقد أصبحنا في أمرنا مع محمد على ريبة، ومن ديننا في شك، فماذا ترون ؟ أديننا أم دينه ؟ وآلهتُنا حق أم إلهه ؟

قالوا لهم : أأنتم في شك من دينكم، وفي ريب من عقائدكم ! تالله إن دينكم لَلحقّ، وإن دين محمد لَلْخرافة، وإن آلهتكم لَهي التي تضرّ وتنفع، وتعطي وتمنع، وإن إلهه لا يدفع شرّاً، ولا يجلب خيراً، فحذار أن يدخل الشَّك الى نفوسكم، أو يجري الظن الى عقائدكم، فلا تتقاعسوا عن مناهضته، ولا تعدلوا عن محاربته، وسنجمع عليه معكم القبائل وندعو العرب. سنحرّض غَطْفان ونهيب بأشجَع، وندعو بني قرَيظة. وباتحادكم مع هؤلاء وهؤلاء لا تدعون شأن محمد يرتفع أبداً.

ثم ذهبوا الى غَطفان وحرّضوهم، فوجدوا للتحريض عندهم مَرْتعاً خصيباً، وذهبوا الى أشجع فوجدوا عندهم صدراً رحيباً، ثم انطلقوا بعد ذلك الى بني قُريظة.

وكانت بنو قُريظة تُساكِن رسول الله بالمدينة على عهد بينهم وبينه : ألاّ يحاربَهم ولا يحاربوه، وأن يُهادنَهم ويهادنوه، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً. وظلوا قائمين

---

(١) يحزبون : يجمعون الأحزاب والجماعات.

(٢) يؤلبوا : يجمعوا.

(٣) قتله عبدالله بن عتيق بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

على العهد، حافظين للميثاق حتى وفد عليهم حُييّ بن أخْطب ومعاونوه. وسمع بمجيئهم كعب بن أسد القرظيّ ــ وكان رئيسهم ــ فقال لقومه: لم يقصِدْ هؤلاء إلا الشرَّ، غلِّقوا أبوابكم، وصمُّوا آذانكم، فوالله ما يدفعونكم لخير أبداً.

وغلقوا الأبواب، وجاء حُييّ، وقال: ويحك يا كعب! افتح لي، فما أنا إلا ابن عمك، وعلى عقيدتك، ولقد جئتك فيما أرجو أن يكون فيه صلاحُك وصلاحُ قومك جميعاً.

قال كعب: إنك لأشأم[1] الطلعة، متّهم النصيحة، مزوّر في الكلام..

لقد عاهدتُ محمداً فلم أر منه إلا سِلماً وأمناً، وإلا صدقاً ووفاء، ونحن ــ بني قريظة ــ نعيش اليوم في سلم من الأحقاد والأضغان، وفي مأمن من المكايد والحروب.

قال حُييّ: إن محمداً ــ وإن عاهدك ــ ليس على دينك وإن صانعك، فهو على بُغض من جوارك وهو ويودّ لو أجلاك. ولقد جئتك بعزِّ الدهر، وبهزيمة محمد على الأيام. هذه قريش بقادتها وسادتها، ما زلتُ بها حتى جئتُ بها تحارب محمداً، وهي الآن بمجتمع الأسيال في طريقها الى المدينة. وهذه غطفان، وهؤلاء أشجع في طريقهم الى المدينة، وانهم في حملتهم لصادقون، وانهم من نُصْرتهم لواثقون.

قال كعب: جئتني والله بذل الدهر، وخيبة الرجاء، وبجَهامٍ[3] قد هراق[4] ماءه، فهو يُرعد ويبرق ليس فيه، دعني من حرب محمد، فما أنا بناقض العهد، ولا حانث في الميثاق.

ولكن حُييّاً ما زال بكعب يزوّر له الغدر، ويزخرف[5] له الفجور، حتى لانت عريكته، ونقض العهد، وخرج بقومه لقتال المسلمين.

*

---

(١) أي دليل شؤم ونحس.

(٢) ان اليهود يفضلون دنياهم على دينهم والإيمان. على خلاف المؤمنين الذين هم مع الإيمان حيث هو، لقد فرح المسلمون بنصر الروم على الفرس لأنهم أهل كتاب مثلهم.

(٣) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

(٤) هراق: لغة في أراق.

(٥) يزخرف: يزين.

ووفدت الأخبار على رسول الله ، أن قريشاً قد جمّعت جموعها ، وظاهرتها غطفان ، وتابعتها أشجع ، وأنهم جميعاً قد خرجوا لغزو المسلمين بالمدينة .

فتلقى رسول الله هذه الأخبار بحزمه وعزمه ، وإيمانه ويقينه ! وأمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة[1] .

وبينا المسلمون يتهيئون لصدّ قريش ومن حالفهم ، إذ بوافد آخر يلقي الى رسول الله : أن بني قريظة قد نكثت عهودها ، ونقضت وعودها ، وأنهم خسبوها فرصة ، وتخيلوها نُهزة ، يطعنون من ورائها المسلمين .

وعلم المسلمون بما هم عليه ، وبما وقعوا فيه : من تحزّب الأحزاب عليهم ، وإحاطة العدو بهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم ، فزاغت أبصارهم ، وهلعت قلوبهم ، وعظم أمامهم الكرب ، واشتدّ البلاء ، وأخذوا يظنون بالله الظنون . أما المؤمنون فحسبوا أن هذه محنة الله ، وأنها امتحان لهم ، وابتلاء لمقدار جهادهم فهم يخافون الزلل ، ويخشون ضعف الاحتمال . وأما المنافقون فقد قالت طائفة منهم : لقد كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وإن أحدنا لا يملك أن يذهب الآن لقضاء الحاجة : (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

وهمت طائفة بالفرار ، وإيقاع الضعف في صفوف المسلمين ، وجاءت تستأذن رسول الله كذباً ونفاقاً ، وختْلاً وخداعاً ، يقولون : (إنَّ بيوتنا عَوْرَة[2] وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً) .

ووقف رسول الله بين أعداء من الأمام ، وأعداء من الظهر ، وأعداء في الصفوف[3] :

---

(١) بناء على اشارة سلمان . وكلمة خندق فارسية الأصل . مكان الخندق السهل ما بين جبلي أحد وساح . بلغ عدد الأحزاب عشرة آلاف والمسلمون ثلاثة آلاف . والمسلمون على ما هم عليه من شدة بشرهم النبي بفتح بلاد الشام بفارس واليمن .

(٢) العورة في الثغر والحرب : أمر يخاف منه .

(٣) شفق النبي على المسلمين فأراد أن يصانع بعض الأحزاب على شيء من تمر المدينة يأخذوه وينصرفوا . لكن زعماء الأوس والخزرج رفضوا ذلك .

ولو كان همّاً واحداً لاتّقيتُه ولكنه همٌّ وثانٍ وثالث !

*

وفي هذا الليل الحالك من الفرَق والفزع ، وفي ذلك العثير[1] المنعقد من الخوف والهلع[2] ، ساق الله الى المسلمين نُعيم بن مسعود ــ وهو رجل من رجال غطفان ــ وقال يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت : فإن الحرب خُدعة .

وذهب نعيم أعزل من سلاحه ، مفرداً عن قومه ، ولكن بما وهبه الله من قبس الإيمان ، وما نفخ فيه من روح اليقين ، كان يحمل عزيمة أمضى من السيف ، وهمة أثبت من الطّود ، ذهب لا يحمل سيفاً ، ولا يتنكب قوساً ، ولكنه يرجو ــ بما رخص له رسول الله من خداع ، وبما أباح له من نَسج خيوط الدهاء ــ أن ينال من الأعداء ما لا ينال بالسيوف ، ويصيب فيهم ما لا تصيبه السهام .

ذهب الى بني قريظة ــ وكان نديماً لهم في الجاهلية ــ وقال لهم : يا بني قريظة ، لقد عرفتم ودي إياكم ، وحبّي لخاصتكم وعامتكم . قالوا : صدقت لست عندنا بمتّهم .

قال : إن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه الى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم[3] عليه . وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فإن رأوها نُهزة[4] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلّوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم إذا خلا بكم .

---

(١) العثير : الغبار .
(٢) الهلع : شدة الخوف .
(٣) ظاهرتموهم : أيدتموهم .
(٤) نهزة : فرصة .

قالوا : وما الرأي ، وقد عاهدناهم على أن نحارب معهم ، ونسلك في عداوة محمد سبيلهم ؟ قال : أن تأخذوا رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم حتى تناجزوه ، وبذلك تكفلون صدقهم ونصرتهم .

قالوا : لقد أشرت بالرأي .

وتركهم نعيم بعد أن بث خديعة فيهم ، وذهب الى قريش فقال لهم : لقد عرفتم ودّي لكم وبغضي محمداً ، ولقد بلغني أمر قد رأيت حقاً أن أبلغكم إياه نصحاً لكم ، وخشية عليكم ، فاكتموه عني . تعلّموا أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان ، رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل اليهم ، أن نعم . فإن بعثوا اليكم يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا اليهم أحداً .

ثم تركهم وذهب الى غطفان ، وحدّثهم بمثل ما حدّث قريشاً ، وانخدعوا له كما انخدعت قريش ، وترك نعيم الجمع ينظر ما يكون .

وفي ليلة السبت من شوّال أوفدت قريش وغطفان عِكرمة بن أبي جهل في نفر منهم الى بني قريظة يستنفرونهم القتال[1] .

قال عكرمة لرؤسائهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخُفّ والحافر ، فاغدوا للقتال ، حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه ، فقالوا له : إن اليوم يوم سبت لا نعمل فيه شيئاً ، ولو فعلنا لعاد الخزي والخذلان علينا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكون بأيدينا حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى إن ضرّستكم الحرب ، واشتدّ عليكم القتال أن تَتشمّروا[2] لبلادكم وتتركونا ومحمداً ، ولا طاقة لنا بقتاله .

---

(١) حاول نفر من قريش اجتياز الخندق للقتال منهم عمرو بن عبدود وعكرمة فقتل الأول وفر الباقون

(٢) تشمر للأمر : تهيأ وجد

ورجع عكرمة ومن معه الى قريش وغطفان، وحدّثوهم بما قالت بنو قريظة، فقالوا: والله إن ما حدّثكم به نعيم بن مسعود لحَقّ. وعادت الرسل الى بني قريظة، وقالوا لهم: والله لا ندفع اليكم من رجالنا أحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت بنو قريظة، حين انتهت اليها الرسل بهذا: والله، إن ما ذكره نعيم لحق، وحينئذ وقع التخاذل في صفوف الأحزاب، ودبّ الرعب في قلوبهم.

أما قريش فقد بعث الله عليهم الريح في ليل شاتٍ فكفأت قدورهم، وطرحت آنيتهم، وزادت في تخاذلهم، وقفلوا الى مكة راجعين مذعورين: (وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً).

ورجع رسول الله الى الذين ظاهروا قريشاً وغطفان من بني قريظة، فوجدهم أيضاً قد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأوقع عليهم الفزع، فانتقم منهم وأنزلهم من حصونهم وصَياصيهم[1]، ثم عاقب رجالهم بالقتل ونساءهم بالسبي والأسر. وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم (وكان الله على كل شيء قديراً).

قصة الإفك (*)

ضرب الليل رواقه على الصحراء وكساها رداء من السكون، فصارت قطعة سوداء مظلمة، لا يكاد الساري فيها يرى رفيقه، وهي فضاء هادىء، حتى لتكاد الأذن تسمع دبيب الدابة، وحركة النملة إذ تسير.

ويظهر فيها بدويّ ملتف في ردائه، يُعمل[2] الناقة ويجتهد في السير، وكأنه مطلوب هارب، أو طالب مجدّ...

وكان صفوان بن المعطّل السُّلمي قد تخلف لبعض حاجته عن جيش الرسول وهو

---

(١) الصياصي: الحصون.

(*) النور ١١-١٢. والإفك هو شدة الكذب.

(٢) يعمل الناقة: يجهدها في السير.

عائد من غزو بني المصطلق الى المدينة ، وهو الآن يطلب القوم ليلحقهم ، ويقفوَ أثرهم ليسير معهم ، ولكنه يلمح في سيره شخصاً ملتفاً في ثيابه ، مطوياً على نفسه ، وهو غارق في نومه وكأنه ذاهب في أحلامه ، فنزل عن ناقته ، واتجه صوبه ، يمشي على أطرافه ، خشية أن يفزعه أو يخيفه .

وما كان أشد ذهوله ، وأعظم دهشته ، حينما تبيّن الشخص ، فإذا هو عائشة[1] أم المؤمنين ، مغرقة في نومها ، ملتفة في ثوبها ، في هذا المَـهْـمَـه القفر . والظلام الحالك ، ولم يستطع أن يملك صيحته ، أو يكتم دهشته ، فصاح : إنا لله وإنا اليه راجعون ! ظعينة[2] رسول الله ﷺ ! فاستيقظت عائشة مذعورة على ترجيعه وصوته ، وخمّرت[3] وجهها بجلبابها . فقال لها : ما خطبك يرحمك الله ! فما استطاعت أن ترد عليه جواباً ، حياء وخجلاً ، ثم قدّم اليها راحلته فركبتها وأخذ هو بزِمامها ، وانطلق يطلب رسول الله ، وظلّ طريقه ما التفت اليها ولا حدّثته نفسه بحديثها ، حتى أدرك القوم مُعرّسين[4] في الظهيرة .

وسألها رسول الله : ما خطبها ؟ وفيم تخلُّفها؟ قالت سمعتك ليلة الأمس تؤذن القوم بالرحيل ، فذهبت لقضاء بعض شأني ، ولما عُدت الى رحلي تفقدت عقدي فاذا هو قد انسل من عنقي . فذهبت في طلبه ، ولما عدت وجدت القوم قد ارتحلوا ، ما فيهم داع ولا مجيب ، فتلففت في ثيابي ، ولزمت مكان رحلي ، لعلكم إذ تتفقدونني فلا تجدونني تعودون في طلبي . ثم ضرب الله على أذني فنمت ، وما استيقظت إلا على صوت صفوان .

وصدقها رسول الله في حديثها ، ولم يخالطه الشك في أمرها ، إذ هي عائشة بنت أبي بكر في شرف منبتها ، وطهارة عِرقها ، وهي هي عائشة زوج رسول الله في عفة أديمها ، وكرم دِخلتها[5] .

---

(١) كان صفوان قدرآها قبل أن يضرب الحجاب .

(٢) الظعينة : المرأة ما دمت في الهودج .

(٣) خمرت وجهها : وضعت عليه الخمار .

(٤) معرسين : مقيمين . .

(٥) الدخلة : الطوية .

حصان رزان ما تُزَنُّ[1] بريبة وتصبح غرثى[2] من لحوم الغوافل
عقيلة حيّ من لؤيّ بن غالب كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذّبة قد طيّب الله خِيمها[3] وطهّرها من كل سوء وباطل

أما عصبة الكذب وجماعة السوء فانهم ما رأوا عائشة يقود راحلتها صفوان مقبلين من الصحراء ، حتى أخذوا يتخرّصون الكذب ، ويقعون في شرف عائشة ، ويتهمونها في صفوان !

قال عبدالله بن أبيّ حينمارآهما : والله ما نجت منه ، ولا نجا منها ! وفشت هذه القالة بين الناس ، وتبع مسطح ابن أبيّ ، وتبعهما حسّان وزيد بن رفاعة وحمنة بنت جحش ، ثم أخذوا يهبضون[4] في القول ويزيدون ، حتى بلغ الخبر رسول الله ، وسقط في أذني أبي بكر ، وتحدث به الصغير والكبير ، والدّاني[5] والبعيد .

وظل القوم في هرجهم ومرجهم ، واتهامهم ، ودفاعهم ، وشكّهم ويقينهم ، حتى وصلوا الى المدينة . كل هذا وعائشة لا تعرف شيئاً مما في نفس القوم ، ولم يقع لها كلمة مما خاض فيه الناس ، ولكنها حين ذهبت الى بيتها تخوّنتها[6] الحمّى ، ومسها المرض ، فلزمت الفراش ، وتلمست الشفاء ، وترقبت من رسول الله — كما اعتادت — قلباً عطوفاً ، ورحمة مبسوطة الجناح ، فما ظفرت منه إلا بنظرة خاطفة وسؤال قصير : (كيف تيكم ؟) لا يزيد على ذلك . فأهمّها وأكربها ، وزاد من سقمها ، وضاعف من علتها . ما بال رسول الله لا يَرقّ لحالها ، ولا يرثي لمرضها ولا يحفل بشأنها ! ذلك ما لا تعرفه عائشة ، ولا

---

(١) تزن : تتهم .
(٢) غرثي : جائعة .
(٣) خيمها : سجيتها .
(٤) يهضبون : يفيضون .
(٥) الداني : القريب .
(٦) تخونتها الحمى : أضعفتها ..

تستطيع أَن تربط فيه علة بمعلول ، أو سبباً بمسبّب ، ولهذا استأذنت رسول الله لتذهب الى بيت أبيها ، لعل في البعد ما يثير حنانه ويعطف من قلبه .

وأذن لها ، وقضت في بيت أبيها بضعاً وعشرين ليلة ، تعاني المرض وتحتمل الداء ، حتى أبلّت من مرضها واستفاقت من علتها .

وخرجت يوماً الى فُسح المدينة ومعها أم مِسطح بنت أبي رُهْم ، وإنهما لتمشيان إذ عثرت أم مسطح في مِرْطها[1] فقالت : تعِس مسطح ! قالت عائشة : بئس لعمر ما قلت لرجل شهد بدراً ! قالت لها : أوَما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قالت عائشة : وما الخبر ؟ فحدّثتها بما كان من أصحاب الإفك ، وما تقوّل به مسطح وحسان ، وما أذاعه ابن أبيّ ، وما تزايدت فيه حَمنة بنت جحش ...

قالت عائشة : أوَ كان هذا ؟ قالت أم مسطح : نعم والله كان قالت عائشة : هيا بنا نعود ، وانكفأت[2] الى البيت تبكي ما تَرقأ لها دمعة ، ولا تسكن منها لوعة ، ثم قالت : يا أماه ، يغفر الله لك ! تحدّث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكرين من ذلك شيئاً ! قالت : أي بنية ، خفّفي عليك الشأن ، فوالله لقَلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر ، إلا أكثرن عليها .

*

ومضى شهر ورسول الله في حيرة من أمرها ، وريب من قضيتها ، يتطلع الى الوحي ، ويتشوّف الى الرؤيا ، علّه يجد فيها مخرجاً من أمره ، وسكوناً من حيرته وكشفاً لشُبهته ! ولكن لم ينزل الوحي ، ولم تتح له الرؤيا ــ فرأى أن يستفتي ويستشير ، فسأل زينب بنت جحش ــ وكانت ضرّتها وترحمها في مكانتها ــ فقالت : أحمي سمعي وبصري[3] ،

---

(١) المرط : كساء من صوف أو خز .

(٢) انكفأت : رجعت .

(٣) أحمي سمعي وبصري : أمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركا .

والله ما علمت عليها إلا خيراً . وسأل أسامة بن زيد ، فقال : سل بريرة جاريتها تصدقك الخبر . وجاءت بريرة ، فقال لها الرسول : هل رأيت شيئاً يريبك ؟ فقالت : لا والذي بعثك بالحق ، ما رأيت منها أمراً أغمصه[1] عليها قط : أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن العجين ، فتأتي الدواجن فتأكله .

وفرغ رسول الله من استشارة من استشار ، ولم ير في حديثهم شيئاً يزن[2] عائشة أو يَصِمُها ، فخرج الى الناس مغضباً ، وقال : أيها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ! والله ما علمت منهم إلا خيراً ، وقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلاّ وهو معي ! ثم ذهب الى عائشة في منزل أبيها ، فوجدها تبكي ، ووجد امرأة من الأنصار تبكي معها ، وعندها أبواها ، فسلّم عليها ، وقال : يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقي الله ، فإن كنت قارفت[3] سوءاً ، مما يقول الناس ، فتوبي الى الله . فإن الله يقبل التوبة عن عباده . ولكنها لم تستطع جواباً . ثم التفتت الى أبيها ، وقالت : أجب عني رسول الله ، فقال : والله ما أدري ما أقول . فالتفتت الى أمها ، وقالت : أجيبي عني رسول الله ، فقالت : والله ما أدري ما أقول .

ولما لم ترَ من أبويها قولاً ينفح[4] عنها ، أو دفاعاً يمزّق خيوط الشك التي نسجت حولها قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في هذه الأيام ! ثم استعبرت ، وقالت : والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبداً ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ــ والله يعلم أني منه لبريئة ــ لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنكرت ما يقول الناس لا تصدّقوني . ثم أجهشت بالبكاء والتمست أن تذكر اسم يعقوب فغاب عنها ،

---

(١) غمصه : عابه .

(٢) يزنها : يتهمها .

(٣) قارفت : ارتكبت .

(٤) ينفح : يدافع .

فقالت : ولكني أقول لكم كما قال أبو يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

فأطرق رسول الله ، ووجم أبو بكر ، وتنهدت أم رومان[1] . وبينما هم على هذه الحال إذ تغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشّاه حين نزول الوحي ، فسْجي[2] بثوبه ، ووضعت وسادة تحت رأسه ، وعند ذلك علمت عائشة أن الوحيَ سيفصل في أمرها وسيزيح الشك عن قضيتها ، فترقبت ربيطة الجأش ساكنة الجوارح . إذ كانت عارفة بنفسها ، واثقة من نزاهتها ؛ وطهارة ذيلها . أما أبواها فإنها ما أحسا رسول الله يتلق الوحي ، حتى انماث[3] قلبها من الفزع ، وكادت تتزايل أعضاؤهما من الجزع ، أن يأتي الوحي بتصديق ما قال الناس . ثم سُري عن رسول الله ، وإن قطرات العرق لتتحدّر من جبينه مثلَ الجُمان ، وقال : أبشري يا عائشة ، لقد أنزل الله براءتك في قرآن يتلى بين الناس ، ثم أخذ يقرأ[4] .

(إن الذين جاءوا بالإفك[5] عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل ٱمرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفك مُبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان[6] عظيم . يعظكم الله أن

---

(١) أم رومان : أم عائشة .

(٢) سجي : غطّي .

(٣) انماث : ذاب .

(٤) النور ١١-١٢ .

(٥) الإفك : أشد الكذب .

(٦) بهتان : هو الافتراء الكاذب .

تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم . يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكّي من يشاء والله سميع عليم) .

المنافقون (*)

ظهرت رسالة محمد ﷺ فغزت المشاعر وشقّت القلوب ، وتغلغلت في قرارة النفوس ، اطّرد سبيلها في الأرجاء ، وانتشر أمرها في كل مكان .

ولكن ثلاثة من صنوف الأعداء أخذوا يقاومونها ، ويتوقعون النكاية بها ، والكيدة لها ، خوفاً على زعامتهم ، أو حرصاً على رياستهم ، أو حسداً من عند أنفسهم : مشركو قريش بمكة ، واليهود بالمدينة ، والمنافقون بين الإسلام والكفر .

أما المشركون فقد أعلنوا كفرهم صريحاً ، وأبدوا عداوتهم جهاراً وأقاموها حرباً لا تنطفىء جذوتها ، ولا تسكن وقدتها . وأما اليهود بالمدينة فإنهم ما كادوا يرون رسول الله بين ظهرانيهم حتى نفِسوا[1] عليه رسالته ، وحسدوه نعمته ، وأنكروا زعامته ، وسلكوا سبيل أشباههم من كفار قريش كفراً وعناداً ، وحرباً وعداء .

فأصبح رسول الله — من بين هؤلاء وهؤلاء — على المحجة الواضحة . والعداوة الصريحة ، يحاربهم أحياناً ، ويعاهدهم أحياناً ، وهو فيما بين ذلك يرجو أن يغلبهم أو ينتهي بهم الى الإسلام والإذعان .

وأما المنافقون فقد كانوا قوماً من الأنصار أبناء عمومة . أبْطنوا الكفر وأضمروا

(*) سورة المنافقين .

(١) نفسوا : حسدوا .

العداء، ثم أعلنوا الإسلام وتظاهروا بالمحبة الصافية، وانتحلوا الإخاء المصَفَّق[1] واصطنعوا الود المنخول، وإن قلوبهم لتنطوي على المرض والحقد، والغدر والمكر: زعموا أن سيوفهم مع المسلمين، صدقوا، ولكن قلوبهم كانت مع الكفار، وزعموا أنهم خالصون خيِّرون. كذبوا. هم جبناء أخسّاء أشرار، (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا، وإذا خلَوْا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون).

لم يقولوا كلمة الإسلام في صدق فينتظموا في عقد الأنصار، ولم يعلنوا الكفر واضحاً فيُجري عليهم الرسول حكم الكفار: مذبذبين بين ذلك، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، ولهذا كانوا أشد ضرراً، وأبلغ في الأذى أثراً، إذ أن رسول الله ﷺ ما كان في استطاعته إلا أن يكتفي بظاهرهم، ويكل الى الله ما في سرائرهم. وكان ظاهرُهم السلم والإسلام، وباطنهم الكفر والكفران. وظلوا على هذا شوكة في جنب المسلمين، وقذًى في العيون وقرْحة في الأكباد، حتى كان يوم بني المصطلق، وعلى ماء المرَيْسيع[2]، إذ هتك[3] الله أسرارهم، وكشف مخبآت ضمائرهم، ودمغهم بآياته، وأظهر زائفهم بكلماته.

*

بعد أن فرغ رسول الله من أمر بني المصطلِق[4]، وردت واردة من الناس تستقي الماء، وتذود الخيل والإبل حول ما يسمونه المرَيْسيع. وازدحم الشُّرَّب[5] وتدافعت الدوابّ، وضاق المكان، وتلاقى على الماء جهجاه ابن مسعود الغِفاري أجير عمر بن الخطاب ــ وكان يقود فرسه ــ وسنان بن مسعود الجُهنيّ، حليف بني عوف من الخَزْرج،

---

(١) الإخاء المصفق: الصافي

(٢) المريسيع: ماء لبني خزاعة.

(٣) هتك: كشف وفضح.

(٤) سقطت القبيلة كلها بيد المسلمين. وهذا النصر الميسر الكبير عكر صفو المنافقين.

(٥) الشرب: جماعة الشاربين.

ووقع بينهما ما أثار الشر، وأضرم الغيظ، وهاج البغضاء، فنادى الغِفاري : يا للمهاجرين! ونادى الجهني : يا للأنصار! ودَعوا الى جاهلية قضى عليها الإسلام، وأهابا بعصبية منتِنة عفّى عليها القرآن.

اثنان من عداد المسلمين اقتتلا : واحد من المهاجرين وواحد من الأنصار، وشجر بينهما عداء، فما شأن المهاجرين، وما شأن الأنصار! وقد أصبحوا بنعمة الله إخواناً، وأحباباً وأعواناً، يد على مَن سواهم، وأمرهم جميع على من عداهم، وُدّهم غير مُتهم، والعهد بينهم غير مُضاع.

ولكن ما أسرع ما وجدت هذه القالة عند المنافقين رواجاً، وفي قلوب المتردّدين استئناساً وقبولاً.

وكان عبدالله بن أبيّ بن سَلول رأس الكفر، وكبش الضلال، وزعيم جماعة المنافقين؛ فما سمعها حتى هش لها وبش، ثم راح ينفث لها سموم مكره، ويعلن مكنون غيظه، ويُفصح عن مخبّآت حقده؛ وجمع رَهطاً من قومه ممن لفّ لفّه، ونهج سبيله؛ وقال لهم : ما رأيت كاليوم مذلة! أو قد فعلوها! نافرونا في ديارنا وكاثرونا في بلادنا؛ ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجنّ الأعزاء منها الأذلّ، هذا ما فعلتم بأنفسكم، وصنعتم لأقوامكم!

أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا الى غير دياركم، ونزحوا لغير بلادكم. أو لا ترون الى أنفسكم! جعلتم منكم دون محمد أغراضاً للمنايا، وأهدافاً للرزايا، وطلائع للخيول، ثم عدتم بالولد اليتيم والطفل اللطيم[1]! يا قوم؛ لو أردتم الخير لأنفسكم لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين حتى ينفضّوا، ولا تلاقوهم بوجه حتى يظعنوا.

وكان حاضراً مجلسه زيد بن أرقم؛ فتى حديث السن، حسن الإسلام، شديد الحب للرسول، شديد الغَيرة على جمع كلمة المسلمين؛ فقام اليه غير عابىء بزعامته، أو هيّاب

---

(١) اللطيم : من يموت أبواه.

لمكانته، وقال: أنت والله الذليل القليل، المبغض في قومك، المَشنوء[1] في عشيرتك، ومحمد إنما هو في عز من الرحمن وقوة من المسلمين.

ثم قام من فوره الى رسول الله، ونفض عليه ما قال عبدالله، فظهرت الكراهية في وجه رسول الله، واختلج الهم بين عينيه؛ أن رأى قرن الفتنة بين المسلمين يطلُع؛ وأصبع الشيطان تلعب، ونار الشر تسري وتدب.

قال الحاضرون من شيوخ الخزرج: يا رسول الله، شيخنا وكبيرنا، لا تصدّق عليه كلام غلام؛ عسى أن يكون قد وَهِـم، فتلفّت رسول الله ﷺ الى زيد بن أرقم وقال له: لعلّك غضبت عليه! قال: لا، قال: فلعله أخطأ سمعُك قال: لا، قال: فلعله شبَّه عليك. قال: لا.

ودعا رسول الله ﷺ عبدالله بن أبيّ وقال له: أنت صاحب الكلام الذي بلغني؟ فقال — في غير تحفظ ولا استحياء: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيداً لكاذب! وهكذا حلف كاذباً، واتخذ يمين الله جُنَّة[2] وشعاراً، والله يعلم إنه لكاذب! ومعارفه تتحدث بأنه كاذب.

وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، مُر بقتله، فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! ولكن أذِّن[3] بالرحيل.

وارتحل الناس في ساعة مبكرة، لم يكن رسول الله يرتحل فيها، وذلك ليشغل الناس عن الفتنة ويصدهم عن دعوى الجاهلية. وإذ كان رسول الله في طريقه لقيه أسَيْد بن الحُضَير، فدهش أن رأى القوم قد ارتحلوا في ساعة مبكرة، وقال: يا نبي الله؛ والله لقد رحلت في ساعة مبكرة ما كنت تروح في مثلها! فقال له رسول الله ﷺ: أوَما بلغك ما قال صاحبكم! قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبدالله بن أبيّ،

---

(١) المشنوء: المكروه.

(٢) جنة: وقاية.

(٣) أذِّن: أعلن.

قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع الى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذل . قال أسيد : فأنت يا رسول الله ـــ والله ـــ تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنت العزيز ؛ ثم قال : ارفُق به يا رسول الله ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه ، وإنه الآن ليرى أنك قد استلبت منه ملكاً ، ونزعت منه رياسة ، وهو أبداً من الحسد في همّ ناصب ، وقلب حانق .

ومضى رسول الله ﷺ في سيره حتى انتهى الى المدينة ، وما استقر فيها حتى نزل عليه : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم . ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

فتلاها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، ثم قرّب اليه زيد وعرك أذنه ، وقال له : وفَتْ أذنك يا غلام ، إن الله قد صدقك وكذّب المنافقين .

أما عبدالله فقد اعترضه ابنه خارج المدينة ـــ وكان مسلماً خالص الإسلام ـــ وقال له : وراءك والله لا تدخلها حتى تشهد على نفسك بالذلة وبالعزة لله وللرسول والمؤمنين ! ولكن رسول الله قال : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً ، وأمره أن يُخلي سبيله علّه أن يتوب .

نبأ الفاسق (*)

غزا رسول الله ﷺ بني المصطلق ، وقتل في الغزو من قتل منهم ثم أصهر إليهم وتركهم بعد ذلك مسلمين ، ولما رجع الى المدينة أرسل اليهم الوليد بن عُقبة ليأخذ الصدقات من أغنيائهم ، فيردّها الى فقرائهم . ولما سمعوا بقدومه تهيئوا لاستقباله ، وخرجوا للاحتفاء به ، وكان بين الوليد وبين بني المصطلق إحَن قديمة ، وغِل موروث ، فحسب أنهم إنما خرجوا يريدون به شراً ، ويبغون به كيداً ، فرجع الى رسول الله يزعم أن القوم قد ارتدوا عن الإسلام ، وامتنعوا عن إيتاء الزكاة ، وأنهم وقعوا في الجلّى والخطيئة العظمى .

فغضب الرسول ، وغضب لغضبه المسلمون ، ثم تهيأ لغزوهم ، وردهم على أعقابهم ؛ ولكن الخبر سَرى الى بني المصطلق ، وهم براء مما رماهم به الوليد ، بعيدون عما وصل من أمرهم الى الرسول ، إذ ما برحوا مسلمين حقاً ، قائمين على قواعد الإسلام صدقاً . ثم ألّفوا وفدهم ، فذهب الى الرسول ، فألفاه[1] متهيئاً للغزو ، متحفزاً للمسير .

قالوا ؛ يا رسول الله ، سمعنا برسولك حين بعثته ، فخرجنا اليه لنكرمه ، ونؤدي اليه ما عندنا من الصدقة ، فانشمر[2] راجعاً ، ثم بلغنا أنه زعم اليك أنا خرجنا اليه لنقتله ، وأنا ارتددنا عن الإسلام ، وامتنعنا عن الزكاة ، ولكننا ما كفرنا بالله منذ آمنا ، ولا انسلخنا عن الإسلام منذ دخلنا فيه .

فوقف رسول الله بين خبر الوليد وخبرهم لا يقضي بأمر ، ولا يفصل بحكم حتى نزل عليه : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا

(*) الحجرات آية ٧ وما بعدها .
(١) ألفاه : لقيه .
(٢) انشمر : جد في الرجوع .

على ما فعلتم نادمين ، وآعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم[1] ولكن الله حبّب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) .

الفتح (*)

الرؤيا

انتبه رسول الله ﷺ من نومه على طبع مرتاح ، وصدر مشروح ، وعزم نشيط ، ثم دعا اليه بطانته وصحبه ، فرأوه جميعاً بارق الأسارير[2] ، طلق المحيّا[3] واضح البِشْر والسرور . تُرى ما وراء هذه النفس الراضية ، وما وراء ذلك الوجه المتهلّل ؟ لعل هناك خبراً بهيجاً ، أو نبأ عظيماً .

وما اطمأن بهم المكان ، وامتلأت بهم رحبة المسجد ، حتى أفضى اليهم برؤيا ضاءت لها نفوسهم ، واهتزت منها مشاعرهم ، وغرّدت خواطر آمالهم : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين)[4] . فاشحذوا عزمكم للسفر ، وخذوا أهبتكم للرحيل ، ولتكن غايتكم العمرة والطواف ، ولا يفوتنكم أن تصحبوا البُدن ، وتشعروا[5] الهدي[6] : تكريماً للبيت العتيق . واعتلنت هذه الرؤيا في كل مكان ، وتُنوقل ذكرها في كل واد ، وإذا المسلمون يقبل بعضهم على بعض مهنئين ، فرحين مستبشرين .

---

(١) لوقعتم في العنت : وهو الجهد والهلاك

(*) سورة الفتح .

(٢) الأسارير : محاسن الوجه .

(٣) المحيا : الوجه .

(٤) اقراراً للمسلمين بحقهم في بيت الله وأنه ليس حكرة لقريش ، وذلك بعد أن رمت قريش آخر سهم في كنانتها بغزوة الأحزاب .

(٥) أشعر الهدي : أعلمه ، وهو أن يشق جلده ، أو يطعنه حتى يظهر الدم .

(٦) الهدى : ما يهدي الى البيت من النعم .

أليست هذه هي رؤيا الرسول ؟ وما رأى ﷺ في حياته رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وضوحاً ، ومثل الشمس المتألقة بياناً وظهوراً . أليس هذا خبره ؟ وهم قد عهدوه صادقاً إذ أخبر ، غير ملبّس في قوله إذا بلّغ ! إذن هم قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بلدهم الكريم ، ووطنهم الحبيب : مهوى الفؤاد ومجمع الآصرة والأنداد ، وإذن هم عما قريب سيشمّون هذه التربة ، وينشقون عبق هذا الوطن العزيز . وهم أيضاً في رؤيا نبيّهم الصادق الأمين ، سيطوفون بالبيت ، ويستلمون الركن ، ويسعون بين الصفا والمروة ، ويضعون أقدامهم حيث وضعها أبوهم إسماعيل وجدهم إبراهيم . ومن يدري ؟ لعل الله بعد ذلك يرغم أنف قريش ويذل أبيّها ، ويقهر حميّها ، وتظهر كلمة التوحيد بين مكة والمسجد الحرام .

وتنفس الصباح من اليوم الثاني ، وهبّت نسائمه حلوة عذبة ، تداعب آمال قوم يسوقون بدناً تسيل بأعناقها البطاح ، وظهرت تباشيره مشرقة لمّاعة ، تبعث في عزائمهم النشاط والارتياح ، شملهم جمع ، وأمرهم حازم ، وشعبهم ملتئم ، لم يفرّق لفيفهم هؤلاء الذين استنفر لهم الرسول ، فقالوا : (شغلتنا أموالنا وأهلونا) ، ولم يصدع صفاتهم هؤلاء الذين راحوا يغمزون الرسول ، ويشيعون قالة السوء بين الناس : (أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً) ، بل ساروا آمنين مطمئنين ، يسوقهم الأمل ، ويدفعهم الإيمان ويحصّد[1] عزائمهم اليقين .

ولكنهم ما بلغوا منتصف الطريق حتى سمعوا بشْراً الخزاعي يتحدث الى الرسول : أي رسول الله ، لقد دلفت — كما أمرتني — الى قريش ، أتندّس[2] أسرارها ، وأتعرف أخبارها ، وما راعني إلا أن خبر مسيرك قد ترامى اليهم ، وحديث رؤياك قد هبط عليهم ، ولا أدري كيف وقع عليهم الخبر ، ولا كيف استنشقوا حديث الرؤيا !

هيه يا بشر ! وبماذا قابلوا هذا الخبر ؟ وماذا أعدوا للقاء ؟ قال بشر : إنهم يا رسول

---

(١) يحصد عزائمهم : يقويها .
(٢) أتندس : أتسقط الأسرار.

الله قد خرجوا ومعهم العوذ المطافيل[1]، ولبسوا جلود النمور، وعاهدوا أنفسهم ألاّ تدخل عليهم مكة أبداً. وهذا خالد بن الوليد، وهو من يعدّونه بُهمتهم[2]، وفارس حلبتهم؟ قد خرج يستقبلك بخيله، ولعله الآن في كُراع الغَميم[3].

فأرسلها رسول الله ﷺ زفرة من قرارة نفسه، ثم قال: يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، وماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين! وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش؟ والله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به، حتى يظهرني الله أو تنفرد عني هذه السالفة[4]، وماذا يريد خالد؟ نحن ما خرجنا مقاتلين ولا محاربين، بل خرجنا مسالمين موادعين، وما ذاك يوم اشتباك القنا، ولا تقابل الأقران. من يخرج بنا الى طريق غير طريقهم، ويدفع بنا الى مكان بعيد عن عيونهم وطلائعهم؟

فتقدم رجل[5] من أسلم ــ وكان بصيراً بالطريق: مستدقّاتها[6] ومنعرجاتها عليماً بمنحنياتها وليّاتها ــ ثم أمسك بخطام القَصْواء[7] وأحزن بها في مكان وعر وطريق صعب، وما زال بالقوم يجهدهم ويضنيهم حتى أفضى بها وبهم الى طريق سهل فسيح.

وساروا بين جوانحهم قلوب ترصد آمالاً، وفي رءوسهم عيون تَشِيم رجاء، والرسول يُحيي هذا الأمل، ويضاعف هذا الرجاء. ولكنهم فجأة لمحوا أن ناقة الرسول امتنعت عن السير، ووقفت في عرض الطريق. عجباً! لماذا وقفت الناقة؟ أشيء ثنى الرسول عن عزمه، أم أوحي اليه بأن يغير وجهه؟ لا، لكن هو ذا الرسول يدفع الناقة للقيام فلا

---

(١) العوذ المطافيل: النياق معها أولادها.

(٢) البهمة: الشجاع الذي لا يعرف من أين أتى.

(٣) كراع الغميم: موضع على ثلاثة أميال من عسفان

(٤) السالفة: صفحة العنق، وانفرادها كناية عن القتل.

(٥) هو ناجية بن جندب الأسلمي.

(٦) مستدقاتها: مضايقاتها.

(٧) القصواء: ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تقوم، ويستنهضها للسير فتمتنع، إذن فقد خلأت[1] القَصْواء ! وما أسرع ما انتشرت هذه القالة، واضطربت الألسنة حتى دارت بين القوم، ثم علمها رسول الله فقال: « والله ما خلأت وما هو لها بخُلق، وإنها لذلول مِطواع، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. وإن وراء ذلك لشيئاً، وإن في وقوفها لسرًّا، والذي نفسي بيده لا تسألني قريش خطة يُعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها »: وأدرك رسول الله أنه مصروف عن السير، موحى اليه بالتريث والتلبُّث[2]، فأمر القوم أن يتربصوا مكاناً فسيحاً، ويلتمسوا مناخاً رحيباً، فكانت الحُديبية، وفيها أناخوا جمالهم، ونصبوا خيامهم، وأقاموا الصُّوى[3] والأعلام.

٭

رجل يُلمَح في الظلام، ويضرب برجليه في الطريق ! انتظروا قليلاً فإنه قادم إلينا، وأغلب الظن أنه يقصدنا.

هذا بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي. لا بأس بقدومه، إنه من خُزاعة، وهي مَن عَلِمناها صدقاً وولاء، وإخلاصاً ووفاء وإن كان قادماً من مكة فإنه سيصدقنا الخبر، ويَقْبِسنا أمر قريش.

ولما توسط بُديل جمعَهم، تهافتوا على حديثه من كل ناحية، وسقطت عليه الأسئلة من كل جانب: من أين؟ والى أين يا بديل؟ هل من مُغرّبة خبر؟[4] إن كنت قادماً من مكة فما حال قريش؟ وكيف استعدادها للّقاء؟ وما شأن خالد خرج ثم عاد؟

قال بُديل: كفوا عن تساؤلكم، وخفّضوا من لجاجكم، لست مجيباً عن سؤال، ولا

(١) خلأت: امتنعت عن السير.

(٢) التلبث: الانتظار.

(٣) الصوى: جمع صورة، وهو حجر يكون علامة في الطريق.

(٤) أي هل من خبر أتيت به من بعيد.

مطارحاً بكلام، حتى ينتهي مقامي عند محمد: ثم أخذ سَمْته الى خيمة الرسول، وجلس اليه ينفُض خبره، ويفتح بين يديه عَيبة سره.

قال: يا محمد، لقد جئتك هذه الساعة وقريش لا تعلم من أمري شيئاً، ولكني سمعت قولاً خشيتُ عليك من عاقبته، ورأيت شرّاً ودِدْت عنك دفعه. لقد غدوت بالأمس — كدأبي — على قريش في متحدّثهم، فوجدتهم جلوساً، يخوضون في حديثك ويعيدون، حديث كله غيظ وسخط، وكله حَنق وحقد وإن أنوفهم لَترْمَع[1] وإن قلوبهم لتكاد تتمزّع، أن علموا أنك مقبل وصحبك الى مكة تطأ حصاها، وتجوز حماها.

وانتهى بهم الحديث أن أخذوا للحرب عُدّتهم، وشدّوا أوتارهم، وراشوا سهامهم، وأقسموا جهد أيمانهم ألا تدخل عليهم مكة أبداً، ثم أشهدوا على أنفسهم اللات والعزى، وهُبلهم الأعلى.

وقد خشيت عليك أن تؤخذ منهم على غِرّة[2] أو ينالوك على غفلة، فخذ لنفسك ولقومك ما تريد.

قال الرسول: إننا يا بُديل ما جئنا نتحرّف[3] لقتال، أو نقصد الى حرب ولكننا جئنا للبيت زائرين، ولحرماته معظّمين، وها أنت ذا ترى السيوف في أغمادها، والبُدن مُشْعَرة، والقوم معتمرين. إن شئت يا بُديل فاحمل اليهم نبأنا، وأفصح لهم عن وجوه مقاصدنا، لعل الله يحقن بك الدماء، ويذيب ضغائن الصدور.

وعاد بُديل الى مكة، فوجد القوم قد عادوا الى متحدّثهم، يخوضون حديث محمد ويعيدون. هم أقسموا أن يصدوا محمداً، ولكنهم ودّوا لو عاد من غير قتال. وهم أخذوا للحرب عُدّتهم، ولكنهم تمنّوا لو كُفُوا جهد الحرب والكفاح، فهم لذلك اجتمعوا ثانية يُجيلون قداح الرأي، ويصرّفون طرق الخلاص، وما علموا أن بُديلاً قد وفد على محمد وجاء حتى هُرعوا الى لقائه، والاستماع لما عنده.

---

(١) ترمع: تتحرك من الغضب.

(٢) غرة: غفلة.

(٣) نتحرف: المراد نستعد.

تعال يا بُديل ، هات ما عندك من حديث محمد ، أرأيت أن محمداً يريد أن يغزونا في دارنـا ، ويَـغُضّ من عزتنا ؟ ألم يكفه ما كان من قتل صناديدنا ، وذوي الرأي فينا ! إن ذكـريـات عُـتْبة وشَيْبة وحنظلة وابن هشام لا تزال أمامنا ، وإن دموع الباكيات على ابن وُدّ لا تزال تجري سخينة حارة ، وها هو ذا يجيء اليوم ليعيدها جَذَعة[1] ويقيمها حرباً ضَروساً ، فما عندك ، وما ترى ؟

قال بُديل : إنكم تُبعدون في الوهم . وتُسرفون في الظن ، لقد جئت محمداً وعرفت رَضْخاً[2] من خبره ، ومجملاً من قصده ، ثم إني حمّلت قولاً ، ورأيت شيئاً ، فإن شئتم بلّغتكم ما حُمّلت وبصّرتكم بما رأيت .

قالوا : هات ما عندك ، وإن لنا وراء قولك قولاً ، وبعد حديثك رأياً .

قال بُديل : لقد جئت محمداً واستنبأته عن رأيه . وتحدّث إليّ عن عزمه ونيته ، إنه لا يريد بكم حرباً ، ولا يَبغي عليكم عدواناً ، وإنما جاء مُعْتمراً وللبيت طائفاً ومعظّماً . ولقد أفضى إليّ برأي ارتاح اليه طبعي . ووافق هوى عندي ، وفيه ـــ لو حفظتموه ـــ صلاح ذات البين ، وإطفاء لِوقْدة الأحقاد ، وسَلٌّ لسخائم[3] النفوس : أن تخلُّوا طريقه للبيت يطوف ويعود ، ثم تهادنوه ويهادنكم ، وتتركوا شأنه مع العرب ، يظهر عليهم أو يظهرون عليه ، وأنتم بعد ذلك بالخيار ، تدخلون فيما يدخل فيه الناس ، أو تكونون بنَجْوة عن قتاله وعافية من معاداته ، وإني لكم فيما أقول مخلص السريرة ، أمين المغيَّب

فقالوا ـــ إذ سمعوا رأي بديل ـــ : هذا رأي فائل ، ومذهب خادع فاسد ، إن بُديلاً يريد أن يوطئنا العَشْوة[4] ، ويشبّه علينا وجوه الرشد ، ويلبّس صور السَّداد ! تنصحنا يا بديل أن نغمد سيوفنا ، ونطأطىء رءوسنا ، وندع السبيل الى محمد يدخل مكة ، ونحن صاغرون أذلة ! إن في نصحك لريقَ الحية وسمّ الأساود ! ألست من خُزاعة وشأنك مع

(١) قال في اللسان : « إذا أطفئت حرب بين قوم ، فقال بعضهم : إن شئتم أعدناها جذعة أي أول ما يبتدأ فيها » .

(٢) الرضخ : خبر غير موثق به صاحبه .

(٣) سخائم : مصائب .

(٤) أوطأه العشوة : حمله على أمر غير رشيد .

محمد اليوم معروف ، وشأن آبائك مع آبائه مشهور ! ليخرس لسانك ، وإياك أن تخوض بعدها في هذا الحديث .

قال بديل : شأنكم وما تفعلون وغداً تعلمون .

واتجهت عيون القوم الى أبي سفيان ، زعيم ندوتهم وقائد جماعتهم ، يعلمون رأيه ، ويتعرّفون ما عنده .

قال أبو سفيان : هذا الحُلَيس بن علقمة ، سيد الأحابيش[1] حاضر جمعنا ، وهو حليفنا ، وعليه حق جوارنا ، وفوق ذلك ، فإن له رأياً يمزّق ظلمات الإشكال ويطبق مفاصل الصواب . ليذهب الى محمد رسولاً أميناً ، ومبلّغاً كريماً ، لعله يصدّه عن عزمه ، ويحوّله عن قصده ، ولننظر بعد ذلك ما يكون .

ورأى الرسول الحُليس مقبلاً من بعيد ، فقال : هذا الحليس مقبلاً ، يظهر أن قريشاً قد أرسلته سفيراً ، وهو من قوم يتألهون[2] ، فابعثوا الهَدي في وجهه حتى يراه . وما راع الحلَيس إلا الإبل تسيل من عرض الوادي مشْعَرة[3] قد أكلت أوبارها من طول ما حبست ، فما استطاع أن يتحدث حتى عاد الى قريش مَغيظاً ، يقول : أيها القوم ، بئس والله ما طاش سهمكم ، وفال رأيكم ، أتصدّون عن البيت قوماً أتوا معتمرين ، وله معظمين ! أتحج الى البيت جُذام وحمير ، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب وله فيكم شرف ينطح النجوم . ولأجداده عزّ يعلو أجنحة النسور ! هلكت قريش وربِّ الكعبة ، إن القوم أتوا معتمرين والله ما على البغي عاهدناكم ، ولا على العدوان حالفناكم ، لئن صددتم محمداً عن البيت لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد .

قالوا : مهلاً يا ابن علقمة ، وأنظِرْنا[4] نصنع لأمرنا .

*

(١) الأحابيش : قوم تحالفوا بينهم على غيرهم ، مارسا حبشي . وحبشي : جبل .

(٢) التأله : التنسك .

(٣) أشعر الناقة : شق جلدها حتى يظهر الدم ، ليعرف أنها هدي للبيت .

(٤) انظرنا : أمهلنا .

وعلا وجوه القوم وجوم ، وغشيتهم حيرة وسكون ، ثم أخذوا يديرون حديثاً فيه مرارة وألم ، وفيه حزن وامتعاض .

ذلك محمد واقف على ثنيّات مكة ، ويوشك أن يدخلها ! حقاً لقد تعاهدنا على الحرب ، وشحذنا عزائمنا للدفاع ، ولكن ما غناء الحرب ؟ وما فائدة الدفاع ؟

إن محمداً يقدم علينا اليوم في قوم حاربناهم ، واشتبكت القنا فيما بيننا وبينهم ، فوجدنا فيهم صبراً على القتال ، وجَلداً على الاستبسال ، ما فيهم إلا ابن كريهة [1] ، ومانِعُ حريم ، لقد اخترمت المنية أبطالنا ، وطوَّحت الحرب بفتياننا .

ولقد لقيناهم يوم بدر ، فكان يوماً منحوساً أغبر ! وحسبنا أننا هزمناهم يوم أحد ، وخضدنا منهم الشوكة ، ولكن ما أسرع ما اندملت القروح ، والتأمت الصفوف ، وعادوا يوم الخندق أشد ما يكونون مَنعة ، وأعظم ما أوتوا نصراً .

وها هم أولاء يعودون اليوم طالبين بعد أن كانوا مطلوبين ، ومهاجمين بعد أن كانوا مدافعين ، إننا لو دافعناهم فأكبر الظن أن الدائرة علينا ، والهزيمة تأخذ سبيلها إلينا ، وإن خليناهم يدخلون البيت فإنما هو عار نعصب به رؤوسنا ومَسبّة نخدش بها وجوه أحسابنا ، لا يكون لنا شأن بعدها . إنه لرأي مضطرب وحيرة جائلة ، وأمر لا ندري أشرُّ آخره أم أوله ؟

ورآهم نُعيم بن مسعود يضطربون في حيرتهم ، ويصطرعون في أمرهم ، فأراد أن يُدلي برأي ، ويصدع بمقول ، قال : أي قريش ، لقد علمتموني من أشرف العرب نسباً ، وأبعدهم محتِداً ، وأكرمهم أرومَة ونجاراً ، ولي في ثقيف رياسة ، وفي الطائف مُلك — وإن كنت بعيداً في الوطن عنكم — وأنا من صميمكم وأجري على عِرق في أنسابكم ، وقد استبطنت سوادكم ، وتعرفت دخائلكم ، وفطنت الى أموركم . ولقد جربتموني من قبل فما اتهمتموني في نصيحة ، ولا تعلّقتم عليّ بكذبة وتذكرون أني

---

(١) الكريهة : الحرب .

استنفرت لكم أهل عُكاظ من قبل، فلما بَلَّحوا[1] عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني. إن لي عليكم مشورة ورأياً، وعندي لكم نصحاً وبياناً، دعوني أذهب اليه سفيراً عنكم، ورسولاً منكم، أنافِثه وأناقِله[2]، وأجادله وأصاوله، فإن جئت إليكم من عنده فاقبلوا، واعلموا أني سأرمي عن قوسكم، وأصدِر عن رأيكم، وأرجو أن أكون موّفقاً مجدوداً.

فقالوا: إننا يا أخا ثقيف ما اغتمزنافيك رأياً، ولا عهدنا عليك كذباً، فاذهب حافظاً للأمانة، مُفوضاً فيما ترى.

وجاء ابن مسعود الى الرسول، فوجده في هالة من صحبه، أجلسوه على عرش من قلوبهم، وحاطوه بسياج من نفوسهم، ما يأمر بأمر إلا ابتدروا اليه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم، وإذا نظر غضّوا من أطرافهم، وقد وقرت مهابته في الصدور، وارتفعت منزلته في العيون، فتلجلج في مشيته، وتردّد في رسالته، ولكنه جمع نفسه، واسترد عازب حلمه، وشق الصفوف، حتى انتهى الى الرسول ثم قال: يا محمد، ما هذا الذي جمعت جمعك، وحشدت اليه جندك! أراك قد جمعت أوشاب الناس[3]، وزُمَر القبائل، ثم غدوت بهم على قومك من قريش، تحاول أن تُذلّهم، وتنتهك حرمتهم، وإنها والله لقريش، قد علم الناس صدقها عند اللقاء، وصبرها على اللأواء[4]، وكفاحها في البأساء، هم مساعِرُ[5] حرب، وأحلاس[6] خيول. ولقد ترامى اليهم أنك جئت غازياً ديارهم، قاصداً الكيد بهم، ألا فلتعلم أنهم عاهدوا الآلهة ألا تدخلها عليهم أبداً، وايم

---

(١) بلحوا: أبوا.

(٢) المنافثة والمناقلة.

(٣) أو شاب الناس: أخلاطهم.

(٤) اللأواء: الشدة.

(٥) مساعر: جمع مسعر، وهو موقد النار.

(٦) أحلاس الخيول: الملازمون لظهورها، والحلس: كساء رقيق يجعل تحت السرج.

الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، وبقيت وحدك، فلا أنت تحوّطت لنفسك، ولا احتفظت بقومك، فتدبر أي شر أنت قادم عليه، وأي أمر أنت مُتصد له.

قال له الرسول: لقد تحدّثت الى بُديل، وتحدثت الى الحليس، إني ما جئت أبغي حرباً، أو أريد قتالاً، وإنما جئنا معتمرين، وللبيت الحرام طائفين ومعظمين فإن شاءوا خلوا لنا الطريق، وإلا فإن لنا معهم شأناً، نترقب فيه أمر الله

وعاد ابن مسعود الى قريش لم يلق نجاحاً، ولم يصادف فلاحاً، فاستشرفوا لحديثه، وتطلعوا الى نهاية سفارته، كما استشرفوا من قبله لبُديل، وكما استشرفوا للحُليس، ولكنهم كانوا لابن مسعود أكثر اطمئناناً، وأشد استئناساً وأطول آمالاً، وقالوا: هات ما عندك يا بن مسعود، فلعلك جئت بما يحقن الدماء، ويحفظ الذّمام، ويحمي البيت، ويحفظ لقريش مقامها بين العرب.

قال ابن مسعود: اسمعوا يا قوم، والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر في ملكه، وعلى كسرى في عزه، وعلى النجاشي في عرشه فوالله ما رأيت رجلاً يعظّمه قومه كما يعظّم محمداً قومه، وقد ألقوا إليه بمقاليدهم، وأمكنوه من قيادهم، وإنهم لا يرجعون له قولاً، ولا يردّون عليه رأياً، فروّوا رأيكم، واقتدحوا زناد عقولكم، والأمر نهايته بين أيديكم.

فقالوا وقد أدركتهم الحمية: إن قريشاً جسر لا يُعبر، وكنف لا يوطأ، وعقبة لا ترتقى، ودون ما يبغي محمد شيبُ الغراب، ومخ النعام!

الصلح

قالت قريش يظهر أن محمداً صادق العزم، ماضي العزيمة، وهؤلاء السفراء لم يستطيعوا أن يحيلوه عن قصده، أو يصرفوه عن عزمه، أو يخذلوه في رأيه فقم يا ابن مُكرز، بما عهدناه فيك من شجاعة وحزم، وما بلوناه فيك من قوة وبأس، واختر لنفسك

نفراً ممن تراه ثبت الجنان، صادق اللقاء رابط الجأش، وطُف بعسكر محمد، فلعلك تُكَسِّر سهامهم، وتلقي الرعب في صدورهم، فينكثوا ما أمَرُّوا[1] و وينقضوا ما غزلوا.

وفي ساعة من الليل. والظلام قد ضرب الرواق وشدّ الاطناب، أخذ حفص بن مكرز يطوف بعسكر المسلمين، ولكنه ذعر فجأة. ثم التفت الى من معه قائلاً: قفوا يا رفاق! من هذا الذي يخفِرُ أصحاب محمد؟ تبيَّنوه كأني به محمد بن مسلمة! إنه هو! أعرفه والله بقامته وسمته، وبشيته وعلاماته، وبحذره ويقظته، احذروه، فوالله ما هو إلا ليث غاب، ومسعر حروب. إنه لكالذئب ينام بإحدى مقلتيه، وكالأسد الخادر[2] إذا كشر عن نابه، فإن فتكه لا يصدّ وعزمه لا يردّ.

وما علموه ابن مسلمة، حتى نَخِبت[3] قلوبهم، ومشت الرِّعدة في مفاصلهم، وجَبُن الجريء، وخار عود الشجاع. وأرهف ابن مسلمة أذنه، فإذا همس كلام ووقع أقدام، مَن يكون هؤلاء غير قريش؟ إذن هم قد أبدَوا ناجِذَي الشر، وصرّحوا بالعدوان. وإذن هم يريدون حرباً، ويبغون كيداً.. أيها القوم، سُلُّوا السيوف من أغمادها، وابعثوا العزائم من رقادها، فهذه قريش قد برزت بطلائعها. ونشر العزائم، وأحمس النفوس، وما هي إلا جولة ونِزال ساعة، حتى وقع القوم أسرى في يد المسلمين.

ولكنه ﷺ ما جاء يُذكي ضِرام حرب، أو يثير نوازي شر، وإنما جاء معتمراً، وللبيت مُطوِّفاً ومعظماً، فما له وللأسرى؟ وماله وللقتال؟ أطلقوا سراح هؤلاء الأسرى، وفُكوا أصفادهم ودعوهم يرجعوا الى أوطانهم، فلعلهم يطمئنون الى وَجهنا، ويؤمنون بغايتنا، واذهب أنت يا خِراش[4] بعد في أثر القوم، وتعرف ما بنفس قريش، بعد أن أطلقنا أسراهم، وتجاوزنا عن مساءتهم.

---

(١) أمر الحبل: شد فتله.

(٢) الأسد الخادر: المستكن.

(٣) نخب قلبه: كأنما نزع.

(٤) هو خراش بن أمية الخزاعي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة، وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ عنه ما جاء له، فعقروا الجمل، ولولا الأحابيش لقتلوه.

وذهب خِـــراش ورجـع ، فـقـال : يـا رسـول الله ، إنّ قريشاً ما زالت على مكرها وحـنـقـها ، وما زالت الحفيظة تملأ قلوب عامتها ، إنهم أذلوا وفادتي ، وعقروا ناقتي ، ولولا الأحابيش لأطلوا دمي[1] .

وسمع هذا رسول الله ﷺ ، فأطرق ، ولكنه لم يتعكر صفوُ حلمهِ ، ولم تُستثر قطاة حكمته ، بل قال : سنصابر القوم بالحلم ، ونعالجهم بالصفح فعلّنا بهذا نَستلّ سخائم صدورهم ، وننزع الغِلّ من قلوبهم ، وربما كان قد هان عليهم أمر خِراش . واستخفوا بالسفير من خزاعة ، فقم يا بنَ الخطاب ، فإن فيك رأياً وعقلاً ، ولك في قريش منزلة ومقاماً . اذهب اليهم وناضل عن قصدنا واشرح ما غمّ عليهم من أمرنا ، وما لُبِّس من مسألتنا .

قال عمر : أي رسول الله ، سمعاً لقولك ، وطاعة لأمرك ، ولكنني أخاف هؤلاء القوم على نفسي ، ولا آمنهم على حياتي ، وليس فيهم إلا من يُضمر لي حَسيكة[2] أو يخفي ضِغناً وغِلاً ، وقد نزح عن مكة من كان يشدّ ظهري من بني عدي[3] فليس من يحميني ، أو يدفع الشرَّ عني ، ولكن هذا عثمان بن عفان ، لا يزال له في مكة من أمية رَحِم ، ولا يعدم أن يصادف عندهم حامياً ، فهناك معاوية وأبو سفيان ، وهناك عُقبةَ وأبان[4] ، وحَسْبه منهم حُماة !

☼

وسمع أبان بن سعيد طارقاً يقرع الباب ، فخرج فإذا هو عثمان بن عفان ، قال : مرحباً بك يا بنَ عمي ، كيف جئت في هذه الساعة وخلَّفت صاحبك محمداً ! قال : لقد قدمت سفيراً عنه ، ورسولاً من عنده الى قريش ، أبيِّن لهم ما خفي عليهم من أمره ،

---

(١) لأطلوا دمي : لسفكوا دمي .

(٢) الحسيكة : الحقد والعداوة .

(٣) بنو عدي : قوم عمر .

(٤) أبان بن سعيد بن العاصي .

وأكشف القناعَ عن قصده ، فلعل الأفهام تتقارب ، والأرواح تتعارف ، ولكنني أخاف على نفسي الإيذاء ، وأتوقع من قريش المكروه ، فاقبَلني في جوارك ، وأدخلني في حماك ، بما بيننا من عَصب مشتبك ، ورحم ماسة .

فعَدَا به أبان على الرؤساء من قريش ، وقال : هذا ابن عمي عثمان بن عفان ، ورسول محمد ، يحمل رسالته ، ويريد أن يلقي اليكم كلمته ، ثم هو في جواري وحماي . فقبلوا جِواره ولكن على مَضَض ، واحتملوا ظله ولكن على كُرْه ، ثم قالوا : أما أن يدخل محمد مكة ويطوف بالبيت ، فدون ذلك عِزَّة تملأ نفوسنا ، ونخوة تدوّي في جوانحنا ، ولكنك إن أردت أنت الطواف فدونك وما تريد .

فتأذَّن[1] عثمان : ألا تطأ قدماه البيت ما دام محمد رسول الله ممنوعاً ! وما دام المسلمون يُحال بينهم وبين ما يشتهون ! وانطلق الى المستضعفين من المسلمين الذين مُنعوا الهجرة وهمَس في آذانهم : إن يوم الفتح قريب ، وساعة الخلاص آتية . وبلغ قريشاً قول عثمان فخافوا الفتنة وحبسوه .

*

وبينا رسول الله يرقب بريد النجاح ويشيم مخايل الرجال ، جاءه نبأ أن عثمان قد قُتل ! واستطار هذا الخبر في المسلمين وتُسُومع في خيامهم ، فذُهلوا ووجَموا ، ثم ثاروا ، وسخطوا ، ثم شمروا عن سواعدهم للقتال واستعدّوا . أما رسول الله فقد وقفت آمالُه من السِّلْم على شفا اليأس ، وكادت تقطّع أمام عينيه خيوط الرجاء ، وأعلن للمسلمين أن لا بَرَاحَ من مكانه ، حتى يناجز القوم الحرب ، وجلس الى شجرة ينظر ما يكون من عزم المسلمين .

جاءه أبو سنان الأسدي ، وقال أمدد يديك أبايعك يا رسول الله ، قال : علام تبايعني يا أبا سنان ؟ قال : على ما في نفسك يا رسول الله ، من تفدية للنفس ، وبذل

(١) تأذن : أقسم .

للروح ، وما شئت من صَبْر واستبسال ، وجِلاد وكفاح ... وتابع المسلمون أبا سنان ، ورضي عنهم ، وعلم ما في قلوبهم ، وأنزل السكينة عليهم . ووعدهم فتحاً قريباً .

*

المسلمون قد استعدوا للقتال ، وشَهروا سيوفَهم للحرب ، وإنهم لكذلك ، إذ رأوا رجلاً يَتقدُم نفراً .. مَنْ هذا الرجل ؟ ثم أخذوا يديرون فيه الطَّرْف ، ويتعرّفون الشخص ، وصاح أحدهم قائلاً :أنا أعرف الأرنب وأذنيها[1] ذاكم سهيل بن عمرو! وانطلق يعدو الى رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : إن كان سهيل بن عمرو حقاً فقد أراد القوم الصلح ؛ فإني أعرفه كيّساً حصيفاً ، فَطناً لبيباً .

وصدق حدس الرجل في سهيل ، وصدق رأي رسول الله في نية القوم ، فقد قال سهيل حينما جلس الى الرسول : يا محمد ؛ إنه قد بلغنا خبر البيعة ، جُملتها وتفاريقها ، وإن قريشاً قد استوبلوا[2] عاقبة أمرهم ، وندموا على ما وقع بأيدي أشرارهم ، وعثمان لم يُقتل ، ولكنه حبس ، وما حبس إلا عن حلم طائش ، ورأي فائل .

وقد جئت رسولاً من قريش ، رسول موادعة وسلام ، وصُلح ووئام ، علّنا نُضَيِّق مسافة الخلف ، ونُسكّن فَوْرة النفوس ، وعثمان بعد ذلك بين يديك .

ورسول الله ما برح يبغي السلام . ويريد الوئام ، ويتجنب ما فيه إراقة الدماء ، ويجيب الى كل ما يعظِّم حرمات البيت الحرام ... ألم يرسل لهم بديلاً وخِراشاً وعثمان في سبيل هذا الصلح ؟ ألم يحدّث نُعيماً بما لا يدع في نفس متردّد خيطاً من الشك ، أو يترك في الأفق غيمة من الريب ؟ وما دامت قريش قد ثابت الى رشدها ، واستفاقت من سَوْرة حُمقها ، ومدّت يدها للصلح ، وأرسلت رسولها للسلام ، فتعال يا سهيل ننتبذ مكاناً نتحدّث فيه عن شأن هذا النزاع .

---

(١) أنا أعرف الأرنب وأذنيها : مثل يضرب في معرفة الشيء .

(٢) استوبل الشيء : لم يوافقه .

ومكث رسول الله ﷺ وسهيلاً ساعة يَتَنَاثَان[1] الحديث ويتنافثان الكلام، ثم طلعا على القوم بما انتهيا اليه : أن يرجع المسلمون بغير عُمرة هذا العام، فإذا كان العام المقبل جاء النبي وأصحابه الى مكة، وقد خَلَّتها قريش، فيقيمون فيها ثلاثاً يعتمرون وليس معهم من السلاح إلا السيوف في القُرُب[2]، وأن تضع الحرب بين الفريقين أوزارها عشر سنين، ومن جاء الى المسلمين من قريش يُرَدُّ عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون ردّه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد دخل فيه.

وما علم المسلمون بهذا العهد حتى حَصِرت صدورهم[3]، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، إذن فلسنا بمعتمرين هذا العام! وإذن فقد نفذ سهم قريش في حلوقنا، وارتفعت كلمتهم فوق كلمتنا، ونالوا منا ما يريدون! كيف نرد من جاءنا مسلماً، ومن جاءهم منا مرتداً تركناه! ان هذا الأمر يضطرب فيه رأينا، ويتيه فيه رشدنا.

أما عمر، فقد نبض نابض الغضب في قلبه، وعلا مِرْجل الغيظ في صدره، ولم يلبث أن وقف على أبي بكر. وقال : نشدتك الله يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال : بلى، قال : أولسنا بالمسلمين! قال : بلى. قال : أوليسوا بالمشركين! قال : بلى، قال : فعلام نعطي الدَّنيّة في ديننا! فقال أبو بكر : يا عمر، الزَم غَرْزَه[4] فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله، ولكني أشهدك أيضاً أني منذ الساعة التي رأيتني فيها مسلماً بدار ابن الأرقم، ما شككت إلا الساعة، ولا اضطربت في قلبي العقيدة إلا الآن، وقد تخالجني الريب، وأخذت تدِبّ في صدري عقارب الظنون.

قال أبو بكر : لا دواء لما قام بنفسك، ولا مُهدىء لفورة غضبك، إلا أن تبسط خوالج نفسك بين يدي رسول الله، فدونك كلِّمه، وما بينك وبينه حجاب.

---

(١) نث الخبر أفشاه.

(٢) القرب، جمع قوارب : ما يوضع فيه السيف.

(٣) حصرت صدورهم : ضاقت.

(٤) الزم غرزه : أي أمره ونهيه.

عمر بن الخطاب طبَعه الله سليم الفطرة طاهر السريرة، نقي الضمير، لا يُبالي أن يجهر بما يعتقده، وأن يعلن الرأي الذي يراه، لا يخشى في الحق لَومة لائم، وإن خالف – فيما يظنه الحق – رسول الله. وبهذه النفس الكريمة الصافية، وبذلك الإيمان الصادق المتين، حادث رسول الله، وقال: ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعَلام نعطي الدنية في ديننا! قال رسول الله: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيِّعني.

قال عمر: أولست كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به! قال: بلى. أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومُطوِّف به. فوجدت هذه الكلمات سبيلاً الى وَقْد غيظه فسكَّنتها، والى خوالج الشك في نفسه فانتزعتها.

وجلس رسول الله ﷺ وسُهيلاً، ودَعوا علياً ليكتب العهد، فأصلح ليقة[1] دَواته، وأعدّ قلمه وتهيّأ للكتاب... اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: هذه فاتحة لا أعرفها، وعبارة لا أستريح اليها، ولكن ليكتب: «باسمك اللهم»، فكتب علي، ثم رفع القلم يستوحي عبارة العهد من رسول الله فقال: اكتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فأمسك سهيل بقلم عليّ، ثم التفت الى رسول الله، وقال: لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله: اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو: اصطلحنا على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأنه بيننا عيْبة مكفوفة[2]، وانه لا إسلال ولا إغلال[3]، وأنه مَن أحب أن

---

(١) الليقة: أداة أو قطعة من خيطان حريرية ناعمة توضع في الدواة لكي لا تأخذ ريشة القلم من الحبر أكثر مما يجب.

(٢) عيبة مكفوفة: أي صدور منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة.

(٣) الإسلال: السرقة. والإغلال: الخيانة.

يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن محمداً يرجع عامه هذا فلا يدخل مكة ، فإذا كان عام قابل خرجت منها قريش ودخلها بأصحابه ، فأقام بها ثلاثاً معه سلاح الراكب ، السيوف في القُرُب » .

وفرغ عليّ من الكتاب ، وشهد عليه رجال من الفريقين ، وقرأه المسلمون ، وكأنما دُفعوا به الى أمر عظيم ليس لأحد منهم فيه يدان .

وبينا هم في تلك الحيرة إذ بصروا برجل مُنفلت اليهم يرسف في الحديد ، ويئن تحت أغلال القيود ... لم يكن هذا الرجل إلا أبا جندل بن سهيل جاء صارخاً فزعاً ، مستجيراً بالرسول مستنصراً ، وقال : يا رسول الله ، لقد وصَلت إليّ دعوتك فأسلمت ، وبلغني قرآنك فآمنت ، ولكن ما عرفتْ قريش أني صَبأتُ عن دينهم ، ومرَقت عن آلهتهم ، حتى أوسعوني كيداً وتعذيباً ، وزادوني رهقاً وتنكيلاً ، وكم حاولت أن أهاجر إليك ، فسدّوا في وجهي المسالك ! وكم حاولت أن أرحل من مَكّتهم ، فحالوا بيني وبين ما أريد ، حتى خفت أن أفتنَ في ديني ، وأوذَى في نفسي ، وأنت تراني الآن مقيداً مغلولاً ، فخذني اليك مهاجراً مسلماً ، مجاهداً في سبيل الله مقاتلاً .

ورأى سهيل ابنه ، وسمع قوله ، فسهم ووجَم ، ولكنه قال : يا محمد ، لقد انتهينا من العقد قبل أن يأتيك هذا ، وإذن فليس هناك ما يحول دون أن أردّه الى مكة ، راضياً أو ساخطاً ، طائعاً أو مكرهاً ، قال رسول الله : صدقتَ ، ولك ما تريد[١] .

وأخذ سهيل أبا جندل ، ولبّبه[٢] بمُخنَقة[٣] ، وجرّه من عنقه ، ودفعه الى مكة ، فأخذ يصيح : يا معشر المسلمين ، أأرَدُّ الى المشركين يفتنونني في ديني ! فنفذت هذه الصيحة الى أعماق النفوس ولمست قرارة القلوب ، وهزت أوتار الحزن والأسى . ولكن ، ما يصنع

---

(١) لحق بالمدينة نساء مسلمات فلم يردهن رسول الله لقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات ... الآية ١٠ الممتحنة .

(٢) لببه : جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره .

(٣) المخنق : موضع حبل الخنق .

المسلمون ، وذلك قضاء الله ، ورسول الله إنما يصدر عن أمر الله ! على أن رسول الله قد طَمْأن أبا جندل ، وقال : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعَفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم وأعطونا عهداً ، أنَّا لا نغدر بهم .

ثم صاح صائح في أحياء مكة : مَن أراد أن يدخل في عهد أحد الفريقين فليدخل ، فتواثبت بكر ودخلت في عهد قريش ، وتواثبت خُزاعة ودخلت في عهد المسلمين .

ثم نادى المنادي عن رسول الله : لقد قُضِي الأمر . وعُقِد العهد ، فتحَللوا من إحرامكم ، وانحَروا بُدْنكم ، واحلقوا أو قصّروا شعوركم ، ثم شدّوا إبلكم للرحيل . والتفت المنادي فإذا نفوس معرضة ، وعزائم مترددة ، وعيون زائغة ، وقلوب حائرة . وصاح الثانية فلم يجيبوا ، ودعا الثالثة فلم يلبوا !.!

فانطلق الى الرسول يحدثه في أمر هذه النفوس التي ما تعوّدت إلا تلبية الدعاء ، وما عُهد فيها استخفاف بالنداء ... فكبر الأمر على الرسول ، ودخل على أم سلمة مطرقاً مهتماً ! قالت : ما خطبُك يا رسول الله ؟ قال : هلك القوم ! دعوتهم للإحلال والحَلْق والنَّحر فلم يجيبوا ، قالت : يا رسول الله ، إن لهم فيك لأسوة حسنة وقدوة كريمة ، فاخرج اليهم وانحر واحلق ، وما أظن إلا أنهم سيسيرون في نهجك ، ويقلدونك في فعلك .

خرج رسول الله الى الناس ، يقول ، أما ما أهمَّكم من العهد ، فإن من ذهب اليهم منا فلا حاجة لنا به ، ومَن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً . وأما البيت فإنكم إن شاء الله مُطوَّفون به في قابل ، وما فعلت ما فعلت عن أمري ، وإنما عن أمر الله ، وهو نصيري ولن يُضيِّعني . ثم دعا الحلاق فحلق ، وعمد الى البُدْن فذبح ، وتحلل من الاعتمار .

وما سمع القوم قول الرسول ، وما رأوا أفعاله ، حتى لانت عريكتهم ، وثابت اليهم حلومهم ، وطابت نفوسهم ، وأقبلوا على رؤوسهم محلقين ومقصرين ، ثم نحروا البدن وتحلّلوا من الإحرام ، وانكفئوا الى المدينة راجعين ، لم يمسسهم سوء ، ولم يصابوا بأذى ، ولكنهم ما برحوا عطاشاً الى مكة ، متشوقين الى البيت ، وهم بين اللهفة وهذا الاشتياق ظلوا ينتظرون قضاء الله .

نقض العهد

وعاد المسلمون الى المدينة موفورين ، وانقلبوا الى دورهم آمنين ، ولكنهم لم يطوّفوا بالبيت كما كانوا يطمحون ، ولم ينشقوا عبير الوطن كما كانوا يتشوقون ، تغشى وجوههم حيرة ، ويبدو في معارفهم الوجوم .

أجل ! إن رسول الله وعدهم أنهم لا بد داخلون مكة ، طائفون حول البيت ، ووعده صدق وقوله حق : « وما ينطِق عن الهوى » وما يبلّغ إلا عن روح أمين . ولكنّ لواعج[1] الشوق الى البيت ، وتباريح الحنين الى الوطن والرغبة في القتال والجهاد ـــ كل ذلك أقلق نفوسهم وأقضّ مضاجعهم .

لقد كانوا قبل اليوم أحسن حالاً ، وأعزّ شأناً ، وأقوى سلطاناً ، أما اليوم فواحرباه ! من جاء الى المدينة من قريش ، راغباً الى الإسلام ، زاهداً في عبادة الأصنام لا يجد فيها ظلاً ولا مقيلا ، ولا يستطيع أن ينزل فيها رَحلا ، أو يشدّ طُنُبا ، فالعهد المأخوذ يرده الى مكة ، والميثاق يُرجعه كاسفاً بين الكفار . وما يأمن من أن يفتنوه في دينه أو يضيّقوا عليه في عبادته ، أو ينالوا منه في بدنه وعافيته . ومن ذهب الى الكفار منها مرتداً عن الإسلام ، صابئاً عن كلمة الإيمان ، فليس للمسلمين عليه سلطان ، وليس لإرجاعه اليهم سبيل !

ثم إنهم ما كادوا ينسون أبا جندل ، حينما جاء مؤمناً يرسف في القيد ، مستجيراً يطلب المُجير ، فلم يجد معيناً ولا مجيراً ، ولم يلق وليّاً ولا نصيراً ، حتى هيّأت الأحداث أمراً جديداً مزّق خيوط النسيان وجدّد الأسى ، وبعث كامن الآلام . والأسى يبعث الأسى ، وبعيدُ الهم ينشر دانيه .

ذاك أبو بصير قدم الى المدينة زائغ البصر ، واجف القلب ، مستطار الفؤاد ، وفي رجليه أثر من قيد ، وفي يديه سِمَة من غُلّ !

---

(١) لواعج : كوامن .

قالوا : لا تُرع يا أبا بصير ، وليُفرخ روعك ، وليهدأ بالك . ما بك ، وما شأنك ؟ ولم اضطرابك ، وفيم قدومك ؟

قال أبو بصير ــ وقد عاد الاطمئنان وسكن في نفسه طائر الأمان ــ : اسمعوا ، لقد هاجر محمد عن مكة ، وما كان أبغض إليّ من دعوته ، ولا أثقل على نفسي من رسالته ، وكنت أحسبه خارجاً عن قومه ، متجنّباً على عشيرته حتى أتيح لي مرة في إحدى سبحاتي بالليل أن سمعت رجلاً يتلو شيئاً من الكتاب الذي جاء به ، فوجدت في طبعي اليه ارتياحاً ، وفي نفسي قبولاً ، فأسلمت وأزمعت الهجرة اليه .. ولكنني ما جهرت بإعلان ما اعتقدت ، وما عرفوا ما اعتزمت حتى وضعوا في رجلي القيود ، وصفدوني تحت أعين الرقباء ، ولقيت من صنوف البلاء والأذى ما ينوء به كاهل الشجاع . ولكنني في ساعة من غفلتهم ، واشتغالهم بشؤونهم حطّمت قيدي ، وفككت أسري ، وفررت بنفسي وديني ، لإشرككم في الحظوة ، وأكون معكم في الجهاد .

قال ذلك أبو بصير ، وحسب أنه قد زالت عنه همومه وأحزانه ، وأقبلت عليه أيام دهره ، وظن أنه من اليوم سيعبد الله كما يريد ، ويتوجه اليه متى شاء ، وما درى أن هناك عهداً يحول بينه وبين ما يريد .

وأخذ سبيله الى الرسول ، وقبل أن يتشقق بالحديث وجد اثنين من قريش سبقاه اليه ، كانا قد جاءا في أمر أبي بصير يستعديان عليه الرسول ، ويذكّرانه العهد الميثاق . قال أحدهما : يا محمد ، ما عرفناك غادراً صغيراً ، فكيف بك كبيراً . هذا أبو بصير قد أبق[1] عن ديننا ، وانسلخ عن جمعنا ، وجاءك فارّاً مسلماً ، وقد عاهدناك أن ترد من جاءك منا وتدفع الينا من التجأ اليك فارّاً ، وقد أوفدتنا قريش لترى مقدار قيامك على العهد ، ورعايتك للميثاق . قال رسول الله : ما نقضت العهد ، ولا حنثت[2] في اليمين ، ودونكما الرجل فخذاه ، ولعل الله يجعل من أمره يسراً وفي دينه فرجاً !

---

(١) أبق : فرّ .

(٢) حنث اليمين : نقضه .

ومضى أبو بصير أسيراً بين سَمْع المسلمين وبصرهم، يشيّعونه بنفوس ملؤها الأسى، وقلوب حَشْوُها حزن عميق. ولكنه لم يبعد في السير طويلاً، حتى رأوه قادماً! قالوا له: أين غريماك؟ قال: لقد قتلت أحدهما وألجأت ثانيهما الى الفرار.

ولقد وفيت بذمة الرسول، وبررت بما قام به من عهد، ولا علي أن أقيم بينكم!

قال رسول الله — وقد بلغه صنيعُ أبي بصير: وَيْل أمه مِسْعَر حَرب لو كان معه رجال! ولكن لا بقاء له في المدينة، فأيّ أرض يذهب يجد مراغماً[1] وفي أي مكان يُصلّ يلقَ الله.

وخرج أبو بصير — كما خرج في المرة الأولى — كاسف البال، ساهم الطَّرْف ملتاع الفؤاد، حائراً أين يذهب! وخلّف وراءه — كما خلف في المرة الأولى — نفوساً ثائرة، وأفئدة تنطوي على همٍّ طويل.

*

ومضت أيام، وتصرّمت[2] شهور، وكلما تذكر المسلمون ما هم فيه من قريش — من عهد جائر، وظلم واقع — سالت نفوسهم أسى، وصعدت أنّاتهم حسرة وأسفاً، حتى هبط عليهم في المدينة قرشي جديد.

قال أحدهم: هذا مسلم فارّ، ومؤمن مستجير، إنه قدم ليجدّد الأسى، ويضع الإصبع في جرح لا يزال وجيعاً.

وتقدم اليه آخر، وقال: أمسلماً جئت يا هذا؟ إن المدينة ليست بدارك، ولا محطاً لرحالك، ولا موضعاً لأمانك. لقد علمت أن بينكم وبين الرسول عهداً، ألا يحمي قرشياً مسلماً، وألا يؤوي عنده رجلاً منكم. وإنه لقائم على العهد أمين على الميثاق. لئن طال مُقامك لتُوشكنّ قريش أن ترسل في أثرك، فلا تستطيع فكاكاً، ولا تملك

---

(١) المراغم: المذهب والمهرب.

(٢) تصرمت: شهور.

لنفسك حَوْلا ولا طَوْلا ، فخير لك أن تطلب داراً غير المدينة ، وحِمى غير هذا المكان ، ونرجو الله أن يجعل لك فرجاً قريباً .

فضحك الرجل وأغرب ، ثم قال : إنكم حزرتم[1] فأخطأتم ، وتوهمتم وما صدقتم ، ولست مسلماً حضرت ، ولا فاراً التجأت ، وما ابتغيت عن دين قومي ديناً ، ولا اتخذت غير مذهبهم ، ولكن جئت محمداً في أمر ، والإفصاح عنه رهين بلُقياه .

قال المسلمون : ما هذا الأمر الذي دفع قريشاً الى أن ترسل هذا الرسول ! انطلقوا لننظر ما يقول .

ولما دخلوا المسجدَ وجدوا الرجل يتحدّث الى الرسول بعبارات مطمئنة : لقد أرسلتني قريش فيما حَـزَبَها من أمر أبي بَصير ، وما يترصّد لها من النكال . لم يكفِه أن قتل غيلة وغدراً رجلاً من خير رجالنا ، وفتى من أشجع فرسانا ، حتى وثب الى سيف البحر فاتخذه مقراً ، يلجأ اليه كل هارب من قريش ، ويقيم عنده كل مسلم لم تتسع لدينه جنبات مكة ... وما كان يهمنا أمرهم ، أو نعبأ بجمعهم ، لولا أنهم أقاموا علينا حرباً ، وسلُّوا دوننا سيفاً ، ولا يسمعون بقافلة منا تذهب الى الشام أو ترجع الى مكة ، حتى يناوئوها في سيرها ، ويبدّلوا أمنها خوفاً ، ويوسعوا رجالها رعباً وفزعاً . ولسنا نرى ــ دفعاً لشرهم ، أو رداً لجماعتهم ــ إلا أن تعفينا من شرط أخذناه على أنفسنا ، وحسبناه خيراً لجماعتنا فإذا هو بلاء وشرّ ، وإذا هو محنة وعناء ، فلتضم إليك من جاءك منا مسلماً ، أو خرج عنا فاراً .

وسمع المسلمون هذا العرض من قريش ، فأزاحوا بعض الهم عن نفوسهم ، وارتاحت ــ هَـوْناً مَـا[2] ــ وانسلت عنهم بعض همومهم ، وعادوا أخف أحزاناً وأيسر بلبالاً ، وأشد اطمئناناً .

ولكن كلما مضى الزمن اشتد نزوعهم الى البيت ، يشوقهم اليه لامع البرق ، ويهيج

(١) الحزر : التقدير .
(٢) هوناً ما : قليلاً .

حنينهم وافد النسيم . أجل ! إن قريشاً قد وفت بعهدها ، وبرَّت بيمينها وأخلت مكة في أيام الحج ، فخلوها معتمرين ، وطافوا بالبيت معظمين . ولكن ، هي إلمامة ما أشبهها بإلمامة الطيف ، وزورة ممزقة بالخوف : يطوفون وعيونهم تتلفت الى الوراء خوف الغدر ، وقلوبهم تتوجّس حذر المكر ، ثم هم ممنوعون بعد ذلك أن يسلُّوا سيفاً ، أو يقيموا عليهم حرباً ، أو يثيروا قتالاً .. لو طال بهم الأمر على هذه الحال ، فأكبر الظن أن همهم سيطول ، وحزنهم سيستمر .

٭

وانفلت فريق منهم يوماً من صلاة العشاء ، والتجئوا الى سقيفة لهم يسمرون ويتحدثون ، أخذوا يتذاكرون سقاط الحديث ؟ ويتشقق بهم القول في كل مجال ، حتى انتهوا الى الحديث فيما كان بين خُزاعة وبَكر من عداء ، وما سال بين هذين الحيَّين من دماء . قال واحد منهم ، وكان أخباريا حدث ملوك[1] : إن عندي من قديم أخبارهما ، ما لو نفضته عليكم لاجتذب أسماعكم ، واستهوى ألبابكم ، لولا أن التهويم قد ابتدأ يلعب بأجفانكم ، والنوم يأخذ سبيله اليكم .

قالوا : لسنا قائمين الى فراش ، أو ذاهبين الى رقاد[2] : تحدثنا بأخبارك ، وتروى لنا من مكنون روايتك ، قال : لقد حدثني أبي فيما كان يحدثنا به في ليالي سمره ، أنه لم يكن بين الحيين في قديم عهدهما إلا صلات موثّقة العرى ، متينة الأسباب ، يتزاورون ويصهرون ، ويسافرون ويتجرون . وكم مرة كانوا أحلافاً على غيرهما ، وكانوا نصراء على من يعتدي على أحد منهما ، وما زالوا على هذا الخلاط المؤكد ، والود المصفّق حتى خرج مالك بن عباد حليف بكر تاجراً في أرض خزاعة . فاعتدى عليه سَقيط[3] أحمق ،

(١) حدث ملوك : سمير ملوك .

(٢) الرقاد : النوم .

(٣) السقيط : الأحمق .

وأرداه قـتيلاً . ومن يومها استوقدت نار الفتنة ، واستطار شرر العداء ، ورنّـق ما كان من الـودّ صـافـيـاً ، وتـغـيّـر ما كان من القلوب سليماً . وكم سعى رجال من كرام العشائـر لـيستلُّوا السخائم فلم يفلحوا ، وكم تقدّم الوسطاء لإطفاء وقدة النفوس فخابوا .. واستمر الثرى بينهما يابساً ، والجوّ عابساً مظلماً مكفهراً ، حتى ظهر محمد رسول الله بمكة ، فتلفتت اليه القلوب ، وشغل به الناس .

ولكن عادت العداوة الى الظهور ، واتخذت سيرتها الأولى في الوجود ، حينما وقع صلح الحديبية ، وحينما دخلت خُزاعة في عهد المسلمين ، وبكر في عهد قريش . إنهما بحلفهما على هـذا النحو ، قد أثارا كامن عداوتها ، وبعثا راقد حقدهما ، ومن يدري ماذا تتمخض عنه الأحداث ؟

وانتهى الرجل من حديثه .. وإذ همّوا بالانصراف سمعوا الكلب ينبح طارقاً غريباً ! قـالـوا : مـن الـطـارق الـغـريب في جُنح هذا الليل ؟ ليذهب أحدكم فلينظر ، لعله ضال يتخبط في الطريق ، أو لعله عابر سبيل يلتمس القِرى والثَّواء .

ذهـب رجـل وعـاد ، ومـعه عمرو بن سالم الخُزاعيّ ، فسلّم عمرو ، وجلس تعبان قد أدركـه الأ يْـن ، ونـال مـنـه السُّرى في الظلام ، وكأنه يحمل على ظهره أثقالاً من الهمّ ، ويُخفي بين جنبيه داء وجيعاً ما له بَـرَاء .

ما بك يا عمروا ! وما وراءك ! لأمرٍ ما جئت الى المدينة ، ولأمر ما طرقت بليل ! ما هـذا الهـمّ الذي يظهر في سهوم وجهك ، وحيرة أجفانك ، وتقطيع كلامك ! لمن غريبات الأصـداف ، وعـجـب الـتوفيق أن نخوض الليلة في أحاديثكم ، ونتحدث فيما بينكم وبين بكر من عداء مستمر ، وقتال مستحرّ .

قـال عـمـرو : إن مـا جـئتُ فيه الليلة ليس بعيداً عن هذه الحرب وويلاتها ، وليس قـصـيّـاً عـن هـذه الـعـداوة ومـا يجري في سبيلها . لقد بدا بنا في العداوة خطب جديد ، وأضـافـنـا هـمّ طـريـف ، أصـابـت بَـكرٌ فينا عِـرَّة مُصبح يوم عند الوتير[1] فأسالت دماء ،

---

(١) الوتير : ما بين عرفة الى إدام .

ومزقت أشلاء . ولقد هممنا أن نأخذ لثأرنا ، وننتقم لقتلانا ، لولا أن قريشاً نقضت العهد ، ورفدت بكراً بالسلاح ، وأمدّتها بالرجال والكُراع [1] . فكثُر الجمع ، وغلب العدوّ ، واستحرّ [2] فينا القتال . والتجأنا الى الحرم نستجير بحرمته ، ونحتمي الى جواره ، ولكنهم ما راعوا له مقاماً ، ولا حفظوا فيه جواراً . ولولا من التجأ الى دار بُديل بن ورقاء لفَنيَ من بمكة من خُزاعة أجمعين .

✲

وطلعت الشمس ، وانتشر الخبر مع شعاعها في كل مكان « أن قريشاً نقضت العهد ، وفَجرت في اليمين ، وأعانوا — غدراً — بكراً على خُزاعة . ونصروا حليفاً على حليف ، فدلف الناس الى المسجد يلتمسون رؤية الرسول ، أو يتعرفون ما عنده من رأي ، فإذا هو جالسٌ وعمرو بن سالم ينشد بين يديه بصوت متهدج ونَبْر متوجع :

يا ربّ إني ناشد مُحمدا	حِلْف أبينا وأبيه الأتلدَا
قد كنتم ولداً [3] وكنا والدا	ثمَّتَ أسلمْنا فلم نَنْزع يدا
فانصر هداك الله نصْراً أعتَدا	وادْعُ عباد الله يأتوا مَدَدا
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا	إن سِيمَ خَسْفاً وجهُه تربَّدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مزبدا	إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكّدا	وجعلوا لي في كَداء [4] رَصَدا

(١) الكراع : جماعة الخيل .
(٢) استحر : كثر .
(✲) ما بين صلح الحديبية ونقطة وصل يهود خيبر حبالهم بحبال أعراب غطفان لمتابعة الكيد للاسلام اذ ترامى للنبي أن الفريقين يجتمعان ضد المسلمين فسار نحوهم وانفرد بيهود خيبر بعد أن انسحب بنو غطفان .
(٣) يشير الى أن عبد مناف أمه من خزاعة .
(٤) كداء : موضع بأعلى مكة .

وزعــمــوا أن لــســت أدعــو أحــدا وهـــــم أذلُّ وأقـــلُّ عـــــددا
هـــم بـيــتــونــا بـالـوَتير[1] هُــجّـدا وقــتــلـونــا رُكّـــعــاً وســجــدا
فـــــانصر هـداك الله نَـصْــــراً أيّـدا

فقال الرسول : نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم توجه الى الله قائلاً : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

نصرٌ مبين

لم تدرك قريش خطأها إلا حين تمزقت خيوط الظلام ، وانفلق عمود الصباح .. نصروا بَكراً على خزاعة ، وأعانوا حليفاً على حليف ! ما أوخم العاقبة وأسوأ المصير ! سيسير الخبر مع الشمس ، وينتقل مع الريح ، ويبلغ محمداً أن قريشاً فَجرت في يمينها وعبثت بعهدها ، وسيلقاها المسلمون ثُلمةً ينفذون منها ، وفرصة ينتهزونها ، وأنهم ما استعدّوا لحرب ، ولا تهيأوا لقتال .

انتدوْا دار واحد منهم . يقلّبون الرأي ويتلّمسون الخروج ، ويتعرفون المصير ؛ وتشعبت الآراء ، وعلت الأصوات ، واضطربت المذاهب ، ثم انتهوْا الى رأي لعله يحسم الداء ، ويدفع البلاء : أن يذهب أبو سفيان الى المدينة ــ وهو شيخ قريش وغِطْريفها ، إليه تومىء الأصابع ، وتمتد الأعناق ــ قبل أن يعتلن الخبر ، وينتشر في الأنحاء ، ولْيأت محمداً ، فيوثق العهد ، ويزيد في المدة ، فلا يجد محمد سبيلاً الى الغزو ، أو سبباً لنقض العهد .

وسافر أبو سفيان ، وانعقدت عليه الآمال ، والتمعت بروق الرجاء ، سافر عن قريش يحمل أعباءها ، ويصلح ما أفسده حمقاها ... وما أن وصل المدينة حتى رأى حديث بكر وخُزاعة قد ملأ الأسماع واضطربت به الألسنة ، وانتشر في كل مكان ، والمسلمون بعدُ

---

(١) الوتير : الموضع الذي وقع فيه غدر قريش بخزاعة .

قد أخرجوا مكنون سخطهم ، وراشوا نبال غيظهم ، والأمر على غير ما يحب ويرجو . . .
فوَجم[1] الشيخ ، وارتاع فؤاده ، وتوقع الخطب والمكروه .

والآن ، أيعود الى مكة خائب الرجاء طائش السهم ؟ ولكن فيم كانت مشيختُه في قريش وزعامته فيها أم يجدّ ليلقى محمداً يبسط عنده العُذر ، وينتحل الأسباب ؟ لِيُجرّب الثانية ، فلعلها أنجحُ الرأيين وأحسن الطريقتين !

ويذهب أبو سفيان الى بيت الرسول ، ويقف في ساحته ، حائر الطَرْف . مبلبل الرأي ، موزَّع الفؤاد ثم يتحدث الى بنته أم حبيبة[2] أم المؤمنين . فتغلظ له في القول ، وتردّه ردّاً غير كريم ، فيخرج متعثراً في ذيل اليأس متلفعاً بمئزر الصَّغار . ثم يلتقي بعد برسول الله ، فما يصيب عنه إلا سخطاً وامتعاضاً ، وما يلقى إلا صدّاً وإعراضاً . ويرجو الشفاعة من أبي بكر ، فلا تعدو آماله أحلام نائم . ويلتمس الخير عند عمر ، فلا يظفر عنده إلا بقلب حانق ، وسخط هائج . ثم ينتهي الأمر عنده الى خيبة الرجاء والتواء الطريق ، فيعود الى مكة منذراً أهلها أمراً شَفَّت عنه الدلالات ، وأسفرت العلامات .

أما رسول الله فقد أمر المسلمين بالاستعداد والتهيؤ ، وأعلن في المسلمين : مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليشهد رمضان بالمدينة .

وأسرجت الخيول ، وأعد السلاح والكراع ، ووفدت القبائل من مُزَيْنة وغِفار ، وأشجع وسُلم . والتأم جيش من المسلمين ، في جمع من قبل لم يعرَف ، وحماس لم يؤلف ، وصدر عن رسول الله أمر كريم : أن يحفظ المسلمون أسرارهم ويضنوا بمخبآت ضمائرهم ، فلعلهم يصيبون قريشاً على غير استعداد ، ويدخلون مكة من غير كيد أو عناد ؛ فرسول الله حريص على ألا يسفك في البلد الحرام دما ، ولا يُزهق روحاً ، ولا يثير حرباً ، ولا يذكي ضُرَام عداء .

---

(١) وجم : سكت .

(٢) أم حبيبة : اسمها رملة ، تزوجها رسول الله ، وقد زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها النجاشي عن رسول الله أربعمائة .

وساروا جميعاً ترفرف فوقهم العُقَاب[1] ، وتكلؤهم[2] رعاية الله[3] .

ويطلع عليهم في الطريق رجل مهيب الطلعة ، أبلج الغُرة ، طويل بادن ، في نفر من الناس تبيّنوه ، فإذا هو العباس بن عبد المطلب .

قال : يا رسول الله ، لقد علمت أني أسلمت من عهد ، ولكنني ما استطعت أن أجهر بالإيمان ، وما استطعت أن أصبر بعد ذلك على الكتمان ، وقد خرجت مهاجراً الى الله واليك بنفسي ، وها هم أولاء زوجي وولدي .

قال رسول الله : مرحباً بك يا عمّ ، ليهنئك الإسلام ، وليبارك لك الله في الإيمان ، أرسل الى المدينة أهلك وولدك ، وارجع معنا الى مكة حتى تشهد ما يكون بيننا وبين قريش .

ورمى العباس ببصره في الجيش ، فإذا بقوم ملء السمع والبصر ، والسهل والجبل ، فقال : وارحمة الله لقريش ! إن دخل هذا الجيش مكة عنوة فإنه سوف لا يُبقي في قريش طفلاً ولا كهلاً ، ولا امرأة ولا رجلاً ... وخاف العباس ، وأشفق من مصير قريش ، فخرج الى الصحراء لعله يلقى حطاباً أو لبّاناً أو ذا حاجة ، فيحمله رسالته الى قريش : أن يحضر كبراؤها ورؤساؤها الى محمد يُؤمنونه على نفوسهم ، ويعاهدونه على تسليم حرمهم ، فيكون هذا أحقن لدمائهم وأبقى لحياتهم .

وبينا هو يَشم ، وينظر ، ويتطلع ويتنوّر[4] سمع همس رجلين يتراجعان .

قال أحدهما : تلفَّت الى هذه النار ، وأدْر طرفك فيها ثم ارجع البصر الى هؤلاء العسكر ، فإني ما رأيت نيراناً قبل كهذه النار ، ولا جنداً أحشد من هذه الجنود .

---

(١) العقاب : اسم راية الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) تكلؤهم : ترعاهم .

(٣) تجهز الرسول لفتح مكة ضمن سرية تامة ودعا ربه قائلاً : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في دارها . واكتشف حادث حاطب بن أبي بلتعة وقبل عذره ...

(٤) يتنور : يطلب النور .

قال الثاني : هذه والله خُزاعة قد حَمشتها[1] الحرب وهاجمها يوم الوَتِير :

وقال الأول : اسكت ، فوالله لخَزاعة أذلُّ نفوساً ، وأضعف جنوداً من أن تكون هذه نيرانها وتلك جنودها .

وبينما الثاني يتهيأ للكلام وجد العباس بينهما . وقال العباس : عجباً : أأنت أبو سفيان ! ما جاء بك في هذا الظلام يا أبا حنظلة ؟ قال : هَم العشيرة وأفداحُ القبيلة ، ورزء الزمان ... لقد خرجت أتحسس خبرَ ابن أخيك ، وأتطلع طلعَ المسلمين ، وقد حَزَّرَت قريش الحرب ، وتوقعت الشر من يوم أن انتقض العهد وفَجرنا في اليمين .

قال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! هذا محمد رسول الله قريب منك ، في جند كعديد الرمل ، ولئن ظفر بك لأخْشَينَّ أن تضرب عنقك ، وشديد عليّ أن أرى رأس قريش مجدَّلاً ، وشيخها مقتولاً . اركب معي هذه البغلة ، لعلي آتي بك رسول الله ، أطلب لك الأمان ، وأستوهب لك الحياة .

*

وشاهد الناس أبا سفيان رديفاً للعباس ، ورآه عمر بن الخطاب ، فوثب على قدميه ، وقال : أبا سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا عهد ! وانطلق يعدو الى رسول الله .

قال : يا رسول الله : هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد فدَعْني أضرب عنقه ، ليخبوَ[2] ضرام غيظي ، وتهدأ ثائرة ضلوعي .

قال العباس : يا رسول الله ، إني قد أجرت أبا سفيان ، وأعطيته الأمان ، وهيهات للرسول الأمين ، الكريم الحليم ، أن يردَّ جواري ويرجعني في أماني .

قال عمر : ذاك يا رسول الله شيخ من قريش يوم بدر ، ومحرّضها يوم أحد ، وزعيمها

---

(١) حمشتها : أغضبتها .

(٢) يخبو : ينطفىء .

يوم الأحزاب، وقد أمكن الله منه بعد عهد نقضوه، وحلف ضيّعوه وإن في قتله لراحة للمسلمين، وشفاء لما في الصدور.

قال العباس: على رِسلك يا عمر، فوالله لو كان من قومك من بني عديّ ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف.

قال عمر: لقد جاوزت الحدّ يا عباس: فوالله لساعةُ إسلامك يوم أسلمت أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحبَّ الى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم...

وهمّ العباس بالكلام، ولكن رسول الله حجز بينهما حجزاً كريماً، وفصل بينهما فصلاً حكيماً، ثم قال: يا عباس، اذهب به الى رحلك، ودعه يقضي عندك هذا المساء، ثم ائتني به الغداة.

— وأخذ العباس بيد أبي سفيان، وانطلق به الى قبّته، وبات محدّثاً له حتى السّحَر، وهو يرجو أن يطمعه في الإسلام، ويأفِكه[1] عن الأصنام. ولما نهض من نومه، رأى القوم يقفون خاشعين، ويتمتمون بعبارات لا يفهمها، ثم يركعون بظهورهم، ثم يعفرون بالتراب وجوههم، فقال: ما يفعل هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: إنها الصلاة، قم يا أبا سفيان وتطهر، وانطلق معي الى رسول الله. فتطهر أبو سفيان متلكئاً وقام متثاقلاً، وذهبا حتى جلسا بين يدي الرسول.

قال الرسول: ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً.

قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً!

---

(١) يأفكه: يصرفه.

قال العباس : يا أبا سفيان ، لقد وضحَ الصبح لذي عينين ، فإن كان على عينيك غمامة فارفعها ، وإن كان على قلبك غشاوة فمزّقها . أسلمْ إبقاء على حياتك ، وحرصاً على دنياك وآخرتك . فاضطرب أبو سفيان ، ثم تلعثم ، ثم تردّد ، ثم قال : شهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وابتهج الرسول والتمع البشر في وجه العباس . ثم أخذه بيده ، وعلّمه الوضوء والصلاة ، وبصّره بمبادىء الإيمان .

ثم عاد الى الرسول يقول : يا رسول الله ، إن أبا سفيان كما أعلمه رجل يحب الفخر ، وتميل به الخُيلاء ، وإنه حتى هذه الساعة لا يزال الإسلام غريباً في قلبه ، والعقيدة غير مستقرة في نفسه ، فاجعل له شيئاً يقضي به حاجة نفسه من الزهو والخيلة ، ويجعله في الإسلام أثبت قدماً ، وأكبر يقيناً ...

قال رسول الله ﷺ نعم ، مَن دخل دار أبي سفيان من مكة فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومَن دخل المسجد فهو آمن .

ويسمع أبو سفيان قول رسول الله ، فيذهب صائحاً في عرصات[1] مكة . يا معشر قريش ، قد جاءكم محمد بما لا قِبَل لكم به ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ... فقامت زوجه هند وقالت : اقتلوا الحَميت[2] الدّسم الأحمس ، قُبّحت من طليعة قوم ! قال : يا قوم لا تغرّنكم هذه عن أنفسكم ، وقد نصحتكم وما أردت إلا حقن دمائكم ، وحفظ أرواحكم ، ولقد جاءكم محمد بما لا قِبَل[3] لكم به . فارتاع القوم وقالوا : ويلك ! وما تغني عنا دارك ! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، فهرع الناس الى المسجد والدور ...

ودخل رسول الله مكة حانياً ظهره شكراً ، غاضاً طرفه حمداً لابساً عمامته السوداء معتجراً[4] بشُقّة بُرد حمراء ، لم يلق سيفاً قائماً ، ولا رجلاً شاكياً ، وهو يتلو : (إنا

---

(١) عرصات : جنبات .

(٢) الحميت : السمين . والأحمس : من لا خير فيه .

(٣) قبل : طاقة .

(٤) الاعتجار : لف العمامة .

فتحنا لك فتحاً مُبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويُتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً . هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً . ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً)[1] .

ثم توجه الى البيت طائفاً ، وذهب الى الركن مستلماً ، واحتشد الناس في المسجد ، وتدافعوا ينظرون ما يقول محمد وما يصنع .

هذا الذي أخرجوه وصحبه من ديارهم ، وافتنّوا[2] في إيذائهم ، ونالوا من عافيتهم وراحتهم ، هو ذا قد عاد اليوم ظافراً بهم ، قادراً عليهم ، ليت شعرهم ماذا يقول ؟ وليت علمهم ماذا يصنع ؟

ووقف الرسول على شرف في المسجد ، وتهيأ للقول وقال : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » !

---

(١) سورة الفتح الآية .

(٢) افتنوا : تفننوا .

يوم حنين (*)

المسلمون بين الهزيمة والنصر

كان دُرَيد بن الصمّة ذا علم في الحرب، وصاحب رأي في أساليب القتال، خبّ فيها ووَضع[1]، وشبّ واكتهل. وهو وإن كان اليوم قد أصبح شيخاً متهدّماً وعجوزاً فانياً، ليس لقومه من بني جُشَم فيه من عون، ولا عليه من معوّل، فإنه ما زال فيصلاً في الأحكام، ومرجعاً في المشكلات.

قال لقومه ــ وقد حملوه في شِجَاره[2]، وقادوه بزمام جَمله: بأي واد أنتم؟ قالوا به: نحن بأوْطَاس[3]، قال: نِعْم مجال الخيل، لا حَزن ولا ضَرِس[4]، ولا سهل دَهِس[5]، ولكن مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وبكاء الصغير ويعار[6] الشاء؟... قالوا: لقد ساق مالك بن عوف الناس للحرب، وحشد وراءهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم... قال دُرَيد: دلّوني عليه، فوالله ما أراه إلا دَبَريّ[7] الرأي، أفِيَل الفكرة[8]، أهكذا تكون الحرب؟ وأمسك غلامه بخطام[9] جملة حتى وقف به على مالك.

قال دريد: يا مالك، لقد أصبحتَ بعدي رئيس القوم، وزعيم الجماعة، فحدّثني عن هذا الحشْد. قال مالك: هؤلاء قومي وقومك، دفعت بهم الى لقاء محمد. لقد

(*) التوبة آية ٢٥.

(١) الخبب والإيضاع: نوعان من السير، والمراد أنه مرن على الحرب.

(٢) الشجار: الهودج.

(٣) أوطاس: مكان.

(٤) ضرس: صعب.

(٥) دهس: سهل.

(٦) اليعار: الشديد من أصوات الشاء.

(٧) الرأي الدبري: هو الذي يسنح بعد فوات الفرصة.

(٨) أفيل الفكرة: ضعيفها.

(٩) خطام: زمام.

علمت أنه قد دخل مكة في جيش لم تر العرب مثله ، ولم يلق فيها صادّاً ولا رادّاً ، ولم يصادف عقبَــة ولا عثرة ، فذلت له قريش ، ولم تعد لهم بعد في مكة كلمة ... وإنه ليُوشك إن لم نَغْزُه أن يغزونا . وما يبعد ــ إن لم نستعدّ له ــ أن تذلّ له هوازن ، وتخضع نَصْر وجُشَم ، وتدين ثقيف ، ويصبح محمد ملك العرب جميعاً ... ولكنني ــ كما ترى ــ أعددت له قبل أن يُعِدّ لنا ، وأزمعت المسير اليه قبل أن يسير إلينا .

قال دريد : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء الفرسان ، ولكن ، ما هذا الذي أسمعه من رغاء[1] البعير ونُهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟

قال مالك ، وحسب أنه طَبّق من الرأي المَفْصِل ، وأصاب شاكلة الصواب : لقد خشيتُ هزيمة القوم ، وهم قلة بجانب أصحاب محمد ، ولهذا سُقت وراءهم أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتلوا ، ولعلهم بهذا يكونون أصدق لقاء ، وأثبت أقداماً .

فهز دريد رأسه ، وقال : رَاعِي ضَأن[2] ، وهل يردُّ المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت أهلك ومالك . يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم البيضة : بيضة هوازن الى نحور الخيل شيئاً ... ارفعهم الى متمنّع بلادهم ، وعلْيا قومهم ، ثم الْقَ الصُّباة[3] على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

قال مالك : يا دريد ، لقد كبرت في السنّ ، وكبر علمك . فدعها لمن يعرفها ، واترك من سيخوض غمارها ويدبر خطتها .. ثم عاد الى القوم ، وقال : يا معشر هوازن ، لتطيعنني أو لأتّكِئَن على سيفي هذا فيخرج من ظهري .

قال زعماء القوم وعُرفاؤهم[4] : دونك يا مالك وما تريد .

---

(١) رغاء : صوت البعير .

(٢) قصد بذلك تجهيله .

(٣) التاركون دينهم ، وبهذا كان الكفار يسمون المسلمين .

(٤) عرفاؤهم جمع عريف ، وهو رئيس ، وهو رئيس الجماعة .

وطار الخبر الى رسول الله في مكة ، وهو يتهيأ للعودة الى المدينة ، أنّ مالك بن عوف قد حشد هَوازن ، واستنفر ثقيفاً ، ودعا إليه نَصراً وجُشَم ، وأنه يُوشك أن يشتبك مع المؤمنين في قتال ...

فدعا رسول الله المسلمين ألا يُلْقوا سلاحهم ، وألا يريحوا أبدانهم ، حتى يلقوْا مالكاً ، فلعل يومهم آخر يوم لغزو العرب ، وشوكتهم آخر شوكة في المشركين . فاستجابوا لله وللرسول في جيش لم يهيّأ لهم من قبل : عشرة آلاف ممن قدموا مع الرسول في المدينة ، وألفان ممن دان يوم الفتح ، إنه لعدد يدعو الى الزّهوْ[1] ويدعوا الى الإعجاب أين الرسول الآن وهو في قوم من المسلمين كعديد الحصى ، منه يوم أن خرج من مكة تحت جنح الظلام مطلوباً ، لا عون له ولا ناصر ! وأين عديد المسلمين اليوم من عديدهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق ! إنه جيش غَرّ قائلهم فقال : إنهم لا يغلبون اليوم من قِلّة .

ولكن ما خطرُ الكثرة إذا لم تؤيد بنصر الله ؟ وأين هذا الجيش الذي يضم صَفْوان بن أمية على شِرْكه ، وأبا سفيان والأزلامُ في كنانته ، وكلدة بن الحنبل وقتْل رسول الله ضالته ! أين هذا اليوم من يوم بدر ، وما في المسلمين إلا مؤمن قوي الإيمان ، مجاهد صادق في الجهاد ! إنها لكثرة لم تبعث إلا غروراً ، ولم تهيىء لهم إلا عجباً وخُيَلاء .

*

وخرج المسلمون في عَماية الصبح[2] ، وانحدروا بجموعهم الى وادي حُنين[3] كما ينحدر السيل الى الحَدور . وما راعهم إلا المشركون قد سبقوهم اليه ، وكمنوا في شِعابه ، واختبأوا وراء أحنائه ومضايقه وظهروا عليهم فجأة ! فإذا كثرة المسلمين ما خرجوا إلا طامعين ، ولا ذهبوا إلا متردّدين ، يخور عودهم ، وتَنخَب[4] قلوبهم ، ويتشمرون منهزمين ،

---

(١) الزهو : الفخر .

(٢) عماية الصبح : ظلمته

(٣) حنين : بين الطائف ومكة .

(٤) النخب : الجبن وضعف القلب .

ويرجعون متقهقرين ، ثم يقع الذعر في سائر الجيش ، ويغزو الرعب قلوب المسلمين .

وينكشف القَتام[1] عن رسول الله منحازاً الى ذات اليمين ، راكباً بغلته البيضاء وهو يصيح : أين أيها الناس ؟ هلموا إليّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبدالله . ولكن لا شيء غير قوم مذعورين ، وفلول منهزمين ! ويلتفت الرسول فلا يلق إلا أبا بكر وعمر ، وعلياً والعباس ، وقليلاً من خاصته وأهل بيته ، وأبو سفيان يبرز مكنون حقده ، ويعلن ما بين ألفاف صدره ، ويقول : إن هزيمتهم لا تنتهي إلا الى البحر ، ويصيح كَلْدة بن حَنْبل : الآن قد بطل السحر . ثم يعود الرسول فيدعو العباس ويأمره أن يهتف بالأنصار ، وكان العباس فارعاً بادناً ، صيِّتاً جهير الصوت فنادى : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرة[2] هذا رسول الله يدعوكم ، ويستنصر بكم على عدوّكم وإذا بصوته يشق الصدور ، ويصل الى قرارات النفوس ، ويجيب الأنصار هاتفين : لبّيك يا رسول الله لبيك ... وإذا كان الله قد بلغ بالمسلمين ما أراد من أن يُريَهم عاقبة غرورهم ، ومقدار كثرتهم ، وخطأهم في تعبئة جيوشهم ، فإنه عاد فثبّت أَقدامهم ، وربط على قلوبهم ، وأنزل سكينته عليهم ، وأمدّهم بجنود لم يروها . فانقلبت الهزيمة الى نصر ، وولّت هَوازن وأحلافُها ، تاركة للمسلمين أسلابها وغنائمها .

الثلاثة الذين خلفوا (*)

المسلمون في عُسرة من المال ، وضيق من العيش ، ولفْح شديد من الحرّ ، ولكنهم كانوا يعقدون آمالهم بيوم قريب ، يجنون فيه الثمر ، ويحصدون الزرع ، ويروّحون عن نفوسهم بفَرج مُقبل ، وخيرٍ آتٍ .

وبينا هم يرجون ذلكَ الأمل ، ويترصّدون هذا اليسر ، وهم أشدّ ما يكونون رغبة في البقاء ، وأزهد ما يُرون ميلاً عن السفر ، إذا برسول الله ﷺ يدعوهم للجهاد ،

---

(١) القتام : غبار المعركة .

(٢) السمرة : الشجرة . والمقصود شجرة البيعة .

(*) التوبة : آية ١١٨ .

ويؤذّن فيهم بالنفير العام : (انْفروا خِفافاً وثِقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ...) ، من استطاع منكم الانفاق عن سعة وفضل فلْينفق ، ومن استطاع أن يحمل غيره فليحمل ، واعلموا أن وجهتنا غزو الروم ، فلا يتخلّف أحد منكم ، من استطاع الى الجهاد سبيلاً .

أقبل المسلمون بعضهم على بعض يتساءلون : ما بال رسول الله ﷺ يدعونا للجهاد في وقت الحر ، ولَفْح الهاجِرة[1] ، وقبل أن نجني الثمار ، ونحصد الزرع ؟ ثم ما باله يجري اليوم في الجهاد على غير عادة مألوفة ، ويسلك طريقاً غير معروفة ، فيعلن الجهة التي يقصدها ، والقوم الذين سيغزوهم ، والعهد به يُخفي ولا يصرِّح ، ويكني ولا يفصح !

ولكنهم ما علموا أن رسول الله ﷺ يتهيّأ ليصدّ بني الأصفر[2] الذين أعدّوا جموعَهم ، وحشدوا جيوشهم لغزو المسلمين ، وهم أقوى ما يكونون عُدة وعَدَداً ، وأنه قد آثر إعلامهم وإيذانهم ، ليتهيَّئوا لسفر بعيد وشُقّة طويلة ، حتى استطابت نفوسهم للجهاد واستعدّوا للبلاء .

✲

ودعوة للجهاد ، في عُسرة من المال وعسرة في الإنفاق ، وعسرة في الظهر[3] تتلقاها النفوس بحسب ما قدّر لها من الهداية والتوفيق ، وبمقدار ما خالطهت من الإيمان واليقين . فالنفوس الفياضة بالتقوى ، الطامحة الى الجنة ، المتطلعة الى رضوان الله ، لا تبالي الجهاد صيفاً أو شتاء ، حَراً أو قَراً[4] ، وإنما هي كلمة يلقيها الرسول ، فإذا أموالهم وأنفسهم بين يديه ، وطاعتهم منتهية اليه . ذلك لأنهم علموا أنه لا يصيبهم ظمأ ولا نَصَب ولا مَخْمَصَة[5] في سبيل الله ، ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نَيلاً إلا

---

(١) الهاجرة : نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر .
(٢) بنو الأصفر : الروم .
(٣) الظهر : وسائل النقل .
(٤) القر : البرد .
(٥) المخمصة : الجموع .

كُتب لهم به عمل صالح ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليَجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون .

وأما أصحاب النفوس المتردّدة بين الإيمان والكفر ، المذَبْذَبة بين الشك واليقين ، فإنهم ما يسمعون بكلمة الجهاد ، ولا يرون قوماً يتهيئون للغَزو ، حتى يُعْظِموا الشقّة ، ويكبروا النفقة ، ويُرجفوا بسوء العاقبة والمصير ...

فما دعا رسول الله ﷺ الى التجهز الى تَبُوك ، حتى تطوّع المسلمون بأموالهم وأنفسهم ، وظهر منافقون حاولوا أن يخذِّلوا[1] المسلمين فلم ينجحوا ، ويُثنوهم عن عزمهم فلم يُفلحوا .

*

وماجت الصحراء بالغزاة والمجاهدين ، مبتهجين مؤمّلين ، ولكن أربعة لم ينتظموا في الصفوف ، ولم يأخذوا مكانهم بين الجنود ، فكانوا موضع العجب والسؤال ، إذ كانوا ذوي غنى ويسار ، وإيمان وإيثار : أبو خَيثَمة أخو بني سالم ابن عوف ، وكعب بن مالك أخو بني سلمة ، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف ، وهلال بن مُرة أخو بني واقف ...

أما أبو خَيثَمة فإنه ذهب الى أهله ، بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً في يوم حارّ ، فوجد أمرأتيه في عَريشَيْن لهما في حائطه[2] وقد رشّت كل واحدة منها عريشها ، وبرّدت له فيه ماء ، وهيأت طعاماً ... فلما دخل وجد شراباً بارداً ، ولحماً غريضاً[3] ، وتحت ظل وارف ، ونسيم بليل عليل ، وامرأتين تتهيآن لخدمته وإسعاده ، فتذكر رسول الله ﷺ وصحبه ، في غزوهم وجهادهم وشُقّتهم وبلائهم ، وهم الآن قد يبحثون عن

(١) يخذلوا : يثنوهم .

(٢) الحائط : البستان .

(٣) الغريض : الطري .

الماء فلا يجدونه ، وعن الطعام فلا يظفرون به ، فما أبعد ما بينه وبينهم ! وما أظهر الفرق بين حاله وحالهم ، ثم أعلن الحرب على نفسه ، والكيد لهواه .

وقال : رسول الله في الضح والريح ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهيّأ ، وامرأة حسناء ، وهو في ماله مقيم ! ما هذا بالنَّصَف[1] ، ثم قال لامرأتيه : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله .. وهيّأ راحلته وطعامه ، ولحق برسول الله .

أما الثلاثة : كعب ومرارة وهلال ، فقد قعدت بهم همتهم في أوّل أمرهم فلم يذهبوا . ثم عادوا فاستشعروا الندم ، وأحسّوا ما تورّطوا فيه ، فهمّوا باللحاق به ، ولكن ثناهم الخجل ، وصرّفهم التردّد ...

وتفارطت الأيام ، وأمعن رسول الله ﷺ في الغزو ، فلم يجدوا للحاق به سبيلاً ...

وأظلّتهم بالمدينة ليال نابِغيّات[2] ، وساعات نحسات ، يَخرجون نهارهم يجوسون خِلالها ، ويروحون ويغدون بين لابتيها[3] ، ويتلفّتون فلا يرون فيها إلا رجلاً مغموصاً[4] عينه بالنفاق والرياء ، أو ممن عذرهم الله من الضعفاء . فتتصاعد أشجانهم ، وتفيض أحزانهم ، وتتحدّر شئونهم ، إذ لم يكونوا منافقين ولا مُرائين ، ولا مستضعفين ولا معذورين ، ولم يكونوا أقلّ حبًّا في الجهاد ممن سبقهم ، ولا أرغب في سبيل الله ممن تخلفوا عنهم ... ولكن هكذا لعِبت بهم الأقدار ، وصنعت صروف الحدثان . وكانوا كلما اقتربت أيام عودة الرسول ضاقت عليهم نفوسهم ، وكثر همُّهم ، وأقِضَّت[5] مضاجعهم ،

---

(١) النصف : العدل .

(٢) ليلة نابغية : طويلة ، من قول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

(٣) لابتا المدينة : حرتان من حجارة غليظة تكتنفانها .

(٤) مغموص عليه : مطعون عليه .

(٥) أقضت : أقلقت .

فكيف يلقونه ؟ وماذا يعتذرون له وهم ما برحوا في صحة أبدانهم ، وبَسْطة أرزاقهم ، ورفاهية عيشهم ، وصدق إيمانهم ؟

وعاد رسول الله ﷺ من جهاده ، وذهب الى المسجد كعادته يصلي ركعتين ، ثم يستقبل الناس ... وجاءه قوم مخلّفون أخذوا يبسطون له المعاذير ، وينتحلون الأسباب ، ويُقسمون بالله جهد الإيمان ، فقَبِل علانيتهم ، وبايعهم ، ووكل الى الله سرائرهم . ثم أقبل كعب يتعثر في مِشيته ، ويضطرب من فعلته ، فتبسم اليه رسول الله تبسُّم المغضَب ، ثم قال له : ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظَهْرك ؟

فقال بلى يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطِيتُ جدَلاً[1] ، ولكني والله لقد علمت أني لئن حدّثتُك حديثاً فيه كذب ترضى به عني ، ليُوشكنّ الله أن يُسخِطك عليّ ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو عفو الله ، والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلّفت عنك ... فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك .

وجاء مرارة ، وجاء هلال ، فتحدثا بمثل ما تحدّث به كعب ، وتركهما رسول الله لقضاء الله وقدره ، كما ترك كعباً لقضاء الله وقدره .

*

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامهم ، أو الاختلاط بهم ، حتى يفصل الله في أمرهم : يعذبهم إن شاء أو يتوب عليهم .

ومرت عليهم بعد ذلك أيام تقسّمتهم فيها الهموم ، وجالوا في أودية الغموم ولقوا من جفوة رسول الله جهداً وبلاء ، ومن عزلة أصحابه عنتاً وعناء .

أما مرارة بن الربيع ، وهلال بن مرة ، فإنهما قد استكانا الى بيتهما يبكيان

---

(١) جدلاً : أي قوة على الجدال .

ويـنتحبان، انتظاراً لقضاء الله. وأما كعب فقد كان شاباً يخرج الى الأسواق ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس، ويشهد الصلاة، ويغشى الطرقات! ولكن لا يكلمه أحد، ولا ينـظر اليـه أحـد. ويـقبل على رسول الله ﷺ بعد أن ينفلت من الصلاة فيلقي عليه السلام ولا يدري من اضطرابه: إتوجّه اليه أم أعرض، ردّ عليه أم سكت؟

وضاق به الأمرو واشتدت به جفوة الناس، فتوجه الى أبي قَتادة[1] ـ وكان ابن عمه وأحبّ الناس اليه ـ وتسوّر عليه جدار حائطه[2]، وسلم عليه فلم يردّ السلام، فقال: يا أبـا قَـتادة. أنشدك الله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعاد مرة ثانية، فقال أبو قتادة: الله ورسوله أعلم؟ ففاضت عيناه وتولى...

ومضى يـومـاً في الـطـريـق زائـغ الـبصر، موزّع الـفكر، وإذا بنَبطِيّ من أنباط أهل الـشـام، ممـن قـدم بـالطعام يبيعه في المدينة، ويقول أين كعب؟ فطفق الناس يشيرون اليه، فدفع اليه كتاباً من ملك غَسّان، ملفوفاً في حرير، ففتحه، فإذا فيه: (أما بعد: فـقـد بـلـغني أن صـاحـبـك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نُواسِك..).

ولما قرأ هـذه الـرسـالـة بـكـى وأعول: أن كان كعب قد هان أمره، وانحط قدره، وأصبح ممن يُطْمع في دينه ويرجى تنصّره[3]!! ثم أخذ الرسالة، ودفع بها الى التنّور.

وانـقـضـت أربـعـون يـومـاً لم يـتلقّ الرسول في هؤلاء شيئاً من الوَحْي، ولم يستطع أن يـفـصـل مـن أمرهـم بشيء، فـأرسـل اليهـم أن اعـتـزلـوا أهلكم، حتى يقضي الله بالأمر فيكم...

أمـا هـلال، فقد دَلَفَت امرأته الى الرسول، فقالت: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضـائـع، لـيـس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقرَبك. قالت:

---

(١) أبو قتادة: هو الحارث بن ربعي.

(٢) الحائط هنا البستان.

(٣) تنصره: أي دخل في النصرانية.

إنـه والله مـا بـه مـن حركة الى شيء ، وإنه ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان الى اليوم .

أمـا كـعـب فـإنـه لما جـاء رسـول النبي يأمره أن يعتزل امرأته قال : أطلّقها أم ماذا أفعـل ؟ قـال : بـل اعـتـزلهـا ولا تـقـربنّـهـا ، فـقـال له بعض أهله : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امـرأتـك كما أذن لمـرأة هـلال أن تخدمـه ؟ فـقـال : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله وأنا رجل شاب ! ثم سرَّحها .

٭

وظـل أمرهم معلّقاً ، والحديث معهم محظوراً[١] ، حتى انقضت عليهم خمسون ليلة ، وما صلّى بـعـدهـا رسول الله صلاة الصبح ، حتى أطرق برأسه وغاب بروحه عمّن حوله ، ثم أقبـل على صـحـبـه متهلل الـوجه منشرح الصدر ، وأعلن فيهم أن الله قد قبل توبة كعب ومرارة وهلال ، فاذهبوا اليهم مهنئين مبشرين .

فـخـف الـنـاس اليـهـم مسـرعين ، بـعـضـهـم على فرس يركض ، وبعضهم فوق جمل يـصـيـح ... ووافى الـبـشير كـعباً ، فنزع له ثوبيه خِلْعة ، وما كان يملك غيرهما ، واستعار ثـوبـاً ، وجـرى الى الرسول ، فألفاه جالساً وحوله الناس في المسجد فقال : أبشر بخير يوم مرّ عـلـيك منذ ولدتك أمك ... ثم أقبل هلال ، وأقبل مرارة فهنأهما ، وتلا عليهم جميعاً : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه في ساعة العُسرة مـن بعـد ما كـاد يـزيـغ قـلـوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُـلِّـفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ، ثمّ تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم) .

---

(١) محظوراً : ممنوعاً محرماً .

مسجد الضرار(*)

لف الظلام المدينة بردائه، واشتملها بسكونه وهدأته، وأوحش الطريق وسكنت الدّور، وأسلم الناس الى نوم عميق، ولكنّ داراً ما زال أهلُها في يقظة وحذر، وهمّ وقلق، اجتمع أهلوها يبثون شكواهم، وينشرون مكنون همومهم، وقد أمِنوا على الظلام من يراهم، أو يسمع سرّهم ونجواهم...

قال مُعتِّب بن قُشَير ــ يشكو بثّه لمن دَلَف اليه من المنافقين، ممن ذهب مذهبَه من الكيد والأذى، ومَن رجع مَرْجِعه من الحسرة والإخفاق، ومن لبس قِناعه من المداهنة والنفاق: أيّ هم ذلك الذي يَسري في أحشائي؟ وأي نار من الغيظ تلك التي تشتعل بين جوانحي[1] وضلوعي؟ إنني والله كلما لحت في طريقي هذا المكان الذي تهيّأ لبني عمرو بن عوف، وَدعَوه مسجد قُباء، وزعموا أن محمداً قد وضع لهم أساسه، وأقام قواعده، أغُض طرفي على الأذى، وأحني ضلوعي على الأسى! كلُّ من في المدينة يهتف الآن ببني عمرو بن عوف، ويتحدّث عن مسجد قُباء؛ ما نحن وبني عمرو! وأي قدم يَفْرعوننا[2] فيها! ونحن وإياهم أبناء عمومة وأغصان نبعة! لست أكتمكم ذاتَ نفسي، وما تحتويه لفائفُ صدري؛ إن الحسد ليملأ أعطافي، والغيظ ليتَسعّر في نفسي؛ ولست أدري دواء لما أحس، وعلاجاً لما أشعر به، إلا أن أرى مسجدهم مقوّضاً، ومجدهم دائراً، ورسمهم عافياً؛ ولكن أنى؟ وكيف؟ وقد قلّ العدد وضعف الجند، وعزّ النصير، وانقطع الرجاء في خذلان المسلمين!

قال ثعلبه بن حاطب ــ وقد استوى في جلسته، واعتدل في قعدته: إن همّك من بني عمّك لهمّ يسير، وخطب هين؛ إنما الهمُّ الذي يبعث الأحزان، ويُثير كامن الأشجان، هذا الدين الذي لا تخمد جذوته، ولا تسكن حركته، ولا ينقطع دخول

(*) التوبة: آية ١٠٧.

(١) جوانحي: الجوانح أعضاء الانسان.

(٢) يفرعوننا: يسبقوننا.

الناس فيه ؛ أوَ ما رأيتهم وقد صاح فيهم بلال صيحة يشقّ بها صدورهم ، ويغزو مشاعرهم ، فإذا هم جميعاً يهرعون الى المسجد ، ويزدلفون الى ذلك البناء ، فيتأكد جمعهم ، وتقوى آصِرتهم ، وتزكو المودّة بينهم ؛ فإذا كانوا في يوم تالٍ ، عادوا ومعهم جديد ممن يدخل في دينهم ، أو ينحدر الى عقيدتهم ؛ إن اجتماع محمد وصحبه على النحو الذي أراه كل يوم لما يزيد النفس حسرة ، ويُذيقها أسفاً وكمداً .

فقام وديعة بن عامر ، وقال : دعكما مما تفيضان فيه من الحسرة ، وما تبعثان من هم دفين ؛ لقد جاءني اليوم كتاب من أبي عامر[1] الراهب ، وهو من علمتم كراهيته لمحمد ، وحنقه على دينه ، وهمّه من ظهور أمره ، قال : إنه من يوم أن ترك المدينة ما زال يسير ويكمن ، ويُنجد[2] ويُتهم ؛ حتى انتهى بعد طول ما طوّف الى هِرَقل ملك الروم ؛ فوجده ملكاً متعصباً للنصرانية ، مغيظاً محنقاً مما سمعه عن أمر محمد والمسلمين ، ثم حدّثه بما يقع لمحمد كل يوم من فتح ، وما ينتقل فيه من نصر الى نصر ... ولقد ذكر لي ــ فيما كتب ــ أنه قد استنصره فوعده النصر ، واستنفره[3] فمنّاه بالنفر ، وإنه ليوشك أن يعود الى المدينة ؛ ولكنه يلتمس منا أن نهيّىء له معقلاً خفياً ، ومكاناً تحت جنح الظلام ؛ يدبر فيه الكيد ، ويخيط نسيج المكر ... فماذا أنتم صانعون ؟ وبماذا تشيرون ؟ .

إن عندي لرأياً قد زوّرته[4] فأحكمت تزويره ، وخطّة دبرتها وأظنني أحسنت تدبيرها ؛ فإن شئتم سمعتموها ، وإن شئتم رددتموها ، فاستشرف جمعُهم اليه ، وقالوا : هات ما عندك ، وأتِ على غاية ما في نفسك ... قال : لقد علمتم أن محمداً قد أصبح من القوّة بما لا نستطيع صدّه ، أو القيام في وجهه ؛ وإننا ما أستطعنا أن نساكنه في

---

(١) أبو عامر الراهب : خزرجي ، كان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، ولما قدم رسول الله الى المدينة شرق بريقه وبارز بالعداوة ، ولما انتصر المسلمون يوم بدر ذهب الى مكة فاراً وألب المشركين على رسول الله حتى كان يوم أحد . وفيه امتحن المسلمون . ولما رأى صبرهم وإيمانهم ذهب الى هرقل ملك الروم .

(٢) أنجد : من النجد : وهو المكان المرتفع من الأرض . وأتهم : أتى تهامة ، وهي المنخفض من الأرض .

(٣) استنفره : استنصره .

(٤) زورته : أعددته .

المدينة إلا بفضل ما نُظهره من مَلَق، وما نرتديه من ثوب النفاق؛ وقد رأيتم كيف كان يلحن[1] لأمرنا، وتتبُّعه لغمزات عيوننا؛ فهو منّا أبداً على ريبة، وهو من أمرنا دائماً في شك.

والرأي عندي أن نعمِد الى مكان فسيح نبني فيه مسجداً، ونتوهمه مصلى، ثم نقيم له من بيننا إماماً، ونذهب الى محمد ندعوه للصلاة فيه مداهنين، ونحلف له كاذبين، فإذا استجاب دعاءنا، وصدّقنا في إيماننا، فقد استطعنا أن نفرّق الجماعة، ونصدع الوحدة، ثم يكون المسجد بعد ذلك في الظلام ملاذاً لأبي عامر وملجأ لمن يريد. وها هو ذا[2] مجمع بن جارية منا، قارىء للقرآن، عارف بالفرائض، ندعوه لإمامتنا، ونوهِمه حسن قصدنا، فما عندكم مما رأيت! فكلُّهم آمن برأيه، وأثنى على تدبيره وحزمه، وغَدوا يضعون الأساس، ويعدّون البناء، يحدوهم الرجاء، ويزيّن لهم الشيطان خوادع الآمال، حتى استوى مسجداً قائم الجدران، متين العماد، واضح المعالم والحدود.

وانصرفوا الى رسول الله، فوجدوه متهيئاً[3] لغزو الروم. قالوا: يا رسول الله بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة والشاتية[4]، ثم لِتقام فيه الصلاة، وتؤدّى شعائر الله، وقد اخترنا له مجمع بن جارية إماماً، وهو مَن عَلِمتَه حفظاً للقرآن، وعلماً بالفرائض، وبصراً بما في كتاب الله، وقد دعوناك للصلاة فيه. فإن فعلت فقد نالنا الخير، وحفّت بنا البركة.

قال رسول الله ﷺ: إنا على جَناح سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله.

وعاد رسول الله من غزو الروم، حتى إذا لم يبق بينه وبين المدينة إلا يومان، هبط

---

(١) يلحن: يفطن.

(٢) كان مجمع بن جارية إذ ذاك غلاماً حافظاً للقرآن، فقدموه إماماً لهم وهم وهو لا يعلم بشيء من أمرهم، وقد ذكر أن عمر بن الخطاب في أيامه أراد عزله عن الإمامة وقال: أليس بإمام مسجد الضرار؟ فأقسم له مجمع أنه ما علم شيئاً من أمرهم وما ظن إلا الخير، فصدقه عمر وأقره.

(٣) متهيئاً: مستعداً.

(٤) الشاتية: الباردة.

عليه الروح الأمين، مبلغاً عن رب العالمين: (والذين آتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفنّ إن أردنا إلا الحُسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً، لمسجد أسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المُطهرين. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمّن أسس بنيانه على شفا جُرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطّع قلوبهم والله عليم حكيم[1]).

فعرف الرسول كيدهم، وعلم ما كان وراء معسول كلامهم، ومدهون أمانيهم، وما وصل المدينة حتى بعث رجلين وأمرهما بإحراق المسجد وتقويضه وهدمه.

وأصبح مُعتب بن قشير وتلفَّت، فإذا المسجد قد تهدم، والبناء قد تقوّض، فعلم أن الله فضح أمرهم، وأفشى سرهم، وعاد وصحبه الى ما كانوا فيه من هم وقلق، وحزن وكمد، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

المباهلة (*)

قال أبو الحارث أسقف نَجران لغلامه: أدع لي الساعة شُرَحبيلا، فما لِما يهمّني الآن من أمر سواه. وكان شرحبيل هذا خازن أسراره، وموضعَ مشورته، وأمين ما بين جوانحه... وذهب الغلام وعاد معه شرحبيا.

---

(١) قيل: إنه لما نزلت هذه الآيات مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء والأنصار جلوس، فقال أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم، ثم أعادها، فقال عمر: يا رسول الله، إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أترضون بالقضاء؟ قالوا: نعم، قال: أتصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم. قال: أتشكرون في الرخاء؟ قالوا: نعم، قال صلى الله عليه وسلم: مؤمنون ورب الكعبة.

(٢) كيدهم: مكرهم وأمرهم الذي بيتوه.

(*) آل عمران آية ٦٠ وما بعدها.

قال أبو الحارث : دعوتك الساعة يا شرحبيل لأمر راعني وأفزعني ، ما استطعت أن أختزل[1] به ، أو أستقل بالرأي فيه : جاءني اليوم كتاب من محمد بن عبدالله يدعوني فيه لدين يسميه الإسلام ، ثم يخبرني ــ إن أبيتُ ــ بين الجزية أو الحرب ! ولا أكتمك أني دُهشت مما يدعو ، وذعرت مما يتوعّد ، وقلقت من مصائر الأمور . ولقد حاولت أن أفصل في ذلك برأي ، أو أصيب من الحق مقطعاً ، فما تبيّنت المعالم ، ولا اتضحت لي الحدود ، فاقتدح لي زناد رأيك ، وأشر عليّ بما عندك .

قال شرحبيل : لست في هذا يا مولاي بصاحب رأي ، ولو كان أمراً من أمور الدنيا ، أو حادثاً مما يجري بين الناس ، لرجوت أن آخذ فيه بنصيب ، أو أدلي برأي ... على أنني قد علمت ما وعد الله به من النبوة في ذرية إسماعيل ، فما تُؤمن أن يكون هذا هو ذاك ! ولكنني ــ كما حدثتك ــ ليس لي في النبوة رأي .

قال له أبو الحارث : تنحّ عني قليلاً ، وسألتمس الرأي عند سواك

ودعا اليه آخر من أهل نجران ، واستعان به فى الرأي ، فما زاد على أن صدر عما قال شرحبيل ، ثم دعا اليه ثالثاً ، فرمى عن قوس الا ثنين .

ولما رآهم قد استقاموا في رأيهم على عمود واحد ، أمر بالنواقيس أن تدقّ ، والنيران أن توقد ، والمُسوح أن تعلّق في الصوامع ، إيذاناً بالدعوة وإعلاناً للائتِمار ، وكذلك كانوا يفعلون حينما يُغَمُّ عليهم الرأي ، وتستعجم الأمور .

ونَسلوا من كل مكان ، وهُرعوا من كل صُقع ، حتى إذا ما اجتمع لفيفهم وتألّف جمعهم ، قام الأسقف وعالنهم بكتاب محمد ، وفاوضهم فيما يفعل . فاداروا قِداح الرأي ، وقلّبوا وجوه الأمور ، وانتهوْا الى أن يذهب وفد منهم الى لقاء محمد ، يحاجّونه[2] ويجادلونه ، ثم يرجعون بما يرون .

---

(١) اختزل به : انفرد .

(٢) يحاجونه : يناقشونه بالأدلة الواضحة .

وصدر الوفد عن نجران ، يتزعمهم شُرحبيل . ولما وصلوا الى المدينة نضَوا[1] عن أنفسهم ملابس السفر ، وتلفَّعوا بالحَبرات ، وأردية الحرير ، ووضعوا في أصابعهم الخواتم ، وانطلقوا حيث يلقون الرسول .

ولما اطمأنّوا اليه قدموا هداياهم ، فلم ير بأساً من قبولها ، وصلَّوا صلاتهم فلم يزجُرهم عنها ، ثم قال شرحبيل زعيمهم وصاحب كلمتهم : يا محمد ، لقد علمتَ أنا نصارى ، وليَسرّنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول في عيسى ، فقال رسول الله ﷺ : ما عندي فيه شيء يُومي الى هذا ، أقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى .

ولما أصبح الغد نزل عليه : (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن مِنَ المُمتَرين فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالوا نَدع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) .

فدعاهم وأعلنهم أن قد جاء الفصل في أمر عيسى من الله ، فإن لم يُذعنوا ولم يعتقدوا فليجتمع المسلمون والمحاجُّون من أهل الكتاب في صعيد واحد ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، ثم يبتهلوا ويستنزلوا لعنة الله على من كان كاذباً .

فقالوا : دعنا نشْتَور فيما بيننا ، ثم نُفضي إليك بما ينتهي اليه رأينا . ولما اجتمعوا قال لهم شرحبيل : لقد علمتموني بينكم صادق المنزعة ، بعيد مَراد الفكر ، وإنَّ الوادي اذا اجتمع أعلاه وأسفله ، لا يَرِدون إلا عن علمي ، ولا يصدرون إلا عن رأيي . إني والله أرى أمراً ثقيلاً ، إن كان هذا الرجل مَلِكاً فإنا أدنى العرب منه جواراً ، وأقربها منازل ، ولا نأمن أن نُصاب منه بجائحة[2] . وإن كان نبياً مرسلاً فلاعنَّاه[3] ، لا يبقى على وجه الأرض منا شَعْر ولا ظفر إلا هلك ...

قالواله : فما الرأي يا أبا مريم ؟

---

(١) نضوا ملابس السفر : خلعوها .

(٢) جائحة : مصيبة .

(٣) الملاعنة : أن يلعن بعض بعضاً .

قال : رأيي أن نحكّمه ، فإني أرى رجلاً لا يحكم شَططاً أبداً ، قالوا له : أنت وذاك ، ودونك وما تريد .

ذهب شُرحبيل الى رسول الله ، فقال : إني رأيت خيراً من ملاعنتك . قال رسول الله ﷺ : وما هو ؟ قال : حكمك اليوم الى الليل . وليلتك الى الصباح ، فما حكمت فينا هو جائز . فقال له رسول الله ﷺ : لعل وراءك أحداً يَثْرِب[1] عليك . فقال شُرحبيل : سل أصحابي ، فإن الوادي ما يَرِد وما يُصدِر إلا عن رأيي .

فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا على أن تعودوا في الغد . وعادوا ، فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا . وعرض عليهم الحرب فقالوا : ما لنا طاقة . وعرض عليهم الجزية فقالوا : ما تريد ؟ فشرط عليهم رسول الله ألفَيْ حلة : ألفاً تؤدّى في رجب ، وألفاً تؤدّى في صَفر ، على أن يَظلّ كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لهم ، ولهم بعد ذلك جوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف من سقيّفاه ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يغيّر حق من حقوقهم ، ولا يُتحيَّف شيء من سلطانهم ، غير مبتلين بظلم ولا ظالم ، ما أصلحوا ونصحوا .

فرأوه حكماً عدلاً ، وقولاً فصلاً[2] ، ورجعوا الى قومهم يحمدون محمد بن عبدالله ﷺ .

المجادلة (*)

كانت خَوْلة بنت ثعلب الخزرجية قد تزوّجت بأوْس بن الصامت ، وهي في مقتبل عمرها ، وريعان شبابها ، وكانت صبيحة الوجه حَسنة القوام . وعاشا معاً عمراً طويلاً ، نَعِما فيه بحياة سعيدة ، وعيشة رافغة[3] . ثم تقدمت بهما السنون و ولكن خَولة ما زالت تحتفظ بشيء من فتنتها وجمالها .

---

(١) يثرب : يلوم .

(٢) الفصل : العدل .

(*) المجادلة .

(٣) عيشة رافغة : واسعة .

وفي يوم ما قامت تصلي ، ورآها زوجها تقف في اعتدال ، وتركع في خشوع ، وتسجد في أناة ورفق ، فتاقت نفسه اليها . فلما سلمت داعبها في خفة وطيش ، فنفرت فاستحوذت عليه الدهشة ، وتملّكه الغضب ، وثارت ثائرته ، وحرّمها على نفسه كما حُرّمت عليه أمه ، فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي .

ولما سألت زوجها عما يعنيه بقولته ، قال لها : ما أظنُك إلا حرمت عليّ ! وكان الظِّهار من أشدّ طلاق الجاهلية ، لأنه في التحريم أوكد ، وفي قطع الصلة أبْيَن ، فسُقِط في يدها ، وحارت في أمرها ، وشقّ عليها أن تَبين[1] منه وهو أبو ولدِها ، وحبيب نفسها ، ومؤنس وحشتها ، وزوجها الذي سكن اليها وسكنت اليه أعواماً طوالاً .

فذهبتِ الى النبي ﷺ تبثّه شجوها[2] ، وتفضي اليه بما أهمّها ، علّها تجد عنده مخرجاً من مأزقها . وتقدّمت اليه تشكو حالها قائلة له : إن أوساً قد تزوجني وأنا شابة مرغوب فيَّ ، فبعد أن كبرت سني وكثرت أولادي ، جعلني كأمه ، وإن لي منه صبية صغاراً ، ان ضممتهم اليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا . ثم توسّلت اليه أن يصلح ما فسد من أمرها ، ويقوّم ما تأوّد[3] من حالها .

وما كان للنبيّ أن يقضي بأمره ، أو ينطق عن الهوى ، فهو رسول الله ، موئله الوحي ، ومرجعه السماء ، وهو لم يتلقّ في الأمر وحياً ، ولم يعرف لهذا السؤال جواباً ، لذلك قال لها : ما عندي في أمرك شيء .

فازدادت حسرتها واشتد حزنها ، وقالت : يا رسول الله ، ما ذكر طلاقاً ، وإنما هو أبو ولدي ، وأحب الناس إليّ .. ترجو بذلك أن تُلين قناته لتضرُّعاتها ، وتأخذه الرحمة بأولادها .

إن النبي قد علم حقيقة حالها ، ووقف على أمرها . ولكن ماذا يفعل ، وهو لم يتلقّ

---

(١) تبين : تنفصل .

(٢) شجوها : حزنها .

(٣) تأود : صار أعوج ذا أود .

بعد وحياً في مثل شأنها ! وهو الفَيْصل[1] إذا اختلط الأمر وادلهمّ الخطب وأظلم الطريق ! لذلك أعاد عليها جوابه قائلاً : ما عندي في أمرك شيء .

فالتجأت الى من تسعُ رحمته كل شيء ، واتجهت نحو مرسِل الوحي ، ومبدع السماء والأرض ، ترجوه أن يزيل غمتها ، ويفرّج كربتها ، وقالت : أشكو الى الله فاقتي ووَجدي[2] .

طال بها الوقوف ، وأكثرت من التضرع ، وكلما قال لها النبي : ما عندي في أمرك شيء ، جأرت الى الله بالدعاء ، وهتفت شاكية اليه حالها ، ففُتحت لدعائها أبواب السماء وسمع الله شكاتها .

فبينما هي في حيرتها واضطرابها ــ ترفع وجهها الى السماء مرة ، وتخفض طرْفها نحو الرسول أخرى ــ غَشِيَ النبي ما كان يغشاه حين نزول الوحي ، ثم نطق لسانه بالذكر الحكيم . وهنالك أخبرها بأن الله قد سمع محاورتها ، واستجاب لدعائها ، وأنه ليس على المظاهر بعد الآن إذا أراد التحلّة من أيمانه إلا أن يَعتِق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً .

قرّت[3] عينها ، وعاودها سكونها ، وانفرجت أسارير وجهها ، فقد حقق الله رجاءها ، وأجاب سؤلها ، فصلُح أمرها ، ورُئِب صدعها ، وها هي ذي سترجع الى عشها ، فتطعم فراخها ، وتدبر شؤون بيتها ، وتسكن الى زوجها ، وتتصل سعادتها ، وتعود سيرتها الأولى .

أرسل النبي الى أوْس ، فلما حضر اليه ، قال له : ما حَملك على ما صنعت ؟

قال : إن الشيطان لعِب بعقلي ، وأضاع صوابي ، فركبت مَتْن الشطط ، وأبعدت في الغيّ ، فهل من وسيلة أسترجع بها شريكة حياتي ومُنْية نفسي ؟

قال النبي : نعم ، وقرأ عليه قوله تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها

---

(١) الفيصل : الحاكم .

(٢) وجدي : حزني .

(٣) قرت : بردت والمراد أنها فرحت .

وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا الّلائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفوٌ غفور . والذين يُظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به ، والله بما تعلمون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم) .

ثم قال النبي : هل تستطيع عتقَ رقبة ؟ فقال : لا والله ، فقال : هل تستطيع الصوم ؟ فقال لا والله ، لولا أني آكل في اليوم مرة أو مرتين لكلّ بصري ، ولظننت أني أموت . فقال له : هل تستطيع أن تُطعم ستين مسكيناً ؟ فقال : لا ، إلا أن تعينَني منك بصدقة .

فمدّ النبي اليه يَدَ المساعدة حتى استطاع أن يُطعم ستين مسكيناً ، وبذلك صارت زوجُه حلالاً له ، وجعل الله للمسلمين وسيلة للتحلل من هذه العادة الجاهلية . وهكذا سار ضوء الإسلام في تلك الأرجاء المظلمة ، ينير جوانبها ، ويبدّد سحب الضلال في أنحائها ، ويحسم ما استهجن[1] من أخلاق أهلها . فطهّرت مبادئه أرجاسهم ، وقامت على أسسه المتينة صروح حياتهم ، وضرب لهم مثلاً واضحاً في يُسر الإسلام وسماحته ، ورفع الحرج والمشقة ، وتيسير الأحكام ، فجعلهم بذلك مُثلاً عليا ، وأسوة تحتذى ، إن الله بالناس لرؤوفٌ رحيم .

---

(١) استهجن : استغرب .

التحريم (*)

التقت عند رسول الله ﷺ محاط العظمة، واشتبكت لديه وشائج[1] القربى من الله، والحظوى في الدنيا، وتطلعت اليه أنظار الخليقة أجمعين، يتنسّمون أريجاً من شذاه ويرمقون زهرة من جناه، فهو ملء السمع والبصر، ومحط العين والفؤاد.

وكان من أشدّ الناس التصاقاً[2] بالرسول، وتزاحماً على حوضه، وتنافساً الى حِماه أمهات المؤمنين. وليس بدعاً أن تسلك الى قلوب هؤلاء النساء الطاهرات عقارب الغَيْرة حبّاً فيه، وأثرة عليه، فتدب دبيباً خفيفاً، وتسري الى الفؤاد، فتوري فيه ناراً لا ينطفىء لظاها إلا بالقرب من نبي الله الكريم. ألسن من النساء اللاتي غلبتهنّ قوة العاطفة، وتملكتهن دوافع الغيرة والأثرة في كل عصر وزمان؟ أوليست قلوبهن تصبو، ونفوسهن تحنو، وآمالهن تتدافع، ورجاؤهن يفيض لخير الناس أجمعين!

كان النبي الكريم يفيض قلبه بعاطفة الأبوّة، وتحنو نفسه الى بنته زينب، فإذا رآها أنِس بها، واطمأن اليها، وانشرح صدره، لأنها ثمرة نفسه وحَبَّة قلبه، حتى إذا أفل نجمُها، فذهبت الى جوار ربها استوحش اليها، وامتدت آماله الى الولد ليمسح عن قلبه انقباض الوحدة وأثر الفاجعة.

وما زال الرسول الكريم في وحشته وانقباضه، يدفعه شوق أن يكتحل بسَنا نور ابن كريم، وهو في حنينه ووحشته تدب في قلبه حسرة وأسى، لأنه شارف السّتين من عمره، وأوشك مصباحُ حياته أن ينطفىء! فما هو ببالغ أملاً يشيمه كل والد، ولا يتنفس بروح يتنسمه كل أب يفيض قلبه بالعطف والحنان

وحُملت الى النبيّ الكريم من المقوقس والي مصر هدايا، ومن بينها مارية القبطية، فقبلها النبيّ، وأنزلها منزلة السراري، ولم يهبها ما وهب لأزواجه، فلم يخصّص لها منزلاً

(*) سورة التحريم.

(١) الوشائج: جمع وشيجة، وهي الصلة والرابطة.

(٢) أي قرباً.

بجوار المسجد كغيرها من أمهات المؤمنين، أنزلها بالعالية من ضواحي المدينة، في منزل يُحيط به الكرم والزرع والنخيل.

وظل الرسول العظيم يختلف اليها، ولها منه ما يحل للرجل فيمَن ملكت يمينه. حتى إذا حمَلَت مارية! وولدت إبراهيم، تفجّرت ينابيع البِشْر والسرور في قلب أبيه، وأنِست نفس الوالد عطفاً ورحمة وحناناً بولده الأغرّ الميمون، وارتفعت مكانة مارية، فصارت الى مصافّ الزوجات المقرَّبات، وازدادت بذلك حظوة عنده ومكانة ملأت قلبها بالمسرَّة، وانقلبت الى ربها بالشكران والتسبيح.

وكان النبي حفيا[1] بولده، قرير العين به، رضيّ النفس له، مطمئن الفؤاد لمولده، فصار يختلف الى منزل مارية، يطالع كل يوم في أفقه مشرق هذا الغلام وينعم بابتسامته البريئة الطاهرة، ويفيض عليه فيضاً كثيراً من حنان الأبوّة، وطهارة النبوّة، ويغمره بهذا الفيض الإلهي العميم.

وقد حمله يوماً بين ذراعيه الى عائشة، فنفسَتْ[2] عليه، وحجبتها الغَيرة أن تهشّ وتبشّ للغلام الكريم.

كذلك كانت الأثرة والغيرة تدبّ في قلوب نساء النبي كلما رأيْن منه إقبالاً على مارية، وحباً وتعلقاً بولدها.

وكان الرسول الكريم يخصُّ نساءه بمكانة محترمة، ويُنزلهن منزلاً عزيزاً، وينفحهنّ أبداً بعطف وإجلال وتكريم على غير عادة العرب في الجاهلية، فلما رأينه يفيض عليهن من عظمته وكرمه، جنحت[3] نفوسهنّ، فتغالين في الاستمتاع بحرّيتهم، واتخذن من بعض الحوادث مسلكاً الى إغضاب الرسول.

كان النبي في بيت حَفْصة، فاستأذنته أن تذهب الى أبيها فأذن لها. وفي غضون

---

(١) حفياً : مسروراً.

(٢) نفست : ضنت عليه..

(٣) جنحت : مالت.

غيبتها جاءت مارية ، فأقامت مع النبي زمناً ، فلما حضرت حفصة ، رأت مارية في بيتها ، فانتظرت خروجها ، وقلبها يشتعل وجداً وغيرة . ولما خرجت مارية دخلت حفصة على النبيّ ، فقالت : لقد رأيت مَنْ كان عندك ، والله لقد سببتني ، وما كنت تصنعها لولا هَوَاني عليك .

وأدرك رسول الله ﷺ أن الغيرة قد تدفع حفصة الى اذاعة ما رأت ، والتحدّث به الى غيرها من الأزواج ، وفي ذلك ما فيه من اثارة لغيرتهن وتحريك لحفيظتهن ، فأراد ارضاءها ، فحلف لها أن مارية حرام عليه اذا هي لم تذكر مما رأت شيئاً . فوعدته أن تكف عن إذاعة ما كان .

، لكن الطبيعة النسوية كانت أقوى جماحاً ، اذ تحرّكت الغيرة تأكل صدرها ، فلم تُطق كتمانَ ما وعدت بكتمانه ، فأسرّته الى عائشة ، وذاع الأمر بين نساء النبي كلهن .

وأكثرن من الحديث في شأنه والجدال في أمره ، والنبي الكريم ليس خلياً لهذا النوع من اللجاج والغيرة ، فأراد أن يلقي عليهن درساً ليكون عبرة لهنّ وتذكرة .

عزم النبي أن ينقطع عن نسائه شهراً كاملاً ، تأديباً وردعاً لهن عما تمادين فيه من ائتمار به ، وليخفف فيهن عوامل تلك الغيرة الحمقاء .

فأدى به عزمُه أن ذهب الى خزانة له ، يرقى اليها على جذع من نخل ، وليس بها من فراش الا حصير جاف خشن ، وحسبه هناك لقيماتٌ من شعير يقمن صلبه ، ثم هو يجلس غلامه رباحاً على سُدتها ، دفعاً للجاجة الزائرين .

والرسول ﷺ في خلوته يتجه بتفكيره الى ربه ، ويدير أمر المسلمين في الجزيرة ، والمسلمون في همّ مقيم مقعد ، وشغلهم الشاغل انقطاع نبيهم في خلوته ، حتى لقد شاع بينهم أنه طلّق حفصة بنت عمر بعد أن كان من افشائها ما وعدت بكتمانه ، أو أنه مطلق نساءه جميعاً .

كانوا يهمسون بهذا ، والحسرة تملأ قلوبهم ، والهمّ يقضُّ مضاجعهم . وقد أقام الناس بالمسجد يعبثون بالحصى ، ويجيلون العيون زائفة ، لا تستقر على حال من القلق . وبينما

هم كذلك اذ ينتفض عمر قائماً من بينهم ، فيقصد الى مقام النبي ، ويستأذن غلامه رباحاً ، فاذا دخل الغلام الى سيده رجع الى عمر ، ووقف فلم يجب . فيرفع ابن الخطاب صوته بالاستئذان والالحاح ، فيؤذَن له ، فإذا هو بين يدي الرسول ، ثم يجيل بصره في الحجرة ويبكي ، والنبي يقول له : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فيذكر للنبي سبب بكائه ، فيردّه النبي الى الصواب بقول أي رفيق[1] كريم .

ثم قال عمر : يا رسول الله ، ما يشقّ عليك من أمر النساء ؟ ان كنت طلقتهن ، فان الله معك وملائكته وجبريل وميكال ، وعمر وأبا بكر والمؤمنين أجمعين . ثم يقبل عمر على النبي فيحدثه بحديث يسري عن نفسه ويضحكه .

فلما آنس عمر منه ذلك ذكر له خبر المسلمين بالمسجد ، وكلامهم وآلامهم ، ورجا النبي أن يفضي اليه بالقول الفصل في أمر نسائه . فذكر له الرسول أنه لم يطلقهن . فنزل عمر الى المسجد ، ونادى بأعلى صوته : ان النبي لم يطلّق نساءه . فاستبشر الناس ، وسرت الى قلوبهم الطمأنينة ، واهتزوا هِزَّةَ الفرح والسرور واذا النبي مقبل على نسائه تائبات بين يديه عابدات ، حتى نزل الروح الأمين يحمل رسالة الله الكريم :

(يا أيُّها النبيُّ لِمَ تُحرِّمُ مَا أَحَل اللهُ لَكَ تَبتغي مَرضاةَ أزواجِكَ واللهُ غفورٌ رَحيمٌ . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم : واذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير. ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير، عسى ربه ان يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً) .

---

(١) أي لطيف : رفيق .

زينب بنت جحش (*)

هذا زيد بن حارثة ، وقد وهبتكه يا محمد عبداً لك مطيعاً ، ووفياً أميناً ، فشكر النبي الكريم زوجته خديجة ، وقبل منها هديتها مسروراً ، وعاش زيد رضياً بصحبة رسول الله ، موفقاً في خدمته .

وبعد حين حضر الى مكة وفد من حارثة ، يطلبون شراء ابنهم زيد وفديته بتحريره من رقه . ففاض سخاء النبي العربي ، وقال لهم : ان اختاركم فخذوه من غير ثمن . ولما جيء بزيد أنعم الله عليه ، فاختار الرِّق مع النبي على الحرية بين قومه ، وصار بعد ذلك يُدعى زيد بن محمد تعظيماً له وتكريماً .

بلغ الفتى أشدّه واستوى ، فرغب سيده أن يزوجه كريمةً من كرائم العرب ، لتكون له في الحياة سنداً وظهيراً .

ويبالغ النبي في تكريم زيد ، فيتقدم الى زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، فيخطبها لمولاه ، مكافأة له ، ودليلاً على رضاه .

ولكن عبد الله بن جحش يأبى ويأنف[1] أن يزوج زيداً ، لأنه من غير الصُّرحاء ، وتشاركه أخته زينب اباءه وأنفته ، ضنّاً بنسبها العربي الكريم .

لكن ، (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) ، فلا يصح لرجل ولا امرأة اختيار أمر من الأمور يخالف ما قضاه الله ، ثم بلّغه الرسول .

اذن فليرض عبد الله ، وليخضع زينب لقضاء الله ورسوله ، وليسعدا بزواج يخلد الله شأنه في كتابه الكريم .

عاش زيد وزينب معيشة زوجين هانئين بما وفقهما الله الكريم ، وأرخى لهما من حبال السعادة ، ورفّه لهما في العيش ، ومدّ من أسباب الرجاء . وبعد حين ... أراد الله

(*) الأحزاب آية ٣٦ وما بعدها .

(١) يأنف : يرفض بإباء .

أن تقع الواقعة ، سنّاً للشرائع ، وايضاحاً لأمور الدين ، وتبياناً للعالمين ، وتصحيحاً لأ وهام الناس .

وهل يقدم على مخالفة مألوف العرب ، وتحطيم أغلالهم ، ونبذ خرافاتهم الا رجل ملك الايمان نفسه ، وملأ الحق قلبه ، وخالطت الجرأة منه العصب والدم ، والمسامع والأطراف ، وتغلغلت الشجاعة الخلقية فوصلت منه الى اللبّ والشغاف ؟ وهل يسمو بشر الى تلك المنزلة الكريمة سمو النبي الكريم ؟

وبعد حين من الدهر ، وهَت[1] الرابطة بين زيد وزوجه ، وفترت تلك العلاقة التي تجمع بينهما زوجين مؤتلفين ، فيتقدم زيد الى رسول الله شاكياً ، يستشيره في طلاق زينب ، فيتجلى عطف الرسول ونبله قائلاً : يا زيد ، هذه زينب يسر الله لك زواجها بعد عسر ، وسهله بعد امتناع ، وعسى أن يصلح حالها لك بعد ، فأمسكها عليك ، واتق الله لئلا تَصِمَها بأنها لا تحسن عشرة الأزواج ، وثب الى رشدك ، فلا تنقض أمراً أبرمته ، ولم يتم الا بعد أن نزل فيه قرآن من المدبر الحكيم .

يقول الرسول العظيم قوله هذا ، ونفسه تفيض حناناً وعطفاً واشفاقاً ، لما كان قد سبق في علم الله : من أن زيداً يطلق زينب ثم تتزوج النبي من بعده .

واستمر الرسول متضرعاً بينه وبين نفسه الى الله ، مبتهلاً الى رحمته ، عسى أن يمحو الله ما أثبت ، فيصلح الحال بين المرء وزوجته ، وينقض أمراً سبق أن أبرمه استكمالاً لأسباب التشريع .

فاضت نفس الرسول بالنصح لزيد ، وبالضراعة الى الله ، أملاً أن ينقض الله ما أبرم ، وأن يمحو ما أثبت ، ولكن أبى الله إلا أن يتم قضاؤه ، فأوحى الله الى رسوله : (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)

وكان النبي يخفي قضاء الله ، عسى أن تنفع فيه شفاعته ، ولكن من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فما له من هاد ، والله أحق بالخشية والرعاية من سواه ، لأن مألوف الناس

---

(١) وهت : ضعف .

وعاداتهم ليست أصلاً للتشريع ، ولا أساساً للقانون ، والنبي أول من يهدم العقائد الفاسدة ، ويقوض الخرافات السائدة، فيقيم بعدها صرحاً من الحق ، ومناراً للشريعة السمحة .

انقضت عدة زينب بعد طلاقها من زيد ، ثم هيأ الله زواجها من النبي الكريم ، وكانت زينب فخوراً ، تتيه دلالاً ، وتمتلىء عجباً ، فتقول لسائر نساء النبي : ان الله تولى تزويجي ، أما أنتن فتولى تزويجكن أولياؤكن .

ولقد كانت هذه الحادثة أمراً خرق مألوف العرب ، وغير وجهة أحوالهم ومعتقداتهم ، فقد ادعوا للدعيّ ما للابن من الحقوق ، من إرث ونسب . وقد تسلّط ذلك الاعتقاد ، ورسخ في أذهانهم ، وعسر عليهم أن يخلعوا عنهم ربقته ، أو أن يزيلوا عن أفكارهم وطأته ، فتقدم النبي الكريم بآية ، واضحة ، وحجة قاطعة ، فقام بما قام مع قيام هذه العادة ، وتمكنها من الناس . ومن أولى بذلك غير رسول الشريعة الحنفية ! وهو الذي نادى بحرمة ربا الجاهلية ، وأوّل ربا وضعه ربا عمه العباس ، حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه ، فتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم .

ولقد كانت قصة زيد وزينب مثاراً لأقوال وشبهات ، جرفت كثيراً من الناس ، ممن زاغ بهم الباطل ، وران على قلوبهم حلك الضلال ، فنسبوا الى النبي أنه اشتهى زينب بعد زواجها من زيد . وما كان محمد ليمكّن لميوله ، ويمهد لهواه بما يخالف أمر ربه ، تسامى قدر الرسول وتعالى علواً كبيرا . أما كانت زينب أمامه بكراً تحت سمعه وبصره وهو في سن الأربعين ، زمن اكتمال الفتوة والشباب ! أفبعد ثلاث عشرة سنة ، وبعد أن زالت عنها نضرة البكارة ، وهدأت فيه ثورة الشباب ، ينظر اليها نظر التشهي ! ألم يكن له من شواغل الدين والفتح شاغل عن أمور النساء ، وهو هو ابن السادة الكرام الموصوفين !

قوم اذا حاربوا شدّوا مآزرَهُم دون النساء ولو باتت بأطهار

وهو هو النبي الكريم الذي نهاه ربه أن يمد عينيه الى ما متّع الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا .

بل نرجع الى الفطرة الأولى للرجل العربي ، الذي لم تعصمه النبوّة ، ولم تزينه رجاحة

العقل ، وسمو المعرفة ، وصدق العزيمة ، فتراه يغض الطرف عن جارته . فهذا عنترة الجاهلي يقول :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها

بل هو هو الذي يقول الله فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم [1]) .

---

(1) سورة القلم الآية ٤ .

المراجع

(١) القرآن الكريم .
(٢) التفاسير الآتية :
الطبري ـــ الكشاف ـــ الفخر الرازي ـــ أبو السعود البيضاوي ـــ الألوسي ـــ تفسير المنار.
(٣) سيرة ابن هشام .
(٤) السيرة الحلبية .
(٥) المثل الكامل .
(٦) حياة محمد .
(٧) نور اليقين .
(٨) قصص الأنبياء (الطبعة الثانية) .
(٩) البداية والنهاية : لابن كثير.
(١٠) تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري .
(١١) نهاية الأرب في فنون الأدب .
(١٢) تفصيل آيات القرآن الكريم .
(١٣) معجم ما استعجم : للبكري .
(١٤) لسان العرب : لابن منظور.
(١٥) القاموس المحيط : للفيروز أبادي .
(١٦) معجم البلدان : لياقوت .



فهرس الكتاب

بعض الكتب التي ستصدر خلال عام ١٩٨٨

اسم الكتاب	اسم المؤلف
قصة الحضارة ٤٢ جزءاً في ٢١ مجلد	ويل ديوارنت / تقديم د . محيي الدين صابر
آثار الأول في ترتيب الدول	تحقيق ذ . عبد الرحمن عميره
ابن باجة وفلسفة الاغتراب	د . محمد ابراهيم
الاختلاف بين القراءات	أحمد البيلي
اظهار الحق ٢/١	الهندي
أوضح المسالك الى الفية ابن مالك ٤/١	تحقيق ح . الفاخوري
شرح ابن عقيل	تحقيق ح . الفاخوري
تدريس مفاهيم اللغة العربية والرياضيات والعلوم والتربية الاجتماعية	د . جودت سعادة / الأستاذ جمال اليوسف
الدين والحياة	كمال عبدالله المهدي
عمدة السالك وعدة الناسك	شهاب الدين المصري
السياسة والاستراتيجية في الحرب العالمية الأولى والثانية	جمال عبد الملك (ابن خلدون)

